موسوعة
سيرة أهل البيت عليهم السلام

الجزء الثالث

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

تأليف
باقر شريف القرشي

تحقيق
مهدي باقر القرشي

مؤسسة الإمام الحسن عليه السلام
لإحياء تراث أهل البيت عليهم السلام

شبكة الفكر
alfeker.net

موسوعة

سيرة أهل البيت عليهم السلام

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

موسوعة

سيرة أهل البيت عليهم السلام

الجزء الثالث

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

الإمام عليه السلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله وفترة الخلافة

تأليف

باقر شريف القرشي

تحقيق

مهدي باقر القرشي

موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام

تأليف: باقر شريف القرشي

تحقيق: مهدي باقر القرشي

الناشر : .... دار المعروف ـ مؤسّسة الإمام الحسن عليه السلام

المطبعة : .... ستار

الطبعة الثانية : ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

عدد النسخ : .... ١٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلّف

ردمك الدورة : ١ ـ ٤٢ ـ ٨٢٧٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

ردمك الجزء (٣) : ٢ ـ ٤٥ ـ ٨٢٧٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

عنوان الناشر : النجف الأشرف ـ شارع الرسول صلى الله عليه وآله

مكتبة الإمام الحسن عليه السلام ـ هاتف ٠٠٩٦٤٧٨٠٥٦٩٤٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

المـائدة ٥: ٥٥

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

آل عمران ٣: ١٢٣

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَـكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

البقرة ٢: ١٩٠

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾

الفتح ٤٨: ١

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ
وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً
وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾

آل عمران ٣: ١٤٤

الإهداء

إلى.. رائد النهضة الفكرية

إلى.. صانع الحضارة الإنسانية

إلى.. المنقذ والمحرّر لإرادة الإنسان وسلوكه

إلى.. سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين

محمد صلى الله عليه وآله

أرفع إلى سموّ مقامه الرفيع هذه الدراسة

عن وصيّه وباب مدينة علمه

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

راجياً التلطّف عليَّ بالرضا والقبول

ليكون ذخراً لي يوم ألقى الله تعالى

المؤلّف

تقديم

١ من جهاد الرسول الأعظم محمّد ﷺ، وكفاح أخيه ووصيّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام انطلقت أشعة النور التي أضاء سناها في سماء الجزيرة العربية، وامتدّت موجاتها المشرقة إلى أمم العالم وشعوب الأرض، وهي تحمل التحرير الكامل لفكر الإنسان وإرادته وسلوكه، وتقدّم له منهجاً متطوّراً وإصلاحاً شاملاً لجميع مناحي حياته، التي منها إشاعة العلم وإقصاء الجهل وتنمية العقل ورفع مستوى الإنسان من مساوئ الحياة إلى حياة تزدهر بالوعي والنور.

من فم الرسول ﷺ ارتفعت أسمى كلمة في دنيا الوجود إنّها كلمة التوحيد التي تحمل جميع ألوان التحرّر للإنسان، وتحسم جميع ألوان العبودية لغير الله تعالى خالق الكون وواهب الحياة. وتبنّى الرسول ﷺ بصورة إيجابية كلمة التوحيد وأعلنها في مكّة، وحمل لواءها وصيّه وباب مدينة علمه، وهو يلوّح بها في فضاء مكّة التي كانت موئلاً للأصنام والأوثان، ومركزاً للجهل والخرافات.

وهبّت في وجه الرسول ﷺ الأُسر العاتية من قريش مجمعة على إخماد نور الرسالة، ولفّ لواء القرآن، وإعادة الجاهلية إلى مجتمعها، فانبرى إليهم بطل الإسلام الخالد الإمام أمير المؤمنين بشجاعته النادرة محامياً عن النبيّ ﷺ ومدافعاً عنه فكان القوّة الضاربة التي وقفت إلى جانب الرسول ﷺ وحمته من شرّ أُولئك الوحوش.

٢ وليس في دنيا الإسلام وغيره شخصية تضارع شخصية أبي الحسن في مواهبه وعبقرياته وسائر ملكاته التي استوعبت ـ بشرف وفخر ـ جميع لغات

الأرض ، وتحدّث عنها العلماء بإكبار وإعجاب ، وكان من جملة مواهبه إحاطته الكاملة بأسرار الشريعة وأحكام الدين فكان فيها العَلَم البارز. ولم تقتصر مواهبه وطاقاته العلمية على فقه الشريعة وأحكام الدين وإنّما كانت شاملة لجميع شؤون الكون في فضائه وكواكبه ومجرّاته ، وهو القائل: « سَلُوني عَنْ طُرُقِ السَّماءِ فَإِنّي أَعْلَمُ بِها مِنْ طُرُقِ الْأَرْضِ ... ».

إنّ هذا العملاق العظيم قد بهر العالم بعلومه ومواهبه التي لاتخضع للحصر ... وقد أراد أن يقيم في هذا الشرق العربي صروحاً للعلم بجميع صوره وأنواعه ، ويؤسّس مراكز للتطوّر والتقدّم التكنولوجي ، ويشيع العلم والمعرفة في العالم الإسلامي ، ولكنّ العتاة الظلمة وقفوا أمام تطلّعاته ورغباته كما وقفوا من قبل أمام أخيه وابن عمّه الرسول ﷺ ، فسعوا مجمعين جاهدين إلى إفشال مخطّطاته ووضعوا أمامه الحواجز والسدود.

٣ وكان من أهمّ ما يتطلّع إليه الإمام ويصبو إليه أن يؤسّس في دنيا الإسلام حكومة قائمة على العدل الخالص والحقّ المحض ، ويوزّع خيرات الله تعالى على عباده ، فلا يختصّ بها فريق دون فريق ولا قوم دون آخرين ، وأن ينْعم الإنسان في ظلّ حكومته ، ولا يبقى في البلاد أي شبح للبؤس والحرمان ، فالكفر والفقر في شريعة الإمام سواء ، فكما يجب مكافحة الكفر كذلك يجب مكافحة الفقر.

إنّ الإمام أخو الفقراء وأبو البؤساء وأمل المحرومين والمعذّبين في الأرض ، وقد جهد على إسعادهم وإشاعة الرفاهية والسعة بينهم ، ولكنّ القوى الباغية التي يمثّلها الأمويّون قد خاصموه وحاربوه وصدّوه عن سياسته وأهدافه ، ولو أنّ الأُمور استقامت له لرأى الناس من صنوف العدل في ميادين الحكم والإدارة ما لم يروه في جميع فترات التاريخ.

٤ إنّ هذا الإمام الملهم العظيم أوّل مظلوم في دنيا الإسلام ، فقد طافت به المحن والأزمات يتبع بعضها بعضاً بعد وفاة أخيه وابن عمّه الرسول ﷺ ، وراحت

القوى الحاقدة عليه تهتف بقوى محمومة: «لا تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد...».

وأُقصي الإمام عن الخلافة وقيادة الأُمّة، وقبع في أرباض بيته يسامر الهموم ويبارح الأحزان ويصعّد آهات آلامه، فقد عامله القوم كمواطن عادي، واُلغيت في حقّه جميع وصايا الرسول ﷺ.

ولمّا آلت إليه الخلافة بعد مقتل عثمان عميد الأُسرة الأموية قامت قيامة القرشيّين وورمت آنافهم، فقد خافوا على مصالحهم وعلى امتيازاتهم وما نهبوه من الثراء العريض في أيام حكومة عثمان، فجنّدوا جميع ما يملكونه من طاقات مادية وسياسية للاطاحة بحكومته. لقد أبغضوه ونقموا عليه لأنّه لم يتجاوب مع مصالحهم، لقد أخلص للحقّ وجهد في إقامة العدل، وتبنّى قضايا المحرومين والبائسين، وآثر رضا الله تعالى على كلّ شيء.

إنّ القوى الحاقدة على الإمام كانت على يقين لا يخامره شكّ أنّ الإمام لا يقيم أي وزن لمصالحهم ورغباتهم التي هي أبعد ما تكون عن منهج الإسلام ومصلحة المسلمين، فقد صحبوه طفلاً وشاباً وكهلاً، وعرفوا شدّة وطأته وتنمّره في ذات الله تعالى، وشاهدوا ضرباته القاصمة في فجر الدعوة الإسلامية حينما حصد رؤوس أعلامهم، وما أشاعه في بيوتهم من الثكل والحزن والحداد. فإذاً هم خصومه وأعداؤه قبل أن يكون خليفة، وبعد أن صار حاكماً وخليفة عليهم.

٥ إنّ الأحداث الجسام التي ألمّت بالإمام عليه السلام بعد وفاة أخيه الرسول الأعظم ﷺ يجب أن تدرس بعمق وشمول ويُنظر في محتوياتها وأبعادها حسب الدراسات العلمية البعيدة عن الأهواء والعواطف، فقد تركت تلك الأحداث بصماتها على مجريات الأحداث في العالم الإسلامي وأغرقته بالمحن والخطوب.

من المؤسف أنّ التاريخ الإسلامي في عصوره الأُولى لم يكتب له أن يدرس دراسة

واعية مستوعبة ، بعيدة عن التيارات المذهبية ، وإنّ من الحقّ أن ينظر إلى تلك الحقبة الخاصّة من الزمن التي أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فتدرس دراسة ملمّة بشؤونها وملابساتها ، فقد أُحيطت بالقيود والأغلال وظلّت قابعة بالتعتيم والغموض والإبهام .

إنّ كلّ شيء في عصر النهضة الفكرية خاضع للدراسة العلمية ، فقد خضع الفضاء والمجرّات للدراسة سوى التأريخ الإسلامي الذي ظلّ مكبّلاً بقيود الطائفية ورواسب التقاليد الموروثة ، وابتعد عن التحقيق والتدقيق .

٦ إنّ من أهمّ الأحداث التي جرت في العصر الإسلامي الأوّل مؤتمر السقيفة والشورى ، فلم يقرّر فيهما مصير الأُمّة الإسلامية وقضاياها المصيرية ، فقد قدّمت فيهما المصالح الشخصية والرغبات الخاصّة واستهدفت فيها إقصاء الإمام عن الحكم وإبعاده عن كلّ ما يتعلّق بالدولة الإسلامية ، وما يرتبط بشؤونها السياسية والعسكرية . . . وقد تمّ ذلك بوضوح فقد عُزِل الإمام وأُبعد ، وحرمت الأُمّة من مواهبه وعبقرياته ، وما أراده لها من التطوّر والتقدّم والسيادة العامّة على جميع أُمم العالم وشعوب الأرض .

٧ ومُني العالم الإسلامي بأحداث رهيبة من جرّاء إقصاء الإمام عليه السلام عن قيادة الأُمّة ، كان أفجعها محنةً وأقساها بلاءً أن آلت الخلافة الإسلامية التي هي ظلّ الله تعالى في الأرض إلى بني أُميّة الذين هم من ألدّ أعداء الرسول صلى الله عليه وآله ومن أكثرهم حقداً عليه ومن أشدّ الناقمين على قيمه ومبادئه ، فأنزلوا الضربات القاصمة على آله الذين هم وديعته وخزنة علومه ، وطاردوا شيعتهم ، وأشاعوا المنكر والفساد في الأرض .

وبعد أن طويت حكومة الأمويّين واستولى العباسيّون على الحكم نشروا الجور والظلم ، وسخّروا اقتصاد الأُمّة صوب شهواتهم ولياليهم الحمراء ، وصبّوا جام غضبهم على السادة العلويّين دعاة الاصلاح الاجتماعي ، وعلى شيعتهم بصورة أكثر بشاعة ،

وأقسى عنفاً ممّا اقترفه الأمويّون تجاههم.

وعلى أي حال فإنّ جميع ما عاناه المسلمون من الكوارث والأزمات أيام الحكم الأُموي والعباسي كان ناجماً ـ من دون شكّ ـ من مؤتمر السقيفة والشورى، وسندلّل على ذلك في بحوث هذا الكتاب.

٨ أمّا الإمام عليه‌السلام فهو من مغارس النبوّة، ومن مشارق أضوائها، إنّه من الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها.

إنّ تاريخ الإمام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسيرة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فهو جزء لا يتجزّأ من سيرته ونضاله، فهو المثل الأعلى له، والقوّة الضاربة التي وقفت إلى جانبه أيام محنة الإسلام وغربته، فقد جاهد معه أعظم ما يكون الجهاد حتى قام الإسلام على سوقه عبل الذراع، ينشر الوعي، ويفتح آفاق الفكر ويضيء جوانب الحياة ويدمّر الجهل، ويحطّم الشرك.

٩ واستوعبت شخصية هذا الإمام الملهم العظيم أفكار العلماء وروّاد الفكر من مسلمين وغيرهم في جميع الأعصار والأمصار، فقد أذهلهم ما أثر عنه من العلوم والمعارف التي لم يعرفها الشرق العربي وغيره، وتحدّثوا ـ بإعجاب ـ عن روعة قضائه، وسموّ بلاغته، وإعجاز فصاحته وما خلّفه من ثروات تعدّ من مناجم الأدب وذخائر الفكر والبيان، يقول ابن أبي الحديد: «ما أقول في رجل تُعزى إليه كلّ فضيلة، وتنتهي إليه كلّ فرقة، وتتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وسابق مضمارها، ومجلّي حلبتها».

وقد تناول العلماء والأُدباء البحث عن شخصيّته، وكتبوا عشرات الكتب عن سيرته، ومئات المقالات عن حياته ومآثره، ومن المؤكّد أنّهم لم يلمّوا بجميع مناحي شخصيّته وإنّما ألقوا الأضواء عليها.

إنّ معالم شخصية الإمام وما خلّفه من الثروات الفكرية والعلمية قد حفلت بها

الكثير من المخطوطات العربية التي ضمّتها خزائن المخطوطات في مكتبات العالم .

وعلى أي حال ، فإنّي على يقين لا يخامرني شكّ أنّه لا يستطيع أي عالم مهما بذل من جهد شاق أن يلمّ بشخصية هذا العملاق العظيم ويحيط بمكوّناته النفسية والعلمية فإنّ الإحاطة بذلك أمر بعيد المنال .

◆ ١٠ لا أعتقد أنّ شخصية في التاريخ الإنساني اختلفت فيها آراء الناس كشخصية الإمام عليه السلام ، فقد تباينت فيها آراء محبّيه ومبغضيه واختلفوا فيه أشدّ ما يكون الاختلاف ، فقد غالى فيه بعض محبّيه غلوّاً فاحشاً ، وأسرفوا إسرافاً مقيتاً ، فزعموا أنّه المدبّر لهذا الكون والموجد للحياة دفعهم ـ فيما أحسب ـ إلى هذا الغلوّ الفاحش ما رأوه من سموّ ذاته وسعة علومه وشجاعته النادرة وبسالته في الحروب واندفاعه نحو الحقّ ، فاعتقدوا جازمين بإلهيّته .

وأفرط آخرون في بغضه وكراهته ، فذهبوا إلى كفره ومروقه من الدين لأنّ الإمام قد وترهم وأباد آباءهم في سبيل الإسلام ، وهؤلاء هم النواصب . . . وتبعهم الخوارج في بغض الإمام وهم الذين أرغموه على قبول التحكيم حينما أحرزت جيوشه النصر الحاسم على معاوية وصار في متناول أيديهم ، فرفع أصحابه المصاحف ففتنوا بها ، ودعوه إلى تحكيمها ، فيما شجر بينه وبين معاوية من خلاف ، وعرّفهم الإمام أنّهم إنّما رفعوا المصاحف غيلة ومكراً ، وأنّهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يدينون بأحكامه فلم يستجيبوا له ، وشهروا سيوفهم ورماحهم في وجهه ، وأرغموه على التحكيم ، ولمّا استبان لهم ضلال ما ذهبوا إليه حكموا بكفره لأنّه استجاب لهم أوّلاً ، وقد امتحن الإمام عليه السلام بهم أشدّ ما يكون الامتحان ، فقد جرّعوه نُغَبَ التهمام ـ على حدّ تعبيره ـ ، ومنذ ذلك الوقت أيقن بأُفول دولة الحقّ واستعلاء كلمة الباطل لأنّه لم تكن له قوّة يركن إليها . وبقي في أرباض الكوفة يصعّد آهاته وأحزانه حتى وافته المنيّة على يد مجرم باغ أثيم من الخوارج .

وعلى أي حال فالغلاة والنواصب والخوارج خارجون عن هدي الإسلام ومارقون

من الدين ولا نصيب لهم من هدي القرآن .

١١ نضال وكفاح وإيمان تسلّح به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بطل الإسلام وقائد مسيرته الظافرة في كفاحه المسلّح ضدّ الجاهلية الرعناء التي لا تحمل أي طابع من التوازن ولا بصيص من الوعي والفكر ، فكان الإمام القوّة الضاربة التي حمت الثورة الإسلامية من ذئاب الجاهلية ومردة أهل الكتاب .

لقد أحدثت الثورة الإسلامية بشعاراتها ومبادئها زلزالاً مدمّراً للحياة الفكرية والعقائدية التي عاشتها الجاهلية فدمّرت جميع معالم الحياة فيها من عبادة الأوثان والأصنام ووأد البنات وغزو الأقوياء للضعفاء ، وأقامت الثورة الإسلامية نظاماً متطوّراً خلّاقاً يضيء الطريق ويوضّح القصد ، ويجمع ولا يشتّت ،ويوحّد ولا يفرّق ، ويقضي على الغبن والجريمة .

وقد تبنّى الإمام بصورة إيجابية وإيمان لا حدود له جميع قضايا الإسلام ، فخاض في سبيله أعنف المعارك ساخراً من الموت هازئاً من الحياة ، فردّ العتاة من جبابرة قريش الذين جهدوا على لفّ لواء الإسلام وإخماد نوره ، وحصد الإمام رؤوسهم ، وألحق بهم الهزيمة والعار . ويعرض هذا الكتاب إلى صور مشرقة من جهاده وكفاحه .

١٢ من بحوث هذا الكتاب أنّه عرض بصورة أمينة لأقسى كارثة مُني بها العالم الإسلامي على امتداد التاريخ ، وهي انتقال النبيّ صلى الله عليه وآله إلى حظيرة القدس ، فقد انطوت ألوية العدل ، ومادت أركان الحقّ ، وارتفع ذلك اللطف الإلهي الذي غيّر مجرى التاريخ إلى واقع مشرق تتلاشى فيه آهات المظلومين والمعذّبين ، ولا يكون فيه ظلّ للحاجة والحرمان .

فقد أخلدت للمسلمين الخطوب والكوارث وألقتهم في شرّ عظيم ، وقد أعلن القرآن الكريم هول تلك الأحداث ومدى خطورتها بقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ ،

وأي مصيبة أعظم من الانقلاب ، وأي مأساة أقسى من المروق من الدين .

وكان من أفجع ألوان الخطوب السود بعد وفاة المنقذ العظيم إبعاد العترة الطاهرة عن الشؤون السياسية في البلاد ، وجعلها في معزل عن واقع الحياة الاجتماعية ، في حين انّ الأُمّة لم تكن بأي حال في غنى عن ثرواتها الفكرية والعلمية المستمدّة من الرسول الأعظم .

كما إنّ الهزّات العنيفة التي مُنيت بها الأُمّة ، إنّما جاءت نتيجة حتمية لفصل الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام ، فقد انتشرت الأطماع السياسية بشكل سافر عند كثير من الصحابة ، ممّا أدّى إلى تشكيلهم للأحزاب النفعية التي لم تكن تنشد في مخطّطاتها السياسية سوى الوصول إلى الحكم والتنعّم بخيرات البلاد .

ومن المآسي ما عانته الأُسرة النبوية من صنوف القتل والتنكيل ، فقد طافت بها المحن والأزمات يتبع بعضها بعضاً ، لم يراع فيها حرمة النبيّ صلى الله عليه وآله التي هي أولى وأحقّ بالرعاية والتكريم من كلّ شيء .

١٣ من بنود هذا الكتاب عرض موجز لحكومة الخلفاء الذين تقلّدوا الخلافة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقد عرض لشؤون حكمهم ، وما رافق ذلك من أحداث بعيدة كلّ البعد عن التيّارات المذهبيّة، وهو يستند لأوثق المصادر التأريخيّة.

آمل أن أكون قد ساهمت في إبراز التأريخ الإسلامي على واقعه من دون تحيّز أو تقليد . .

والله وليّ التوفيق

مكتبة الإمام الحسن العامة
النجف الأشرف

باقر شريف القرشي

النسب الوضاح

ليس في دنيا الأنساب نسب وضّاح التقت به جميع عناصر الشرف والكرامة كنسب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فهو من صميم الأُسرة الهاشمية التي عُرفت بالنبل والشهامة وقراية الضيف ونجدة الضعيف وحماية الجار وغير ذلك من الصفات الكريمة التي جعلتها في طليعة الأُسر العربية سموّاً وإشراقاً وشرفاً.

ونشير بإيجاز إلى بعض مآثرها الرفيعة وإلى كوكبة من أعمدتها وساداتها الذين سجّلوا الفخر والاعتزاز لا لأسرتهم فحسب وإنّما لجميع أبناء العالم العربي.

المآثر الكريمة

نقل المؤرّخون بعض المآثر الكريمة التي تميّزت بها الأُسرة الهاشمية منذ فجر تأريخها، وقد شاعت مآثرها في مجتمع بعيد كلّ البعد عن الفضائل النفسية التي يسمو بها الإنسان، فقد كانت السمات البارزة لأخلاق قبائل مكّة الغلظة والتكبّر والأنانية والقسوة والحسد ووأد البنات وعبادة الأوثان والأصنام، وغير ذلك من صنوف الانحطاط.

ومن المؤكّد أنّه لم تكن في مكّة أُسرة عُرِفت بالنبل والشهامة سوى الأُسرة الهاشميّة، ومن بين مآثرها:

١ ـ عبادة الله تعالى

وكانت عبادة الأصنام هي السائدة في قبائل مكّة ، فقد كانت أصنامهم معلّقة على ظهر الكعبة ، فلكلّ قبيلة صنم يعبدونه من دون الله سوى الأُسرة الهاشمية فإنّها وحدها تعبد الله وحده ، وتدين بدين إبراهيم شيخ الأنبياء .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « **وَاللهِ ! ما عَبَدَ أَبِي وَلَا جَدِّي عَبْدُالْمُطَّلِبِ وَلَا عَبْدُ مَنافٍ وَلَا هاشِمٌ صَنَماً ، وَإِنَّما كانُوا يَعْبُدُونَ اللهَ ، وَيُصَلُّونَ إِلَى الْبَيْتِ عَلىٰ دِينِ إِبْراهِيمَ مُتَمَسِّكِينَ بِهِ** »[١] .

وتلك كرامة للأُسرة الهاشمية دلّت على نضوجهم الفكري وإيمانهم العميق بالله ونبذهم التامّ لخرافات الجاهلية وأوثانها ، فقد سخروا من الأصنام والأوثان ، واعتنقوا ملّة جدّهم إبراهيم عليه السلام الذي حارب الأوثان وأعلن الإيمان بالله .

٢ ـ حلف الفضول

وكان أهمّ حدث اجتماعي ظهر في مكّة هو حلف الفضول الذي كان من أبرز بنوده القيام بنجدة المظلوم والأخذ بحقّه ، سواء أكان من قريش أم من غيرهم ، وكان هذا الحلف يتّفق مع طباع الهاشميّين الذين يمثّلون المروءة والنجدة والشهامة والنبل ، وقد شهده الرسول صلى الله عليه وآله واعتزّ به ، وقال : **لَقَدْ شَهِدْتُ في دارِ عَبْدِاللهِ بْنِ جُدْعانَ حِلفاً ما أُحِبُّ أَنَّ لي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ أُدعىٰ بِهِ في الْإِسْلامِ لَأَجَبْتُ**[٢] .

وتخلّف الأمويّون عن هذا الحلف الذي يتجافى مع ميولهم التي جبلت على الأثرة والأنانية ، وهم على نقيض تامّ من طباع السادة الهاشميّين الذين تبنّوا هذا

---

(١) كمال الدين / الصدوق : ١٠٤ . الغدير : ٧ : ٣٨٧ . بحار الأنوار : ١٥ : ١٤٤ ، الحديث ٧٦ .

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام : ١ : ١٣٤ . السنن الكبرى : ٦ : ٣٦٧ . معرفة السنن والآثار : ٥ : ١٧٥ .

الحلف بصورة إيجابية .

ومن الجدير بالذكر أنّه حدثت مشادّة بين الإمام الحسين عليه السلام وبين الوليد بن عتبة حاكم المدينة ، فغضب الإمام عليه السلام ونادى بحلف الفضول فاستجاب له عيون القرشيّين ، فخاف الوليد وردّ على الإمام ظلامته[١] .

وعلى أي حال فإنّ حلف الفضول من أروع الحركات الإصلاحية التي ساهم الهاشميّون في تأسيسها ودعمها .

٣ـ إخراج ماء زمزم

من المآثر الكريمة التي نسبت للهاشميّين ، والتي هي من مواضع الاعتزاز والفخر ، إخراج عين ماء زمزم التي خفيت حقبة من الزمن على القرشيّين ولم يهتدوا لموضعها ، وقد بذلوا في ذلك جهداً شاقّاً وعسيراً فلم يظفروا بها .

وانبرى زعيم الهاشميّين عبدالمطّلب للبحث عنها فأصاب موضعها ، وفي أثناء حفره عنها أصاب كنزاً فيه غزالان من ذهب وسيوف ودروع ، فرفع صوته بالتكبير ، فأسرع القرشيّون إليه وبهروا بما رأوه من الكنز ، وتنازعوا فيه .

فقال هشام ابن المغيرة : إنّه لقريش لأنّه وجد في البيت الحرام ، وكلّ ما وجد فيه فهو لعامّة قريش ، وأنكر عليه حرب بن أُميّة .

فردّ عليه بعنف قائلاً: إنّما هو لعبد مناف خاصّة فهم الذين حفروا البئر وظفروا به ، وما ينبغي لقريش أن تشاركهم فيه ، واشتدّ النزاع بين القوم ، وكان عبدالمطّلب ساكتاً يسمع مقالة قريش ، فانبرى إليه حرب فقال له : ما لك لا تتكلّم وأنت الذي عثرت عليه ؟

فقال عبدالمطّلب بأناة غير حافل بصيرورة الكنز إليه : ما ينبغي أن يكون الكنز

---

(١) السيرة النبويّة : ١ : ١٢٧ .

لأحد منّا حتى نضرب بالقداح فنجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين، فاستجابوا له، فضرب بين قريش والكعبة فخرج للكعبة ثلاثة أقداح.

فصاح بهم عبدالمطّلب قائلاً: تفرّقوا يا معشر قريش، ويا بني عبدمناف ليس لأحد منكم في هذا الكنز نصيب... أمّا هذا الذهب فسيصاغ صفائح ويوضع على باب الكعبة...

وأكبرته قريش على هذا النبل والسموّ، وبعثوا بالذهب إلى الصاغة فصاغوه صفائح ووضعوه على الكعبة(١).

وأكبر الظنّ أنّ أوّل ما كسيت الكعبة المشرّفة بالذهب على يد عبدالمطّلب سيّد قريش.

وعمّت الأفراح والمسرّات جميع أهالي مكّة بماء زمزم الذي أخرجه لهم عبدالمطّلب، فقد وفّر لهم أعظم نعمة وأعزّ ما في الحياة وهو الماء.

٤ ـ سقاية الحاج

من مكارم الهاشميّين وأريحيّتهم واندفاعهم نحو الخير سقايتهم للحجّاج وبذل الماء لهم بسخاء، وكان عزيز الوجود، وأوّل من بادر منهم إلى هذه الفضيلة هاشم فكان ـ فيما يقول الرواة ـ إذا وفد الحجّاج إلى بيت الله الحرام قام خطيباً في قريش رافعاً عقيرته قائلاً: «يا معشر قريش، إنّكم جيران الله وأهل بيته، وإنّكم يأتيكم في هذا الموسم زوّار الله وحجّاج بيته، وهم ضيف الله وأحقّ بالكرامة ضيفه، فاجمعوا له ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التي لا بدّ لهم من الإقامة بها»(٢).

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام: ١: ١٣٦.

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام: ١: ١٤٣.

وهذه الدعوة دعوة نبل وشهامة وشرف ، ويقوم القرشيّون بدورهم بالتبرّع بجمع المال وشراء الماء والطعام .

٥ ـ إطعام الطعام

وثمّة مكرمة أُخرى للهاشميّين وهي إطعامهم الطعام وبذله بسخاء للغرباء والبؤساء ، وأوّل من عرف بهذه المكرمة منهم زعيم الأُسرة الهاشميّة ، وهو هاشم فقد كان يهشم الثريد ويبذله بطيب نفسه لقومه ، ومن أجل ذلك لقّب بهاشم ، وفيه يقول الشاعر :

عَمْرُو الَّذي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ   قَوْمٍ بِمَكَّةَ مُسْنِتِينَ عِجافُ

وورث هذه الظاهرة معظم أبنائه وأحفاده ، وكان من أبرزهم ريحانة رسول الله ﷺ الإمام الحسن عليه‌السلام ، فقد كان أجود أهل زمانه ، ومضرب المثل في سخائه حتّى لقّب بكريم أهل البيت مع أنّهم معدن الكرم والجود ، وكان يضارعه في كرمه أخوه سيّد شباب أهل الجنّة وأبو الأحرار الإمام الحسين عليه‌السلام ، فقد كان من أروع وأسمى أمثلة السخاء في دنيا الإسلام ، وكان عبدالله بن جعفر من ألمع الأسخياء في العالم العربي . . .

وهكذا كان الهاشميّون أُصولاً وفروعاً من أندى الناس كفّاً ، ومن أكثرهم برّاً وسخاءً حتى عدّ الكرم من عناصرهم وذاتياتهم .

أعمدة الشرف من الهاشميّين

وحظيت الأُسرة الهاشمية بأفذاذ الرجال وعيونهم كان منهم السادة :

١ ـ هاشم

أمّا هاشم فهو أشرف مَن في مكّة ، وكان مضرب المثل في جوده ، وهو الذي

كان يطعم الحجّاج بمكّة ومنى وعرفة[(١)].

وهو أوّل من سنّ الرحلتين لقريش الرحلة إلى اليمن والرحلة إلى الشام[(٢)]، وفيه يقول الشاعر:

سُــنَّتْ إِلَـيْهِ الرِّحْـلَتانِ كِـلاهُما سَفَرُ الشِّتاءِ وَرِحْلَةُ الأَصْيافِ[(٣)]

٢ ـ عبدالمطّلب

من سادات بني هاشم، ومن عيونهم، ومن مفاخر قريش السيّد الجليل عبدالمطّلب، فقد كان في شبابه من أنبل فتيان قريش، وفي شيخوخته كان من أوقر وأجلّ شيوخ عصره حتى لقّب بشيبة الحمد، وذلك لكثرة حمد الناس وثنائهم عليه[(٤)]، وقد أُسندت إليه رفادة الحجّاج وسقايتهم بعد وفاة عمّه، وقد لاقى جهداً شاقّاً وعسيراً في جمع الماء، فكان يجمعه من المطر وغيره في أحواض من الأدم ويقدّمه لحجّاج بيت الله الحرام، وهو الذي أخرج ماء زمزم بعد أن جهل القرشيّون موضعه، ولمّا توفّي كان له صدى حزن وأسىً في جميع أوساط القرشيّين ورثاه مطرود بن كعب الخُزاعي بقوله:

يــا أَيُّـها الرجُـلُ المُـحَوِّلُ رَحْـلَهُ هَــلّا نَـزَلْتَ بِـآلِ عَـبْدِ مَـنافِ
هَـبِلَتْك أُمُّكَ لَـوْ نَـزَلْتَ عَـلَيْهِمُ ضَمِنُوكَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ إِقْرافِ

---

(١) السيرة النبويّة: ١: ١٤٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٢: ١٨٠. الطبقات الكبرى: ١: ٧٥. الأعلام: ٨: ٦٦.

(٣) تاريخ الأمم والملوك: ٢: ١٨٠. البداية والنهاية: ٢: ٣١١. السيرة النبويّة / ابن هشام: ١: ٨٩.

(٤) قيل: إنّما لقّب بشيبة الحمد لأنّه كان في ذؤابته شعرة بيضاء حين ولد. معرفة الصحابة: ١: ٢٧٦. السيرة الحلبيّة: ١: ٦.

الآخِذونَ العَهْدَ مِنْ آفاقِها والرَّاحِلُونَ لِرِحْلَةِ الإيلافِ
وَالمُطْعِمَنَ إذَا الرِّياحُ تَناوَحَتْ حَتّى تَغيبَ الشَّمْسُ في الرَّجافِ
وَالمُفْضِلُونَ إذَا المُحُولُ تَرَادَفَتْ وَالقائِلونَ هَلُمَّ لِلأَضيافِ
وَالخالِطُونَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ حَتّىٰ يَكُونَ فَقِيرُهُمْ كَالكَافِي
كانَتْ قُرَيْشٌ بَيضَةً فَتَفَلَّقَتْ فَاطُحُّ خالِصَةٌ لِعَبْدِ مَنافِ[1]

وحكى هذا الشعر كرم الأسرة الهاشميّة وقريها للضيف وسخاءها اللّامحدود ، ومن الجدير بالذكر أنّ النبيّ كان عمره بعد وفاة عبدالمطّلب ثمان سنين[2].

٣ـ أبو طالب

أمّا أبوطالب فهو حامي الإسلام ، والرصيد الأعظم للدعوة الإسلامية منذ بزوغ نورها ، فهو القوّة الضاربة التي حمت الإسلام حينما هبّت طغاة قريش وعتاتهم لإطفاء نور الله وإخماد شعلة التوحيد .

ومن المؤكّد أنّه لولا حماية أبي طالب للنبيّ ﷺ لما استطاع أن يُبلّغ رسالة ربّه ، ويقف بعزم وشموخ أمام تلك الوحوش الكاسرة مستهيناً بها محتقراً لأصنامها ساخراً من تقاليدها وعاداتها .

ونعرض ـ بإيجاز ـ إلى بعض مواقفه البطولية في نصرة الإسلام ، والذبّ عن حمى الرسول ﷺ التي سجّلت له بمداد من النور والفخر ، وفيما يلي ذلك :

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ١ : ٢٤٤ . أمالي المرتضى : ٢ : ٢٦٨ .
وذكرت هذه الأبيات باختلاف في أمالي القالي : ١ : ٢٤١ .
(٢) الامتاع والمؤانسة : ٢ : ٨١ . تاريخ مدينة دمشق : ٣ : ٧٨ ، ٨١ . أسد الغابة : ١ : ١٥ .

رعايته للنبيّ صلى الله عليه وآله

وعنى أبوطالب عناية بالغة بالنبيّ صلى الله عليه وآله، وقام بجميع خدماته وشؤونه، وتولّى رعايته منذ نعومة أظفاره، فكان المربّي والحارس له، فقد علم بما سيكون في مستقبل حياته من السمو والعظمة، وأنّه سيملأ الدنيا نوراً ووعياً، وأنّه رسول ربّ العالمين، وخاتم المرسلين، وسيّد النبيّين، وقد أحاطه الكهّان علماً بذلك، وحذّروه من فتك اليهود واغتيالهم له.

يقول الرواة: إنّ أبا طالب سافر للتجارة إلى الشام مع النبيّ صلى الله عليه وآله فسارع إليه الراهب فقال له: إنّي أنصحك أن ترجع بابن أخيك من مكانك هذا وإن أدّى ذلك إلى ذهاب أموالك وخسارتك في تجارتك، فإنّي لا آمن عليه من دسائس الشرك ومكائد اليهود؛ فإنّهم إن عرفوا الذي عرفته فلا يولّوا حتّى يلحقوا به الأذى، بل يغتالونه بكلّ نشاط وقوّة[١].

وقفل أبوطالب راجعاً إلى مكّة، ولم يمض في تجارته إلى الشام حفظاً لابْنِ أخيه، وبلغ من رعايته له أنّه كان يصحبه معه في فراشه خوفاً عليه[٢]، كما كان ينقله في غلس الليل من مكان إلى مكان، ويمضي ليله ساهراً على حراسته لئلا يغتاله أحد.

حمايته للإسلام

ولمّا أعلن النبيّ صلى الله عليه وآله دعوته الخالدة الهادفة لتحرير الإنسان وإنقاذه من ظلمات الجهل وعبادة الأوثان هبّت قريش عن بكرة أبيها فزعة أشدّ ما يكون الفزع له لإطفاء شعلة التوحيد.

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام: ١: ٩٠. أسد الغابة: ١: ١٥.

(٢) السيرة الحلبيّة: ١: ١٤٠.

لقد أوجدت الدعوة الإسلامية في المجتمع الجاهلي انقلاباً فكرياً وتحوّلاً اجتماعياً مهيباً ، فقد خافت قريش على مصالحها وتقاليدها ، وخافت على نسائها وأبنائها من الانجراف بالشعارات والمبادئ التي أعلنها النبيّ ﷺ ، لقد خافوا على آلهتهم وأصنامهم التي سخر منها النبيّ ودعا إلى تحطيمها وتدميرها ، فورمت آنافهم ، وانتفخ سَحْرُهم ، وأجمعوا اكتعين على مناجزته وإطفاء نور رسالته ، إلّا أنّ أباطالب ، بطل الإسلام وقف سدّاً منيعاً لحمايته ، وكان يبعث النشاط والحماس في نفس ابن أخيه لإشاعة مبادئه ، وقد خاطبه بهذه الأبيات :

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ ما عَلَيْكَ غَضاضَةٌ ... وَابْشِرْ بِذاكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيونا
وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ ناصِحي ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينا
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيانِ الْبَرِيَّةِ دِينا
وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتّىٰ أُوَسَّدَ فِي التُّرابِ دَفِيناً (١)

وحكت هذه الأبيات إيمانه العميق بالإسلام ووقوفه إلى جانب النبيّ ﷺ وحمايته لدعوته ، وأنّ القوى المعادية له مهما بذلت من جهد فإنّها لا تستطيع أن تصدّه عن إشاعة مبادئه وتبليغ رسالة ربّه .

وقد صمّم أبوطالب على حماية النبيّ ﷺ والذبّ عنه بجميع طاقاته ، وقد خاطب القرشيّين قائلاً :

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نُخْلِي مُحَمَّداً ... وَلَمّا نُطَاعِنْ دونَهُ ونُناضِلِ
ونَنْصُرُهُ حَتّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... وَنُذْهَلَ عَنْ أَبْنائِنا وَالحَلائِلِ (٢)

---

(١) أسنى المطالب في نجاة أبي طالب : ٢٥. تاريخ اليعقوبي : ٢: ٣١. تاريخ الإسلام : ١: ١٥٠. البداية والنهاية : ٣: ٥٦.

(٢) المغازي / الواقدي : ١: ٧٠. شرح نهج البلاغة : ٣: ٣١٦.

ومعنى ذلك أنّه لا يخلي عن النبيّ ﷺ ولا يترك قريشاً تعتدي عليه، وسيدافع عنه حتّى يصرع هو وأهل بيته دونه.

لقد هام أبوطالب في ولائه للنبيّ، وملك عواطفه ومشاعره، وهو القائل فيه:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمامُ بِوَجْهِهِ ثِمالُ الْيَتامىٰ عِصْمَةٌ لِلْأَرامِلِ

وقد وقع هذا البيت في نفس النبيّ ﷺ موقعاً عظيماً، ويقول الرواة: إنّ أهل المدينة أصابهم قحط شديد فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فصعد المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما خشي منه أهل المدينة من الغرق، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: **اللّهُمَّ حَوالَيْنا وَلَا عَلَيْنا**، فانجاب السحاب عن المدينة وصار حواليها، فقال النبيّ: **لَوْ أَدْرَكَ أَبُوطَالِبٍ هٰذَا الْيَوْمَ لَسَرَّهُ**.

فالتفت الإمام عليه السلام إلى النبيّ فقال له: **كَأَنَّكَ أَرَدْتَ قَوْلَهُ**:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمامُ بِوَجْهِهِ ثِمالُ الْيَتامىٰ عِصْمَةٌ لِلْأَرامِلِ »[١]

كما كان لهذا البيت وقع خاصّ عند الأسرة النبوية، فقد أنشدته سيّدة نساء العالمين عليها السلام في الساعات الأخيرة من حياة أبيها فقال لها أبوها بلطف: **هٰذا قَوْلُ عَمِّي أَبِي طَالِبٍ**، وتلا قوله تعالى: ﴿ **وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...** ﴾ الآية[٢].

وعلى أي حال، فقد خفّ جماعة من رُؤساء قريش إلى أبي طالب وعرضوا عليه أن يسلّم لهم النبيّ ﷺ لتصفيته جسدياً ويعطوه عوض ذلك عمارة وهو من أنبل فتيان قريش، ومن أصبحهم وجهاً.

فسخر منهم أبو طالب وصاح بهم: والله ما أنصفتموني أيّها الحمقى، تبّاً لكم

---

(١) خزانة الأدب: ٢: ٦٩. الطبقات الكبرى: ٣: ١٩٨. تاريخ بغداد: ١٤: ٣٨٨.

(٢) آل عمران ٣: ١٤٤.

وسحقاً ! أتريدون منّي أن أُعطيكم روحي وولدي لتقتلوه ، وتعطوني ابنكم أُربّيه لكم !

ما لكم كيف تحكمون ، أترجون منّي أن أستبدل محمّداً بعمارة بن الوليد ، فوالذي نفسي بيده لو أعطيتموني العالم كلّه لما استبدلته بظفر من رجل محمّد ، فإليكم عنّي ، لا تكلّموني ، وإلّا علوت رؤوسكم بالسيف . وانصرفوا خائبين خاسرين ، قد خيّب آمالهم وسخر منهم أبوطالب ووقف بصلابة لحماية النبيّ ﷺ .

لقد وقف أبو طالب منافحاً عن النبيّ ﷺ ، ولولا حمايته له لما أبقى القرشيّون للنبيّ ولا لدعوته أيّ ظلٍّ .

مع النبيّ ﷺ في الشِعب

وضاق القرشيّون ذرعاً من دعوة النبيّ ﷺ ، واشتدّ فزعهم منها ، وزادهم أسىً وحزناً إيمان بعض أبنائهم وغلمانهم ونسائهم وعبيدهم ، وهم يسخرون بآلهتهم ويعيبون عليهم تقاليدهم وعاداتهم ، ويحكمون بنجاستهم فأجمع رأي الطغاة والرؤساء منهم على اعتقال النبيّ ، وسائر بنيهاشم وبني عبدالمطّلب ، وحبسِهم في شِعب أبي طالب خارج مكّة ، وكتبوا فيهم صحيفة سجّلوا فيها بنوداً قاسية وعلّقوها في جوف الكعبة ، وهذه بعض موادها :

١ ـ حرمانهم من المواد الغذائية .

٢ ـ منع الدخول عليهم .

٣ ـ عدم الزواج منهم .

٤ ـ منع ايصال الماء لهم .

٥ ـ منع ايصال الفراش لهم .

٦ ـ عدم فكّ الحصار عنهم ، إلّا أن يُسلّموا لهم النبيّ ﷺ .

٧ ـ إقامة حرس على باب الشِعب لمنع كلّ من يحاول الهرب منهم[١].

ووقّع على الصحيفة أبوسفيان، وأبو جهل، والعاص بن وائل، وأبوالبختري، وأبولهب، وعمرو بن العاص وغيرهم من طغاة القرشيّين، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

وحاول مردة القرشيّين اغتيال النبيّ صلى الله عليه وآله في الشِعب، فخاف عليه أبوطالب فكان يقيم ولده الإمام أمير المؤمنين في مكانه، واستمر الحصار الظالم ثلاث سنين عجاف، وكانت السيّدة الزكية أُمّ المؤمنين خديجة هي التي تمدّهم بما يحتاجونه من الطعام والشراب وغير ذلك من النفقات حتى أنفقت عليهم جميع ما عندها من الأموال حتى فرّج الله عنهم.

وبعث الله تعالى الأرضة على صحيفتهم فأتت عليها، ولم تترك منها كلمة سوى لفظ الجلالة، وأحاط النبيّ صلى الله عليه وآله عمّه أبا طالب علماً بذلك فخرج من الشِعب إلى الحرم فاجتمع القريشيّون فقال لهم: إنّ ابن أخي أخبرني أنّ الله أرسل على صحيفتكم الأرضة فأكلت ما فيها من قطيعة رحم وظلم، وتركت اسم الله تعالى فأحضِروها فإن كان صادقاً علمتم أنّكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا، وإن كان كاذباً علمنا أنّكم على حقّ وأنّا على باطل. فانبروا مسرعين إلى الصحيفة فوجدوها كما أخبر عنها أبوطالب واشتدّت صولته، وخاطب قريش قائلاً: إنّكم أولى بالظلم والقطيعة، وقال في ذلك:

وَقَدْ كانَ فِي أَمْرِ الصَّحِيفَةِ عِبْرَةٌ ... مَتى ما يُخَبَّرْ غائِبُ الْقَوْمِ يَعْجَبِ
مَحا اللهُ ذِكْراهُمْ وَأَفْنىٰ عُقُوقَهُمْ ... وَما نَقَمُوا مِنْ ناطِقِ الْحَقِّ مُعْرِبِ
فَأَصْبَحَ ما قالُوا مِنَ الأَمْرِ باطِلاً ... وَمَنْ يَخْتَلِقْ ما لَيْسَ بِالْحَقِّ يَكْذِبِ[٢]

(١) السيرة الحلبيّة: ١: ٣٧٤ و ٣٧٥، وغيرها.

(٢) الكامل في التاريخ: ٢: ٣٣. سيرة ابن إسحاق: ٢: ١٤٤.

وفرّج الله تعالى عن نبيّه وسائر من كان معه من الهاشميّين، فقد انبرى زهير بن أبي أُميّة إلى قريش فخطب فيهم خطاباً بليغاً، وطلب منهم فكّ الحصار عن الهاشميّين فردّه أبوجهل ردّاً عنيفاً إلّا أنّ كوكبة من قريش انضمّوا إلى زهير بن أبي أُميّة ودعموا مقالته فاستجابت قريش لهم ورفعوا الحصار عن النبيّ ﷺ وسائر من معه.

تبنّي أبي طالب الدعوة الإسلامية

وقام أبوطالب بدور إيجابي ومتميّز في الدعوة إلى الإسلام، وقد دعا ملك الحبشة إلى اعتناق الإسلام، وكتب له رسالة بذلك، وختمها بهذه الأبيات:

أَتَعْلَمُ مَلْكُ الْحُبْشِ أَنَّ مُحَمَّداً ... نَبِيٌّ كَمُوسَىٰ وَالْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمِ
أَتىٰ بِالْهُدىٰ مِثْلَ الَّذِي فِي هُداهُما ... فَكُلٌّ بِأَمْرِ اللهِ يَهْدِي وَيَعْصِمِ
وَأَنَّكُمُ تَتْلُونَهُ فِي كِتابِكُمْ ... بِصِدْقِ حَدِيثٍ لَا حَدِيثِ التَّراجُمِ
فَلا تَجْعَلُوا للهِ نِدّاً وَأَسْلِمُوا ... فَإِنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ لَيْسَ بِمُظْلِمِ (١)

لقد كان أبوطالب داعية الإسلام وحاميه والذابّ عنه، وكان يذيع فضائل النبيّ ﷺ وينشر مناقبه ومآثره، وممّا قال فيه:

ظَهَرَتْ دَلَائِلُ نُورِهِ فَتَزَلْزَلَتْ ... مِنْها الْبَسِيطَةُ وَازْدَهَتْ أَيّامُ
وَهَوَتْ عُرُوشُ الْكُفْرِ عِنْدَ ظُهُورِهِ ... وَبِسَيْفِهِ قَدْ شُيِّدَ الْإِسْلَامُ
وَأَتاهُمُ أَمْرٌ عَظِيمٌ فادِحٌ ... وَتَساقَطَتْ مِنْ حَوْلِهِ الْأَصْنامُ
صَلّىٰ عَلَيْهِ اللهُ خَلّاقُ الْوَرىٰ ... ما أَعْقَبَ الصُّبْحَ الْمُضِيءَ ظَلَامُ

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام: ١: ٣٥٧. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٣: ٢٢٤. إعلام الورى: ١: ١١٨.

وقال أيضاً:

فيا لِبَني فِهْرٍ أَفِيقُوا وَلَمْ تَقُمْ نَوائِحُ قَتْلىٰ تَدَّعي بِالتَّنَدُّمِ
عَلىٰ ما مَضىٰ مِنْ بَغْيِكُمْ وَعُقُوقِكُمْ وَإتْيانِكُمْ فِي أَمْرِكُمْ كُلَّ مَأْثَمِ
وَظُلْمِ نَبِيٍّ جاءَ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى وَأَمْرٍ أَتىٰ مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ قَيِّمِ
فَهٰذِيْ مَعاذِيرٌ وَتَقْدِمَةٌ لَكُمْ لِئَلَّا تَكُونَ الْحَرْبُ قَبْلَ التَّقَدُّمِ(١)

لقد كانت مواقف أبي طالب متميّزة بروح الإيمان، فقد اعتنق الإسلام وجاهد في سبيله أعظم ما يكون الجهاد، ولولاه لما قام الإسلام على سوقه عبل الذراع شامخ الكيان، فما أعظم عائدته على الإسلام والمسلمين.

وصيّته الخالدة

وأوصى أبوطالب عملاق الإسلام أبناءه وسائر أفراد أُسرته بهذه الوصية التي حفلت بمكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، والولاء العارم لابن أخيه سيّد الكائنات ﷺ، وهذه بعض بنودها: «أُوصيكم بتعظيم هذه البنيّة - يعني الكعبة المقدّسة - فإنّ فيها مرضاة الربّ، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها؛ فإنّ صلة الرحم منسأة للأجل، وزيادة في العدد واتركوا البغي وأعطوا السائل، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة، فإنّ فيها محبّة في الخاص ومكرمة في العام ...».

وحكى هذا المقطع كلّ فضيلة يسمو بها الإنسان، والتي هي من صميم القيم الكريمة التي أعلنها الرسول ﷺ، ومن بنود هذه الوصية حثّه للأُسرة الهاشميّة وغيرها على الولاء والاخلاص للرسول ﷺ ومناصرته والذبّ عنه قال:

« وإنّي أُوصيكم بمحمّد ﷺ فإنّه الأمين في قريش، والصديق في العرب،

---

(١) إيمان أبي طالب: ١٨٩.

وهو الجامع لكلّ ما أوصيتكم به ، ولقد جاءنا بأمر قبله الجنان ووعاه القلب .

وأيم الله كأنّي أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، وقد أجابوا دعوته وصدّقوا كلمته ، وعظّموا أمره ، فخاض بهم غمار الموت ، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وإذا بأعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم عنه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها ، دونكم يا معشر قريش ، دونكم ابن أخيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، فوالله ! لا يسلك أحد سبيل محمّد إلّا رشد ، ولا يأخذ به إلّا سعد ولو كان لنفسي مدّة ، وفي أجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ، ولدفعت عنه الدواهي ، غير أنّي أشهد بشهادته وأُعظّم مقالته »(١) .

حكت هذه الوصية إيمان أبي طالب بالنبيّ ﷺ واعتناقه للإسلام وتفانيه في الدفاع عنه .

لقد استشفّ هذا العملاق العظيم المستقبل الزاهر للإسلام ، وأنّه سيؤمن به المستضعفون في الأرض ، وأنّهم سيشكّلون قوّة ضاربة للدفاع عنه ، وستكون صناديد قريش وساداتها أذلّاء صاغرين يستعطفون النبيّ وأصحابه ، ويطلبون ودّهم ، ولم تمض الأيام حتى تحقّق ذلك على مسرح الحياة ، وإذا بجبابرة قريش أذلّاء صاغرون ، ويقول الرواة : إنّ امرأة من المسلمين خطبها معاوية فجاءت إلى النبيّ ﷺ وطلبت رأيه في ذلك ، فنهاها عن الزواج به وقال لها : « إنّه صعلوك »(٢) .

وعلى أي حال فإنّ وصيّة أبي طالب حافلة بالقيم الكريمة والمثل العليا والإيمان العميق بالإسلام .

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ٢١٣ . الدرجات الرفيعة : ٦١ . أسنى المطالب : ٢٠ . ثمرات الأوراق : ٢٩٤ . أعيان الشيعة : ٨ : ١٢٥ ، وغيرها .

(٢) الكفاية في علم الدراية / الخطيب البغدادي : ٥٧ .

في ذمّة الخلود

ولاقى أبوطالب جهداً شاقّاً وعسيراً في حمايته للنبيّ ﷺ ونصرته للإسلام، وكفاحه للقوى المعادية لابن أخيه، وقد تعرّض لأقسى ألوان المحن والخطوب من طغاة القريشيّين وعتاتهم.

وقد ألمّت به العلل والأمراض ودنا منه الموت، وكان أهمّ ما يعنيه مصير رسول الله ﷺ من بعده، وماذا سيلاقيه من ذئاب قومه الذين تنكّروا لجميع القيم والأعراف، فأخذ وهو على حافة الموت يوصي أبناءه وأفراد أُسرته بنصرة رسول الله ﷺ والوقوف إلى جانبه، وحمايته من كيد القرشيّين وبطشهم وأخذ المرض فيه مأخذه حتى وافته المنيّة في شهر شوّال أو في ذي القعدة، وذلك بعد خروج النبيّ ﷺ من الشِعب[١].

لقد انتقل هذا العملاق إلى حظيرة القدس بعد ما أدّى ما عليه من جهد في نصرة الإسلام والذبّ عن الرسول ﷺ، ولمّا أُذيع نبأ وفاته اهتزّت مكّة من هول الفاجعة، فتصدّعت القلوب، وغامت العيون كما فرح الطغاة والجبابرة بموته.

وسارع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فغسّل جسد أبيه الطاهر وأدرجه في أكفانه، وقد ذابت نفسه عليه حزناً وأسى، وهرعت الجماهير إلى دار أبي طالب فحملوا الجثمان المقدّس بمزيد من الحفاوة والتكريم، وواروه في مقرّه الأخير، وقد واروا معه الشرف والإيمان.

لقد انطوت حياة هذا المجاهد العظيم الذي وهب حياته لله تعالى، فنصر الإسلام، وقاوم الشرك، وقارع الباطل، فسلام الله عليه، فما أعظم عائدته على الإسلام والمسلمين!

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢: ٣٤.

تأبين النبيّ ﷺ له

ووقف النبيّ ﷺ على حافّة قبر عمّه، وهو واجم حزين، قد روى ثرى قبره بدموعه، وأخذ يصوغ من حزنه كلمات في تأبينه قائلاً: « **وَصَلَتْكَ رَحِمٌ يا عَمِّ، جُزِيتَ خيْراً، فَلَقَدْ رَبَّيْتَ وَكَفَلْتَ صَغِيراً، وَآزَرْتَ وَنَصَرْتَ كَبِيراً، أَمَا وَاللهِ يا عَمِّ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، وَأَشْفَعَنَّ فِيكَ شَفاعَةً يَعْجَبُ مِنها الثَّقَلانِ**... »(١).

وبلغ من تأثّر النبيّ ﷺ وشدّة حزنه على عمّه أنّه سمّى العام الذي توفّي فيه « عام الحزن ».

وقد فَقَد النبيّ ﷺ المحامي والناصر، والركن الشديد الذي كان يأوي إليه، فقد استوحدته قريش وأجمعت على التنكيل به وقال: « **ما نالَتْ قُرَيْشٌ شَيْئاً أَكْرَهُهُ حَتّىٰ ماتَ أَبُو طَالِبٍ** »(٢).

وقد بالغت قريش في إيذائه، فجعلوا ينثرون التراب على رأسه، وطرح بعضهم عليه رحم شاة وهو يصلّي... إلى غير ذلك من صنوف الاعتداء عليه(٣).

وقد أجمعوا على قتله، فخرج في غلس الليل البهيم بعد ما أحاطوا بداره ميمّماً وجهه تجاه يثرب، وترك أخاه ووصيّه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في فراشه، كما سنعرض لذلك في البحوث الآتية.

وعلى أي حال فأبوطالب حامي الإسلام وناصره، والمساهم الأوّل في إقامة دعائمه، فله اليد البيضاء على كلّ مسلم ومسلمة، فما أعظم عائدته على الإسلام! ومن سخف القول إنّ هذا المجاهد العظيم مات كافراً ولم يكن يدين بدين الإسلام، فإنّ هذا البهتان من صنع الأمويّين والعبّاسيّين الحاقدين على الأسرة النبوية،

---

(١) أبو طالب وبنوه: ١٠٣. إعلام الورى: ١: ٢٨٢.

(٢) فتح الباري: ٧: ١٤٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك: ٢: ٧٩. الكامل في التاريخ: ٢: ٣٤.

وممّا يدعم زيف ذلك شدّة حزن النبيّ صلى الله عليه وآله عليه بعد وفاته وتسميته لعام موته بعام الحزن ، فإنّه إذا كان كافراً كيف يحزن عليه ؟ وكيف يترحّم عليه ويذكره بمزيد من التكريم والتعظيم ؟ وكيف يأكل ويشرب في داره ؟ وحكم الإسلام صريح واضح في نجاسة الكافر ؟ وكيف يكون هذا المؤمن المجاهد في النار وابنه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قسيم الجنّة والنار ؟

إنّ من المآثر والفضائل والأوسمة الشريفة التي يتحلّى بها الإمام عليه السلام أنّه نجل هذا المجاهد العظيم الذي حمى الإسلام في أيام محنته وغربته فجزاه الله عن الإسلام وأجزل له الأجر ، وحشره مع النبيّين والصدّيقين والشهداء وحسن أُولئك رفيقاً .

وبهذا العرض الموجز عن جهاد أبي طالب في نصرة الإسلام وحمايته للنبيّ صلى الله عليه وآله نطوي الحديث عنه ، لنلتقي بالسيّدة الزكية فاطمة بنت أسد أُمّ الإمام عليّ عليه السلام .

٤ ـ فاطمة بنت أسد

أمّا أُمّ الإمام عليه السلام فهي السيّدة الزكية فاطمة بنت أسد ، وهي من سيّدات عصرها في عفّتها وطهارتها وسموّ ذاتها ، وهذا عرض لبعض شؤونها :

سبقها إلى الإسلام

كانت هذه السيّدة المعظّمة من السابقات لاعتناق الإسلام وبذلك فقد نالت الشرف العظيم ، فقد أسلمت بعد عشرة أشخاص [١] .

مبايعتها للنبيّ صلى الله عليه وآله

وهذه السيّدة الزكية أوّل امرأة بايعت النبيّ صلى الله عليه وآله [٢] حينما أخذ العهد على السيّدات بالعفّة والطهارة واجتناب المنكر .

---

(١) و (٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١٤ .

رعايتها للنبيّ ﷺ

وقامت هذه السيّدة الطاهرة بدور مهمّ في خدمة النبيّ ﷺ ، وكانت تفضّله في الرعاية والحنان على أولادها ، وكان النبيّ ﷺ يكرمها ويعظّمها ويدعوها أُمّه[1].

روايتها للحديث

وعدّها علماء الحديث من رواة الحديث عن النبيّ ﷺ ، فقد رووا عنها (٤٦) حديثاً ، وقد أخرج لها في الصحيحين حديث واحد متّفق عليه[2].

إقامتها في بيت الإمام عليّ عليه السلام

ولازمت هذه السيّدة الطاهرة ولدها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولم تقم مع بقيّة أبنائها ، ولمّا تزوّج الإمام عليه السلام بسيّدة نساء العالمين زهراء الرسول ﷺ قال الإمام لأُمّه : « **إكْفِي فاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سِقَايَةَ الْماءِ وَالذَّهابَ فِي الْحاجَةِ ، وَتَكْفِيْكِ فِي داخِلِ الْبَيْتِ الطَّحْنَ وَالْعَجِينَ** ».

وفاتها

ألمّت الأمراض بهذه السيّدة المعظّمة فكانت زهراء الرسول تقوم برعايتها وشؤونها حتى انتقلت إلى حظيرة القدس ، فقام ولدها الإمام عليه السلام بتجهيزها ، وأخبر النبيّ ﷺ بوفاتها فحزن عليها حزناً عميقاً ، وأمر عليّاً بتكفينها في قميصه ، ولمّا انتهى تجهيزها شيّعها النبيّ ﷺ وحفروا لها قبراً فاضطجع فيه ، وجزّاها خيراً ودعا لها بالرحمة والرضوان ، وذلك لما أسدت له من البرّ والإحسان ، وقيل للنبيّ : ما رأيناك صنعت بأحد كما صنعت بهذه ؟

فقال : « **لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ أَبَرَّ بِي مِنْها ، إِنَّما أَلْبَسْتُها قَمِيصي لِتُكْسىٰ**

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١٤.

(٢) أعلام النساء : ٣ : ١١٣.

مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ، وَاضْطَجَعْتُ فِي قَبْرِها لِيُهَوَّنَ عَلَيْها »(١).

أرأيتم كيف قابل النبيّ صلى الله عليه وآله هذه السيّدة المعظّمة بمزيد من التكريم والتعظيم! لقد آمنت هذه الفاضلة بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وآله ، وبذلت قصارى جهدها في خدمته ، وحسبها فخراً وشرفاً وسموّاً أنّها أمّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وممّا لا ريب فيه أنّ الإمام ورث فضائلها وسجاياها ، كما ورث فضائل آبائه الذين سادوا العرب بالمكارم والمآثر.

---

(١) أُسد الغابة : ٥ : ٥١٠. الاستيعاب (المطبوع على هامش الاصابة) : ٤ : ٢٦٩. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١٤. معرفة الصحابة : ١ : ٢٧٩. مقاتل الطالبيّين : ٨ و ٩.

وليد الكعبة

الشيء المحقّق الذي اتّفق عليه المؤرّخون والرواة هو أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد ولد في الكعبة المقدّسة[1] ولم يُولد بها أحد سواه، وكان ذلك من آيات سموّه وعظيم مكانته عند الله تعالى، فقد اختار لولادته أفضل مكان في الأرض وهو البيت المعظّم. قال شهاب الدين السيّد محمود الآلوسي في شرحه لقول عبدالباقي العمري:

أنتَ الْعَلِيُّ الَّذِي فَوْقَ الْعُلىٰ رُفِعا   بِبَطْنِ مَكَّةَ عِنْدَ الْبَيْتِ إِذْ وُضِعا[2]

---

(١) مستدرك الحاكم: ٣: ٤٨٣.
قال الحاكم: «وتواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في الكعبة».
وذكر ذلك كلّ من المسعودي في مروج الذهب: ٢: ٢. ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمّة: ١٤. محمّد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤول: ١١. السبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: ٧. والكنجي في كفاية الطالب: ٣٧. الشبلنجي في نور الأبصار: ٧٦. عبدالرحمن الصفوري الشافعي في نزهة المجالس: ٢: ٢٠٤. الشيخ علي القاري الحنفي في شرح الشفا: ١: ١٥١. علي الحلبي الشافعي في السيرة النبويّة: ١: ١٥٠. والبردواني في روائح المصطفى: ١٠. علاء الدين الكتواري في محاضرة الأوائل: ١٢٠. عبدالحقّ الدهلوي في غاية الاختصار: ٩٧. العقّاد في عبقرية الإمام: ٣٨.

(٢) ديوان عبدالباقي العمري: ٩٦.

قال : وكون الأمير كرّم الله وجهه وُلد في البيت أمر مشهور في الدنيا ، وذُكر في كتب الفريقين : السنّة والشيعة ... ولم يشتهر وضع غيره كرّم الله وجهه به كما اشتهر وضعه ، بل لم تتّفق الكلمة إلّا عليه ، وما أحرى بإمام الأُمّة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين ، وسبحان من يضع الأشياء في موضعها وهو أحكم الحاكمين »(١) .

كيفيّة ولادته عليه السلام

وصف الرواة كيفيّة ولادة إمام المتّقين فقالوا : إنّ والدته السيّدة الزكية فاطمة لمّا أحسّت بالطلق نهضت وهي مبهورة الأنفاس ، فاتّجهت صوب الكعبة المقدّسة ، وهي على يقين لا يخامره شكّ أن لحملها شأناً كبيراً عند الله تعالى ، ولمّا مثلت أمام الكعبة اتّجهت بعواطفها نحو الله تعالى ، وأخذت تناجيه وتدعوه أن ييسّر لها ولادتها ، وتعلّقت بأستار الكعبة قائلة :

« ربِّ إنّي مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسل وكتب ، وإنّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل ... وانّه بنى البيت العتيق ، فبحقّ الذي بنى هذا البيت وبحقّ المولود الذي في بطني لما يسّرت عليَّ ولادتي ... »(٢) .

وحكت هذه الكلمات إيمانها العميق بالله تعالى وبرسله وكتبه وبما جاء من عنده ، وأنّها لم تؤمن بالأوثان والأصنام التي لوّثت جدران الكعبة التي أقامها القرشيّون يعبدونها من دون الله تعالى ، وقد اتّجهت بعواطفها نحو الله تعالى ليسهّل لها ولادة مولودها العظيم .

وما إن انتهت السيّدة فاطمة من دعائها حتى انشقّ لها جدار البيت المعظّم فدخلت فيه وقلبها مطمئن بذكر الله تعالى وبعظمة وليدها الذي ستضيء الدنيا به .

---

(١) شرح الخريدة الغيبيّة في شرح القصيدة العينيّة : ١٥ .

(٢) بحار الأنوار : ٣٥ : ٨ . أمالي الصدوق : ١٩٥ . العمدة : ٨ .

مشرق النور

ولم تمكث السيّدة فاطمة في حرم البيت المعظّم إلّا زمناً قليلاً حتى وضعت وليدها المبارك حجّة الله في أرضه الذي طوّق الدنيا بمواهبه وعبقرياته.

لقد ولد هذا العملاق العظيم في أقدس بيت من بيوت الله ليضيء رحابه ويرفع فيه شعلة التوحيد والإيمان.

لقد ولد أخو النبيّ المصطفى، وباب مدينة علمه، وناصر دينه، وحامي رسالته.

لقد ولد أبوالغرباء، وأخو الفقراء، وملاذ المنكوبين، وصديق المحرومين.

لقد ولد هذا الإمام العظيم الذي غيّر بكفاحه ونضال ابن عمّه مجرى التأريخ وأقاما كلمة العدل والحقّ في الأرض.

مع الشعراء

وانبرت كوكبة من الشعراء من قدامى ومحدَثين إلى نظم ولادة الإمام عليّ عليه السلام في بيت الله الحرام، كان منهم:

١ ـ السيّد الحميري

أمّا السيّد الحميري فهو من أعلام الفكر الشيعي الذي هام بحبّ أهل البيت عليهم السلام ونظم ببليغ نظمه مآثرهم ومناقبهم، قال في ولادة الإمام عليّ عليه السلام في الكعبة:

وَلَدَتْهُ في حَرَمِ الإلهِ وَأَمْنِهِ ... وَالْبَيْتِ حَيْثُ فِناؤُهُ وَالْمَسجِدُ
بَيضاءُ طاهِرَةُ الثِّيابِ كَرِيمَةٌ ... طابَتْ وَطابَ وَلِيدُها وَالْمَوْلِدُ
في لَيلَةٍ غابَتْ نُحوسُ نُجومِها ... وَبَدَتْ مَعَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ الْأَسْعُدُ

والسيّد الحميري قريب من عصر الإمام عليه السلام فقد نظم هذه المأثرة التي شاعت في عصره، وقد حكت هذه الأبيات الثناء العاطر على أمّ الإمام وأنّها كريمة الأصل

طاهرة الذيل ، وأنّها ولدت الإمام في ليلة لا نحس فيها .

٢ـ بولس سلامة

عرض الشاعر الملهم المسيحي بولس سلامة في ملحمته الرائعة في أهل البيت إلى ولادة الإمام في أعزّ بيت من بيوت الله تعالى ، قائلاً :

صَبرَتْ فاطِمٌ عَلَى الضَّيْمِ حَتّى ... لَهَثَ اللَّيْلُ لَهْثَةَ الْمَكْدُودِ
وَإذا نَجْمَةٌ مِنَ الْأُفْقِ خَفَّتْ ... تَطْعَنُ اللَّيْلَ بِالشُّعاعِ الْجَدِيدِ
وَتَدانَتْ مِنَ الْحَطِيمِ وَقَرَّتْ ... وَتَدَلَّتْ تَدَلِّيَ الْعُنْقُودِ
تَسْكُبُ الضَّوْءَ فِي الْأَثِيرِ دَفِيقاً ... فَعَلَى الْأَرْضِ وابِلٌ مِنْ سُعُودِ
وَاسْتَفاقَ الْحَمامُ يَسْجَعُ سَجْعاً ... فَتَهُشُّ الْأَرْكانُ لِلتَّغْرِيدِ
بَسَمَ الْمَسْجِدُ الْحَرامُ حُبُوراً ... وَتَنادَتْ حِجارَةُ لِلنَّشِيدِ
كانَ فَجْرانِ ذلِكَ الْيَوْمِ فَجْرٌ ... لِلنَّهارِ وَآخَرٌ لِلْوَلِيدِ(١)

٣ـ عبدالمنعم الفرطوسي

أمّا شاعر أهل البيت العلّامة الزكي الشيخ عبدالمنعم الفرطوسي فقد كان من أعلام الشعراء ، وقد وهب حياته وفكره للأئمّة الطاهرين ، وقد نظم في ملحمته الكثير من مناقبهم وفضائلهم ، وهي أهمّ موسوعة شعرية في الأئمّة عليهم السلام ، قال فيما يخصّ ولادة الإمام عليه السلام بالبيت الحرام :

قَبَساتٌ مِنَ الْهِدايَةِ شَقَّتْ ... ظُلُماتِ الْعَمَى بِصُبْحٍ مُضاءِ
وَلِواءُ التَّوْحِيدِ رَفَّ فَلَفَّتْ ... عَذَباتُ الْإِلْحادِ وَالْكِبْرِياءِ

---

(١) ديوان بولس سلامة : ٤٨.

وَيَـقِينٌ أَهـابَ بِـالشَّكِّ حَتّى ... أَذْهَبَ الرَّيْبَ مِنْ ضَمِيرِ الرِّيـاءِ
نَـفَحاتٌ مِـنَ الإِمـامَةِ أَوْحَتْ ... بِشَـذاهـا شَـمائِلَ الأَنْـبِياءِ
حَـمَلَتْها أَمـانَةٌ وَرَعَـتْها ... حِـيْنَ أَدَّتْ مـا عِـنْدَها بِـوَفاءِ
خَـيْرُ أُمٍّ عَـذْراءَ قُـدْساً وَطُـهْراً ... هِيَ أَسْـمىٰ قَـدْراً مِـنَ الْـعَذْراءِ
وَضَعَتْها فِي حَيْثُ أَزْكىٰ مَكانٍ ... فَـتَجَلَّتْ كَـالدُّرَّةِ الْـبَيْضاءِ
حِيْنَ شُقَّ الْبَيْتُ الْحَرامُ جَـلالاً ... يَـوْمَ مِـيْلَادِ سَـيِّدِ الأَوْصِـياءِ
فَـأَقامَتْ فِـيهِ ثَـلَاثاً بِـأَمْنٍ ... وَثِـمارُ الْـجِنانِ خَـيْرُ غِـذاءِ
وَقُـرَيْشٌ فِـي حَـيْرَةٍ تَـتَقَرّىٰ ... غامِضَ السِّرِّ فِي ضَمِيرِ الْـخَفاءِ
وَإِذا بِـالْفَضاءِ يَـزْهُو بَـهاءً ... مِـنْ مُـحَيّاً مُـبارَكٍ وَضّـاءِ
وَعَـلِيٌّ كَـالْبَدْرِ يَشْـرُقُ نُـوراً ... وَهْـيَ بِشْـرٌ تُـضِيءُ كَـالْجَوْزاءِ
حَـمَلَتْهُ كَـالذِّكْـرِ بَـيْنَ يَـدَيْها ... حِـيْنَ وافَتْ لِسَـيِّدِ الْـبَطْحاءِ
فَـتَجَلّىٰ وَالْـحَقُّ فَـجْرٌ مُـبِينٌ ... دامِـغاً كُـلَّ بـاطِلٍ وَافْـتِراءِ
وَيَـقِيناً يَـمْحُو الظُّـنُونَ وَتَـمْحُو ... آيَـةُ النُّـورِ آيَـةَ الظَّـلماءِ[١]

تسمية أُمّه له عليه السلام

وبهرت السيّدة فاطمة بمنظر وليدها العظيم ، فقد رأت الفروسية بـادية عـليه ، والشجاعة ماثلة فيه ، ورأت سلامة جسده فسمّته حيدرة ، وهو من أسماء الأسد ، وكان الإمام كما سمّته أُمّه بالأسد ، فقد كان أسد الله وأسد رسوله ، وهو الذي حصد بسيفه رؤوس شجعان العرب في سبيل الإسلام ، وكـان عليه السلام يـعتزّ بـهذه التسـمية ، وخاطب اليهودي مرح في غزوة خيبر حين نازله في ميدان الحرب فقال له :

(١) ملحمة الفرطوسي : ٢ : ٧ و ٨.

أنا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غاباتٍ شَدِيدٍ قَسْوَرَهْ[١]

ولم يلبث أن أطاح برأس عمرو، وكان ذلك من الانتصارات الباهرة التي أحرزها الإسلام.

ويقول الشاعر بولس سلامة:

هالَتِ الأُمَّ صَرْخَةٌ جالَ فِيها ... بَعْضُ شَيْءٍ مِنْ هَمْهَماتِ الأُسُودِ
دَعَتِ الشِّبْلَ حَيْدَراً وَتَمَنَّتْ ... وَأَكَبَّتْ على الرَّجاءِ الْمَدِيدِ
أَسَداً سَمَّتِ ابْنَها كَأَبِيها ... لِبْدَةُ الْجَدِّ أُهْدِيَتْ لِلْحَفِيدِ[٢]

تسمية أبي طالب له

أمّا أبوه شيخ البطحاء ومؤمن قريش فإنّه دخل الكعبة المقدّسة وناجى الله تعالى بإخلاص أن يلهمه تسمية وليده المبارك قائلاً:

يا رَبَّ هذَا الْغَسَقِ الدَّجِيِّ ... وَالْقَمَرِ الْمُنْبَلِجِ الْمُضِيِّ
بَيِّنْ لَنا مِنْ أَمْرِكَ الْخَفِيِّ ... ماذا تَرىٰ فِي إسْمِ ذَا الصَّبِيِّ

فألهمه الله تعالى أن يسمّيه عليّاً، فخرج من البيت الحرام وهو ينشد أمام قريش:

سَمَّيْتُهُ بِعَلِيٍّ كَيْ يَدُومَ لَهُ ... عِزُّ الْعُلُوِّ وَفَخْرُ الْعِزِّ أَدْوَمُهُ

لقد كان هذا الاسم المبارك الذي سمّته به السماء من أحسن الأسماء وأجملها، فقد كان الإمام عالياً في مواهبه وعبقرياته، وعالياً في إيمانه وسموّ أخلاقه، وعالياً فيما وهبه الله من طاقات الفضل والأدب والكمال. يقول عبدالباقي العمري:

---

(١) إرشاد المفيد: ١: ١٢٦ و ١٢٧.

(٢) ديوان بولس سلامة: ٤٨.

أَنْتَ الْعَلِيُّ الَّذِي فَوْقَ الْعُلىٰ رُفِعا ... بِبَطْنِ مَكَّةَ عِنْدَ الْبَيْتِ إِذْ وُضِعا
سَمَّتْكَ أُمُّكَ بِنْتُ اللَّيْثِ حَيْدَرَةً ... أَكْرِمْ بِلَبْوَةِ لَيْثٍ أَنْجَبَتْ سَبُعا[١]

سنة ولادته عليه السلام

ولد أمير البيان ورائد العدالة الإسلامية الإمام عليّ عليه السلام في يوم الجمعة الثالث عشر من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة[٢] وبالحساب الميلادي كانت ولادته عليه السلام سنة (٦٠٠م)، وقد ولد قبل البعثة النبوية باثنتي عشرة سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ألقابه عليه السلام

أمّا الألقاب التي تُضفى على الشخص فإنّها تحكي صفاته ونزعاته. يقول الشاعر:

وَقَلَّما أَبْصَرَتْ عَيْناكَ مِنْ رَجُلٍ ... إِلَّا وَمَعْناهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهْ

وألقاب الإمام عليّ عليه السلام تشير إلى بعض محاسن صفاته، وهي:

١ ـ الصدّيق

لقّبه النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك[٣]، وإنّما لقّب به لأنّه صدّق رسول الله صلى الله عليه وآله وآمن بجميع ما جاء به من عند الله تعالى.

وقد أسلم قبل أن يسلم غيره، قال عليه السلام: **«أَنا الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ آمَنْتُ قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنَ**

---

(١) ديوان عبدالباقي العمري: ٩٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣: ٩٠.

وفي تاريخ الخميس: أنّه ولد بعد عام الفيل بسبع سنين. إعلام الورى: ١: ٣٠٦.

(٣) تأريخ الخميس: ٢: ٢٧٥. تاريخ مدينة دمشق: ٣٢: ٣٣.

أَبُوبَكْرٍ ، وَأَسْلَمْتُ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ »(١) . وقد اشتهر هذا اللقب في عصره وعُرف الإمام به . يقول الصحابي الكبير مالك الأشتر مخاطباً الإمام عليّ عليه السلام : « أنت الصدِّيق الأكبر » . أجل والله إنّه الصدِّيق الأكبر الذي لا يضارعه أحد من المسلمين في ذلك .

٢ ـ الوصيّ

من الألقاب الكريمة التي عُرف بها الإمام عليه السلام « الوصي » أي وصي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أضفاه عليه الرسول ، فقد منحه ذلك في كوكبة من الأحاديث كان منها :

ـ قال صلى الله عليه وآله لعليّ : « **هٰذا وَصِيِّي ، وَمَوْضِعُ سِرِّي ، وَخَيْرُ مَنْ أَتْرُكُ بَعْدِي** »(٢) .

ـ قال صلى الله عليه وآله : « **إِنَّ وَصِيِّي ، وَمَوْضِعَ سِرِّي ، وَخَيْرَ مَنْ أَتْرُكُ بَعْدِي ، وَيُنْجِزُ عِدَتِي ، وَيَقْضِي دَيْنِي ، عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** »(٣) .

ـ سأل سلمان الفارسي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له : من وصيّك ؟

فقال له : **يا سَلْمانُ ، مَنْ كانَ وَصِيَّ مُوسىٰ ؟**

قال : يوشع بن نون .

قال : **فَإِنَّ وَصِيِّي وَوَارِثِي ، يَقْضِي دَيْنِي ، وَيُنْجِزُ مَوْعِدِي ، عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ**(٤) .

لقد شاع هذا اللقب للإمام بين العامّة والخاصّة ، واستمدّوا ذلك من النبيّ صلى الله عليه وآله .

---

(١) المعارف : ١٦٩ . الذخائر : ٥٨ . الرياض : ٢ : ٢٥٧ . كنز العمّال : ١٢ : ٤٣٤ . تهذيب الكمال : ١٢ : ١٨ ، الحديث ٢٥٣٧ .

(٢) تهذيب التهذيب : ٣ : ١٠٦ . ميزان الاعتدال : ١ : ٦٣٥ .

(٣) كنز العمّال : ١١ : ٦١٠ ، الحديث ٣٢٩٥٢ . مجمع الزوائد : ٩ : ١١٣ . المعجم الكبير : ٦ : ٢٢١ .

(٤) الرياض النضرة : ٢ : ١٧٨ .

مع الشعراء

وانتشر هذا اللقب في جميع العصور الإسلامية ، ونظمه الشعراء من قدامى ومحدثين ، ولنستمع إليهم :

١ ـ خزيمة بن ثابت

أمّا خزيمة فهو من ألمع أصحاب الإمام عليّ عليه السلام وأكثرهم ولاءً له ، وكان من قادة جيشه في حرب الجمل ، خاطب الإمام بقوله :

يا وَصِيَّ النَّبِيِّ قَدْ أَجْلَتِ الْحَرْ ... بُ الأَعادي وَسارَتِ الأَظْعانُ[1]

وقد نقم على عائشة وأنكر عليها خروجها لحرب الإمام قائلاً لها :

أَعائِشُ خَلّي عَنْ عَلِيٍّ وَعَيْبِهِ ... بِما لَيْسَ فِيهِ إِنَّما أَنْتِ والِدَهْ
وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ ... وَأَنْتِ عَلىٰ ما كانَ مِنْ ذاكَ شاهِدَهْ[2]

إنّ خزيمة بن ثابت من أوثق الصحابة ، ومن أكثرهم تحرّجاً في دينه ، وإنّه على بيّنة أنّ الإمام عليه السلام وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته من بعده على اُمّته .

٢ ـ عبدالرحمن بن جعيل

ولمّا بويع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة انبرى الشاعر عبدالرحمن يهنّئ المسلمين ببيعته قائلاً :

لَعَمْرِي لَقَدْ بايَعْتُمُ ذا حَفِيظَةٍ ... عَلَى الدِّيْنِ مَعْرُوفَ الْعَفافِ مُوَفَّقا

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١٤٥ . بحار الأنوار : ٣٨ : ٢٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١٤٦ . بحار الأنوار : ٣٨ : ٢٣ .
وفي مناقب آل أبي طالب : ٣ : ٥٠ لعقبة بن أبي لهب .

عَلِيّاً وَصِيَّ الْمُصْطَفىٰ وَابْنَ عَمِّهِ وَأَوَّلَ مَنْ صَلّىٰ أخا الدِّينِ وَالتُّقىٰ (١)

لقد كان لقب الوصيّ من أشهر ألقاب الإمام وأكثرها ذيوعاً بين الناس.

٣ـ جرير بن عبدالله البجليّ

أمّا جرير بن عبدالله البجليّ فهو من أفذاذ أصحاب الإمام عليه السلام، وقد أنكر على شرحبيل بن السمط الكنديّ انضمامه إلى معاوية ومناجزته للإمام عليه السلام، وقد أرسل له أبياتاً من الشعر عاب فيها حربه للإمام عليّ عليه السلام كان منها هذا البيت الذي نظم فيه «الوصاية»:

وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ وَفارِسُهُ الْحامِي بِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ (٢)

٤ـ سعيد بن قيس

وسعيد بن قيس من طلائع أصحاب الإمام، ومن أكثرهم ولاءً له، وكان معه في حرب الجمل التي قادتها عائشة بنت أبي بكر لإسقاط حكومة الإمام عليه السلام، وقال سعيد في وصف الحرب وضراوتها، وقد نظم لفظ الوصيّ قال:

أَيَّةُ حَرْبٍ أُضْرِمَتْ نِيرانُها وَكُسِرَتْ يَوْمَ الْوَغىٰ مُرّانُها ؟ (٣)

قُلْ لِلْوَصِيِّ أَقْبَلَتْ قَحْطانُها فَادْعُ بِها تَكْفيكَها هَمْدانُها

هُمُ بَنُوها وَهُمُ إِخْوانُها (٤)

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١: ١٤٣. بحار الأنوار: ٣٨: ٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١: ٤٩. بحار الأنوار: ٣٨: ٢٥.

(٣) **مُرّانها**: رماحها.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١: ١٤٤ و ١٤٥. بحار الأنوار: ٣٨: ٢٢.

٥ ـ حجر بن عدي

كان حجر بن عدي من خيار صحابة النبيّ ﷺ ، ومن أكثرهم ولاءً لوصيّه وباب مدينة علمه الإمام عليه السلام وقد استشهد في سبيل ولائه له ، قتله معاوية بن هند ، وكانت شهادته من الأحداث الجسام في ذلك العصر.

وكان حجر من قادة جيش الإمام عليه السلام في حرب الجمل ، وهو القائل :

يـــا رَبَّـنا سَـلِّمْ لَـنا عَـلِيّاً ... سَـلِّمْ لَـنا الْـمُبارَكَ الْـمُضِيّا
الْـمُؤْمِنَ الْـمُوَحِّدَ التَّـقِيّا ... لَا خَـطِلَ الرَّأْيِ وَلَا غَـوِيّا
بَـلْ هـادِياً مُـوَفَّقاً مَـهْدِيّاً ... وَاحْفَظْهُ رَبِّي وَاحْفَظِ النَّبِيّا
فِـيهِ فَـقَدْ كـانَ لَـهُ وَلِـيّاً ... ثُمَّ ارْتَـضاهُ بَـعْدَهُ وَصِـيّا [1]

٦ ـ النعمان بن عجلان

كان النعمان بن عجلان مع الإمام في معركة صفّين ، فقال محرّضاً لجيش الإمام عليه السلام على حرب معاوية :

كَيْفَ التَّفَرُّقُ وَالْوَصِيُّ إِمامُنا ... لَا كَـيْفَ إِلاّ حَـيْرَةً وَتَـخاذُلا
لَا تَغْبِنُنَّ عُقولَكُمْ لَا خَيْرَ فـي ... مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ البَلابِلِ عـاقِلا
وَذَرُوا مُعاوِيَةَ الْغَوِيَّ وَتـابِعُوا ... دِيْنَ الْوَصِيِّ لِتَحْمَدُوهُ آجِلا [2]

٧ ـ أبو الأسود الدؤلي

ونظم العالم الكبير أبو الأسود الدؤلي تلميذ الإمام عليّ عليه السلام لفظة الوصيّ

---

(١) شرح نهج البلاغة : ١ : ١٤٥ . بحار الأنوار : ٣٨ : ٢٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة : ١ : ١٤٩ . بحار الأنوار : ٣٨ : ٢٥ .

بهذا البيت :

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شَدِيداً وَعَبّاساً وَحَمْزَةَ وَالْوَصِيّا[١]

٨ـ الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس في مدحه للإمام عليّ عليه السلام :

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَصِيُّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَىٰ عِنْدَ ذِي الذِّكْرِ
وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّىٰ وَصِنْوُ نَبِيِّهِ وَأَوَّلُ مَنْ أَرْدَىٰ الْغُوَاةَ لَدَىٰ بَدْرِ[٢]

٩ـ حسّان بن ثابت

نظم حسّان بن ثابت أبياتاً في مدح الإمام عليه السلام ذكر فيها لفظ الوصيّ :

حَفِظْتَ رَسُولَ اللهِ فِينا وَعَهْدَهُ إِلَيْكَ وَمَنْ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْكَ مَنْ وَمَنْ ؟
أَلَسْتَ أَخاهُ فِي الْهُدَىٰ وَوَصِيَّهُ وَأَعْلَمَ فِهْرٍ بِالْكِتابِ وَبِالسُّنَنْ ؟[٣]

١٠ـ الكميت

أمّا الكميت الأسدي فهو من طلائع الفكر الإسلامي ، وتعدّ هاشميّاته من ذخائر الأدب العربي ، وقد صوّر فيها ـ بصدق ـ حقيقة أهل البيت عليهم السلام وما عانى شيعتهم من المحن والخطوب . قال في مدح الإمام :

وَالْوَصِيُّ الَّذِي أَمَالَ التَّجُوبِيُّ بِهِ عَرْشَ أُمَّةٍ لانْهِدامِ
كَانَ أَهْلَ الْعَفافِ وَالْمَجْدِ وَالْخَيْـ ـرِ وَنَقْضِ الْأُمُورِ وَالْإِبْرامِ[٤]

---

(١) العمدة : ١٠.

(٢) بحار الأنوار : ٣٨ : ٢٧٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٢٨.

(٤) الهاشميات : ١٧.

١١ـ المتنبّي

أمّا المتنبّي فهو شاعر الحياة على امتداد التأريخ ، ولم يؤثر عنه ـ فيما نعلم ـ مدح للإمام عليه‌السلام سوى هذين البيتين ، وقد ذكر فيهما لفظ الوصيّ :

وَتَـــرَكْتُ مَـدْحِيَ لِـلْوَصِيِّ تَـعَمُّداً ... إذْ كَـانَ نُـوراً مُسْـتَطِيلاً شـامِلا
وَإِذَا اسْـتَطالَ الشَّـيْءُ قـامَ بِـذاتِـهِ ... وَصِفاتُ ضَوْءِ الشَّمْسِ تَذْهَبُ باطِلا[1]

١٢ـ أبو تمام الطائي

أمّا أبو تمام الطائي فهو من ألمع شعراء العربية في العصر العبّاسي ، قال في مدحه للإمام عليه‌السلام ، وقد ذكر لفظ الوصيّ :

وَمَـنْ قَـبْلِهِ أَخْـلَفْتُمُ لِـوَصِيِّهِ ... بِـداهِـيَةٍ دَهْـياءَ لَـيْسَ لَـها قَـدْرُ
فَجِئْتُمْ بِها بِكْراً عَـواناً وَلَـمْ يَكُـنْ ... لَـها قَـبْلَها مِـثْلاً عَـوانٌ وَلَا بِكْـرُ
أَخُـوهُ إذا عُـدَّ الْـفَخارُ وَصِـهْرُهُ ... فَـلَا مِـثْلَهُ أَخٌ وَلَا مِـثْلَهُ صِـهْرُ
وَشُـدَّ بِـهِ أَزْرُ الـنَّـبِيِّ مُـحَمَّدٍ ... كَما شُدَّ مِنْ مُوسىٰ بِهارُوْنِهِ الْأَزْرُ[2]

١٣ـ دعبل الخزاعي

أمّا دعبل الخزاعي فقد وهب حياته لآل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وناضل في سبيلهم أشدّ وأقسى ما يكون النضال ، لقد نشر مآثرهم في العصر العباسي الذي تنكّر للسادة العلويّين وطاردهم تحت كلّ حجر ومدر ، وكان من نظمه في الإمام عليه‌السلام مع ذكر الوصيّ بهذه الأبيات :

سَـلَامٌ بِـالْغَداةِ وَبِـالْعَشِيِّ ... عَلىٰ جَدَثٍ بِأَكْنافِ الْغَرِيِّ

---

(١) نهج الايمان : ٦٦٩.

(٢) المراجعات : ٤٠٧.

وَلَا زَالتْ عَزالِي النَّوءِ تُزجي | إِلَيهِ صُبَابَةَ المُـزْنِ الرَّوِيِّ[١]
أَلَا يـا حَـبَّذا تُـربٌ بِـنَجْدٍ | وَقَبْرٌ ضَـمَّ أَوْصـالَ الوصـيِّ
وَصِـيُّ مُـحَمَّدٍ بِـأَبِي وَأُمِّـي | وَأَكْرَمُ مَنْ مَشىٰ بَعْدَ النَّـبِيِّ

وقال في رثاء أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام وقد ذكر لفظ الوصيّ :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُـحَمَّدٍ وَوَصِـيِّهِ | يا لَلْرِّجالِ عَلىٰ قَـناةٍ يُـرْفَعُ ![٢]

هذه شذرات ممّا نظمه أعلام الشعر العربي في مدح الإمام عليه السلام ، وقد حفلت بذكر الوصيّ الذي هو من أكثر ألقابه شيوعاً وانتشاراً.

٣ـ الفاروق

لقّب الإمام عليه السلام بالفاروق لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل ، وقد اقتُبس هذا اللقب من الأحاديث النبوية التي أضفت عليه ذلك ، وهذه بعضها :

ـ روى أبو ذرّ وسلمان أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أخذ بيد عليّ عليه السلام وقال : « **إِنَّ هٰذا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي ، وَهٰذا أَوَّلُ مَنْ يُصافِحُنِي يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَهٰذَا الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ ، وَهٰذا فارُوقُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ** »[٣].

ـ روى الصحابي الجليل أبو ذرّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعليّ : « **أَنْتَ الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ ، وَأَنْتَ الْفارُوقُ الَّذِي تَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ** »[٤].

ـ روى أبوليلى الغفاري ، قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : **سَتَكُونُ مِنْ بَعْدِي**

---

(١) **عزالي النوء** : الغيوم الممطرة.

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٣ : ٩٩.

(٣) مجمع الزوائد : ٩ : ١٠٢. فيض القدير : ٤ : ٣٥٨. كنز العمّال : ١١ : ٦١٦ ، ٣٢٩٩٠. فضائل الصحابة : ١ : ٢٩٦.

(٤) الرياض النضرة : ٢ : ٦٥٥. تاريخ مدينة دمشق : ١ : ٧٦.

فِتْنَةٌ ، فَإذا كانَ ذٰلِكَ فالْزَمُوا عَلِيَّ بْنَ أَبي طَالِبٍ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي ، وَأَوَّلُ مَنْ يُصافِحُنِي يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَهُوَ الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ ، وَهُو فارُوقُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ »(١) .

٤ ـ يعسوب الدين

اليعسوب في اللغة فحل النحل ، ثمّ أُطلق على السيّد الشريف في قومه ، وهو من ألقاب الإمام عليه‌السلام ، لقّبه النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بذلك ، فقد قال له : « **هٰذا** ـ وأشار إلى الإمام ـ **يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمالُ يَعْسُوبُ الظّالِمِينَ** »(٢) .

وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **عَلِيٌّ يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ** » .

وروى أبو سعد ، قال : « دخلت على عليّ عليه‌السلام وبين يديه ذهب فقال : **أَنا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهٰذا** ـ أي الذهب ـ **يَعْسُوبُ الْمُنافِقِينَ** .

ثمّ قال : **بِي يَلُوذُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَبِهٰذا يَلُوذُ الْمُنافِقُونَ** »(٣) .

٥ ـ الوليّ

من الألقاب الرفيعة التي تقلّدها الإمام عليه‌السلام (الوليّ) ، وقد منحته السماء هذا الوسام العظيم .

قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾(٤) .

نزلت الآية الكريمة في حقّ الإمام عليه‌السلام حينما تصدّق بخاتمه على المسكين ،

---

(١) الإصابة : ٧ : ١٦٧ . أُسد الغابة : ٥ : ٢٨٧ . الاستيعاب : ٢ : ٦٥٧ . تاريخ دمشق : ٤٢ : ٤٥٠ .

(٢) مجمع الزوائد : ٩ : ١٠٢ . كنز العمّال : ١١ : ٦١٦ . تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٤١ .

(٣) كنز العمّال : ١٣ : ١١٩ ، الحديث ٣٦٣٨٢ . الصواعق المحرقة : ٧٥ .

وفي تأريخ الخميس : ٢ : ٣٧٥ : « أنّ الإمام كان يلقّب بيعسوب الأئمّة » .

(٤) المائدة ٥ : ٥٥ .

وقد حصرت الآية الولاية العامّة على الناس في الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام، وعبّرت عنه بصيغة الجمع، وهي: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ دون المفرد؛ تعظيماً لشأنه وإكباراً لسموّ منزلته.

وممّا يزيد في أهمّية هذا الحصر وتأكيده اسمية الجملة وهي أبلغ في التأكيد من الجملة الفعلية، بالإضافة إلى حصرها بكلمة «إنّمَا» التي هي من أدوات الحصر، وقد أضفى النبيّ صلى الله عليه وآله هذا اللقب كوكبة من الأحاديث، وهذه بعضها:

- روى ابن عبّاس: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ: **أَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي**»(١).

- روى الخطيب البغدادي بسنده عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **سَأَلْتُ اللهَ فِيكَ خَمْساً فَأَعْطَانِي أَرْبعاً وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي فِيكَ أَنَّكَ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَأَنْتَ مَعِي، مَعَكَ لِواءُ الْحَمْدِ وَأَنْتَ تَحْمِلُهُ، وَأَعْطَانِي أَنَّكَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدي...**» الحديث(٢).

- روى النسائي بسنده: «أنّ قوماً شكوا عليّاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فتألّم، والغضب يبصر في وجهه، وقال: **ما تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ؟ إِنَّ عَلِيّاً مِنِّي وَأَنا مِنْهُ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ بَعْدِي**»(٣).

والمتأمّل في هذه الأحاديث يتجلّى له الأمر بوضوح أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أقام الإمام عليه السلام من بعده خليفة ووليّاً على اُمّته، فإنّ معنى الوليّ هو مالك الأمر والمتصرّف في شؤون مَن يتولّى عليه.

---

(١) سنن أبي داود: ١: ٣٦٠. مسند أحمد بن حنبل: ١: ٣٣١. المستدرك: ٣: ١٣٤. مجمع الزوائد: ٩: ١٢٠.

(٢) تاريخ بغداد: ٤: ٣٣٩. كنز العمّال: ١١: ٦٢٥، الحديث ٣٣٠٤٧.

(٣) خصائص النسائي: ١٩. الرياض النضرة: ٢: ١٧١. كنز العمّال: ٦: ١٩٤. معرفة الصحابة: ١: ٢٩٦. سنن الترمذي: ٥: ٢٩٦، الحديث ٣٧٩٦. مستدرك الحاكم: ٣: ١١١.

٦ـ أمير المؤمنين

من الألقاب الشائعة للإمام عليه السلام (أمير المؤمنين) حتّى أنّه إذا أُطلق فلا ينصرف إلى سوى الإمام عليّ عليه السلام.

يقول الدكتور زكي مبارك: «أمير المؤمنين هو اللقب الاصطلاحي لعليّ بن أبي طالب، فإن رأى القارئ هذا اللقب في كتاب قديم من غير نصّ على اسم فليعلم أنّ المراد هو عليّ بن أبي طالب»(١)، وقد أفضى النبيّ صلى الله عليه وآله هذا اللقب له.

روى أبونعيم بسنده: عن أنس، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **يا أَنَس، اسْكُبْ لِي وُضُوءاً.**

ثمّ قام فصلّى ركعتين، ثمّ قال: **يا أَنَس، أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنْ هٰذَا الْبابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ، وَقائِدُ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ، وَخاتَمُ الْوَصِيِّينَ.**

قال أنس: قلت: اللّهمّ اجعله رجلاً من الأنصار وكتمته، إذ جاء عليّ عليه السلام، فقال: **مَنْ هٰذا يا أَنَس؟**

فقلت: عليّ، فقام مستبشراً فاعتنقه ثمّ جعل يمسح عرق وجهه بوجهه ويمسح عرق عليّ بوجهه، قال عليّ: **يا رَسُولَ الله، لَقَدْ رَأَيْتُكَ صَنَعْتَ شَيْئاً ما صَنَعْتَ بِي مِنْ قَبْلُ؟**

قال: **وَما يَمْنَعُنِي وَأَنْتَ تُؤَدِّي عَنِّي؟ وَتُسْمِعُهُمْ صَوْتِي، وَتُبَيِّنُ لَهُمْ ما اخْتَلَفُوا فِيهِ بَعْدِي**»(٢).

حكت هذه الرواية سموّ منزلة الإمام عليه السلام وعظيم شأنه عند النبيّ صلى الله عليه وآله وأنّه لم يحظ بمثل ذلك أحد سواه.

٧ـ الأمين

من ألقاب الإمام عليه السلام (الأمين) لقّب بذلك لأنّه كان أميناً على أُمور الدين وأسرار

---

(١) عبقرية الشريف الرضيّ: ٢: ٢٢٨. الشافي في الإمامة / الشريف الرضيّ: ١: ٣٧.

(٢) حلية الأولياء: ١: ٦٣. الغارات: ١: ٩٩. الاحتجاج: ١: ٢٠٢.

خاتم المرسلين ، وقد منحه هذا اللقب الرسول ﷺ فقد قال له : « **يا عَلِيُّ ، أنْتَ صَفِيِّي وَأَمِينِي** »(١) .

٨ ـ الهادي

من ألقاب الإمام عليه السلام (الهادي) ، فقد كان هادياً للمسلمين ومرشداً للمتّقين ووليّاً للمؤمنين ، وقد اقتبس هذا اللقب من قول النبيّ ﷺ : « **أنا الْمُنْذِرُ وَعَلِيٌّ الْهادِي ، وَبِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ** »(٢) .

٩ ـ الأُذن الواعية

من الألقاب الكريمة للإمام عليه السلام (الأُذن الواعية) ، فقد كان عليه السلام أُذناً واعية لجميع ما أُنزل على النبيّ ﷺ ، وقد قال له النبيّ حينما نزلت عليه الآية ﴿ **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾(٣) : **سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَها أُذُنَكَ يا عَلِيُّ** .

فقال عليّ : **فَما نَسِيتُ شَيْئاً بَعْدُ ، وَما كانَ لِي أَنْ أَنْسى**(٤) .

١٠ ـ المرتضى

من ألقابه الكريمة (المرتضى) لقّب بذلك لأنّ الله ارتضاه وصيّاً للنبيّ وخليفة له

---

(١) ذخائر العقبى : ٥٧ . تاريخ الخميس : ٢ : ٣٧٥ . خصائص أمير المؤمنين / النسائي : ٩٠ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٣٥٩ . ميزان الاعتدال : ١ : ٤٨٤ . لسان الميزان : ٢ : ١٩٩ . مستدرك الحاكم : ٣ : ١٢٩ . كنز العمّال : ٦ : ١٥٧ .

وجاء هذا المعنى في ذيل تفسير الآية : ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ الرعد ١٣ : ٧ . تفسير الطبري : ١٣ : ٧٢ . تفسير الحقائق : ٤٢ . تفسير الرازي : ١٩ : ١٤ .

(٣) الحاقّة ٦٩ : ١٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٩ : ٣٥ . الكشّاف : ٤ : ٦٠٠ في تفسير الآية . كنز العمّال : ٦ : ١٠٨ . الدرّ المنثور : ٨ : ٢٦٧ .

من بعده ، أو لأنّ الله تعالى ارتضاه لسيّدة النساء زهراء الرسول زوجاً[١] .

١١ـ الأنزع البطين

لقّب الإمام عليه‌السلام بذلك لأنّه كان ذا صلعة ليس في رأسه شعر إلّا من خلفه ، وكان عظيم البطن ولكن بلا بطنة . يقول الجواهري في جوهرته التي رثى بها أبا الأحرار الإمام الحسين عليه‌السلام :

فَيابنَ الْبَطِينِ بِلَا بِطْنَةٍ   وَيابنَ الْفَتَى الْحاسِرِ الْأَنْزَعِ[٢]

سأل رجل عبدالله بن عباس حبر الأُمّة ، فقال له : اخبرني عن الأنزع البطين فقد اختلف الناس فيه ؟

فأجابه ابن عبّاس : أيّها الرجل ، والله لقد سألت عن رجل ما وطئ الحصى بعد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أفضل منه ، وإنّه لأخو رسول الله ، وابن عمّه ووصيّه وخليفته على اُمّته ، وانّه الأنزع من الشرك ، بطين من العلم ، ولقد سمعت رسول الله يقول : « **مَنْ أرادَ النَّجاةَ غداً فَلْيَأْخُذْ بِحُجْزَةِ هـٰذَا الْأَنْزَعِ** ـ يعني الإمام »[٣] .

١٢ـ الشريف

أمّا الإمام فهو من أشرف الناس بحسبه ومثله وورعه وتقواه ، وقد آمن بذلك أعداؤه وخصومه ، فقد روى المؤرّخون أنّ الجيش العباسي لمّا أحاط بمروان آخر ملوك الأمويّين قال لبعض وزرائه : إنّ هذا الجيش ـ أي الجيش العباسي ـ بحاجة لعليّ ، فأنكر عليه ذلك ، وقال له : إنّ عليّاً جيش بذاته .

---

(١) ذخائر العقبى : ٣٢. كنز العمّال : ٦ : ١٥٢ .

(٢) ديوان الجواهري : ٣ : ٢٣٥ .

(٣) حياة أمير المؤمنين عليه‌السلام : ٤٥. علل الشرائع : ١ : ١٥٩ . معاني الأخبار : ٦٣ .

فقال له مروان : لقد عزب عنك ما أردته ، إنّ هذا الجيش بحاجة لعليّ في شرفه ونبله ، فإنّه إذا استولى علينا يستأصل نساءنا وأطفالنا وشيوخنا ، ولا يتركون منّا نافخ رماد ، وإذا كان عليّ قائداً للجيش فإنّه لا يعمل ذلك معنا يصدّه شرفه ونبله عن اقتراف ذلك .

وصدق مروان في تفرّسه فإنّ العبّاسيّين حينما استولوا على الحكم استأصلوا شأفة الأمويّين ، ومثّلوا حتّى بأمواتهم (١) .

١٣ ـ بيضة البلد

من ألقابه الكريمة (بيضة البلد) كما كان أبوه بيضة مكّة ومصدر عزّها وشرفها (٢) .

فقد قالت أُخت عمرو بن عبد ودّ حين بلغها مقتل أخيها :

لَوْ كانَ قاتِلُ عَمْرٍو غيرَ قاتِلِهِ ... لَكُنْتُ أَبْكي عَلَيهِ آخِرَ الأَبَدِ

لكِنَّ قاتِلَ عَمْرٍو لا يُعابُ بِهِ ... مَنْ كانَ يُدْعىٰ قَديماً بَيْضَ الْبَلَدِ (٣)

١٤ ـ خير البشر

لقّبه النبيّ صلى الله عليه وآله (خير البشر) ، وقد ورد ذلك في كوكبة من الأحاديث هذه بعضها :

ـ روى الخطيب البغدادي بسنده عن جابر ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : **عَلِيٌّ خَيْرُ الْبَشَرِ فَمَنِ امْتَرىٰ (٤) فَقَدْ كَفَرَ** » (٥) .

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : ١ : ٣٣٦ .

(٢) تاريخ الخميس : ٥ : ٣٧٥ . معرفة الصحابة : ١ : ٢٩٧ . حياة الحيوان / الجاحظ : ٢ : ٣٣٦ .

(٣) الإرشاد : ١ : ١٠٨ .

(٤) **امترى** : أي شكّ .

(٥) تاريخ بغداد : ٧ : ٤٢١ . حديث خيثمة : ٢٠١ . كنز العمّال : ١١ : ٦٢٥ ، الحديث ٣٣٠٤٥ .

- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**عَلِيٌّ خَيْرُ الْبَشَرِ مَنْ شَكَّ فِيهِ كَفَرَ**»[١].

- روى الخطيب البغدادي عن عليّ عليه السلام: «**أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَنْ لَمْ يَقُلْ عَلِيٌّ خَيْرُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ**»[٢].

وأثرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا المضمون كوكبة أُخرى من الأحاديث.

١٥ـ سيّد العرب

من الألقاب الكريمة للإمام عليه السلام (سيّدالعرب) أضفاه عليه النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «**أنا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَعَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَرَبِ**»[٣].

وروت عائشة: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **ادْعُوا لِي سَيِّدَ الْعَرَبِ**.

فقلت: يا رسول الله، ألست سيّد العرب؟

قال: **أَنا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَعَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَرَبِ**»[٤].

وروى سلمة بن كهيل، قال: «مرّ عليّ بن أبي طالب على النبيّ صلى الله عليه وآله وعنده عائشة، فقال لها: **إذا سَرَّكِ أَنْ تَنْظُرِي إلىٰ سَيِّدِ الْعَرَبِ فَانْظُرِي إلىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ**.

فقالت: يا نبيّ الله، ألست سيّد العرب؟

فقال: **أَنا إِمامُ الْمُسْلِمِينَ، وَسَيِّدُ الْمُتَّقِينَ، وَإِذا سَرَّكِ أَنْ تَنْظُرِي إلىٰ سَيِّدِ الْعَرَبِ**

---

(١) كنوز الحقائق: ٩٢.

(٢) مستدرك الحاكم: ٣: ١٢٤. كنز العمّال: ٦: ١٥٧. حلية الأولياء: ١: ٦٣. تاريخ بغداد: ٣: ٤٠٩. تاريخ مدينة دمشق: ٤٢: ٣٧٢.

(٣) كنز العمّال: ٦: ١٥٧. حلية الأولياء: ١: ٦٣. المستدرك: ٣: ١٢٤. مجمع الزوائد: ٩: ١١٦.

(٤) مستدرك الحاكم: ٣: ١٢٤. ينابيع المودّة: ٢: ١٦١.

فَانْظُرِي إِلىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»[١].

١٦ ـ حجّة الله

من ألقابه العظيمة (حجّة الله) فقد كان حجّة من الله على عباده يهديهم للتي هي أقوم وينير لهم طرق الهداية، منحه هذا اللقب النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**أنا وَعَلِيٌّ حُجَّةُ اللهِ عَلىٰ عِبادِهِ**»[٢].

وروى أنس بن مالك، قال: «كنت عند النبيّ صلى الله عليه وآله فرأى عليّاً مقبلاً فقال: **يا أَنَسُ**.

قلت: لبّيك.

قال: **هٰذَا الْمُقْبِلُ حُجَّتِي عَلىٰ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ**»[٣].

هذه بعض الألقاب التي أُضفيت على الإمام عليه السلام، وهي تحكي سموّ ذاته وعظيم شأنه ومعالي أخلاقه.

كناه عليه السلام

كنّي الإمام عليه السلام بكوكبة من الكنى الشريفة، وهذه بعضها:

١ ـ أبو الريحانتين

وهما الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام سيّدا شباب أهل الجنّة، كنّاه بذلك الرسول صلى الله عليه وآله، فقد قال له: **يا أَبا الرَّيْحانَتَيْنِ، فَعَمّا قَلِيلٍ يَذْهَبُ رُكْناكَ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ**. فلمّا قبض رسول الله قال عليّ: **هٰذا أَحَدُ الرُّكْنَيْنِ**.

---

(١) تاريخ بغداد: ١١: ٨٩. كنز العمّال: ١١: ٦١٩، الحديث ٣٣٠٠٨.

(٢) كنوز الحقائق: ٤٣. تاريخ مدينة دمشق: ٤٢: ٣٠٩. ميزان الاعتدال: ٣: ٧٦.

(٣) الرياض النضرة: ٢: ١٩٣. ذخائر العقبى: ٧٧. ينابيع المودّة: ٢: ١٧٠.

فلمّا توفّيت سيّدة نساء العالمين زهراء الرسول عليها السلام قال: **هٰذَا الرُّكْنُ الْآخَرُ**[١].

٢ ـ أبو السبطين

كنّي بولديه سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام[٢]، وقد شاعت هذه الكنية.

٣ ـ أبو الحسن

كنّي الإمام عليه السلام بابنه الأكبر الإمام الحسن السبط الأوّل للنبيّ صلى الله عليه وآله، وأحبّ ذرّيّته إليه[٣].

٤ ـ أبو الحسين

وشاعت هذه الكنية[٤] في الأوساط الإسلامية، فقد كنّي بولده مفخرة الإسلام والمجدّد الأعظم لدين الإسلام الإمام الحسين عليه السلام الذي استشهد من أجل أن يقيم في الشرق دولة القرآن ويحطّم الدولة الأموية التي استهدفت القضاء على الإسلام.

٥ ـ أبو تراب

إنّ هذه الكنية من أحبّ الكنى عند الإمام عليه السلام، فقد كنّاه بها رسول الله صلى الله عليه وآله في عدّة مناسبات كان من بينها ما يلي:

- روى ابن عبّاس حبر الأمّة، قال: «لمّا آخى النبيّ صلى الله عليه وآله بين أصحابه من

---

(١) ذخائر العقبى: ٥٦. تاريخ الخميس: ٢: ٣٧٥. العمدة: ٣٠٨.

(٢) عمدة القاري / العيني: ٢: ١٤٧. نظم درر السمطين: ٧٨.

(٣) إعلام الورى: ١: ١٩٤.

(٤) معرفة الصحابة: ١: ٢٧٩.

المهاجرين والأنصار ولم يواخ بين الإمام وبين أحد منهم خرج عليّ حتّى أتى جدولاً فتوسّد ذراعه، فسفت عليه الريح، فطلبه النبيّ حتّى ظفر به فوكزه برجله، فقال له:

قُمْ فما صَلَحْتَ أَنْ تَكُونَ إِلَّا أَبا تُرابٍ، غَضِبْتَ حِينَ آخَيْتُ بَيْنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَلَمْ أُواخِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. أَمَا تَرْضىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، أَلَا مَنْ أَحَبَّكَ حُفَّ بِالْأَمْنِ وَالْإِيمانِ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَماتَهُ اللهُ مِيتَةً جاهِلِيَّةً وَحُوسِبَ بِعَمَلِهِ فِي الْإِسْلَامِ »(١).

حكت الرواية ما يلي:

١ ـ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كنّى الإمام عليه السلام بأبي تراب.

٢ ـ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله صرّح أنّ الإمام عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى، فكما أنّ هارون خليفة موسى ووصيّه كذلك الإمام خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله ووصيّه من بعده.

٣ ـ إنّ الرواية بشّرت محبّي الإمام بالرحمة والمغفرة والرضوان، كما أنذرت مبغضيه بسوء العاقبة والخلود في النار.

ـ روى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: « **طَلَبَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فَوَجَدَنِي نائِماً فِي جَدْوَلٍ، فَقالَ: ما النَّوْمُ؟ النَّاسُ يُسَمُّونَكَ أَباتُرابٍ، فَرآنِي كَأَنِّي وَجَدْتُ فِي نَفْسِي مِنْ ذٰلِكَ، فَقالَ: قُمْ وَاللهِ لَأُرْضِيَنَّكَ، أَنْتَ أَخِي، وَأَبُو وُلْدِي، تُقاتِلُ عَلىٰ سُنَّتِي، وَتُبْرِئُ ذِمَّتِي. مَنْ ماتَ فِي عَهْدِي فَهُوَ كَنْزُ اللهِ، وَمَنْ ماتَ فِي عَهْدِكَ فَقَدْ قَضىٰ نَحْبَهُ، وَمَنْ ماتَ يُحِبُّكَ بَعْدَ مَوْتِكَ خَتَمَ اللهُ لَهُ بِالْأَمْنِ وَالْإِيمانِ ما طَلَعَتْ شَمْسٌ أَوْ غَرَبَتْ، وَمَنْ ماتَ يُبْغِضُكَ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً »**(٢).

---

(١) مجمع الزوائد: ٩: ١١١. الفصول المهمّة / ابن الصبّاغ: ٢٢. المعجم الأوسط: ٨: ٣٩ و ٤٠. المعجم الكبير: ١١: ٦٣. كنز العمّال: ١١: ٦٠٧، الحديث ٣٢٩٣٥.

(٢) الجامع الكبير / السيوطي: ٦: ٤٠٤. مجمع الزوائد: ٩: ١٢١. كنز العمّال: ١٣: ١٥٩.

ـ روى الحاكم بسنده : « أنّ رسول الله ﷺ وجد علياً وعمّاراً في دقعاء[(١)] من التراب فأيقظهما ، وحرّك علياً فقال : **قُمْ يا أباتُرابٍ ألا أُخبِرُكَ بِأَشْقَى النَّاسِ ؟ رَجُلَيْنِ : أُحَيْمِرُ ثَمُودَ عاقِرُ النَّاقَةِ ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ عَلىٰ هٰذِهِ** ـ أي على هامة رأسك ـ **فَيَخْضِبُ هٰذِهِ** ـ أي لحيته ـ **مِنْها** »[(٢)].

ـ روى أبو الطفيل ، قال : « جاء النبيّ ﷺ وعليّ نائم في التراب ، فقال : **إنَّ أَحَقَّ أَسْمائِكَ أَبُوتُرابٍ ، أَنْتَ أَبُوتُرابٍ** »[(٣)].

ـ روى عبدالعزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، قال : « قلت لسهل بن سعد : إنّ بعض أُمراء المدينة يريد أن يبعث إليك أن تسبّ علياً فوق المنبر .

قال : أقول : ماذا ؟

قال : تقول : لعن الله أبا تراب .

قال : والله ما سمّاه بذلك إلّا رسول الله ﷺ .

قلت : وكيف ذلك يا أبا العبّاس ؟

قال : دخل عليّ على فاطمة ثمّ خرج من عندها فاضطجع في فيء المسجد ، ثمّ دخل رسول الله ﷺ على فاطمة فقال لها : أين ابن عمّك ؟

فقالت : هو ذاك مضطجعاً في المسجد ، فجاءه رسول الله ﷺ فوجده قد سقط رداؤه على ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول : **اجْلِسْ أَبا تُرابٍ** ، فوالله ما سمّاه به إلّا رسول الله ﷺ ، ووالله ما كان له اسم أحبّ

---

(١) **الدقعاء** : التراب اللين.

(٢) مجمع الزوائد : ٩ : ١٣٦. كنز العمّال : ١٣ : ١٤١ ، الحديث ٣٦٤٤٣. مستدرك الحاكم : ٣ : ١٠٤. تاريخ الطبري : ٢ : ٢٦١. إمتاع الأسماع : ١ : ٥٠. مسند أحمد بن حنبل : ٤ : ٢٦٣.

(٣) مجمع الزوائد : ٩ : ١٠١.

إليه منه »(١).

وشاع هذا اللقب بين المسلمين ونظمه الشعراء ، وكان فيما نظمه بعضهم :

وَجاءَ رَسُولُ اللهِ مُرْتَضِياً لَهُ ... وَما كانَ عَنْ زَهرائِهِ فِي تَشَرُّدِ
فَمَسَّحَ عَنْهُ التُّرْبَ إِذْ مَسَّ جِلْدَهُ ... وَقَدْ قامَ مِنْها آلِفاً لِلتَّفَرُّدِ
وَقالَ لَهُ قولَ التَّلَطُّفِ قُمْ أَبا ... تُرابٍ كَلامَ الْمُخْلِصِ الْمُتَوَدِّدِ

وما أبدع ما قاله عبدالباقي العمري :

أَنتَ ثانِي الْآباءِ فِي مُنْتَهَى الدَّوْ ... رِ وَآباؤُهُ تُعَدُّ بَنُوهْ
خَلَقَ اللهُ آدَماً مِنْ تُرابٍ ... فَهُوَ ابْنٌ لَهُ وَأَنْتَ أَبُوهْ(٢)

إنّ الله تعالى خلق آدماً من تراب ، والإمام أبوه تكريماً وتعظيماً من الله الذي ميّز الابن على أبيه . . .

وقال العلّامة الشيخ حسن طرّاد العاملي :

نُورُ الْحَقِيقَةِ وَالصَّوابِ ... مُتَمَثِّلٌ بِأَبِي تُرابِ
عُنْوانُ مَجْدٍ شامِخٍ ... مُتَنَزِّهٍ عَنْ كُلِّ عابِ
قَدْ أَبْدَعَتْهُ يَدُ السَّما ... لِيَجِيءَ بِالْعَجَبِ الْعُجابِ
وَيَكُونَ نَفْسَ مُحَمَّدٍ ... فِي حِفْظِ أَحْكامِ الْكِتابِ
فَعُلومُهُ مِنْ عِلْمِهِ ... وَبَيانُهُ فَصْلُ الْخِطابِ

إنّ كنية أبي تراب وسام فخر وشرف أضفاه الرسول صلى الله عليه وآله على وصيّه وباب مدينة

---

(١) تاريخ الطبري : ٢ : ٣٦٣ . تاريخ الخميس : ٢ : ٣٧٥ . كنز العمّال : ١٣ : ١٠٦ و ١٠٧ ، الحديث ٣٦٣٤٨ .

(٢) ديوان عبدالباقي العمري : ١٢٦ .

علمه للتدليل على زهده في الدنيا ورفضه لجميع متعها وزينتها ، وإنّها عنده كالتراب .

مع الأمويّين

واتّخذ الأمويّون لقب أبي تراب وسيلة لانتقاص الإمام عليّ عليه السلام والتشهير به ، قال الحاكم النيسابوري : « كان بنو أُميّة ينتقصون عليّاً بهذا الاسم الذي سمّاه به رسول الله صلى الله عليه وآله ويلعنونه على المنبر بعد الخطبة مدّة ولايتهم ، وكانوا يستهزئون به ، وإنّما استهزأوا بالذي سمّاه ، وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[1] »[2] .

وكان الذئب الجاهلي (معاوية) في آخر خطبة الجمعة يقول : « اللّهمّ إنّ أبا تراب ألحد في دينك ، وصدّ عن سبيلك ، فالعنه لعناً وبيلاً ، وعذّبه عذاباً أليماً . . . » .

وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات الفاجرة يشاد بها وتتلى على منابر المسلمين[3] التي أُنشئت ليشاد عليها الحقّ والعدل وتكون مدرسة لتهذيب الأخلاق وإشاعة الفضيلة بين الناس ، ولكنّ معاوية بوحي من جاهليّته حوّلها إلى سبّ العترة الطاهرة التي أذهب الله عنها الرجس وطهّرها تطهيراً ، وقد اقتدى به ملوك الأمويّين فجعلوا سبّ أهل البيت واجباً إسلامياً يحاسبون العامّة والخاصّة على تركه ، وكانت هذه السياسة النكراء من المآسي القاسية التي عاناها الأخيار والمصلحون من المسلمين .

ومن طريف ما ينقل أنّ رجلاً من أهل السنّة أهدى إلى صديق له شيعي برّاً

---

(١) التوبة ٩ : ٦٥ .

(٢) الغدير : ٦ : ٣٣ .

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٤ : ٣٠٦ . الغدير : ٢ : ١٠٢ .

من الحنطة كانت رديئة فردّها عليه ، فأرسل إليه عوضها حنطة جيّدة إلّا أنّها كانت مخلوطة بالتراب فكتب إليه :

بَعَثْتَ لَنا بِذاكَ البُرِّ بُرّاً رَجاءً لِلْجَزِيلِ مِنَ الثَّوابِ
رَفَضْناهُ عَتِيقاً وَارْتَضَينا بِهِ إِذْ جاءَ وَهوَ أَبو تُرابِ[١]

ملامحه وصفاته عليه السلام

كان الإمام عليه السلام من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم أخلاقاً ، وكانت أسارير النور على وجهه الشريف ، وقد وصفت ملامحه بصفات كثيرة كان منها ما يلي :

١ ـ وصف النبيّ صلى الله عليه وآله له عليه السلام

ووصف النبيّ صلى الله عليه وآله أخاه ووصيّه بهذه الأوصاف الرفيعة ، قال : **«مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلىٰ إِبْراهِيمَ في حِلْمِهِ ، وَإِلىٰ نُوحٍ في حُكْمِهِ ، وَإِلىٰ يُوسفَ في جَمالِهِ ، فَلْيَنْظُرَ إِلىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ»**[٢] .

حكت هذه الكلمات عظيم صفات الإمام عليه السلام ، فقد ضارع أنبياء الله الممجّدين في أجلّ صفاتهم ومعالي حكمهم وأخلاقهم.

٢ ـ وصف ضرار للإمام عليه السلام

طلب معاوية من ضرار أن يصف له الإمام لأنّه كان من أخلص أحبّائه ، فامتنع ضرار خوفاً من معاوية إلّا أنّه أصرّ عليه ، فقال له:

كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجّر العلم

---

(١) نفحة اليمن : ١٢.

(٢) ذخائر العقبى : ٢٤.

من جوانبه ، وتنطق الحكمة من لسانه ، يستوحش من الدنيا وزخرفها ، ويستأنس بالليل ووحشته .

وكان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن ـ والله ـ مع تقرُّبه لنا وقربه منّا لا نكاد نكلّمه هيبة له ، يعظّم أهل الدين ، ويقرّب المساكين ، لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وإنّي أشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ـ قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين وهو يقول :

« يا دُنْيا غُرِّي غَيْرِي ، إِلَيَّ تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟

هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، قَدْ بَايَنْتُكِ ثَلَاثاً [١] لَا رَجْعَةَ فِيها ، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ ، وَخَطَرُكِ كَبِيرٌ ، وَعَيْشُكِ حَقِيرٌ ، آهِ مِنْ قِلَّةِ الزّادِ ، وَبُعْدِ السَّفَرِ ، وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ » .

وأثرت هذه الكلمات في نفس معاوية ، فقال : « رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك »[٢] .

وحكت هذه الكلمات بعض الصفات الروحية التي تميّز بها الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام والتي هي مبعث إعجاب وإكبار حتى عند ألدّ أعدائه وخصومه .

٣ ـ وصف ابنه محمّد له عليه‌السلام

ووصف ابنه محمّد بن الحنفية ملامحه فقال :

---

(١) **باينتك** : أي طلّقتك طلاقاً بائناً .

(٢) الاستيعاب : ٣ : ١٠٧ . حلية الأولياء : ١ : ٨٤ . الرياض النضرة : ٢ : ٢١٢ . العمدة : ١٦ . ذخائر العقبى : ١٠٠ . نظم درر السمطين : ١٣٥ .

كان ربع القامة ، أزجّ الحاجبين[١] ، أنجل[٢] كأنّ وجهه القمر ليلة البدر حسناً وهو إلى السمرة ، أصلع ، له حفاف[٣] من خلفه كأنّه إكليل ، وكأنّ عنقه ابريق فضّة ، وهو أرقب[٤] ضخم البطن ، أقرأ الظّهر[٥] ، عريض الصدر ، محض المتن[٦] ، ضخم الكسور ، لا يبين عضده من ساعده ، تدامجت إدماجاً ، عبل الذراعين[٧] ، عريض المنكبين ، عظيم المشاشين[٨] كمشاش السبع الضاري ، له لحية قد زانت صدره ، غليظ العضلات ، حمش الساقين[٩] . وألمّ هذا الوصف ببعض ملامحه وشكله .

٤ ـ وصف المغيرة له

ووصفه المغيرة وهو من أعدائه فقال : «كان على هيئة الأسد ، غليظاً منه ما استغلظ ، دقيقاً منه ما استدقّ »[١٠] .

حكى هذا الوصف القوّة البدنية للإمام عليه السلام وشجاعته النادرة .

٥ ـ وصف بعض المعاصرين له عليه السلام

ووصف بعض المعاصرين للإمام بعض صفاته الجسدية ، قال : «كان ربعة من

---

(١) **الأزج** :دقّة الحاجب وطوله .

(٢) **الأنجل** :سعة العين وجمالها .

(٣) **الحفاف** :الطرّة من الشعر تكون حول رأس الأصلع .

(٤) **الأرقب** :غليظ الرقبة .

(٥) **أقرأ الظهر** : طويله .

(٦) **المحض** :كناية عن استواء الجسم .

(٧) **عبل الذراعين** :أي ضخم الذراعين .

(٨) **المشاش** :رؤوس العظام الليّنة .

(٩) و (١٠) مناقب آل أبي طالب : ٣: ٩١ .

الرجال ، أدعج العينين[١] عظيمهما ، حسن الوجه كأنّه قمر ليلة البدر ، عظيم البدن ، عريض ما بين المنكبين ، لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري ، لا يبين عضده من ساعده قد أُدمج إدماجاً ، شثن الكفّين ، عظيم الكراديس[٢] ، أغيد[٣] كأنّ عنقه إبريق فضّة ، أصلع ليس في رأسه شعر إلّا من خلفه ، كثير شعر اللحية ، وكان لا يخضب ، وكان إذا مشى تكفّأ ، شديد الساعد واليد ، وإذا مشى إلى الحرب هرول ، ثبت الجنان ، قوياً ، ما صارع أحداً إلّا صرعه ، شجاعاً ، منصوراً عند من لاقاه »[٤].

وهذه الصفات التي أدلى بها الرواة متّفقة على أنّ الإمام عليه‌السلام أبرز بطل في العالم الإسلامي وغيره ، وأنّه يملك قوّة البدن ، وقوّة البأس والشجاعة التي لا يملكها أحد سواه بالاضافة إلى صفاته النفسية التي هي أُنشودة المتّقين في كلّ زمان ومكان .

---

(١) **الأدعج** : شدّة السواد في العين مع سعتها .

(٢) **الكراديس** :كلّ عظم تكردس ، أي اجتمع اللحم فيه .

(٣) **الأغيد** : ميل العنق .

(٤) ذخائر العقبى : ٥٧ .

ألمح إلى بعض صفاته ابن حجر في تهذيب التهذيب : ٧ : ٣٣٨ ، وابن سعد في طبقاته : ٢ : ٢٦ .

نشأته العلمية

نشأ الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام في عهد طفولته في كنف أبيه أبي طالب مؤمن قريش وشيخ البطحاء ، الذي كان مثالاً لكلّ فضيلة وعنواناً لكلّ كرامة ، فربّى ولده الإمام على الشهامة والنبل ، وغذّاه بالإيمان بالله ،كما قامت بتربيته اُمّه الزكية السيّدة فاطمة سيّدة نساء عصرها في عفّتها وطهارتها ، فغذّته بالأخلاق الكريمة والعادات الحسنة ، وغرست في نفسه النزعات الشريفة .

احتضان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله للإمام عليه‌السلام

وحينما كان الإمام في فجر الصبا أصابت قريشاً أزمة مادية وضائقة اقتصادية تأثّر منها أبوطالب ، فانبرى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى عمّيه حمزة والعباس وطلب منهما أن يتحمّلا ثقل عمّه ، فاتّجهوا صوبه وعرضوا عليه الأمر ، فقال لهم : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم ، وكان شديد الحبّ لابنه عقيل فأخذ العباس طالباً ، وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ الرسول عليّاً ، وقال لهما : اخترت من اختاره الله عليكما ـ يعني عليّاً ـ ، فكان الإمام في حِجر رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وفي ذرى مودّته وعطفه .

ومن المؤكّد أنّ النبيّ إنّما أخذ الإمام من عمّه ليربّيه ويغذّيه بطباعه وهديه ، وقد وجد في كنفه من الحبّ والمودّة والعطف والإيثار ما لم يجده في بيت أبيه ، وقد غرس النبيّ في دخائل نفس الإمام وأعماق ذاته جميع مقوّمات الإسلام ومبادئه وقيمه ، فكان في المرحلة الاُولى من حياته قد وعى الإسلام وآمن به وفهم جوهره .

إنّ الإمام عليه السلام كان من ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله ومن أكثرهم تطبّعاً بأخلاقه وفهماً لرسالته ، ولمّا أعلن النبيّ صلى الله عليه وآله ثورته الكبرى على الأفكار الجاهلية وعاداتها ، كان الإمام في فجر الصبا يذبّ عنه ، ويحميه من صبيان قريش الذين كانوا يحاربونه بالحجارة ويقذفونه بالتراب ، ويصيحون وراءه ساحر ومجنون ، وكان الإمام عليه السلام يوقع بهم الضرب واللكم فينهزمون إلى أمّهاتهم وآبائهم وكان ذلك أوّل جهاد له في سبيل الإسلام .

وقد تحدّث الإمام عليه السلام عن تلك الفترة الذهبية التي عاشها في رعاية النبيّ صلى الله عليه وآله وما لاقاه من صنوف الحفاوة والتكريم فقال : « **وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ . وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ ، يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ .**

وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ . . . وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ »[١] .

أرأيتم كيف أخلص له النبيّ صلى الله عليه وآله في الحبّ والمودّة والرعاية ؟ فقد أغدق عليه عطفه وحنانه ، وغذّاه بسموّ أخلاقه وآدابه ليكون صورة عنه وممثّلاً له في حياته وبعد وفاته .

التربية النبويّة للإمام عليه السلام

عنى النبيّ صلى الله عليه وآله عناية بالغة بتربية أخيه وابن عمّه الإمام عليه السلام فغرس في أعماق ذاته صفاته الكريمة ونزعاته الشريفة حتى يحكي طباعه واتّجاهاته ويقيمه من بعده

---

(١) نهج البلاغة : ٢ : ١٥٧ . العمدة : ١٠ .

علماً لأمّته ورائداً لتبليغ رسالته .

لقد حفلت تربية النبيّ صلى الله عليه وآله بجميع مقوّمات الارتقاء وسموّ الذات ، وكان من برامجها هذه الصور الرائعة .

١ ـ نكران الذات

ربّى النبيّ صلى الله عليه وآله أخاه على الواقعية ونبذ الأنانية ونكران الذات ، وكان من بين ذلك أنّ الإمام عليه السلام طرق باب النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال الرسول : **مَنْ هـٰذا ؟**

فقال عليّ عليه السلام **أنا يا رَسُولَ اللهِ** .

وكره النبيّ صلى الله عليه وآله كلمة « أنا » من الإمام عليه السلام والتي تخلو من التعظيم لقائلها ، فجعل يقول له : « أنا ، أنا » وفهم الإمام كراهة النبيّ لهذه الكلمة ، فلم يفه بها بعد ذلك[1] .

وتكشف هذه البادرة عن سموّ التربية الإسلامية التي أمدّت الحياة بالاشراق والنهوض .

وظلّ الإمام متأثّراً بهذه التربية الرفيعة طيلة حياته ، ففي أيام حكومته وقيادته للأمّة نبذ نبذاً تامّاً جميع مظاهر الحكم والسلطان التي تلازمها الأُبّهة والاستعلاء على الناس ، وعامل نفسه كبقيّة أفراد الشعب لا ميزة له عليهم ، وقد روى المؤرّخون أنّه اجتاز على أهل المدائن فأقاموا له مهرجاناً شعبياً وذبحوا له الذبائح فنفر من ذلك وخاطبهم أنّه كأحدهم ، ومنع جيشه من أكل لحوم الذبائح حتى يعطي أهلها ثمنها[2] ، وهكذا كان عليّ صورة لا ثاني لها في تاريخ البشرية على الإطلاق سوى الرسول صلى الله عليه وآله .

---

(١) حياة الحيوان / الجاحظ : ١ : ٣٣٧.

(٢) بحار الأنوار : ٧٧: ٤٥.

٢ ـ التحلّي بالصفات الكريمة

من ألوان التربية الإسلامية المشرقة التي غذى بها النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الكوكبة من الأحاديث التربوية ، وهي :

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **يا عَلِيُّ ، ثَلاثٌ مِنْ مَكارِمِ الْأَخْلاقِ : تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ** »(١).

إنّ هذه الخصال الكريمة تسمو بالإنسان وترفع مستواه إلى أرقى ما يصل إليه من كمال النفس .

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **يا عَلِيُّ ، سَيِّدُ الْأَعْمالِ ثَلاثُ خِصالٍ : إِنْصافُكَ النّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمواساةُ الْأَخِ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَذِكْرُ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالىٰ عَلىٰ كُلِّ حالٍ** »(٢).

إنّ هذه الصفات الرفيعة هي أُسس الفضائل التي ينبغي للمسلم أن يتحلّى بها .

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **يا عَلِيُّ ، ثَلاثُ خِصالٍ مِنْ حَقائِقِ الْإِيْمانِ : الْإِنفاقُ فِي الْإِقْتارِ ، وَإِنْصافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَذْلُ الْعِلْمِ لِلْمُتَعَلِّمِ** »(٣).

بهذه الصفات الكريمة ربّى النبيّ صلى الله عليه وآله أخاه وابن عمّه وباب مدينة علمه ليكون أُنموذجاً رائعاً للمسلمين .

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **يا عَلِيُّ ، أُوْصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْها فَلا تَزالُ بِخَيْرٍ ما حَفِظْتَ وَصِيَّتِي .**

يا عَلِيُّ ، مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلىٰ إِمْضائِهِ أَعْقَبَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْناً وَإِيْماناً

---

(١) بحار الأنوار : ٧٧ : ٤٤.

(٢) الكافي : ٢ : ١٤٥.

(٣) الخصال : ١ : ١٢٤.

يَجِدُ طَعْمَهُ »(١).

أرأيتم هذه التعاليم التربوية التي تجعل الإنسان في اطار من الفضيلة والسلامة من كثير من الأزمات والمصاعب ؟

ـ قال صلى الله عليه وآله : « **يا عَلِيُّ ، ثَلاثٌ مَنْ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ : مَنْ أَتَى اللهَ بِما افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ ، وَمَنْ وَرِعَ عَنْ مَحارِمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النّاسِ ، وَمَنْ قَنِعَ بِما رَزَقَهُ اللهُ فَهُوَ مِنْ أَغْنَى النّاسِ** »(٢).

إن من يطبّق على حياته هذه الخصال الكريمة فهو من أفضل الناس ومن أكثرهم طاعة لله تعالى وقرباً منه .

ـ قال صلى الله عليه وآله : « **يا عَلِيُّ ، إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالىٰ قَدْ أَذْهَبَ بِالْإِسْلامِ نَخْوَةَ الْجاهِلِيَّةِ وَتَفاخُرَهُمْ بِآبائِهِمْ ، أَلا وَإِنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ ، وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاهُمْ** »(٣).

إنّ هذه الوصية من أرقى تعاليم الإسلام ، فقد هدمت الحواجز بين الناس ، وألغت الفوارق والتفاضل بالأنساب ، وجعلت التفاوت بينهم بالتقوى والعمل الصالح الذي هو أعظم رصيد للإنسان يميّزه عن غيره ويشرّفه عليه .

ـ من الوصايا الرفيعة التي عهد بها النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام قوله : « **يا عَلِيُّ ، ثَلاثَةٌ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيامَةِ : رَجُلٌ أَحَبَّ لِأَخِيهِ ما أَحَبَّ لِنَفْسِهِ ، وَرَجُلٌ بَلَغَهُ أَمْرٌ فَلَمْ يُقْدِمْ فِيهِ وَلَمْ يَتَأَخَّرْ حَتّىٰ يَعْلَمَ أَنَّ ذٰلِكَ الْأَمْرَ لِلّهِ رِضىً أَوْ سَخَطٌ ، وَرَجُلٌ لَمْ يَعِبْ أَخاهُ بِعَيْبٍ حَتّىٰ يُصْلِحَ ذٰلِكَ الْعَيْبَ مِنْ نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ كُلَّما أَصْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ عَيْباً بَدا لَهُ مِنْها آخَرُ ؛**

(١) الخصال : ٢ : ٣٢ . بحار الأنوار : ٧٧ : ٤٦ .

(٢) بحار الأنوار : ٧٧ : ٥١ . الفقيه : ٤ : ٣٥٨ .

(٣) الفقيه : ٤ : ٣٦٢ . بحار الأنوار : ٧٧ : ٥٣ .

وَكَفىٰ بِالْمَرْءِ فِي نَفْسِهِ شُغْلاً »(١).

ما أروع هذه الصفات التي يسمو بها الإنسان إلى أرقى مستويات الرشد والكمال... وقد تغذّى بها الإمام عليه السلام فكانت من برامج حياته.

هذه بعض الخصال الكريمة التي أوصى بها النبيّ صلى الله عليه وآله أخاه وابن عمّه لتكون له منهجاً في سلوكه مع غيره، وهي أحد برامج التربية النبوية للإمام عليه السلام، وقد ذكرنا الكثير منها في مسند الإمام عليّ عليه السلام.

٣ـ الاجتناب عن الصفات المذمومة

حذّر النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام عليه السلام من بعض الصفات والخصال التي تهبط بالإنسان إلى مستوى سحيق، وهذه بعضها:

ـ قال صلى الله عليه وآله: « **يا عَلِيُّ، أَنْهاكَ عَنْ ثَلاثِ خِصالٍ: الْحَسَدِ، وَالْحِرْصِ، وَالْكِبْرِ** »(٢).

إنّ هذه الخصال من مآثم الحياة، ولا يتّصف بها الشريف.

ـ قال صلى الله عليه وآله: « **يَا عَلِيُّ، مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً لِيُمارِيَ بِهِ السُّفَهاءَ، أَوْ يُجادِلَ بِهِ الْعُلَماءَ، أَوْ لِيَدْعُوَ النّاسَ إِلىٰ نَفْسِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النّارِ** »(٣).

إنّ طلب العلم ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى غير مشوب بالأغراض الدنيئة، أمّا إذا كان مشفوعاً بأغراض لا تمتّ إلى الواقع بصلة فإنّه يكون نقمة عليه عند الله تعالى، وقد ألمح إليها الحديث وهي:

١ ـ طلب العلم لمماراة السفهاء والتغلّب عليهم وإبراز قابليات الشخص، فإنّ ذلك ينمّ عن مرض النفس وبُعدها عن الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٧: ٦٢.

(٢) الفقيه: ٤: ٣٥٨. بحار الأنوار: ٧٧: ٥٢.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٤: ٣٦٢. بحار الأنوار: ٧٧: ٥٤.

٢ ـ طلب العلم لمجادلة العلماء وإظهار الشخص أمام المجتمع بأنّه من مصاف العلماء ، أمّا دوافع هذه الجهة فهو حبّ الدنيا ، ومن المؤكّد أنّها ممّا تبعده عن الله تعالى .

٣ ـ طلب العلم لدعوة الناس إليه ، والالتفاف حوله أعاذنا الله بلطفه وفضله من ذلك .

٤ ـ من بنود التربية النبوية للإمام قوله صلى الله عليه وآله : « **يا عَلِيُّ ، أَلَا أُنَبِّئُكَ بِشَرِّ النّاسِ ؟**

قُلْتُ : بَلىٰ يا رَسُولَ اللهِ .

قالَ : مَنْ لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَلَا يُقِيلُ الْعَثْرَةَ . أَلَا أُنَبِّئُكَ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ ؟

قُلْتُ : بَلىٰ يا رَسولَ اللهِ .

قالَ : مَنْ لَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ ، وَلَا يُرْجىٰ خَيْرُهُ »(١) .

إنّ هذه الخصال الذميمة لا يتّصف بها إلّا أشرار الناس وسفلة المجتمع .

ـ من الوصايا التربوية التي غذّى بها النبيّ صلى الله عليه وآله أخاه وولي عهده الإمام عليه السلام قوله : « **يا عَلِيُّ ، إنَّهُ لا فَقْرَ أَشَدُّ مِنَ الْجَهْلِ ، وَلا مالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ ، وَلا عَمَلَ كَالتَّدْبِيرِ ، وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ** ـ أي عن محارم الله ـ ، **وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ؛ إنَّ الْكِذْبَ آفَةُ الْحَدِيثِ ، وَآفَةُ الْعِلْمِ النِّسيانُ ، وَآفَةُ السَّماحَةِ الْمَنُّ** »(٢) .

على ضوء هذه الحِكم المشرقة التي تمثّل معالي الآداب ومحاسن الأخلاق ربّى النبيّ صلى الله عليه وآله وصيّه وباب مدينة علمه ليكون مثالاً له في حياته وبعد وفاته .

ـ من معالي التربية النبويّة للإمام عليه السلام قوله : « **يا عَلِيُّ ، إيّاكَ وَالْكِذْبَ ، فَإنَّ الْكِذْبَ يُسَوِّدُ الْوَجْهَ ، ثُمَّ يُكْتَبُ عِنْدَ اللهِ كَذّاباً ، وَإنَّ الصِّدْقَ يُبَيِّضُ الْوَجْهَ وَيُكْتَبُ عِنْدَ**

---

(١) بحار الأنوار : ٧٧ : ٦٦ .

(٢) بحار الأنوار : ٧٧ : ٦٤ .

اللهِ صادِقاً ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ الصِّدْقَ مُبارَكٌ ، وَالْكِذْبَ مَشْؤُومٌ »(١).

إنّ الكذب مفتاح الشرّ ، وبه فساد الدنيا وهلاك العباد ، ويباينه الصدق فإنّه مصدر لكلّ فضيلة وسبب للنجاة من كلّ شرّ .

- من روائع التربية الإسلامية التي غذّى بها النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام عليه السلام قوله : « **يا عَلِيُّ ، احْذَرِ الْغِيبَةَ وَالنَّمِيمَةَ** »(٢).

إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله حذّر من الغيبة لأنّها توجب نشر الأحقاد والضغائن بين الناس بالإضافة إلى الحطّ من شخصيّة المغتاب في المجتمع ، والإسلام يحرص كلّ الحرص على كرامة المسلم ، وأن لا ينال بسوء ، وقد ذكر الفقهاء تعريف الغيبة وتحريمها المشدّد في الإسلام ، واستثنوا من ذلك ما إذا كان المغتاب متجاهراً بالفسق والفجور فتجوز غيبته بالجهة المتجاهر بها ولا يجوز قذفه بغيرها من المعاصي . ونهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن النميمة ، وهي من موجبات نشر الكراهية بين المجتمع ، وقد تظافرت الأخبار عن الأئمّة عليهم السلام أنّ النمّام من شرار خلق الله تعالى .

- من الوصايا التربوية للنبيّ صلى الله عليه وآله قوله : « **يا عَلِيُّ ، لا تَغْضَبْ ، فَإِذا غَضِبْتَ فَاقْعُدْ ، وَتَفَكَّرْ فِي قُدْرَةِ الرَّبِّ عَلَى الْعِبادِ ، وَحِلْمِهِ عَنْهُمْ ، وَإِذا قِيلَ لَكَ اتَّقِ اللهَ فَانْبِذْ غَضَبَكَ ، وَراجِعْ حِلْمَكَ** »(٣).

الغضب مفتاح كلّ شرّ وسبب لكلّ جريمة ، وقد حذّر منه النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّه يؤدّي إلى دمار الشخص وهلاكه ، وقد ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله كيفيّة علاجه والوقاية من شرّه ، وهو أن يتفكّر الإنسان في حالة غضبه بقدرة الله تعالى عليه ، وما يعقبه الغضب من الأضرار والمفاسد .

---

(١) تحف العقول : ١٤ . بحار الأنوار : ٧٤ : ٦٧ .

(٢) وسائل الشيعة : ١٠ : ٣٥ . بحار الأنوار : ٧٧ : ٦٧ .

(٣) تحف العقول : ١٣ . بحار الأنوار : ٧٧ : ٦٧ .

- من غرر الوصايا التربوية التي عهد بها النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام قوله :

« **يا عَلِيُّ ، أَنْهاكَ أَن تَخْفِرَ عَهْداً** ـ أي تنقض عهداً ـ **وَتُعِينَ عَلَيْهِ ، وَأَنْهاكَ عَنِ الْمَكْرِ فَإِنَّهُ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، وَأَنْهاكَ عَنِ الْبَغْيِ ، فَإِنَّهُ مَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ** »(١).

إنّ هذه الخصال التي نهى النبيّ صلى الله عليه وآله عنها من موجبات سقوط الإنسان وهلاكه .

- من معالم التربية للإمام عليه السلام هذه الوصيّة :

« **يا عَلِيُّ ، إِنَّ مِنَ الْيَقِينِ أَنْ لا تُرْضِيَ أَحَداً بِسَخَطِ اللهِ ، وَلا تَحْمَدَ أَحَداً بِما آتاكَ اللهُ ، وَلا تَذُمَّ أَحَداً عَلىٰ ما لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ ؛ فإِنَّ الرِّزْقَ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ ، وَلا يَصْرِفُهُ كَراهَةُ كارِهٍ ، إِنَّ اللهَ بِحُكْمِهِ وَفَضْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ والْفَرَجَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضا ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ** »(٢).

وبهذه الوصية الثمينة من النبيّ صلى الله عليه وآله لوصيّه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نطوي الحديث عن بعض معالم التربية النبوية للإمام والتي استهدفت أن يكون ممثّلاً للنبيّ صلى الله عليه وآله لأهدافه وقيمه التي تنشد صالح الإنسان وتطوّر حياته .

وقد ذكرنا عرضاً مفصّلاً لوصايا النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام في مسنده لذا أوجزنا الحديث في هذا الموضوع .

سبقه عليه السلام للإسلام

والشيء الذي اتّفق عليه المؤرّخون والرواة أنّ الإمام عليه السلام أوّل من آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله واستجاب لدعوته عن وعي وإيمان ، وقد قال عليه السلام : « **لَقَدْ عَبَدْتُ اللهَ تَعالىٰ قَبْلَ أَنْ**

---

(١) أمالي الصدوق : ٢ : ٢١٠ . بحار الأنوار : ٧٧ : ٦٩ .

(٢) المحاسن : ١٦ و ١٧ . بحار الأنوار : ٧٧ : ٦٨ .

يَعْبُدَهُ أَحَدٌ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ»[١].

وقال عليه السلام: «**كُنْتُ أَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَأُبْصِرُ الضَّوْءَ سِنِينَ سَبْعاً، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله صامِتٌ ما أُذِنَ لَهُ فِي الْإِنْذارِ وَالتَّبْلِيغِ**»[٢].

ومعنى هذا الحديث أنّه سلام الله عليه في سنّه المبكّر كان يسمع صوت جبرئيل، ويبصر ضوءه قبل أن يبلّغ النبيّ رسالته ويشيعها بين الناس.

وقد أجمع الرواة أنّ الإمام عليه السلام لم تدنّسه الجاهلية بأوثانها، ولم تلبسه من مدلهمّات ثيابها، فلم يسجد لصنم قطّ كما سجد غيره[٣].

يقول المقريزي: «أمّا عليّ ابن أبي طالب الهاشمي فلم يشرك بالله قطّ، وذلك أنّ الله تعالى أراد به الخير فجعله في كفالة ابن عمّه سيّد المرسلين»[٤].

وقد أسلم الإمام وأسلمت معه أمّ المؤمنين الصدّيقة الطاهرة خديجة، فقد احتضنت الإسلام وآمنت بقيمه وأهدافه، وقدّمت في سبيله جميع ما تملكه من الثراء العريض. وقد تحدّث الإمام عليه السلام عن إيمانه وإيمان خديجة بالإسلام بقوله: «**وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ واحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنا ثالِثُهُما**».

وقال ابن عباس: «كان عليّ أوّل من آمن من الناس بعد خديجة»[٥].

وقال ابن إسحاق: «كان عليّ أوّل من آمن بالله وبمحمّد رسول الله صلى الله عليه وآله»[٦].

---

(١) صفة الصفوة: ١: ١٦٢. بحار الأنوار: ٣٨: ٢٥٤.

(٢) بحار الأنوار: ٣٤: ٢٥٥.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ١: ٣٣.

(٤) إمتاع الأسماع: ١: ١٦.

(٥) نهج البلاغة ١: ١١٩، الخطبة ٧١. بحار الأنوار: ١٤: ٤٧٥.

(٦) نهج البلاغة: ١: ١١٩.

إنّ سبق الإمام إلى اعتناق الإسلام ممّا اتّفق عليه الرواة والمؤرّخون(١)، وقد كان عمره الشريف حينما أسلم سبع سنين، وقيل: تسع سنين(٢)، إلّا أنّ التأمّل في تربية النبيّ صلى الله عليه وآله له يقضي بأنّه أسلم في وقت مبكّر من حياته.

وعلى أي حال فقد أعلن ـ باعتزاز وفخر ـ سبقه إلى الإسلام قائلاً: «**أَنا الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ، وَالْفارُوقُ الْأَوَّلُ، أَسْلَمْتُ قَبْلَ إِسْلامِ أَبِي بَكْرٍ، وَصَلَّيْتُ قَبْلَ صَلاتِهِ**»(٣).

ونسب إليه من الشعر بذلك قوله:

سَبَقْتُكُمْ إِلَى الْإِسْلامِ طُرّاً ... غُلاماً ما بَلَغْتُ أوانَ حُلْمِي(٤)

وشاعت هذه الكرامة للإمام في جميع الأوساط الإسلامية، وافتخر بها خيار صحابة الإمام، يقول هاشم المرقال في صفّين:

مَعَ ابنِ عَمِّ أَحْمَدَ الْمُعَلّى ... فِيهِ الرَّسُولُ بِالْهُدَى اسْتَهَلّا

أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ وَصَلّىٰ ... فَجاهَدَ الْكُفّارَ حَتّىٰ أَبْلَىٰ(٥)

وقال سعيد بن قيس وهو من أفاضل أصحاب الإمام عليه السلام:

هذا عَلِيٌّ وَابْنُ عَمِّ الْمُصْطَفىٰ ... أَوَّلُ مَنْ أَجابَهُ مِمَّنْ دَعا(٦)

وأعلن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الإمام عليه السلام هو أوّل من آمن به، فقد قال لأصحابه: «**أَوَّلُكُمْ**

---

(١) صحيح الترمذي: ٢: ٣٠١. الطبقات الكبرى: ٣: ١٤، الفصل الأوّل. كنز العمّال: ٦: ٤٠٠. تاريخ الأمم والملوك: ٢: ٥٠.

(٢) لطائف المعارف ـ الثعالبي: ١٢.

(٣) المعارف: ٧٣. الذخائر: ٥٨. الرياض النضرة: ٢: ٢٥٧.

(٤) بحار الأنوار: ٣٣: ١٣٢.

(٥) الكامل في التاريخ: ٣: ١٣٥.

(٦) بحار الأنوار: ٣٨: ٢٧٧.

وارِداً عَلَيَّ الْحَوْضَ أَوَّلُكُمْ إِسْلَاماً عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ »(١).

وعلى أي حال فسبق الإمام إلى الإسلام قد اتّفق عليه المسلمون ، وهو وسام شرف وفخر للإمام عليه السلام .

حبّه عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله

كان الإمام عليه السلام يحبّ النبيّ صلى الله عليه وآله حبّاً استوعب نفسه ، وأخلص له في الودّ أعظم ما يكون الودّ ، وقد سأله شخص عن مدى حبّه له قائلاً : كيف كان حبّكم لرسول الله ؟

فأجابه الإمام عليه السلام : « **كانَ وَاللهِ أَحَبَّ إِلَيْنا مِنْ أَمْوالِنا وَأَوْلَادِنا وَأُمَّهاتِنا وَمِنَ الْماءِ الْبارِدِ عَلَى الظَّمَأ** »(٢).

ومن المؤكّد أنّه ليس في الأُسرة النبوية ولا في الصحابة من يضارع الإمام عليه السلام في حبّه وإخلاصه للرسول صلى الله عليه وآله ؟ وكان من مودّته له أنّه أتى حائطاً فقال له صاحبه : هل لك أن تسقيه ولك بكلّ دلو تمرة ، وسارع إلى سقيه فأعطاه صاحب البستان تمراً حتى ملأكفّه منه ، فبادر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فأطعمه به(٣).

قيامه عليه السلام بخدمة النبيّ صلى الله عليه وآله

كان الإمام عليه السلام يتولّى رعاية النبيّ صلى الله عليه وآله والقيام بخدماته حتّى أنّه إذا أراد القيام بادر فأخذ بيده ، وإذا أراد أن يجلس اتّكأ عليه(٤).

ومن طرائف ما ينقل أنّ شخصاً وفد على النبيّ صلى الله عليه وآله يستميحه ويطلب رفده فقال

(١) الغدير : ٣ : ٢١.

(٢) خزانة الأدب : ٣ : ٢١٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل : ٢ : ١٠٢.

(٤) إعلام الورى : ١ : ١٨٧.

للإمام: **يا عَلِيُّ، اقْطَعْ لِسانَهُ عَنِّي**، ولم يفهم الشخص المراد من قول النبيّ صلى الله عليه وآله فسار مع عليّ وقد استولى عليه الفزع والخوف، فقال للإمام: أقاطع لساني أنت يا أبا الحسن؟

فقال الإمام له: **إنِّي ماضٍ لِما أُمِرْتُ بِهِ**.

وسار الإمام حتّى انتهى به إلى إبل الصدقة فقال له: **خُذْ ما أَحْبَبْتَ**، فسكن روع الرجل وفهم ما أراده النبيّ، وعلّق الإمام عليه السلام على كلمة النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: **أَحْسَنُ مُوارَبَةٍ سَمِعْتُها فِي كَلَامِ الْعَرَبِ**(١).

وتولّى الإمام عليه السلام بإخلاص القيام بقضاء حوائج النبيّ، وكان يعتلي بغلة النبيّ صلى الله عليه وآله الشهباء، ويسير في شِعب الأنصار لتنفيذ ما عُهد إليه(٢).

نماذج من أدعيته عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله

والشيء المحقّق أنّه لم يعرف أحد من الصحابة وغيرهم مكانة النبيّ صلى الله عليه وآله وسموّ منزلته سوى أخيه وباب مدينة علمه الإمام عليه السلام، فقد خصّه بكثير من الأدعية الحافلة بالتمجيد والتعظيم له والإشادة بفضله وعظيم شأنه، وهذه بعضها:

١ ـ قال عليه السلام:

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلىٰ أَطْيَبِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُنْتَجَبِ الْفَاتِقِ الرَّاتِقِ.

اللّهُمَّ فَخُصَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالذِّكْرِ الْمَحْمُودِ، وَالْحَوْضِ الْمَوْرُودِ.

---

(١) خزانة الأدب: ١: ١٥٤.

(٢) رسائل الجاحظ: ٢: ٢٢٢.

اللّٰهُمَّ آتِ مُحَمَّداً صَلَواتُك عَلَيْهِ وَآلِهِ الْوَسِيلَةَ ، وَالرِّفْعَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَاجْعَلْ فِي الْمُصْطَفَيْنَ مَحَبَّتَهُ ، وَفِي الْعِلِّيِّينَ دَرَجَتَهُ ، وَفِي الْمُقَرَّبِينَ كَرامَتَهُ .

اللّٰهُمَّ أَعْطِ مُحَمَّداً صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ كُلِّ كَرَامَةٍ أَفْضَلَ تِلْكَ الْكَرَامَةِ ، وَمِنْ كُلِّ نَعِيمٍ أَوْسَعَ ذَلِكَ النَّعِيمِ ، وَمِنْ كُلِّ عَطَاءٍ أَجْزَلَ ذَلِكَ الْعَطَاءِ ، وَمِنْ كُلِّ يُسْرٍ أَنْضَرَ ذَلِكَ الْيُسْرِ ، وَمِنْ كُلِّ قِسْمٍ أَوْفَرَ ذَلِكَ الْقِسْمِ حَتّىٰ لَا يَكُونَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ أَقْرَبَ مِنْهُ مَجْلِساً ، وَلَا أَرْفَعَ مِنْهُ عِنْدَكَ ذِكْراً وَمَنْزِلَةً ، وَلَا أَعْظَمَ عَلَيْكَ حَقّاً ، وَلَا أَقْرَبَ وَسِيلَةً مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، إِمَامِ الْخَيْرِ وَقَائِدِهِ ، وَالدَّاعِي إِلَيْهِ ، وَالْبَرَكَةِ عَلىٰ جَمِيعِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَرَحْمَةٍ لِلْعَالَمِينَ .

اللّٰهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ ، وَتَرَوُّحِ الرَّوْحِ ، وَقَرَارِ النِّعْمَةِ ، وَشَهْوَةِ الْأَنْفُسِ ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ ، وَنِعَمِ اللَّذَّاتِ ، وَرَجَاءِ الْفَضِيلَةِ ، وَشُهُودِ الطُّمَأْنِينَةِ ، وَسُؤْدَدِ الْكَرامَةِ ، وَقُرَّةِ الْعَيْنِ ، وَنَضْرَةِ النَّعِيمِ ، وَبَهْجَةٍ لَا تُشْبِهُ بَهَجَاتِ الدُّنْيَا .

نَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ ، وَأَدَّى النَّصِيحَةَ ، وَاجْتَهَدَ لِلْأُمَّةِ ، وَأُوذِيَ فِي جَنْبِكَ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ ، وَعَبَدَكَ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ، فَصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ .

اللّٰهُمَّ رَبَّ الْبَلَدِ الْحَرَامِ ، وَرَبَّ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ، وَرَبَّ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ ، وَرَبَّ الْحِلِّ وَالْحَرامِ بَلِّغْ رُوحَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنَّا السَّلَامَ . اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلىٰ مَلَائِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ ، وَعَلىٰ أَنْبِيَائِكَ ، وَرُسُلِكَ أَجْمَعِينَ .

وَصَلِّ اللّٰهُمَّ عَلَى الْحَفَظَةِ الْكِرامِ الْكَاتِبِينَ ، وَعَلىٰ أَهْلِ طَاعَتِكَ مِنْ أَهْلِ

السَّمٰواتِ السَّبْعِ وَأَهْلِ الْأَرَضِينَ السَّبْعِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعِينَ»[١].

وأنت ترى في هذا الدعاء جميع صنوف التكريم والتعظيم قد رفعها الإمام إلى سموّ النبيّ صلى الله عليه وآله ، ودعا له أن يبوّءهُ الله أسمى مكانة وأعلى درجة في حظيرة القدس.

٢ ـ وكان من مظاهر تعظيم الإمام للنبيّ صلى الله عليه وآله هذا الدعاء ، قال عليه السلام :

اللّٰهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ ، وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ[٢] عَلىٰ فِطْرَتِهَا ، شَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا ، اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ ، وَالدَّامِغِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ ، وَالدَّامِغِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ ، كَمَا حَمَّلَ فَاضْطَلَعَ قَائِماً بِأَمْرِكَ ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ ، وَلَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ ، مَاضِياً عَلىٰ نَفَاذِ أَمْرِكَ ، حَتّىٰ أَوْرىٰ قَبَسَ الْقَابِسِ ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالْآثَامِ ، وَأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ ، وَنَيِّرَاتِ الْأَحْكَامِ ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ.

اللّٰهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ ، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ.

اللّٰهُمَّ وَأَعْلِ عَلىٰ بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ ، وَاجْزِهِ مِنِ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ ،

---

(١) تهذيب الأحكام : ٣ : ٨٣. بحار الأنوار : ٢٠ : ٢٦٣.

(٢) **جابل القلوب** :أي خالقها.

وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ.

اللّٰهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ، وَقَرارِ النِّعْمَةِ، وَمُنى الشَّهَواتِ، وَأَهْواءِ اللَّذّاتِ، وَرَخاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الْكَرامَةِ»[١].

وحفل هذا الدعاء بإحاطة الإمام ومعرفته الكاملة بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فقد أضفى عليه جميع ألوان الحفاوة والتكريم، ودعا له بالمنزلة الكريمة التي يتبوّؤها في الفردوس الأعلى.

تمجيده عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله

وكان الإمام على يقين لا يخامره شكّ بنبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله ورسالته، وكان يثني عليه عاطر الثناء، وممّا قال فيه:

١ ـ قال عليه السلام:

«مُسْتَقَرُّهُ ـ أي النبيّ ـ **خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبَتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعادِنِ الْكَرامَةِ، وَمَماهِدِ السَّلامَةِ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصارِ، دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوائِرَ أَلَّفَ بِهِ إِخْواناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْراناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ. كَلامُهُ بَيانٌ، وَصَمْتُهُ لِسانٌ»[٢].**

ونرى في هذه الكلمات جميع ألوان التعظيم والتمجيد لشخصيّة الرسول صلى الله عليه وآله الذي ما عرفه سوى باب مدينة علمه.

٢ ـ قال عليه السلام:

---

(١) نهج البلاغة: ١: ١٠٠ و ١٠١. بحار الأنوار: ٩١: ٨٣.

(٢) نهج البلاغة: ١: ١٤١. بحار الأنوار: ١٦: ٣٨٠.

«ابْتَعَثَهُ -أي النبيّ- بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي وَالْكِتَابِ الْهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ[١]. فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ»[٢].

وحكت هذه الكلمات ما يحمله الإمام عليه السلام من صنوف التعظيم والاكبار للنبيّ صلى الله عليه وآله، ومن المقطوع به أنّه ليس في أسرة النبيّ ولا في أصحابه من فهم حقيقته وأحاط به علماً سوى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .... هذه بعض كلماته في حقّ الرسول صلى الله عليه وآله.

كتابته عليه السلام للوحي

وتظافرت الأخبار أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يكتب الوحي المنزل على عبد الله ورسوله محمّد صلى الله عليه وآله[٣]، فقد كتب الكثير من الوحي وسور القرآن الكريم، كما أنّه أوّل من نقّط المصاحف[٤]، ومن الجدير بالذكر أنّه تعلّم الكتابة وهو في دور الصبا[٥].

---

(١) **المفصولة**: أي المفصّلة.

(٢) نهج البلاغة: ٢: ٢٢٩.

(٣) الاستيعاب (المطبوع على هامش الإصابة): ١: ٣٠.

(٤) مفتاح السعادة: ١: ٨٩.

(٥) الفصول المختارة: ٢: ٦٦.

كتابته عليه السلام لعهود الرسول صلى الله عليه وآله

كان الإمام عليه السلام يكتب عهود الرسول وصلحه ، فقد كتب لأهل نجران وغيرهم ما سجّله النبيّ صلى الله عليه وآله لهم[١] ، ولمّا صالح رسول الله صلى الله عليه وآله أهل الحديبية كتب الإمام عليه السلام بينهم كتاباً جاء فيه : « محمّد رسول الله ».

فقال المشركون : لا تكتب محمّداً رسول الله ، لو كنت رسولاً لِمَ نقاتلك .

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ : **امْحُهُ** .

فقالَ : **مَا أَنَا بِالَّذِي أَمْحُوْهُ** ، فمحاه النبيّ بيده .

قال : وكان فيما اشترطوا أن يدخلوا مكّة فيقيموا بها ثلاثاً . ولا يدخلها بسلاح إلّا جُلُبّان السلاح ، فسألوه : وما جلبّان السلاح ؟

قال : القِراب وما فيه[٢] .

ومن الجدير بالذكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتفقّد مقاطع الكلام التي كان يكتبها الإمام كتفقّد المصرم صريمته[٣] .

تحطيمه عليه السلام للأصنام

وظاهرة اُخرى من سيرة الإمام واتّجاهاته كراهته البالغة للأصنام وبغضه الشديد لها ، وكان يسعى إلى تدميرها قبل أن يشرق نور الإسلام ، كما فعل جدّه شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأصنام الجاهلية وأوثانها ، وكان عليه السلام ومعه اُسامة يجمعان القمامة وأوساخ البيوت وقاذوراتها ويلقونها على أصنام قريش في غلس الليل ، فإذا

---

(١) صبح الأعشى : ١ : ٦٥ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الصلح : ٣ : ١٦٨ . صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد : ٣ : ١٤١٠ .

(٣) الصناعتين : ٤٣١ . إيضاح الوقف والابتداء : ٢٣١ .

أصبحت قريش ورأت أصنامها ملوّثة رفعت أصواتها بألم وعنف قائلة : من فعل هذا بآلهتنا ، وأنفقوا نهارهم على غسلها بالماء(١) . وقد شاركه النبيّ صلى الله عليه وآله في تحطيم بعض الأصنام ، فقد تحدّث الإمام عليه السلام عن ذلك قائلاً :

« انْطَلَقْتُ أَنا وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وآله حَتّىٰ أَتَيْنا الْكَعْبَةَ فَقالَ لِي رَسُولُ اللهِ : اجْلِسْ ، وَصَعَدَ عَلى مَنْكِبَيَّ فَذَهَبْتُ لِأَنْهَضَ بِهِ فَرَأَىٰ مِنِّي ضَعْفاً ، فَجَلَسَ وَارْتَقَيْتُ عَلىٰ مَنْكِبِهِ فَنَهَضَ بِي وَيُخَيَّلُ لِي أَنْ لَوْ شِئْتُ لَنِلْتُ أُفُقَ السَّماءِ حَتّىٰ صَعَدْتُ عَلَى الْبَيْتِ وَعَلَيْهِ تِمْثالُ صِفْرٍ فَجَعَلْتُ أُزاوِلُهُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمالِهِ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ حَتّىٰ تَمَكَّنْتُ مِنْهُ ، فَقالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله : اقْذِفْ بِهِ ، فَقَذَفْتُ بِهِ فَتَكَسَّرَ كَما تَتَكَسَّرُ الْقَوارِيرُ ، ثُمَّ نَزَلْتُ ، فَانْطَلَقْتُ أَنا وَرَسُولُ اللهُ نَسْتَبِقُ حَتّىٰ تَوارَيْنا خَشْيَةَ أَنْ يَلْقانا أَحَدٌ مِنَ النّاسِ »(٢) .

ومن بين الأصنام التي حطّمها الإمام ما يلي :

١ ـ **مناة** : أقامت العرب صنم مناة وكانت تعظّمه وتعزّه ، فانبرى إليه الإمام عليه السلام فهدّمه(٣) .

٢ ـ **صنم طيّ** : كان لطيّ بجبلي طي فمضى إليه الإمام فحطّمه وأزاله ووجد في مكانه سيفين : اسم أحدهما الرسوب ، واسم الآخر المخذم فحملهما الإمام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فوهبهما له(٤) .

٣ ـ **أصنام مكّة** : ولمّا فتح الله تعالى لعبده ورسوله محمّد صلى الله عليه وآله الفتح المبين واحتلّ مكّة ، وكان قد علّق على الكعبة المقدّسة ثلاثمائة صنم أو يزيد عليها

---

(١) جواهر المطالب : ١ : ٢٦٧ .

(٢) صفة الصفوة : ١ : ١٦٣ . مسند أحمد بن حنبل : ١ : ٨٤ .

(٣) خزانة الأدب : ٧ : ٢٢٤ .

(٤) الروض المعطار : ٤٦٧ . المفصّل في تأريخ العرب قبل الإسلام : ٤ : ٤٥٤ .

اتّخذتها القبائل آلهة يعبدونها من دون الله تعالى ، كان منها نائلة وأساف ومناف وذو الخلصة وذو الكنى وذو الشرى والأقيصر ونهم وسمير وغيرها [١] ، وكان زعيم تلك الأصنام (هبل) وهو إله أبي سفيان أبومعاوية وجدّ يزيد ، وكان من نحاس ، وقد اُوتد بأوتاد من حديد ، فصعد الإمام عليه السلام على منكبي رسول الله صلى الله عليه وآله فعالجه حتى تمكّن من قلعه ورمى به إلى الأرض والنبيّ صلى الله عليه وآله يتلو قوله تعالى : ﴿**قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾ [٢] .

ثمّ قذف الإمام عليه السلام ببقيّة الأصنام وبذلك تطهّر البيت الحرام من أصنام قريش وأوثانها ، فقد حطّمها بطل الإسلام وقائد المسيرة الإسلامية نحو التحرّر ، وقد تفتّحت آفاق الفكر العربي وانتبه الناس إلى ضلالها . يقول زيد بن نوفل :

تَرَكْتُ اللّاتَ وَالْعُزّىٰ جَمِيعاً ... كَذٰلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلَا الْعُزّىٰ أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْها ... وَلَا صَنَمَيْ بَنِي غَنْمٍ أَزُوْرُ
وَلَا هُبَلاً أَزُورُ وَكَانَ رَبّاً ... لَنا في الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي صَغِيرُ [٣]

نقش خاتم الإمام عليه السلام

ولشدّة تعلّق الإمام عليه السلام بالله تعالى فقد كتب على خاتمه « الله الملك » [٤] .

اجتنابه عليه السلام للخضاب

ولم يخضب الإمام عليه السلام كريمته الشريفة لقول النبيّ صلى الله عليه وآله له : « **إنّها تُخضَبُ مِنْ دَمِ**

---

(١) مستدرك الحاكم : ٢ : ٣٦٦ .

(٢) مستدرك الحاكم ٢ : ٣٦٦ . الإسراء ١٧ : ٨١ .

(٣) القاموس الإسلامي : ٤ : ٣٤٧ .

(٤) جواهر المطالب : ٢٩٥ .

رَأْسِهِ »(١) ، لقد آثر الخضاب بدم رأسه الشريف في سبيل الله تعالى .

دار سكناه عليه السلام

ولمّا كان الإمام عليه السلام في مكّة ، كان مقيماً مع أبيه أبي طالب في بيته ، ومحلّه معروف في الأوساط المكّية ، وعندما هاجر الإمام عليه السلام إلى يثرب بنى له النبيّ صلى الله عليه وآله بيتاً مجاوراً للجامع النبوي الشريف وفتح له باباً عليه ، ولمّا أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بإغلاق الأبواب المتّصلة بالجامع استثنى منها باب بيت الإمام عليه السلام تكريماً وتعظيماً له .

ولمّا انتقل الإمام عليه السلام إلى الكوفة واتّخذها عاصمة له لم يسكن في قصر الإمارة الذي بُنِي مقرّاً لرئيس الدولة أيام عمر ، فقد امتنع من سكناه وقال : « **قَصْرُ الْخَبالِ لَا أَسْكُنُ فِيهِ** »(٢) ، وجلس في بيت ابن أُخته ، ثمّ رحل عنه ، وبنى له بيتاً من الطين في الكوفة ، وأحاطه بغرف من القصب ...

وبهذا العرض ينتهي بنا الحديث عن نشأته ، وسنذكر المزيد من شؤونه في البحوث الآتية .

---

(١) وسائل الشيعة : ١ : ٤٩٩ .

(٢) بحار الأنوار : ٣٢ : ٣٥٥ . وقعة صفّين : ٥ ، وفيه : « **قَصْرُ الْخَبالِ لَا تُنْزِلُونِيه** » .

عَنَاصِرُهُ ٱلنَّفْسِيَّةُ

ما من صفة كريمة أو نزعة شريفة يمتاز بها الإنسان ويسمو بها على غيره من الكائنات الحيّة إلّا وهي من ذاتيات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ومن عناصره الفذّة التي لا يضارعه فيها أحد سوى أخيه وابن عمّه الرسول محمّد صلى الله عليه وآله .

لقد كان هذا الإمام الملهم العظيم بمكوّناته النفسية والفكرية دنيا من الكمال والفضائل التي لا حدّ لأبعادها . .

إنّه هبة الله تعالى لهذه الأُمّة مرشداً وهادياً بعد أخيه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، فقد وهبه الله تعالى من الامتيازات والخصائص ، وفضّله على كثيرٍ من خلقه تفضيلاً ، وليس في ذلك أيّ غلوّ ، فإنّ كلّ من يقرأ سيرته ويلمّ ببعض أحواله وشؤونه يؤمن بما ذكرناه .

وعلى أيّ حال ، فإنّا نلمح بإيجاز إلى بعض خصائصه ومكوّناته النفسية وهي :

إيمانه عليه السلام الوثيق بالله تعالى

والظاهرة الفذّة التي تميّز بها الإمام عليه السلام أنّه كان من أعظم المسلمين إيماناً بالله تعالى ، ومن أكثرهم معرفة به ، وهو القائل : « **لَوْ كُشِفَ الغِطاءُ لِي ما ازْدَدْتُ يَقِيناً** » .

ومعنى ذلك أنّه لو تجلّى له الله تعالى بعظمته ورآه لما زاده ذلك يقيناً بمعرفته والإيمان به ، وقد ناجى الله تعالى بإيمان قائلاً : « **إلـهي ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ عِقابِكَ ،**

وَلَا طَمَعاً فِي ثَوَابِكَ ، وَلٰكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتُكَ »[١].

إنّ هذا هو منتهى الإيمان ، فقد كانت عبادته لله تعالى عبادة المنيبين والعارفين لا عبادة تقليدية .

وقد أُثرت عنه من الخطب والكلمات القصار في توحيد الله تعالى وتعظيمه وتنزيهه عن الشريك وغيره ما لم يؤثر عن غيره من ملوك المسلمين وزهّادهم وعلمائهم .. إنّه داعية الله تعالى الأكبر بعد أخيه وابن عمّه الرسول صلى الله عليه وآله ، فقد وهب حياته لله تعالى ، وجاهد في سبيله أعظم ما يكون الجهاد ، وكانت جميع أعماله خالصة لوجه الله تعالى لا يشوبها أيّة شائبة من أغراض الدنيا ومتعها التي يؤول أمرها إلى التراب ، وذكر المؤرّخون عنه أنّه حينما صرع عمرو بن عبد ودّ العامري فارس العرب لم يجهز عليه لأنّه قد سبّه وأغلظ في شتمه ، فغضب من ذلك ، ولمّا سكن غضبه أجهز عليه ، وقد سئل عن السبب في تأخيره لقتله ، فأجاب : « **إِنِّي ما أَحْبَبْتُ قَتْلَهُ انْتِقاماً لِسَبِّهِ لِي فَيَفُوتَ مِنِّي الْأَجْرُ وَالثَّوابُ ، فَلَمّا سَكَنَ غَضَبِي أَجْهَزْتُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعالىٰ** » .

وهكذا كانت جميع أعماله وصنوف جهاده خالصة لوجه الله تعالى ، لم يبتغ فيها إلّا رضا الله تعالى ، وقد ولج في أعنف الحروب وأشدّها محنة وأقساها بلاءً دفاعاً عن دين الله ونصرةً لنبيّ الله صلى الله عليه وآله .

إنابته عليه السلام لله تعالى

كان الإمام عليه السلام من أعظم المنيبين لله تعالى ، ومن أكثرهم خوفاً منه ، وقد حدّث أبو الدرداء عن شدّة إنابته لله تعالى ، قال : « شهدت عليّ بن أبي طالب عليه السلام بشويحطات النجّار وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممّن يليه واستتر بمغيلات

(١) بحار الأنوار : ٤١ : ١٤ .

النخل ، فافتقدته ، وبعُد عليَّ مكانه .

فقلت : لحق بمنزله ، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجيّة ، وهو يقول : **إلـٰهي كَمْ مِنْ مُوبِقَةٍ حَلُمْتَ عَن مُقابَلَتِها بِنِقْمَتِكَ ، وَكَمْ مِنْ جَرِيرَةٍ تَكَرَّمْتَ عَنْ كَشْفِها بِكَرَمِكَ ، إلـٰهي إنْ طَالَ فِي عِصْيانِكَ عُمْرِي ، وَعَظُمَ فِي الصُّحُفِ ذَنْبِي ، فَما أَنا بِمُؤَمِّلٍ غَيْرَ غُفْرانِكَ ، وَلَا أَنا بِراجٍ غَيْرَ رِضْوانِكَ .**

وذهل أبو الدرداء ، وهام في تيارات من خشية الله ، وراح يفتّش عن صاحب هذا الصوت ، ولم يلبث حتى عرفه ، وإذا به إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فاستتر أبو الدرداء ليسمع بقيّة مناجاة الإمام ، وراح الإمام يصلّي ، فلمّا فرغ من صلاته توجّه بقلب منيب إلى الدعاء والبكاء من خشية الله تعالى ، وكان ممّا ناجى به الله تعالى قوله : **إلـٰهي أُفَكِّرُ فِي عَفْوِكَ فَتَهُونُ عَلَيَّ خَطِيئَتِي ، ثُمَّ أَذْكُرُ الْعَظِيمَ مِنْ أَخْذِكَ فَتَعْظُمُ عَلَيَّ بَلِيَّتِي .**

ثمّ قال : **آهِ إِنْ أَنا قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ سَيِّئَةً أَنا ناسِيها وَأَنْتَ مُحْصِيها ، فَتَقُولُ : خُذُوهُ ، فَيا لَهُ مِنْ مأْخُوذٍ لا تُنْجِيْهِ عَشِيرَتُهُ ، وَلَا تَنْفَعُهُ قَبِيلَتُهُ ! يَرْحَمُهُ الْمَلأُ إذا أُذِنَ فِيهِ بِالنِّداءِ . . . آهِ مِنْ نارٍ تُنْضِجُ الْأَكْبادَ وَالْكُلىٰ ، آهِ مِنْ نارٍ نَزّاعَةٍ لِلشَّوىٰ ! آهِ مِنْ غَمْرَةٍ مِنْ مُلْهِباتِ لَظىٰ .**

يقول أبو الدرداء : ثمّ انفجر الإمام عليه السلام باكياً وخمد صوته ، فسارعت إليه فوجدته كالخشبة الملقاة فحرّكته فلم يتحرّك ، فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، مات والله عليّ بن أبي طالب ، فبادرت مسرعاً إلى بيته أنعاه إلى أهله ، فقالت زهراء الرسول سلام الله عليها : **يا أَبا الدَّرْداءِ ، ما كانَ مِنْ شأْنِهِ ؟**

فأخبرتها بما رأيته ، فقالت سيّدة النساء : **هِيَ وَاللهِ يا أَبا الدَّرْداء الْغَشْيَةَ الَّتي تَأْخُذُه مِنْ خَشْيَةِ اللهِ .**

ثمّ أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ، ونظر إليَّ وأنا أبكي فقال لي : **مِمَّ بُكاؤُكَ يا أَبا الدَّرْداءِ ؟**

فقال أبو الدرداء : ممّا أراه تنزله بنفسك .

فأجابه الإمام وهو غارق بالخشية من الله قائلاً : **يا أَبا الدَّرْداءِ ، كَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ دُعِيَ بِي إِلَى الْحِسابِ ، وَأَيْقَنَ أَهْلُ الْجَرائِمِ بِالْعَذابِ ، وَاحْتَوَشَتْنِي مَلائِكَةٌ غِلاظٌ ، وَزَبانِيَةٌ فِظاظٌ ، فَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَبّارِ ، قَدْ أَسْلَمَنِي الْأَحْباءُ ، وَرَحِمَنِي أَهْلُ الدُّنْيا ، لَكُنْتَ أَشَدَّ رَحْمَةً لِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .**

وبهر أبو الدرداء ممّا رآه من إنابة الإمام وخشيته من الله تعالى وراح يقول : والله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله »[١] .

أرأيتم هذا الإيمان الذي يمثّل التقوى والخشية من الله تعالى ؟ لقد كان هذا الإمام العظيم في جميع فترات حياته قد تعلّق قلبه وفكره بالله تعالى ، وسعى لكلّ ما يقرّبه إليه زلفى .

وممّا قاله ضرار لمعاوية في وصفه للإمام : « ولو رأيته في محرابه ، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو قابض على لحيته يتململ تململ السليم[٢] ويبكي بكاء الحزين ، وهو يقول : **يا دُنْيا ، إِلَيَّ تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟**

هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، لا حاجَةَ لِي فِيكِ ، أَبَنْتُكِ ثَلاثاً[٣] لا رَجْعَةَ لِي عَلَيْكِ .

ثمّ يقول : **آهِ آهِ لِبُعْدِ السَّفَرِ ، وَقِلَّةِ الزّادِ ، وَخُشُونَةِ الطَّرِيقِ .**

---

(١) أمالي الصدوق : ٤٨ و ٤٩ . بحار الأنوار : ٤١ : ١١ و ١٢ .

(٢) **السليم** : من لدغته الحيّة .

(٣) **أبنتك** : أي طلّقتك طلاقاً بائناً .

وتأثّر معاوية وقال: حسبك يا ضرار، كذلك والله كان عليّ»[١].

وروى نوف شدّة خشيته من الله تعالى، قال: «بتّ ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام فكان يصلّي الليل كلّه، ويخرج ساعة بعد ساعة، فينظر إلى السماء، ويتلو القرآن، قال: فمرّ بي بعد هدء من الليل فقال: **يا نَوْف، أراقِدٌ أنْتَ أمْ رامِقٌ ؟**

قال نوف: بل رامق أرمقك ببصري يا أمير المؤمنين.

فالتفت إليه الإمام عليه السلام وهو يقول بصوت خافت: **يَا نَوْفُ، طُوبَىٰ لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِينَ فِي الْآخِرَةِ، أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطاً، وَتُرَابَهَا فِرَاشاً، وَمَاءَهَا طِيباً، وَالْقُرْآنَ دِثَاراً، وَالدُّعَاءَ شِعَاراً، وَقَرَضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْرِيضاً، عَلَىٰ مِنْهَاجِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ. إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ: قُلْ لِلْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا يَدْخُلُوا بَيْتاً مِنْ بُيُوتِي إِلَّا بِقُلُوبٍ طَاهِرَةٍ، وَأَبْصَارٍ خَاشِعَةٍ، وَأَكُفٍّ نَقِيَّةٍ، وَقُلْ لَهُمْ: اعْلَمُوا أَنِّي غَيْرُ مُسْتَجِيبٍ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ دَعْوَةً وَلِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِي قِبَلَهُ مَظْلِمَةٌ...**»[٢].

إنّ هذه الإنابة تبهر العقول، إنّها إنابة العارفين بالله تعالى الذين ملئت نفوسهم إيماناً وخشية وإخلاصاً لله تعالى، ولا شكّ في أنّ الإمام عليه السلام هو إمام المتّقين وسيّد العارفين الذي غذّاه النبيّ صلى الله عليه وآله بإيمانه وتقواه، فصار صورة صادقة عنه.

وقد روى المؤرّخون صوراً مذهلة عن خشية الإمام عليه السلام وإنابته إلى الله تعالى، فقد رووا أنّه حينما كان في أشدّ الأهوال وأعنفها في صفّين كان يقيم الصلاة في وسط المعركة وسهام الأعداء تأخذه يميناً وشمالاً، وهو غير حافل بها لأنّ مشاعره وعواطفه قد تعلّقت بالله تعالى[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٤١: ١٥. أمالي الصدوق: ٧٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤١: ١٦. الخصال: ١: ١٦٤.

(٣) وقعة صفّين: ١٣٣.

وكان الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين عليّ ابن الحسين عليه السلام إذا أخذ كتاب عليّ ونظر ما فيه من عبادته قال : **مَنْ يُطِيقُ هـٰذا** ، خصوصاً في حال صلاته فإنّه يتغيّر لونه . وما أطاق أحد أن يعمل مثل عبادته إلّا عليّ بن الحسين عليه السلام[١] .

وقد روى أبو جعفر عليه السلام ، قال : « **دَخَلْتُ عَلىٰ أَبي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ فَإِذا هُوَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِبادَةِ ما لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ ، قَدِ اصْفَرَّ لَوْنُهُ مِنَ السَّهَرِ ، وَرَمَضَتْ عَيْناهُ مِـنَ الْـبُكاءِ ، وَدَبَرَتْ جَبْهَتُهُ ، وَانْخَرَمَ أَنْفُهُ مِنَ السُّجودِ ، وَوَرِمَتْ ساقاهُ وَقَدَماهُ مِنَ الصَّلاةِ .**

قالَ أَبو جَعْفَرٍ : فَلَمْ أَمْلِكْ نَفْسي حينَ رَأَيْتُهُ بِتِلْكَ الْحالَةِ وَهُوَ يَبْكي فَبَكَيْتُ رَحْمَةً لَهُ .

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ فَقالَ : أَعْطِني بَعْضَ تِلْكَ الصُّحُفِ الَّتي فيها عِبادَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ ، فَأَعْطَيْتُهُ فَقَرَأَ فيها شَيْئاً يَسيراً ، ثُمَّ تَرَكَها مِنْ يَدِهِ تَضَجُّراً ، وَقالَ : مَنْ يَقْوىٰ عَلىٰ عِبادَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ »[٢] .

العصمة من الذنوب

وظاهرة أُخرى من نزعات الإمام عليه السلام وذاتياته العصمة من كلّ إثم ورجس ، فلم يقترف ـ بإجماع المؤرّخين ـ أي ذنب أو خطيئة ، ولم يشذّ عن سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله في هديه وسلوكه . وقد حاول ابن عوف بعد اغتيال عمر أن يقلّده الخلافة وشرط عليه أن يسير بسيرة الشيخين في حكومته فأبى وامتنع ، وأصرّ على متابعة الكتاب والسنّة ، ولو كان من عشّاق المُلك وهواة السلطان لأجاب إلى ذلك ، ولمّا أصر عليه الخوارج أن يعلن التوبة لينضمّوا تحت لوائه فأبى لأنّهم هـم الذيـن اقـترفوا الإثـم وأرغموا الإمام عليه السلام على قبول التحكيم ، ولو كان يروم السلطة لأجابهم إلى ذلك .

وعلى أي حال فقد صدرت منه مجموعة من الكلمات تـدلّ ـ بـوضوح ـ عـلى

---

(١) روضة الكافي : ٨ : ١٦٣ . وسائل الشيعة : ١ : ٦٣ .

(٢) الإرشاد : ٢٧١ . بحار الأنوار ٣٧ : ١٧ . وسائل الشيعة ١ : ٦٨ .

عصمته ، كان منها ما يلي :

١ ـ قال عليه السلام : « **وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا ، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ جُلْبَ شَعِيرَةٍ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا ، مَا فَعَلْتُهُ** »(١).

وهذه هي العصمة التي تقول بها الشيعة ، وتُضفِيها على أئمّتهم .

٢ ـ قال عليه السلام : « **وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ(٢) مُسَهَّداً ، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَىٰ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ** »(٣).

أليست هذه هي العصمة ؟

أليست هذه هي الطهارة من الرجس وآثام الحياة ؟

أليست هذه هي ملكة العدالة التي تبلغ بالإنسان إلى قمّة الإيمان والتقوى ؟

٣ ـ قال عليه السلام : « **وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَىٰ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتَ عَلَىٰ جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ(٤) . وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ ، إِلَىٰ مُصَفَّىٰ هٰذَا الْعَسَلِ ، وَلُبَابِ هٰذَا الْقَمْحِ ، وَنَسَائِجِ هٰذَا الْقَزِّ . وَلٰكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَىٰ تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :**

---

(١) نهج البلاغة : ٣ : ١٣٥ .

(٢) **الحسك** : الشوك .

السعدان : نبت له شوك ترعاه الإبل .

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٣ : ٨٠ .

(٤) **المزلق** : الصراط .

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَـبِيتَ بِـبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِـدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : هٰذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِـي مَكَـارِهِ الدَّهْـرِ ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ !»[١] .

أليس هذا هو نكران الذات الذي هو عين العصمة من كلّ إثم من مآثم الحياة .

٤ ـ قال عليه السلام : « **وَاللهِ لَدُنْيَاكُمْ هٰـذِهِ أَهْوَنُ فِـي عَـيْنِي مِـنْ عِـرَاقِ خِـنْزِيرٍ فِـي يَـدِ مَجْذُومٍ** »[٢] .

فإذا كانت الدنيا عنده بهذه الحقارة والضعة كيف يقترف الذنوب للظفر بملاذها وخيراتها .

٥ ـ قال عليه السلام : « **وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَة مِنْ رَبِّي ، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي ، وَإِنِّي لَـعَلَىٰ الطَّـرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً** »[٣] .

لقد كان على الطريق الواضح الذي لا التواء ولا منعطفات فيه ، وهو عين العصمة التي هي من ذاتيات الإمام عليه السلام .

٦ ـ قال عليه السلام : « **مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ ، وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضُلَّ بِي** »[٤] .

٧ ـ قال عليه السلام : « **إِنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَىٰ اللهِ وَلَا عَلَىٰ رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ** »[٥] .

٨ ـ قال عليه السلام : « **فَوَالَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَىٰ جَادَّةِ الْـحَقِّ ، وَإِنَّـهُمْ لَـعَلَىٰ مَـزَلَّةِ الْبَاطِلِ** »[٦] .

---

(١) نهج البلاغة : ٣ : ٧١ و ٧٢ . بحار الأنوار : ٤٠ : ٣٤٠ .

(٢) نهج البلاغة : ٤ : ٥٢ ، الخطبة ٢٣٦ . بحار الأنوار : ٤٠ : ٣٣٧ .

(٣) نهج البلاغة : ١ : ١٨٩ . بحار الأنوار : ٣٤ : ٨١ .

(٤) نهج البلاغة : ٤ : ٤٣ . بحار الأنوار : ٣٠ : ٦٧ .

(٥) نهج البلاغة : ٢ : ١٧١ . بحار الأنوار : ٣٤ : ١٠٨ .

(٦) نهج البلاغة : ٢ : ١٧١ . بحار الأنوار : ٣٤ : ١٠٨ .

وتجسّدت العصمة بجميع صورها ومفاهيمها في أقوال الإمام وسلوكه ونزعاته .

زهده عليه السلام

من ذاتيات إمام المتّقين ، ومن أبرز عناصره الزهد التامّ في الدنيا ، والرفض الكامل لجميع مباهجها وزينتها ، لقد سيطر على نفسه وعوّدها البؤس والحرمان ، وحمّلها من أمره رهقاً ، فلم يستجب لأي متعة من متع الحياة ، ولم ينعم بأي نعمة من نعيمها ، فكان أزهد الناس كما يقول عمر بن عبدالعزيز(١) .

ولمّا آلت إليه الخلافة وأشرقت الدنيا بحكومته التي هي امتداد لحكومة الرسول صلى الله عليه وآله ، طلّق الدنيا ثلاثاً وعاش في أرباض يثرب والكوفة عيشة البؤساء والفقراء ، فلم يبن له داراً ، ولم يلبس من نفائس الثياب وإنّما كان يلبس لباس الفقراء ، ويأكل أكلهم ، وقد قيل له في ذلك فأجاب : «**كَيْلا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ !**»(٢) وهكذا انصرف عن الدنيا ، ولم يعد لملاذها ومنافعها أي ظلّ عليه .

صور مذهلة من زهده عليه السلام

وذكر المؤرّخون والرواة صوراً رائعة ومذهلة من زهد الإمام عليه السلام كان منها ما يلي :

١ ـ لباسه عليه السلام

ولم يعن الإمام عليه السلام بلباسه ، وإنّما كان يلبس أخشن الثياب ، وهذه بعض البوادر التي حكيت عنه :

ـ روى أبو إسحاق السبيعي ، قال : «كنت على عنق أبي وأمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب يخطب ، وهو يتروّح بكمّه ، فقلت : يا أبه ، أمير المؤمنين يجد الحرّ ؟

---

(١) تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٤٨٩. جواهر المطالب : ١ : ٢٧٦.

(٢) نهج البلاغة : ٢ : ١٨٨. الكافي : ١ : ٤١٠.

فقال : لا يجد حرّاً ولا برداً ، ولكنّه غسل قميصه وهو رطب ، ولا له غيره فهو يتروّح به »[١] .

- روى عمر بن قيس ، قال : « رئي عليّ وعليه إزار مرقوع فعوتب عليه ، فقال : **يَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُ ، وَيَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ** »[٢] .

- روى أبو حيّان التميمي عن أبيه ، قال : « رأيت عليّاً على المنبر يقول : **مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي سَيْفِي هٰذا ؟ فَلَوْ كانَ عِنْدِي ثَمَنُ إزارٍ ما بِعْتُه** .

فقام إليه رجل فقال له : أنا أُسلفك ثمن إزار . . . » .

وعلّق على ذلك عبدالرزاق ، فقال : « لقد فعل الإمام ذلك وكانت الدنيا إذ ذاك بيده إلّا الشّام »[٣] .

- روى عليّ بن الأقمر ، قال : « رأيت عليّاً وهو يبيع سيفاً له في السوق ويقول : **مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي هٰذَا السَّيْفَ ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ لَطالَما كَشَفْتُ بِهِ الْكُرَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ، وَلَوْ كانَ عِنْدِي ثَمَنُ إزارٍ ما بِعْتُهُ** »[٤] .

- ذكر الرواة أنّه لم يكن للإمام عليه السلام إلّا قميص واحد لا يجد غيره في وقت الغسل[٥] .

- أتى الإمام عليه السلام سوق البزّازين ليشتري ثوباً له فوقف على تاجر فعرفه ، فأراد مسامحته ليتقرّب إليه ، فانصرف عنه ولم يشترِ منه ، ووقف على غلام لم يعرفه فاشترى منه ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم ، والآخر بدرهمين ، فقال لقنبر : **خُذِ الَّذِي**

---

(١) الغارات : ١ : ٩٩ .

(٢) صفة الصفوة : ١ : ١٦٨ . مناقب آل أبي طالب : ٢ : ٩٦ ، وفيه زيادة : « **وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ** » .

(٣) الاستيعاب (المطبوع على هامش الإصابة) : ٢ : ٤٩ . جواهر المطالب : ٢٨٤ .

(٤) صفة الصفوة : ١ : ١٦٨ .

(٥) مناقب آل أبي طالب : ١ : ٣٦٦ .

بِثَلاثَةِ دَراهِمَ.

فقال له قنبر: أنت أوْلى به، إنّك تصعد المنبر وتخطب الناس.

فردّ عليه الإمام وقال له: **أَنْتَ شابٌّ، وَلَكَ شِرَّةُ الشَّبابِ، وَأَنا أَسْتَحِي مِنْ رَبِّي أَنْ أَتفَضَّلَ عَلَيْكَ**[(١)].

- اشترى الإمام عليه السلام قميصاً بثلاثة دراهم، وقال: **الْحَمْدُ للهِ هـٰذا مِنْ رِياشِهِ**، أي من ستره[(٢)].

- روى هارون بن عنترة، قال: «دخلت على عليّ في الخورنق، وهو يرعد من البرد، وعليه سمل قطيفة، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟

فقال: **وَاللهِ! ما أَرْزَؤُكُمْ شَيْئاً مِنْ مالِكُمْ، وَإِنَّها لَقَطِيفَتِي الَّتِي خَرَجْتُ بِها مِنْ مَنْزِلِي بِالْمَدِينَةِ**»[(٣)].

- اشترى الإمام عليه السلام ثوباً فأعجبه فكره أن يلبسه، وبادر فتصدّق به[(٤)].

- خطب الإمام عليه السلام على أهل الكوفة، فقال لهم: «**دَخَلْتُ بِلادَكُمْ بِأَشْمالِي هـٰذِهِ وَراحِلَتِي هاهِيَ، فَإِنْ أَنا خَرَجْتُ مِنْ بِلادِكُمْ بِغَيْرِ ما دَخَلْتُ فَإِنِّي مِنَ الْخائِنِينَ!**»[(٥)].

- ذكر الرواة أنّ الإمام عليه السلام في أيام خلافته لم يكن عنده قيمة ثلاثة دراهم ليشتري بها إزاراً أو ما يحتاج إليه، ثمّ يدخل بيت المال فيقسّم كلّ ما فيه على

---

(١) الغارات: ١: ١٠٦.

(٢) أمالي المرتضى: ١: ٣٥٣. النجوم الزاهرة: ١: ٣٥٣.

(٣) حلية الأولياء: ٣: ٢٣٦. بحار الأنوار: ٤٠: ٣٣٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ١: ٣٦٦.

(٥) مناقب آل أبي طالب: ٢: ٩٨. بحار الأنوار: ٤٠: ٣٢٥.

الناس ، ثمّ يصلّي فيه ، ويقول : « **الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَخْرَجَنِي مِنْهُ كَما دَخَلْتُهُ** »[١].

هذه بعض البوادر من زهده في لباسه ، وقد توفّي وليس عنده من الثياب غير الثوب الذي عليه .

ومن الجدير بالذكر أن نلقي نظرة على ما تركه ملوك بني العباس ، فقد توفّي هارون الرشيد وخلّف أربعة آلاف عمامة مطرّزة ما عدا الثياب التي خلّفها ، فضلاً عن الأموال التي خلّفها في خزائنه .

وهكذا غيره من ملوك الأمويّين والعبّاسيّين ، الذين لا يمثّلون إلّا جانب الترف والنهب لأموال المسلمين ، ومن المؤكّد أنّهم لا علاقة لهم بالسياسة الاقتصادية التي تبنّاها الإسلام .

٢ ـ طعامه عليه السلام

وامتنع الإمام عليه السلام من تناول ألوان الأطعمة ، واقتصر على ما يسدّ الرمق من الأطعمة البسيطة كالخبز والملح ، وربّما تعدّاه إلى اللبن أو الخلّ ، وكان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله يربط الحجر على بطنه من الجوع[٢].

وكان قليل التناول للّحم ، وقد قال : « **لَا تَجْعَلُوا بُطُونَكُمْ مَقابِرَ لِلْحَيْواناتِ** »[٣].

يقول ابن أبي الحديد : « إنّه ما شبع من طعام قطّ ، وقد أُتي له بفالوذج[٤] ، فلمّا وضع بين يديه ، قال : **إِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ ، حَسَنُ اللَّوْنِ ، طَيِّبُ الطَّعْمِ ، وَلٰكِنْ أَكْرَهُ أَنْ أُعَوِّدَ نَفْسِي مَا لَمْ تَعْتَدْ** »[٥].

---

(١) بحار الأنوار : ٤٠ : ٣٢١.

(٢) مسند أحمد بن حنبل : ٢ : ٣٥١.

(٣) شرح نهج البلاغة : ١ : ٢٥.

(٤) **الفالوذج** : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل ، والكلمة فارسية .

(٥) حلية الأولياء : ١ : ٨١. كنز العمّال : ١٥ : ١٦٤.

وقد روى الإمام أبو جعفر عليه السلام قال: «**أَكَلَ عَلِيٌّ مِنْ تَمْرٍ دَقَلٍ**[١] **ثُمَّ شَرِبَ عَلَيْهِ الْماءَ، وَضَرَبَ يَدَهُ عَلىٰ بَطْنِهِ وَقالَ: مَنْ أَدْخَلَهُ بَطْنُهُ النّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، ثُمَّ تَمَثَّلَ:**

فَـإِنَّكَ مَـهْما تُـعْطِ بَـطْنَكَ سُؤْلَهُ وَفَرْجَكَ نَالا مُنْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعا»[٢]

وروى عبدالملك بن عمير، قال: «حدّثني رجل من ثقيف أنّ علياً عليه السلام استعمله على عكبرا، قال: ولم يكن السواد يسكنه المصلّون، وقال لي: **إِذا كانَ عِنْدَ الظُّهْرِ فَرُحْ إِلَيَّ**.

فرحت إليه فلم أجد عنده حاجباً يحبسني عنه دونه، فوجدته جالساً وعنده قدح وكوز من ماء فدعا بظبية[٣] فقلت في نفسي: لقد أمنني حتى يخرج إليَّ جواهراً ـ ولا أدري ما فيها ـ فإذا عليها خاتم فكسر الخاتم فإذا فيها سويق، فأخرج منها فصبّ في القدح فصبّ عليه ماءً فشرب وسقاني، فلم أصبر فقلت: يا أمير المؤمنين، أتصنع هذا بالعراق، وطعام العراق أكثر من ذلك؟

قال: **أَمَا وَاللهِ! ما أَخْتِمُ عَلَيْهِ بُخْلاً، وَلٰكِنِّي ابْتاعُ قَدْرَ ما يَكْفِينِي فَأَخافُ أَنْ يَفْنىٰ فَيُصْنَعَ مِنْ غَيْرِهِ، وَإِنَّما حِفْظِي لِذٰلِكَ، وَأَكْرَهُ أَنْ أُدْخِلَ بَطْنِي إِلَّا طَيِّباً**»[٤].

وهكذا كان رائد العدالة الإسلامية متحرّجاً في طعامه أشدّ ما يكون التحرّج، وقد تحدّث الإمام عليه السلام عن زهده وإعراضه عن الدنيا بقوله: «**فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْياكُمْ تِبراً، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنائِمِها وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ**

---

(١) **الدقل**: أردء التمر.

(٢) كنز العمّال: ٢: ٢٦١.

(٣) **الظبية**: جراب صغير.

(٤) حلية الأولياء: ١: ٨٢. الرياض النضرة: ٢: ٢٣٥.
وفي المناقب: ٢: ٩٨: «أَكْرَهُ أَنْ يُجْعَلَ فيهِ ما لَيْسَ مِنْهُ».

مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً ، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ »[١].

ومن المؤكّد أنّ الإمام عليه السلام لم ينل من أطائب الطعام حتى وافاه الأجل المحتوم ، فقد أفطر في آخر يوم من حياته في شهر رمضان على خبز وجريش ملح ، وأمر برفع اللبن الذي قدّمته له بنته الزكية أُمّ كلثوم[٢].

وهو في نفس الوقت كان يدعو اليتامى فيطعمهم العسل حتى قال بعض أصحابه : وددت أنّي كنت يتيماً[٣].

وروى عبدالله بن رزين ، قال : « دخلت على عليّ بن أبي طالب يوم الأضحى فقرّب إلينا حريرة فقلت : أصلحك الله ، لو قرّبت إلينا من هذا البطّ - يعني الوزّ - فإنّ الله عزّ وجلّ قد أكثر الخير .

فقال : **يابْنَ رَزِينٍ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ : لَا يَحِلُّ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ مالِ اللهِ إِلَّا قَصْعَتانِ ، قَصْعَةٌ يَأْكُلُها هُو وَأَهْلُهُ ، وَقَصْعَةٌ يَضَعُها بَيْنَ يَدَي النَّاسِ »**[٤].

وقد سار على هذا المنهج المشرق لأنّه إمام المسلمين وله خطته الخاصّة في الزهد ، لا يشاركه فيها أحد من أبناء الشعب .

ومن أمثلة ذلك أنّه شكا إليه الربيع بن زياد الحارثي أخاه قائلاً : اعدني على أخي عاصم .

قال عليه السلام : **ما بالُهُ ؟**

لبس العباءة يريد النسك . فأمر الإمام عليه السلام بإحضاره ، فلمّا مثل بين يديه رآه

---

(١) نهج البلاغة : ٣ : ٧٠ . بحار الأنوار : ٣٣ : ٤٧٣ .

(٢) منتهى الآمال : ١ : ٣٣٤ .

(٣) بحار الأنوار : ٤١ : ٢٩ . مناقب آل أبي طالب : ٢ : ٧٥ .

(٤) مسند أحمد بن حنبل : ١ : ٧٨ .

الإمام عليه السلام مؤتزراً بعباءة مرتدياً بأخرى، شعث الرأس واللحية، فعبس الإمام عليه السلام بوجهه وقال له بعنف: **أَما اسْتَحْيَيْتَ مِنْ أَهْلِكَ؟ أَما رَحِمْتَ وَلَدَكَ؟ أَتَرىٰ أَنَّ اللهَ أَباحَ لَكَ الطَّيِّباتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَنالَ مِنْها شَيْئاً، بَلْ أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، أَما سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ فِي كِتابِهِ: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾**(١).

أَفَتَرىٰ أَنَّ اللهَ أَباحَ هٰذِهِ لِعِبادِهِ إِلَّا لِيَبْتَذِلُوهُ، وَيَحْمَدُوا اللهَ تَعالىٰ عَلَيْهِ فَيُثِيبَهُمْ، وَإِنَّ ابْتِذالَكَ نِعَمَ اللهِ بِالْفِعْلِ خَيْرٌ مِنْهُ بِالْمَقالِ.

وبادر عاصم قائلاً: فما بالك في خشونة مأكلك، وخشونة ملبسك، فإنّما تزيّنت بزينتك؟

فردّ عليه الإمام قائلاً: **وَيْحَكَ إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلىٰ أَئِمَّةِ الْحَقِّ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ**(٢).

لقد زهد الإمام عليه السلام في الدنيا في جميع فترات حياته خصوصاً لمّا تولّى السلطة العامّة للمسلمين، فقد تجرّد تجرّداً تامّاً من جميع رغباتها.

ومن أمثلة زهده ما رواه صالح بن الأسود، قال: «رأيت عليّاً قد ركب حماراً وأدلى رجليه إلى موضع واحد، وهو يقول: **أَنا الَّذِي أَهَنْتُ الدُّنْيا**»(٣).

---

(١) الرحمن ٥٥: ١٠ ـ ٢٢.

(٢) ربيع الأبرار: ٤: ٨٥ و ٨٦.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٤٢: ٤٨٩. جواهر المطالب: ٢٧٦.

أجل والله يا رائد العدل لقد أهنت الدنيا، واحتقرت جميع مباهجها وزينتها، فقد أتتك الدنيا وتقلّدت أسمى مركزٍ فيها، فلم تحفل بها، ولم تعر لسلطتها أي بال، فسلام الله عليك يا إمام المتّقين.

بطولته عليه السلام النادرة

من مظاهر شخصيّة الإمام عليه السلام بطولته النادرة التي استوعبت ـ بفخر وشرف ـ جميع لغات الأرض، وصارت مضرب الأمثال وأُنشودة الأبطال في كلّ زمان ومكان، فهو بطل الإسلام دون منازع، لا يعرف المسلمون سيفاً كسيف عليّ في إطاحته لرؤوس المشركين وأعلام الملحدين.

وهو الذي أذلّ طغاة القرشيّين، وسحق كبرياءهم، ودمّر غلواءهم، ومواقفه المشرّفة في واقعة بدر وأُحد والأحزاب وغيرها تدلّل ـ بوضوح ـ على أنّ الإسلام قام بجهوده وجهاده، ولولا مواقفه الحاسمة لما أبقت القوى القرشية الضالّة أثراً للإسلام.

وعلى أي حال لقد كان الإمام حتف المشركين، وعدوّهم الألدّ بعد الرسول صلى الله عليه وآله، ولولا جهاده وقوّة بأسه وصلابة موقفه لما قام الإسلام على سوقه عبل الذراع، ولقضت عليه قريش في أوّل بزوغ نوره، وقد شاعت في جميع الأوساط شجاعته، وراح الناس يتحدّثون عنها بإعجاب.

وقد قيل للنبيّ صلى الله عليه وآله إنّ أفرس الناس عمرو بن معدي كرب.

فردّ عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ أَفْرَسَ النَّاسِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ**»[١].

وقد شبّه السيّد الحميري بطولة الإمام عليه السلام وشجاعته بالريح العاتية التي أخذت قوم عاد بقوله:

---

(١) رسائل الجاحظ: ٢: ٢٢٢.

إذا أتـىٰ مَـعْشَراً يَـوماً أنـامَهُمُ   إنامَةَ الرِّيحِ فِي تَدْمِيرِها عادا[١]

يقول ابن أبي الحديد : « وأمّا الشجاعة فإنّه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله ، ومحا اسم من يأتي بعده ، ومقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة . وهو الشجاع الذي ما فرّ قطّ ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلّا قـتله ، ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأُولى إلى الثانية »[٢].

وفي الحديث : « **كانَتْ ضَرَباتُهُ وَتْراً** »[٣].

ولمّا دعا معاوية إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما ، قال له عمرو : لقد أنصفك .

فقال معاوية : ما غششتني منذ صحبتني إلّا اليوم ، أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنّه الشجاع المطرق ، أراك طمعت في إمارة الشام بعدي .

وكانت العرب تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابلته ، فأمّا قتلاه فافتخار رهطهم بأنّه عليه‌السلام قتلهم أظهر وأكثر .

قالت أُخت عمرو بن عبد ودّ ترثيه :

لَـوْ كـانَ قـاتِلُ عَـمْرٍو غيرَ قـاتِلِهِ   لَكُـنْتُ أَبْكـي عَـلَيهِ آخِـرَ الأَبَـدِ
لكِـنَّ قـاتِلَ عَـمْرٍو لا يُـعابُ بِـهِ   مَنْ كانَ يُدْعىٰ قَديماً بَيْضَ الْبَلَدِ[٤]

وجملة الأمر أنّه احتلّ الصدارة في شجعان العالم ، وأنّ شجاعته النادرة كـانت

---

(١) أعيان الشيعة : ٢ : ١٣٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة : ١ : ٢٠ .

(٣) وفي المثل المعروف : أنّ ضربة عليّ تفرد المثنى وتثنّي المفرد .

قال الشعبي : « عليّ أشجع الناس تقرّ له بذلك العـرب » . نـور القـبس المـختصر مـن المقتبس / المرزباني : ٢٤٥ .

(٤) الإرشاد : ١ : ١٠٨ .

في نصرة الإسلام ، ونصرة المظلومين ، والمعذّبين في الأرض .

ومن مظاهر شجاعته أنّه كان يخرج في أيام صفّين وحده بغير حماية فقيل له : تقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشي في إزار ورداء ؟

فقال عليه السلام : **بِالْمَوْتِ تُخَوِّفُونِي ؟ فَوَاللهِ ما أُبالِي سَقَطْتُ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ عَلَيَّ !**[١] إنّه كان على بيّنة من دينه ، فقد سخر من الموت وهزأ بالحياة ؛ لأنّه عاش مجاهداً طيلة حياته .

قوّته عليه السلام الهائلة

وهب الله تعالى للإمام عليه السلام قوّة هائلة ، وقوّة نفسية مذهلة ، استطاع بهما أن يلحق العار والهزيمة بالقريشيّين ، ويهزم اليهود الذين كانوا يمدّون القريشيّين بالمال والسلاح لإخماد نور الإسلام ، ومن قوّته أنّه إذا أمسك بذراع رجل كأنّما أمسك نفسه ، ولم يستطع أن يتنفّس[٢] .

وكان في صباه يصارع كبار اخوته وصغارهم وكبار بني عمّه وصغارهم فيصرعهم ، وكان أبوه يقول : ظهر عليّ فسمّاه ظهيراً ، فلمّا ترعرع كان يصارع الرجل الشديد فيصرعه ويعلو بالجبار بيده ويجذبه ويقتله ، وربّما قبض على مراق بطنه ورفعه في الهواء ، وربّما يلحق الحصان الجاري فيصدمه ويردّه على عقبيه[٣] ، وهو الذي قلع باب خيبر وجعلها جسراً على الخندق فعبر عليها الجيش الإسلامي ، ثمّ رماها مسافة أذهلت العسكر وصارت أُحدوثة الناس في جميع مراحل تاريخهم ، وهي من الأسباب التي دعت أن يذهب فريق من محبّي الإمام عليه السلام إلى القول بإلهيّته .

---

(١) العقد الفريد : ١ : ١٠٢ .

(٢) بحار الأنوار : ٤١ : ٢٧٦ .

(٣) بحار الأنوار : ٤١ : ٢٧٥ . مناقب آل أبي طالب : ١ : ٤٣٩ .

حلمه عليه السلام

كان الإمام عليه السلام من أحلم الناس ، ومن أكثرهم كظماً لغيظه ، فلم يثأر من أي أحد اعتدى عليه أو أساء له ، وإنّما كان يقابلهم بالصفح والإحسان كشأن أخيه وابن عمّه الرسول صلى الله عليه وآله ، الذي قابل المعتدين عليه بالصفح ، وقد قال لأهل مكّة وهم من ألدّ أعدائه ، الذين ما تركوا لوناً من ألوان الاعتداء إلّا صبّوه عليه : « **اذْهَبُوا فَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ فَأَنْتُمُ الطُّلَقاءُ** » ، على هذا المنهج سار وصيّه وباب مدينة علمه ، فقابل أعداءه وخصومه بالصفح والإحسان الجميل .

بوادر من حلمه عليه السلام

وهذه لمحات من بوادر حلمه عليه السلام تنمّ عن نفسه العظيمة التي خلقها الله لتكون مشكاة نور لعباده تهديهم للتي هي أقوم ، وهي كما يلي :

١ ـ دعا الإمام عليه السلام غلاماً له فلم يجبه ، ثمّ دعاه مرّة ثانية وثالثة فلم يجبه ، فقام إليه وقال له : **ما حَمَلَكَ عَلىٰ تَرْكِ إِجابَتِي ؟**

فردّ عليه الغلام : كسلت عن إجابتك ، وأمنت عقوبتك .

وامتلأ قلب الإمام سروراً ، وقال عليه السلام : **الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِمَّنْ يَأْمَنُهُ خَلْقُهُ ، امْضِ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ تَعالىٰ**[1] .

٢ ـ قصده أبو هريرة ، وكان معروفاً بانحرافه عنه ، ومتجاهراً ببغضه ، فسأله حاجة فقضاها له ، فعاتبه بعض أصحابه على ذلك فقال عليه السلام : **إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ يَغْلِبَ جَهْلُهُ حِلْمِي ، وَذَنْبُهُ عَفْوِي ، وَمَسْأَلَتُهُ جُودِي**[2] .

---

(١) مناقب آل أبي طالب : ١ : ٣٨٠ . أمالي المرتضى : ١ : ٥٢٥ .

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٦ : ٣٨٠ .

٣ ـ كان ابن الكوّاء الخارجي ، وهو من الممسوخين يجاهر بشتم الإمام عليه السلام ويعلن سبّه أمامه ، فلم يقابله بالمثل ، ولا تعرّض لنقمته ، وقد تلا عليه هذه الآية أمام الناس : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] ، وأعاد عليه الآية .

فأجابه الإمام : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2]،[3] ولم يتّخذ معه الإجراءات الصارمة فيوعز إلى الشّرطة باعتقاله وتأديبه .

٤ ـ وكان من عظيم حلمه أنّه ظفر بعائشة بعد فشلها في حرب الجمل ، وهي من ألدّ أعدائه ، ومعها مروان بن الحكم ، وعبدالله بن الزبير ، وغيرهما من الحاقدين عليه ، الذين أشعلوا نار الحرب ، وأعلنوا التمرّد والعصيان المسلّح على حكومته ، فعفا عنهم جميعاً ، وسرّح عائشة سراحاً جميلاً ، وجهّزها جهازاً حسناً . وهكذا كانت سيرته الصفح والإحسان ليقلع نزعات الحقد والشرّ من نفوسهم .

يقول ابن أبي الحديد عن حلم الإمام : « وأمّا الحلم والصفح فكان أحلم الناس عن مذنب ، وأصفحهم عن مسيء ، وقد ظهر حجّة ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم وكان من أعدى الناس ، وأشدّهم بغضاً له ، فصفح عنه .

وكان عبدالله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوغد اللئيم عليّ بن أبي طالب .

وكان عليّ يقول : **ما زَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً مِنّا أَهْلَ الْبَيْتِ حَتّى شَبَّ عَبْدُاللهِ** .

فلمّا ظفر به يوم الجمل صفح عنه ، وقال له : **اذْهَبْ فَلَا أَرَيَنَّكَ** ، ولم يزد على ذلك .

وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة ، وكان له عدوّاً فأعرض عنه ،

---

(١) الزمر ٣٩ : ٦٥.

(٢) الروم ٣٠ : ٦٠.

(٣) تهذيب الأحكام : ٣ : ٣٦.

ولم يقل له شيئاً »[١].

٥ ـ ومن عظيم حلمه وصفحه أنّ معاوية لمّا زحف لحرب الإمام واستولى على الماء اعتبر ذلك أوّل الظفر ، فلمّا جاء الإمام عليه السلام مع جيشه وجد حوض الفرات قد احتلّته جيوش معاوية ، فطلب منهم أن يسمحوا لجيشه بالتزوّد من الماء ، فقالوا له : لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأً كما مات ابن عفّان .

فلمّا رأى ذلك أمر جيشه باحتلال الفرات ، فاحتلّته قوّاته وملكوا الماء ، وسار أصحاب معاوية في البيداء لا ماء لهم ، فقال أصحاب الإمام له : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تسقهم منه قطرة واحدة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدي ، فلا حاجة لك في الحرب .

فقال : **لَا وَاللهِ لَا أُكافِئُهُمْ بِمِثْلِ فِعْلِهِمْ ، افْسَحُوا لَهُمْ عَنِ الشَّرِيعَةِ فَفِي حَدِّ السَّيْفِ ما يُغْنِي عَنْ ذٰلِكَ**[٢].

٦ ـ ومن عظيم عفوه أنّه في يوم من أيام صفّين ظفر بأعدى أعدائه وهو عمرو ابن العاص العقل المدبّر في حكومة معاوية ، فلمّا رأى هذا الجبان الماكر أنّ الإمام قد أقبل عليه بسيفه أخرج عورته ، فخجل الإمام وأشاح بوجهه عنه ترفّعاً .

صبره عليه السلام

من أبرز صفات الإمام عليه السلام الخلود إلى الصبر ، وعدم الجزع على ما ألمّ به من محن الدنيا ، وكوارث الأيام ، وكان من أشدّها هولاً ، وأعظمها محنة فقده لأخيه وابن عمّه ـ الذي عاش في ذُرى عطفه ـ سيّد الكائنات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، لقد فقدَ بموته كلّ أمل له في الحياة ، وطافت به الأزمات يتبع بعضها بعضاً ، وكان

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٣.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٢٤. بحار الأنوار: ٤١: ١٤٥.

من أفجعها وأقساها وأشدّها بلاءً هجوم القوم عليه في عُقْر داره، وإخراجه ملبّباً بحمائل سيفه ليبايع أبا بكر، وقوبل بمنتهى الصرامة والقسوة، وتنكّر القوم لمركزه الرفيع، وعظيم جهاده في الإسلام، وأنّه أخو نبيّهم، وأبو سبطيه، وباب مدينة علمه، فأقصوه عن مقامه، واستعملوا معه جميع ألوان الشدّة التي سنذكرها في فصول هذا الكتاب.

ومن المحن الشاقّة التي عاناها الإمام عليه السلام فقده لسيّدة نساء العالمين زهراء الرسول صلى الله عليه وآله، فلم تمض أيام معدودة حتى فجع بفقدها، وهي في فجر الصبا وروعة الشباب، وقد التاع وحزن على فقدها أشدّ ما يكون الحزن، وبقي في أرباض بيته صابراً محتسباً يسامر الهموم والأحزان بمعزل تامّ عن الأمّة سياسياً واجتماعياً، قد خمدت طاقاته ومواهبه وحرمت الأمّة من علومه، لم يشارك الخلفاء في أي أمر من أُمور الدولة اللّهمّ إلّا إذا ألمّت بهم مسألة لا يهتدون لحلّها فزعوا إليه ليكشف لهم ما جهلوه، حتى شاعت كلمة عمر: لولا عليّ لهلك عمر.

ولمّا آلت الخلافة إلى عثمان بن عفّان عميد الأسرة الأُموية استبدّ بأُمور المسلمين، وارتكب الأحداث الجسام لذا عمد المسلمون إلى قتله، وهرعوا إلى الإمام عليه السلام ليتولّى قيادة الأمّة ويعيد حكم الرسول صلى الله عليه وآله وسياسته المشرقة بين المسلمين، فامتنع الإمام من إجابتهم لعلمه بفساد الأوضاع الاجتماعية، وما سيعانيه من الأزمات والمصاعب، فأصرّوا عليه وهدّدوه إن لم يستجب لهم، فأجابهم على كره، فقام بالأمر باسطاً للعدل ناشراً للحقّ، وبايعته الجماهير، وعمّت الفرحة الكبرى جميع الأوساط إلّا الأُسر القرشيّة، فقد فزعت أشدّ ما يكون الفزع، فقد خافت على مصالحها ونفوذها الذي ظفرت به في أيام الخلفاء، فهبّت للإطاحة بحكومة الإمام، فكانت واقعة الجمل وصفّين، ثمّ تتابعت عليه الرزايا والخطوب، وهو صابر محتسب حتى لاقى ربّه شهيداً محتسباً في بيت من بيوت الله، فأي صبر وأي بلاء مثل هذا الصبر والبلاء؟

تواضعه عليه السلام

من ذاتيات الإمام عليه السلام ونزعاته التواضع ، ولكن لا للأغنياء والمتكبّرين ، وإنّما للفقراء والمستضعفين ، فكان يخفض لهم جناح البرّ والمودّة ، وقد ضارع بذلك أخاه وابن عمّه الرسول صلى الله عليه وآله ، فقد كان للمؤمنين أباً وللفقراء أخاً..

ونعرض فيما يلي لبعض ما أُثر عن الإمام عليه السلام .

شذرات من تواضعه عليه السلام

وهذه شذرات معطّرة بهدي الإمام عليه السلام من تواضعه :

١ ـ وفد عليه رجل مع ابنه فرحّب بهما وأجلسهما في صدر المجلس ، ثمّ أمر لهما بطعام ، وبعد الفراغ منه بادر الإمام فأخذ الإبريق ليغسل يد الأب ففزع الرجل ، وقال : كيف يراني الله وأنت تصبّ الماء على يدي ؟

فأجابه الإمام عليه السلام برفق ولطف : **إنَّ اللهَ يَرانِي أَخاكَ الَّذِي لا يَتَمَيَّزُ مِنْكَ ، وَلا يَتَفَضَّلُ عَنْكَ ، وَيَزِيدُ بِذٰلِكَ خَدَمِهِ فِي الْجَنَّةِ** .

أيّ روح ملائكية هذه الروح ؟ وأيّ سموّ في الذات هذا السموّ ؟

وانصاع الرجل إلى كلام الإمام عليه السلام ، فصبّ الماء على يده ، ولمّا فرغ ناول الإبريق إلى ولده محمّد بن الحنفية ، وقال له : **يا بُنَيَّ ، لَوْ كانَ هٰذَا الْاَبْنُ حَضَرَنِي دُونَ أَبِيهِ لَصَبَبْتُ عَلىٰ يَدِهِ ، وَلٰكِنَّ اللهَ يَأْبىٰ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ ابْنٍ وَأَبِيهِ** .

وقام محمّد فغسل يد الولد[(١)] ، وهذه الأخلاق العلوية مقتبسة من أخلاق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذي امتاز على سائر النبيّين بمكارم أخلاقه .

٢ ـ اجتاز الإمام في رجوعه من صفّين على دهاقين الأنبار فقابلوه بمزيد من

---

(١) مناقب آل أبي طالب : ٢ : ١٠٥ .

التعظيم والتكريم ، وصنعوا له كما يصنعون للملوك والأُمراء ، فأنكر الإمام عليهم ذلك وقال لهم : « **وَاللهِ ما يَنْتَفِعُ بِهـٰذا أُمَراؤُكُمْ ، وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ بِهِ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ ، وَتَشْقُّونَ بِهِ في آخِرَتِكُمْ . وَما أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَراءَها الْعِقابُ ، وَما أَرْبَحَ الرّاحَةَ مَعَها الْأَمانُ مِنَ النّارِ** »[١] .

٣ ـ من تواضعه أنّه خرج راكباً فسار معه أصحابه ، فالتفت إليهم : **أَلَكُمْ حاجَةٌ ؟**

قالوا : لا ، ولكن نحبّ أن نمشي معك .

فنهاهم عن ذلك ، وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم قائلاً : **ارْجِعُوا . . النِّعالُ خَلْفَ أَعْقابِ الرِّجالِ مَفْسَدَةٌ لِقُلُوبِ النَّوْكىٰ**[٢] [٣] .

حقّاً إنّ هذه الأخلاق أخلاق الأنبياء العظام وأوصيائهم ، وقد مثّلها بسيرته وسلوكه سيّد الأوصياء وإمام المتّقين والأخيار ، وذكر الرواة صوراً مشرقة بالشرف والكرامة من تواضعه أيام خلافته نعرض لها عند البحث عن حكومته .

عيادته عليه السلام المرضى

من معالي أخلاق الإمام عليه السلام عيادته للمرضى ، وكان يحفّز أصحابه على ذلك ، ويحثّهم على هذه الظاهرة ، فقد قال لهم : « **مَنْ أَتىٰ أَخاهُ الْمُسْلِمَ يَعُوْدُهُ مَشىٰ فِي خُرافَةِ الْجَنَّةِ**[٤] ، **فَإِذا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ** »[٥] .

وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا علم أنّ أحداً من أصحابه مريض بادر لعيادته ، وهذه

---

(١) مناقب آل أبي طالب : ٢ : ١٠٤ . بحار الأنوار : ٤١ : ٥٥ .

(٢) **النوكى** : الحمقى .

(٣) ربيع الأبرار : ٤ : ١٣١ .

(٤) **خرافة الجنّة** : ثمارها .

(٥) ربيع الأبرار : ٤ : ١٢٧ .

بعض زياراته لهم :

١ ـ عاد شخصاً من أصحابه ، ولمّا استقرّ به المجلس قال له : **جَعَلَ اللهُ مَا كَانَ مِنْ شَكْوَاكَ حطّاً لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، وَلٰكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ ، وَيَحُتُّهَا حَتَّ الْأَوْرَاقِ . وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ**[1] .

٢ ـ عاد الإمام عليه السلام صاحبه وصديقه صعصعة بن صوحان ، فقال له الإمام : **وَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا خَفِيفَ الْمُؤُونَةِ ، حَسَنَ الْمَعُونَةِ** » .

فأجابه صعصعة : وأنت يا أمير المؤمنين ، إنّ الله في عينك لعظيم ، وإنّك بالمؤمنين لرحيم ، وإنّك بكتاب الله لعليم .

ولمّا أراد الإمام عليه السلام الخروج قال لصعصعة : **يا صَعْصَعَةُ ، لَا تَجْعَلْ عِيادَتِي فَخْراً عَلىٰ قَوْمِكَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالىٰ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ**[2] .

إنّ جميع ألوان الفخر والمظاهر الزائفة التي يعنى بها الناس قد سحقها الإمام عليه السلام ولم يحفل بأي شيء منها .

كراهته عليه السلام للمدح

كان الإمام عليه السلام يسأم المدح والإطراء ، وكان يقول لمن أطراه : « **أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ** » .

وإذا أطرى عليه رجل قال : « **اللّٰهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِيْ مِنْهُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْهُ بِنَفْسِي ، فَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُ** »[3] .

---

(١) ربيع الأبرار : ٤ : ١٣١ .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٣٢ .

(٣) أمالي المرتضى : ١ : ٢٧٤ .

إجابته عليه السلام لدعوة من دعاه

ومن معالي أخلاق الإمام عليه السلام أنّه إذا دعي لتناول الطعام أجاب إلى ذلك خصوصاً إذا دعاه فقير، وقد دعاه شخص لذلك فقال له عليه السلام: «**نَأْتِيكَ عَلَى أَنْ لَا تَتَكَلَّفَ لَنا ما لَيْسَ عِنْدَكَ، وَلَا تَدَّخِرَ عَنّا ما عِنْدَكَ**»[١].

وهذا من محاسن الآداب، ومن أروع صور الشرف، وسموّ الذات.

سخاؤه عليه السلام

كان الإمام عليه السلام من أندى الناس كفّاً، ومن أكثرهم برّاً وإحساناً إلى المحتاجين، وكان لا يرى للمال قيمة سوى أن يردّ به جوع جائع أو يكسو به عرياناً، وكان يؤثر الفقراء على نفسه ولو كانت به خصاصة.

وهو وأهل بيته الذين أطعموا المسكين واليتيم والأسير قُوتهم، وطووا ثلاثة أيام صياماً لم يذوقوا سوى الماء القراح، فأنزل الله تعالى فيهم سورة (هل أتى) فكانت وسام فخر وشرف لهم على امتداد التاريخ تشيد بفضلهم وسموّ مكانتهم عند الله تعالى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والإمام عليه السلام هو الذي تصدّق بخاتمه على المسكين في أثناء صلاته فأنزل الله تعالى في حقّه الآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[٢].

شذرات من جوده عليه السلام

هذه شذرات من برّ الإمام عليه السلام وجوده على الفقراء، لم يبغ بما قدّمه لهم من

---

(١) البيان والتبيين: ٢: ١٩٧.

(٢) المائدة ٥: ٥٥.

إحسان إلّا وجه الله تعالى والدار الآخرة :

١ ـ روى الأصبغ بن نباتة ، قال : « جاء رجل إلى الإمام عليه‌السلام فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ لي إليك حاجة قد رفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك ، فإن قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك .

فقال له الإمام عليه‌السلام : **أُكْتُبْ حاجَتَكَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرىٰ ذُلَّ السُّؤالِ عَلىٰ وَجْهِكَ** .

فكتب الرجل إنّي محتاج ، فأمر الإمام بإحضار حلّة فأُتِيَ بها إليه فأخذها الرجل فلبسها ، وقال :

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلىٰ مَحاسِنُها ... فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنا حُلَلا
إنْ نِلْتَ حُسْنَ ثَنائِي نِلْتَ مَكْرُمَةً ... وَلَسْتَ تَبْغِي بِما قَدْ قُلْتُهُ بَدَلا
إنَّ الثَّناءَ لَيُحْيِي ذِكْرَ صاحِبِهِ ... كَالْغَيْثِ يُحْيِي نَداهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلا
لَا تَزْهَدِ الدَّهْرَ فِي خَيْرٍ تُواقِعُهُ ... فَكُلُّ شَخْصٍ سَيُجْزىٰ بِالَّذِي عَمِلا

وأمر الإمام بمائة دينار ، فلمّا حضرت دفعها له ، وبادر الأصبغ أمير المؤمنين قائلاً: ومائة دينار ؟ !

فأجابه الإمام : **سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى‌الله‌عليه‌وآله يَقُولُ : أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنازِلَهُمْ ، وَهٰذِهِ مَنْزِلَةُ الرَّجُلِ عِنْدِي** »(١) .

٢ ـ من بوادر جوده أنّه لمّا قسّم بيت مال البصرة على جيشه لحق كلّ واحد منهم خمسمائة درهم ، وأخذ هو مثل ذلك ، فجاءه شخص لم يحضر الواقعة فقال له : كنت شاهداً معك بقلبي ، وإن غاب عنك جسمي ، فاعطني من الفيء شيئاً ؟

---

(١) جواهر المطالب : ٢ : ١٢٩ .

فدفع إليه ما أخذه لنفسه ، ورجع ولم يصب من الفيء شيئاً[١].

٣ ـ روى المعلّى بن خنيس عن الإمام الصادق عليه السلام : « أنّ علياً عليه السلام أتى ظلّة بني ساعدة ، وكانت السماء قد أمطرت ، وهو يحمل جراباً فيه الخبز ، فمرّ على قوم نيام ـ وهم من الفقراء ـ فجعل يدسّ الرغيف والرغيفين تحت فراشهم ، حتى أتى على آخرهم ثمّ انصرف »[٢].

٤ ـ خرج الإمام عليه السلام وهو يحمل على ظهره قربة ، وفي يده صَحْفة ، وهو يقول : « **اللّهُمَّ وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِلـهَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجارَ الْمُؤْمِنِينَ ، اقْبَلْ قُرُباتِي اللَّيْلَةَ ، فَما أَمْسَيْتُ أَمْلِكُ سِوىٰ ما فِي صَحْفَتِي وَغَيْرَ ما يُوارِينِي ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَنَعْتُهُ نَفْسِي مَعَ شِدَّةِ سَغَبِي فِي طَلَبِ الْقُرْبَةِ إِلَيْكَ غَنَماً ، اللّهُمَّ فَلَا تَخْلُقْ وَجْهِي ، وَلَا تَرُدَّ دَعْوَتِي** » ، واخذ يطعم الفقراء[٣].

٥ ـ كان الإمام عليه السلام يملك أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلاً ، وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية ، فنزلت فيه الآية الكريمة : ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَـهُم بِاللَّيْلِ**﴾[٤][٥].

٦ ـ كان رجل مؤمن فقير في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ساكناً في دار ضيّقة وبجوارها حديقة لشخص موسر وفيها نخل يتساقط تمرها على دار الفقير ، فيبادر من حرصه إلى أخذ التمر من أفواه الأطفال ، وشكا الفقير ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فبادر إلى صاحب

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٢٠٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٤ : ٣٤٩.

(٣) بحار الأنوار : ٤١ : ٢٩.

(٤) البقرة ٢ : ٢٧٤.

(٥) كشف الغمّة : ٥٠. بحار الأنوار : ٤ : ٣٣.

الحديقة وطلب منه أن يبيعها عليه ، ويأخذ مكانها بستاناً في الفردوس الأعلى ، فأبى وقال : لا أبيعك عاجلاً بآجل .

فانصرف النبيّ ﷺ متأثّراً فرأى الإمام ، فأخبره بالأمر ، فتوجّه الإمام صوب ذلك الرجل وطلب منه أن يبيعه بستانه ، فقال له : أبيعك بحائطك الحسنِ ، فرضي الإمام ، وباعه عليه ، وسارع الإمام إلى الرجل الفقير فوهب له تلك البستان[١] .

هذه بعض البوادر من سخائه وجوده على الضعفاء والفقراء ، يقول الشعبي : «كان عليّ أسخى الناس ، كان على الخُلق الذي يحبّه الله وهو السخاء والجود ، ما قال (لا) لسائل قطّ »[٢] .

وقد أجمع المؤرّخون والمترجمون له أنّه لم يكن يبغي فيما أنفقه أي غرض من أغراض الدنيا كالجاه والسمعة وذيوع الاسم ، فإنّ ذلك لم يفكّر به ، وإنّما كان يبغي وجه الله تعالى ، وما يقرّبه إليه زلفى .

الرأفة بالفقراء

من عناصر الإمام عليه السلام وذاتياته الرأفة الكاملة بالفقراء ، فكان لهم أباً ، وعليهم عطوفاً ، وقد واساهم في مكاره الدهر وجشوبة العيش وخشونة اللباس ، وهو القائل أيام خلافته : **أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ ؟ أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :**

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ[٣]

لقد كان أبو الحسن عليه السلام ملاذاً للفقراء وصديقاً حميماً للبؤساء ، وقد تبنّى قضاياهم

---

(١) تفسير فرات : ٢١٣ . بحار الأنوار : ٤١ : ٣٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٢٢ .

(٣) نهج البلاغة : ٣ : ٧٢ .

في جميع مراحل حياته خصوصاً في أيام خلافته ، وقد ثارت عليه الرأسمالية القرشية التي ناهضت الإسلام ، وكفرت بقيمه ومبادئه ، وبجميع ما جاء به النبيّ ﷺ من هدى ورحمة إلى الناس .

إنّ من أوّليات المبادئ التي آمن بها واعتنقها هي القضاء على البؤس والحرمان ، وتوزيع خيرات الله تعالى على عباده ، فلا يختصّ بها فريق دون فريق ، ولا قوم دون آخرين ، وكانت مواساته للفقراء ومساواتهم للأغنياء من الأسباب الهامّة في بغض القريشيّين له ، واندفاعهم إلى مناجزته ، ووضعهم العراقيل والسدود أمام مخطّطاته ومتطلّباته الهادفة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في الأرض .

وعلى أي حال ، فالإمام أوّل حاكم في الشرق العربي واسى الفقراء في آلامهم ومكارههم ، ومن ذلك أنّه نظر إلى امرأة على كتفها قربة ماء ، وكانت مجهدة لا تقوى على حملها ، فبادر إليها الإمام عليه السلام فأخذ القربة منها ، وحملها إلى منزلها ، وسألها عن حالها ، فقالت له : إنّ عليّاً بعث زوجي إلى بعض الثغور فاستشهد فيها ، وترك صبياناً يتامى ، وليس عندي شيء أقوتهم به ، فألجأتني الضرورة إلى خدمة الناس ، فانصرف الإمام عنها وهو مثقل بالأحزان ، وبات ليلته قلقاً مضطرباً ، فلمّا أصبح حمل زنبيلاً فيه طعام للأيتام ، فرآه بعض شيعته فطلب منه أن يساعده في حمل الزنبيل عنه ، فامتنع من إجابته ، وقال له : **مَنْ يَحْمِلُ عَنّي وِزْرِي يَوْمَ الْقِيامَةِ ؟**

ومضى نحو بيت اليتامى فقرع الباب ، فخرجت له المرأة فقالت له : من أنت ؟

قال عليه السلام : **أَنا الْعَبْدُ الَّذِي حَمَلَ مَعَكِ الْقِرْبَةَ ، افْتَحِي الْبابَ فَإِنَّ مَعِي شَيْئاً لِلصِّبْيانِ .**

فدعت له المرأة وقالت له : رضي الله عنك ، وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب .

وأجابها الإمام : **إِنّي أَحْبَبْتُ اكْتِسابَ الثَّوابِ ، فَاخْتارِي بَيْنَ أَنْ تَعْجِنِي وَتَخْبِزِي ، وَبَيْنَ أَنْ تُعَلِّلِي الصِّبْيان وَأَنا أَخْبِزُ .**

وأجابته المرأة: أنا بالخبز أبصر، وعليه أقدر، ولكن شأنك والصبيان، فعلّلهم حتى أفرغ من الخبز.

وعمدت المرأة إلى الدقيق فخبزته، وانبرى الإمام عليه السلام إلى اللحم فطبخه، وجعل يلقم الصبيان اللحم والتمر وغيره، وكلّما ناول صبيّاً من ذلك شيئاً قال له: **يا بُنَيَّ، اجْعَلْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي حِلٍّ مِمّا مَرَّ عَلَيْكَ**.

ولمّا اختمر العجين، قالت المرأة له: قم يا عبد الله، قمْ فاسجر التنّور، فبادر الإمام عليه السلام لسجره، ولفحت النار وجهه، فجعل يقول: **يا عَلِيُّ، هٰذا جَزاءُ مَنْ ضَيَّعَ الْأَرامِلَ وَالْيَتامىٰ**.

ودخلت امرأة من الجيران على المرأة، وكانت تعرف الإمام عليه السلام فصاحت بها: ويحك هذا أمير المؤمنين.

وذهلت المرأة وودّت أن تسيخ بها الأرض، وقالت للإمام: وا حيائي منك يا أمير المؤمنين!

وسارع الإمام قائلاً: **واحَيائِي مِنْكِ يا أَمَةَ اللهِ فِيما قَصَّرْتُ مِنْ أَمْرِكِ**(١).

تدول الدول، وتفنى الحضارات أو تبقى، وهذا الشرف العلوي أحقّ بالبقاء من كلّ كائن حيّ.

عدله عليه السلام

من عناصر الإمام الذاتية إقامة العدل، وإيثاره على كلّ شيء، خصوصاً في أيام خلافته، فقد تجرّد عن جميع المحسوبيات، وآثر رضا الله تعالى ومصلحة الأمّة على كلّ شيء، فهو بحقّ صوت العدالة الإنسانية، ورائد نهضتها الاصلاحية في جميع الأحقاب والآباد.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١: ٣٨٢. بحار الأنوار: ٤١: ٥١.

بوادر من عدله عليه السلام

وروى المؤرّخون صوراً رائعة من عدله تبهر العقول، وتجعله طغراء شرف للعالم العربي والإسلامي، وكان من ضروب عدله ما يلي:

١ ـ وفد عقيل على الإمام عليه السلام في الكوفة، فرحّب به الإمام عليه السلام وقال لولده الإمام الحسن عليه السلام: **اكْسُ عَمَّكَ**، فكساه قميصاً ورداءً من ملكه، ولمّا حضر العشاء قدّم له خبزاً وملحاً، فأنكر عقيل ذلك وقال: ليس ما أرى؟

لقد أراد عقيل أن تقدّم له مائدة شهيّة حافلة بألوان الطعام، فأجابه الإمام عليه السلام بلطف وهدوء: **أَوَلَيْسَ هٰذا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ؟ فَلَهُ الْحَمْدُ كَثِيراً**.

وفقد عقيل صوابه، وضاقت عليه الأرض، فقال للإمام: إعطني ما أقضي به دَيني، وعجّل سراحي حتى أرحل عنك.

فقال عليه السلام: **كَمْ دَيْنُكَ يا أَبا يَزِيد؟**

فقال له: مائة ألف درهم.

قال عليه السلام: **وَاللهِ ما هِيَ عِنْدِي، وَلَا أَمْلِكُها، وَلٰكِنِ اصْبِرْ حَتّىٰ يَخْرُجَ عَطايَ فَأُواسِيكَهُ، وَلَوْلَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعِيالِ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْطَيْتُكَ كُلَّهُ**.

وخاطب عقيل الإمام عليه السلام بعنف قائلاً: بيت المال بيدك، وأنت تسوّفني إلى عطائك، وكم عطاؤك؟ وما عسى أن يكون؟ ولو أعطيتنيه كلّه.

وضاق الإمام ذرعاً من عقيل، فطرح أمامه حكم الإسلام قائلاً: **وَما أَنا وَأَنْتَ فِيهِ** ـ أي في العطاء من بيت المال ـ **إِلَّا بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**.

وكان الإمام مطلّاً على صناديق التجّار في السوق، فقال لعقيل: **إِنْ أَبَيْتَ يا أَبا يَزِيدَ ما أَقُولُ فَانْزِلْ إِلىٰ بَعْضِ هٰذِهِ الصَّنادِيقِ فَاكْسِرْ أَقْفالَهُ وَخُذْ ما فِيهِ**.

وتوهّم عقيل أنّها من أموال الدولة، فقال للإمام عليه السلام: ما في هذه الصناديق؟

قال عليه السلام : **فِيهَا أَمْوالُ التُّجّارِ .**

فأنكر عقيل ، وراح يقول بألم ومرارة : أتأمرني أن أكسر صناديق قوم توكّلوا على الله وجعلوا فيها أموالهم ؟

فردّ عليه الإمام قائلاً : **أَتأْمُرُني أَنْ أَفْتَحَ بَيْتَ مالِ الْمُسْلِمِينَ فَأُعْطِيَكَ أَمْوالَهُمْ ، وَقَدْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ ، وَأَقْفَلُوا عَلَيْها ، وَإِنْ شِئْتَ أَخَذْتَ سَيْفَكَ وَأَخَذْتُ سَيْفِي وَخَرَجْنا جَمِيعاً إِلَى الْحِيرَةِ ، فَإِنَّ فِيها تُجّاراً مَياسِيرَ ، فَدَخَلْنا عَلىٰ بَعْضِهِمْ فَأَخَذْنا مالَهُ .**

والتاع عقيل ، وراح يقول بألم : أَوَ سارقاً جئتُ ؟

فأجابه رائد العدالة الإسلامية قائلاً : **تَسْرِقُ مِنْ واحِدٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَسْرِقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً .**

ولم يجد عقيل منفذاً يسلك فيه ، فقد سدّ عليه الإمام عليه السلام جميع النوافذ ، وصيّره أمام العدل الصارم ، الذي لا يستجيب لأي عاطفة ، ولا ينصاع إلّا إلى الحقّ ، وراح عقيل يقول بحرارة اليأس : أتأذن لي أن أخرج إلى معاوية ؟

قال عليه السلام : **أَذِنْتُ لَكَ .**

فقال عقيل : أعِنّي على سفري .

فأمر الإمام ولده الزكي الإمام الحسن عليه السلام بإعطائه أربعمئة درهم نفقة له ، فخرج عقيل وهو يقول :

سَيُغْنِينِي الَّذِي أَغْناكَ عَنِّي ... وَيَقْضي دَيْنَنا رَبٌّ قَرِيبٌ(١)

لقد تجرّد الإمام عليه السلام من جميع المحسوبيات فلم يقم لها أي وزن وأخلص للحقّ والعدل أعظم ما يكون الإخلاص ، فالقريب والبعيد سواء في ميزانه ... لقد احتاط

---

(١) مناقب آل أبي طالب : ٢ : ١٠٨ ، وقريب منه في الصواعق المحرقة : ٧٩.

أشدّ ما يكون الاحتياط في أموال الدولة ، فلم يؤثر بشيء منها نفسه وأهل بيته ، وحمّل نفسه رهقاً وشدّة .

٢ ـ ومن صنوف عدله الباهر أنّه نزل ضيف عند الإمام الحسن عليه السلام ، فاستقرض رطلاً من العسل من قنبر خازن بيت المال ، فلمّا قام الإمام عليه السلام بتقسيم العسل على المسلمين وجد زقّاً منها ناقصاً ، فسأل قنبر عن ذلك ، فأخبره بالأمر ، فاستدعى ولده الإمام الحسن عليه السلام وقال له بنبرات تقطر غيظاً : **ما حَمَلَكَ عَلىٰ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ قَبْلَ الْقِسْمَةِ ؟**

فقال الحسن عليه السلام : **أَلَيْسَ لَنا فيهِ حَقٌّ ، فَإِذا أَخَذْناهُ رَدَدْناه إِلَيْهِ .**

وسكن غضب الإمام ، فقال لولده الزكي بلطف : **فِداكَ أَبوكَ ، وَإِنْ كانَ لَكَ فِيهِ حَقٌّ ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِحَقِّكَ قَبْلَ أَنْ يَنْتَفِعَ الْمُسْلِمُونَ بِحُقُوقِهِمْ .**

ثمّ دفع إلى قنبر درهماً ، وقال له : اشتر به أجود عسل تقدر عليه ، فاشترى قنبر العسل ، ووضعه الإمام في الزقّ وشدّه[(١)] .

هذا هو العدل الذي جعله الإمام عليه السلام أساساً لدولته ليسير عليها حكّام المسلمين من بعده إلّا أنّهم شذّوا وابتعدوا عن سيرته ، وناقضوه ، فأنفقوا أموال المسلمين على شهواتهم وملذّاتهم ، وأسرفوا في ذلك إلى حدّ بعيد .

٣ ـ جيء له بمال من أصفهان فقسّمه أسباعاً على أهل الكوفة ، ووجد فيها رغيفاً فكسره سبعة كسر ، وقسّمه على أهل الأسباع[(٢)] .

إنّ العدل بجميع رحابه ومفاهيمه من العناصر الذاتية للإمام عليه السلام .

٤ ـ روى هارون بن عنترة عن أبيه ، قال : « رأيت عليّاً في يوم موورد ـ أو نوروز ـ

---

(١) مناقب آل أبي طالب : ٢ : ١٠٧ .

(٢) بحار الأنوار : ٤١ : ١١٨ .

فجاء قنبر فأخذ بيده وقال : يا أمير المؤمنين ، إنّك رجل لا تبقي شيئاً لنفسك ، ولا لأهل بيتك ، وإنّ لأهل بيتك في هذا المال نصيباً ، وقد خبأت لك خبيئةً .

قال الإمام : **وَما هِيَ ؟**

قال : انطلق وانظر ما هي ؟

فأدخله بيتاً مملوءاً آنية من ذهب وفضّة مموّهة بالذهب ، فلمّا رآها تميّز غيظاً وغضباً ، وقال بشدّة وصراحة لقنبر : **ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ ، لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تُدْخِلَ بَيْتِي ناراً عَظِيمَةً** ، ثمّ جعل يزنها ويعطي كلّ عريف حصّته .

ثمّ قال :

هٰذا جَناي وَخِيارُهُ فِيهِ ... وَكُلُّ جانٍ يَدُهُ إِلىٰ فِيهِ[(١)]

أرأيتم هذا العدل الذي مثّله الإمام في أيام خلافته ؟

أرأيتم هذا التجرّد عن الدنيا والتنكّر لمنافعها ؟

أرأيتم كيف احتاط إمام المتّقين بأموال الدولة ولم يستأثر بأيّ شيء منها ؟

إنّ الإنسانية على ما جرّبت من تجارب في ميادين الحاكمين فإنّها لم تشاهد مثل الإمام عليه السلام في عدله ونكرانه للذات ، وتبنّيه للعدل بجميع رحابه ومفاهيمه .

سعة علومه عليه السلام

وأجمع الرواة على اختلاف ميولهم وأهوائهم على أنّ الإمام عليه السلام أوسع المسلمين علماً ، وأكثرهم فقهاً ، وأنّه لا يماثله أحد من الصحابة وغيرهم في قدراته العلمية ، فقد غذّاه سيّد الكائنات صلى الله عليه وآله بملكاته ومواهبه ، فهو باب مدينة علمه ، وقد تحدّث الإمام عليه السلام عن سعة علومه فقال :

---

(١) جواهر المطالب : ١ : ٢٧٣ . كتاب الأموال : ٣٤٤ .

١ ـ « بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَىٰ مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاَضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ[(١)] فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ[(٢)]! »[(٣)].

٢ ـ وقال عليه السلام: « سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيما بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِئَةً وَتُضِلُّ مِئَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا ، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً ، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً »[(٤)].

٣ ـ قال عليه السلام: « لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ »[(٥)].

وأعربت هذه الكلمات الثلاث عن طاقاته العلمية ، وما منحه الله تعالى من الفضل والعلم الأمر الذي جعله في قمّة العلم ، وقد تحدّثنا في بعض هذا الكتاب عن العلوم التي فتق أبوابها وأسّسها.

سرعة الجواب

من خصائص الإمام عليه السلام أنّه كان سريع البديهة ، وقد عُرضت عليه أهمّ المسائل المعقّدة في المواريث فأجاب عنها بالوقت ، حتى سمّيت بعضها بالمسائل المنبرية.

وروى الحارث الأعور الهمداني ـ وهو من خلّص أصحاب الإمام عليه السلام ـ أنّه سئل

---

(١) **الأرشية**: الحبال.

(٢) **الطوى البعيدة**: الآبار العميقة.

(٣) بحار الأنوار: ٣٥: ٤. نهج البلاغة: ١: ٤١، الخطبة ٥.

(٤) شرح الأخبار: ١: ١٣٩.

(٥) بحار الأنوار: ٣٤: ٢١٧. نهج البلاغة: ٢: ٨٩، الخطبة ١٧٥.

عن مسألة فبادر ودخل الدار ثمّ خرج في حذاء ورداء، وهو متبسّم، فبادر بعض الحاضرين، فقال: يا أمير المؤمنين، كنت إذا سُئلت عن المسألة تكون فيها كالسّكّة المُحماة، فقال عليه السلام: **كُنْتُ حاقِناً**(١) **وَلَا رَأْيَ لِحاقِنٍ**، ثمّ أنشأ يقول:

إذا المُشكِلات تَصدَّيْنَ لي ... كَشَفْتُ حَقائِقَها بِالنَّظَرْ
وَإنْ بَرقَتْ في مَخِيلِ الصَّوا ... بِ عَمياءُ لا يَجْتَليها البَصَرْ
مُقَنَّعَةً بِغُيوبِ الأمورِ ... وَضَعْتُ عَلَيها صَحيحَ الفِكَرْ
لِساناً كَشِقْشِقَةِ الأَرْحَبيِّ(٢) ... أَوْ كَالحُسَامِ اليَمانِي الذَّكَرْ
وَقَلْباً إذا اسْتَنْطَقَتْهُ الهُمومُ ... أَرْبى عَلَيها بِواهٍ دُرَرْ(٣)
وَلَسْتُ بِإمَّعَةٍ(٤) في الرِّجالِ ... أُسائِلُ هذا وَذا ما الخَبَرْ
وَلكِنَّني مِذْرَبُ الأَصْغَرَيْنِ(٥) ... أُبَيِّنُ مَع ما مَضى ما غَبَرْ(٦)

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض صفاته وعناصره النفسية. ومن المؤكّد أنّه لا يضارعه أحد فيما وهبه الله تعالى من الكمالات ومعالي الآداب والأخلاق.

---

(١) **الحاقن**: الذي اجتمع بوله كثيراً.
(٢) **الأرحبي**: نسبة إلى أرحب بطن من همدان، تنسب لهم النجائب الأرحبيّة.
(٣) **أبر**: زاد على ما استنطقه.
(٤) **الإمّعة**: الأحمق الذي لا يثبت على رأي.
(٥) **المذرب**: الحادّ.
الأصغرين: القلب واللسان.
(٦) أمالي الطوسي: ٥١٤، الحديث ١١٢٥. بحار الأنوار: ٤٢: ١٨٧.

مَعَ الثَّوْرَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

إنّ الثورة الإسلامية الكبرى أعظم ثورة إصلاحية عرفتها الإنسانية في جميع مراحل تأريخها.. إنّها ثورة الفكر، وثورة القيم الكريمة على التخلّف والانحطاط، إنّها ثورة العلم على الجهل، وثورة الفقراء والمستضعفين على أسيادهم المستعبدين.. إنّها الثورة العظمى التي أقامت هيكلاً رفيعاً للتطوّر والابداع في جميع مراحل هذه الحياة.

إنّ الثورة الإسلامية العظمى التي فجّرها الرسول ﷺ في مكّة قد أوجدت زلزالاً مدمّراً للحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك المجتمع الذي كان فيه، وكانت أشدّ هولاً، وأعظم محنة على طغاة القريشيّين، فقد استهدفت تدمير معتقداتهم، وإقصاء عاداتهم وتقاليدهم التي كانوا يؤمنون بها، ودعتهم إلى نظام مشرق جديد يفتح لهم آفاقاً من العزّة والكرامة لم يألفوها، ولم يحلموا بها من قبل، وهذه صور مشرقة من بنود الثورة الإسلامية.

١ ـ تحطيم الأصنام

أمّا الأصنام فكانت مسرحاً للحياة الفكرية والعقائدية في مكّة وما جاورها، فقد اتّخذها المجتمع آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، وقد علّق على جدران الكعبة ما يزيد على ثلاثمائة صنم، وكان أعظمها مكانة وأعزّها شأناً عندهم الأصنام التالية:

ـ هبل.

- اللات.

- العزّى.

- مناة.

وكانت هذه الأصنام آلهة لمعظم أهالي مكّة، فقد نشأوا على عبادتها، وفطروا على الإيمان بها، واعتقدوا اعتقاداً جازماً أنّها خالقة الكون وواهبة الحياة، وقد تفانوا في عبادتها مقلّدين لآبائهم الذين هم كالأنعام بل أضلّ سبيلاً.

وكان أوّل ما أعلنه الرسول ﷺ في دعوته الخلّاقة الدعوة إلى عبادة الله تعالى خالق الكون وواهب الحياة، وتدمير الأصنام التي لا تعي ولا تعقل، والتي تمثّل الانحطاط الفكري، وتلحق الإنسان بقافلة الحيوان الأعجم.

وكان من أشدّ المؤمنين بالأصنام، والمتفانين في الولاء لها الجاهلي أبوسفيان عميد الأسرة الأُمويّة، وشيخ القرشيّين، وهو الذي فزع أشدّ ما يكون الفزع حينما رأى النبيّ ﷺ يطوف حول الكعبة، ويقرأ نشيد الإسلام: «لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبّيك».

وفقد صوابه، وصاح بأعلى صوته: اعل هبل.

فردّ عليه النبيّ ﷺ بعنف: «**يا أَبا سُفْيَانَ، اللهُ أَعْلىٰ وَأَجَلُّ**».

وكان من شدّة إيمان القريشيّين بالأصنام أن خفّ إلى النبيّ ﷺ عصابة منهم فعرضوا عليه أن يعبد أصنامهم سنة، ويعبدون الله تعالى معه سنة أُخرى، فنزلت على الرسول سورة: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ...**﴾[١].

لقد فزعت قريش وضاقت بها الأرض حينما أعلن الرسول ﷺ دعوته لسحق

---

(١) الكافرون ١٠٩: ١ ـ ٣.

الأصنام وتدميرها وتطهير البيت الحرام منها ، واعتبروا ذلك تحطيماً لكيانهم العقائدي فهبّوا جميعاً لمناجزة الرسول ومقاومته ، وحاربوه بجميع طاقاتهم ، وما يملكونه من وسائل القوّة .

٢ ـ تحرير العبيد والمستضعفين

أمّا العبيد في العصر الجاهلي فهم المعذّبون في الأرض ، قد نبذهم المجتمع واحتقرهم ، ولم ير لهم أي كيان ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ممّا عانوه من صنوف الذلّ والعبودية ، وتبنّى النبيّ ﷺ قضاياهم ، ودعا إلى تحريرهم ومساواتهم لبقيّة أبناء المجتمع ، وقد بشّرهم بأنّهم سيكونون مع المستضعفين أسياد المجتمع ، وكان من بينهم بلال الحبشي ، وعمّار بن ياسر وأبوه ياسر ، وأُمّه سميّة ، وعبدالله بن مسعود ، وغيرهم من المؤمنين الذين ألهبت أجسامهم سياط القرشيّين .

لقد دوّى صوت الرسول ﷺ في آفاق مكّة إنه « **لَا فَضْلَ لِأَبيَضَ عَلىٰ أَسْوَدَ إلَّا بِالتَّقْوىٰ** » .

وقد ورمت آناف سادات العبيد من القرشيّين وانتفخ سحرهم من دعوة النبيّ ﷺ بأنّ عبيدهم سينعمون بالحرية الكاملة ، وأنّهم سيكونون سادة لهم فهبّوا متضامنين أجمعين اكتعين لمناجزته ، والاجهاز على دعوته .

٣ ـ تحرير المرأة

أمّا المرأة في العصر الجاهلي فقد عانت من القسوة والظلم ما لا يوصف لمرارته وشدّته ، فقد استهان بها العرب ، وحمّلوها من أمرها رهقاً ، وكان من مظاهر ظلمها :

١ ـ وأد البنات

وكان من الظلم الفاحش للمرأة في العصر الجاهلي أنّه إذا ولد لشخص بنت ظلّ

وجهه مسوداً وهو كظيم ،كما حكى القرآن ذلك بقوله : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١) .

والأدهى من ذلك وأشدّ بلاءً أنّ بعضهم كان يسارع إلى وأد ابنته وهي حيّة ، وقد نعى القرآن عليهم ذلك بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (٢) ، وكانت هذه البادرة القاسية شائعة عند بعض القبائل كربيعة وكندة وتميم وغيرهم ، ومن الأمثال الشائعة دفن البنات من المكرمات .

٢ ـ حرمانها من الميراث

أمّا المرأة في العصر الجاهلي فلا ترث زوجها وأباها وسائر أقربائها ، ولا حظّ لها من الميراث مطلقاً . . وقد انتصر لها الإسلام ، وفتح لها آفاقاً كريمة من الحياة الرفيعة ، وشرّع لها من الحقوق ما لم يقنّنه أي نظام قديماً ولا حديثاً ، فقد ساوى بينها وبين الرجل مساواة كاملة في جميع الحقوق والواجبات ، وجعلها مسؤولة عن حماية الجيل ، وصيانته من اقتراف الجرائم والموبقات ، وأوجب على الزوج القيام بالإنفاق عليها ، وجعلها ترث وتورّث ، وفرض عليها التفقّه في الدين ، وطلب العلم ، كما جعل لها الحرية في اختيار الزوج ، ولكن بمشاركة أبيها إذا كانت باكراً ـ كما ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء ـ ؛ لأنّه أدرى منها بمعرفة الرجال خوفاً أن يكون ما اختارته شاذاً في سلوكه ومنحرفاً في شخصيّته وهي لا تعلم ذلك .

إلى غير ذلك من الحقوق الكاملة التي قنّنها الإسلام لها ، وكانت معاملة الإسلام للمرأة بهذه الصورة من الاحتفاء والتكريم غريبة على العرف الجاهلي ، لم يألفوها ، فقد جافت تقاليدهم وعاداتهم .

---

(١) النحل ١٦ : ٥٨ .

(٢) التكوير ٨١ : ٨ ـ ٩ .

٣ـ الزواج بأرملة الأب

من عادات الجاهلية التي حرّمها الإسلام أنّ الرجل منهم إذا توفّي قام أكبر أولاده فألقى ثوبه على امرأة أبيه ، وورث بذلك نكاحها ، فإذا لم يكن له إرب فيها زوّجها من بعض اخوته أو غيرهم ، وأخذ مهرها ، وقد حرّم الإسلام زواج ولد الميّت بها قال تعالى : **﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾**(١) .

وكانوا يتوارثون النساء كما يتوارثون الأموال ، وكان زواجهنّ بيد آبائهنّ واخوانهنّ ، فإن شاءوا زوّجوهنّ وأخذوا صداقهنّ ، وإن شاءوا تركوهنّ عوانس أو يفدين أنفسهن بالمال ، وقد حرّرهن الإسلام من هذه القيود والأغلال ، وبنى لهنّ اطاراً من العزّة والكرامة ما لم يحلمن به .

٤ ـ المساواة بين الناس

من المبادئ العليا التي تبنّاها الإسلام المساواة العادلة بين جميع أبناء البشر على اختلاف جنسياتهم وقوميّاتهم ، فلا فرق بين حاكم ومحكوم ، ولا بين غني وفقير ، فالناس كلّهم متساوون أمام القانون وفي الحقوق والواجبات والمسؤوليات ، لا امتياز لقوم على آخرين ، وكانت هذه المساواة لذيذة ومقدّسة عند المستضعفين والبؤساء ، فآمنوا بالإسلام إيماناً مطلقاً .

يقول الرسول الأعظم ﷺ : « **لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلىٰ عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلىٰ أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوىٰ** » .

وقد نفرت جبابرة قريش وساداتها من هذه المساواة ، فكانوا يرون أنّهم سادة المجتمع وأشرف من بقيّة القوميّات ، فلذا هبّوا لمناجزة الرسول ﷺ وتعذيب من آمن به من عبيدهم وأبنائهم ونسائهم .

---

(١) النساء ٤ : ٢٢.

٥ ـ حماية الحقوق

من القيم الخلّاقة التي رفع شعارها الإسلام حماية حقوق الناس والأخذ بظلامة الضعيف من القويّ ، وليس لأي أحد سلطان على أحد ، وإنّما الجميع سواسية أمام القانون ، وفزعت قريش من ذلك ، وجنّدت جميع طاقاتها لمحاربة الإسلام .

٦ ـ تحريم الربا

واصطدمت دعوة الرسول صلى الله عليه وآله بمصالح الرأسماليّين من قريش الذين كانوا يعتمدون في معاملاتهم وتجارتهم على الربا ، وقد انتشر بصورة هائلة في مكّة ، وكان ممّن يتعاطاه العباس بن عبدالمطّلب ، وقد حرّمه النبيّ صلى الله عليه وآله تحريماً باتّاً ؛ لأنّه يوجب تكدّس الثراء العريض عند فئة من الناس وشيوع الفقر والحاجة عند الأكثرية الساحقة ، وقد ذعر أصحاب رؤوس الأموال من دعوة الرسول وناجزوه بجميع ما يملكون من قوّة .

٧ ـ تحريم الخمر

أمّا الخمر فكان شائعاً في العصر الجاهلي ، ومنتشراً في جميع الأوساط ، ولمّا حرّمه الإسلام أوجد ضجّة واصطدم مع ملذّاتهم وعاداتهم ، وأضمروا في نفوسهم الحقد على النبيّ صلى الله عليه وآله .

٨ ـ تحريم الاستغلال

وحرّم الإسلام استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، والاستيلاء على جهوده وأتعابه مجّاناً وبلا عوض ، فإنّ ذلك ممّا يؤدّي إلى إشاعة الفقر والحاجة في المجتمع .

٩ ـ إقصاء الفقر

من المبادئ التي رفع شعارها الرسول ﷺ إقصاء الفقر وإزالته عن المجتمع ، واعتبره كالكفر في وجوب مكافحته ، وأنّه كارثة مدمّرة ومصدر لكلّ جريمة وموبقة تقع في البلاد ، ففرض الضرائب في أموال الأغنياء والتي من أهمّها الزكاة ، وجعل الدولة مسؤولة عن جبايتها وتوزيعها على الفقراء ، كما فرض لهم التكافل الاجتماعي ، والتضامن الاجتماعي وغيرهما من الوسائل التي تقضي الفقر .

١٠ ـ إشاعة العلم

من المبادئ التي تبنّاها الرسول ﷺ إشاعة العلم ونشره بين الناس ، وإقصاء الجهل ، وقد جعل طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ، وأهاب بالمسلمين أن يرفعوا عنهم كابوس الجهل ، وينمّوا عقولهم بالعلم ؛ لأنّه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تقوم لهم قائمة وهم يرسفون في قيود الجهل ، وقد عرضنا إلى بحوث مهمّة في هذا الموضوع في كتابنا (النظام التربوي في الإسلام) .

هذه بعض المثل الكريمة والمبادئ الرفيعة التي رفع شعارها النبيّ ﷺ ، ولم يفهمها المجتمع القرشي في مكّة ، فكانت غريبة عليه ، فاندفع بجميع قواه إلى مناهضتها وإطفاء نورها .

الإمام عليه السلام يصف الإسلام

ووصف الإمام عليه السلام الإسلام وصفاً رائعاً وملمّاً بواقعه في كثير من خطبه وكلماته كان منها مايلي :

١ ـ قال عليه السلام : **ثُمَّ إِنَّ هٰذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ .**

أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ[١] بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ[٢] .

أرأيتم هذا الوصف الكامل الدقيق للإسلام ! فهو دين الله تعالى الذي اصطفاه ووهبه لعباده يقيم أودهم ويصلح شؤونهم ويهديهم للتي هي أقوم .

٢ ـ قال عليه السلام : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَىٰ مَنْ غَالَبَهُ ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ[٣] ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ .

فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِجِ ؛ مُشْرَفُ الْمَنَارِ ، مُشْرِقُ الْجَوَادِّ ، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ ، كَرِيمُ الْمِضْمَارِ ، رَفِيعُ الْغَايَةِ ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ . التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ[٤] .

ولقد وعى الإمام عليه السلام الإسلام ، وآمن بقيمه وأهدافه ، فوصفه هذا الوصف الرائع الذي أحاط بمقوّماته ومكوّناته .

---

(١) **المحادّ** : الشديد المخالفة .

(٢) نهج البلاغة / محمّد عبده : ٢ : ١٧٤ .

(٣) **علقه** : أي من تعلّق به .

(٤) نهج البلاغة / محمّد عبده : ١ : ٢٣١ .

الإمام عليه السلام أوّل مَن صلّى مع النبيّ صلى الله عليه وآله

والشيء المحقّق عند الرواة والمحقّقين هو أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو أوّل من آمن وصلّى مع النبيّ صلى الله عليه وآله في البيت الحرام[١]، وقد نقل المؤرّخون بعض من شاهد صلاته مع النبيّ صلى الله عليه وآله وهم:

١ ـ عفيف الكندي

روى عفيف الكندي، قال: «جئت في الجاهلية إلى مكّة، وأنا أُريد أن ابتاع لأهلي من ثيابها وعطرها، فأتيت العبّاس بن عبدالمطلب، وكان تاجراً، فأنا عنده جالس انظر إلى الكعبة، وقد حلّقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شابّ فرمى ببصره إلى السماء ثمّ قام مستقبلاً الكعبة، ثمّ لم يلبث إلّا يسيراً حتّى جاء غلام فقام على يمينه، ثمّ جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع معه الغلام والمرأة، ثمّ رفع الشابّ رأسه فتابعه الغلام والمرأة، وسجد الشابّ فسجد معه الغلام والمرأة، فقلت متعجّباً: يا عبّاس، أمر عظيم!!

وطفق العباس قائلاً: نعم، أمر عظيم!! أتدري من هذا الشابّ؟

قال: لا.

هذا محمّد بن عبدالله ابن أخي، أتدري من هذا الغلام؟ هذا عليّ ابن أخي.

أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته.

إنّ ابن أخي هذا ـ وأشار إلى محمّد صلى الله عليه وآله ـ أخبرني أنّ ربّه ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، لا والله ما على الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير

---

(١) صحيح الترمذي: ٢: ٣٠٠. تاريخ الأمم والملوك: ٢: ٥٥. البداية والنهاية: ٣: ٢٧. مستدرك الحاكم: ٣: ١١٢. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٤: ١٦٩.

هؤلاء الثلاثة »[١].

٢ ـ عبدالله بن مسعود

روى عبدالله بن مسعود، قال: « إنّ أوّل شيء علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله قدمت مكّة مع عمومة لي فأرشدونا إلى العبّاس بن عبدالمطّلب، فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم، فجلسنا إليه، فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا أبيض تعلوه حمرة، له وفرة جعدة إلى أنصاف أُذنيه، أقنى الأنف، برّاق الثنايا، أدعج العينين، كثّ اللحية، دقيق المسربة، شثن الكفّين والقدمين، عليه ثوبان أبيضان، كأنّه القمر ليلة البدر، يمشي عن يمينه غلام أمرد حسن الوجه، مراهق أو محتلم، تقفوه امرأة قد سترت محاسنها، حتى قصد نحو الحجر فاستلمه، ثمّ استلمه الغلام، ثمّ استلمته المرأة، ثمّ طاف بالبيت سبعاً، والغلام والمرأة يطوفان معه.

قلنا: يا أبا الفضل، إنّ هذا الدين لم نكن نعرفه فيكم، أوَ شيء حدث ؟

فقال العبّاس: هذا ابن أخي محمّد، والغلام عليّ بن أبي طالب، والمرأة خديجة، وتابع ابن مسعود حديثه قائلاً: أما والله ما على وجه الأرض من أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلّا هؤلاء الثلاثة[٢].

وهذه الفضيلة للإمام عليه السلام لم يفز بها أحد غيره من الصحابة وغيرهم، وقد اعترف بها سعد بن أبي وقّاص مع انحرافه عن الإمام عليه السلام، فقد اجتاز على قوم مجتمعين على فارس وهو يسبّ الإمام عليه السلام فبادر إليه سعد قائلاً: يا هذا، على ما تشتم عليّ بن أبي طالب ؟ ألم يكن أوّل من أسلم ؟ ألم يكن أوّل من صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ ألم يكن أزهد الناس ؟ ألم يكن أعلم الناس ؟ ألم يكن ختن رسول الله صلى الله عليه وآله على

---

(١) خصائص النسائي: ٣. مسند أحمد بن حنبل: ١: ٣٠٩. الطبقات الكبرى: ٨: ١٠.

(٢) مجمع الزوائد: ٩: ٢٢٤. كنز العمّال: ٧: ٥٦.

ابنته ؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ في غزواته ؟

واستقبل سعد القبلة ، ورفع يديه بالدعاء ، وقال : اللّهمّ إنّ هذا يشتم وليّاً من أوليائك فلا تفرّق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك ، ولم يلبثوا يسيراً حتى نفرت به دابته فرمته على هامته في تلك الأحجار فانفلق دماغه[١] .

الإمام عليه‌السلام مع النبيّ ﷺ في بداية دعوته

وواكب الإمام عليه‌السلام الرسول ﷺ في بداية دعوته ، وكان في فجر الصبا وروعة الشباب ، وقد آمن بوعي وفكر برسالة الإسلام ، وانطبعت في دخائل نفسه ، وأعماق ذاته ، وحينما أمر الرسول ﷺ بتبليغ رسالة ربّه إلى عشيرته بهذه الآية : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٢] دعا الإمام وأخبره بما أُمر به من تبليغ الدعوة المباركة إلى عشيرته الأقربين ، وأحاطه علماً أنّهم لا يستجيبون له ، ولا يؤمنون برسالته ، ولكنّه مأمور بذلك لإقامة الحجّة عليهم ، فأعدّ لهم وليمة وشراباً من لبن ، وسارع الإمام إلى دعوتهم فاستجابوا له ، وكان فيهم من أعمامه مؤمن قريش أبو طالب وحمزة والعبّاس وأبولهب ، ولمّا حضروا قدّم لهم الإمام الطعام ، فتناول النبيّ ﷺ قطعة من اللحم فشقّها بأسنانه ، وألقاها في نواحي الصحفة ، وقال لهم : « خذوا بسم الله » ، فأكلوا جميعاً ، والطعام باقٍ على حاله ، وكان الرجل يأكل مقدار ما في الصحفة إلّا أنّها ببركة النبيّ ﷺ لم ينقص منها شيء ، وبادر الإمام فسقاهم اللبن حتى ارتووا .

وقام النبيّ ﷺ فدعاهم إلى اعتناق الإسلام ونبذ الأصنام ، فقطع الأثيم أبولهب كلامه ، وخاطب المجتمعين قائلاً : لقد سحركم .

فتفرّقوا بين مستهزئ وساخر ، ولم يحدّثهم النبيّ ﷺ شيئاً ، فقد قطع أبولهب

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣ : ٤٩٩ .

(٢) الشعراء ٢٦ : ٢١٤ .

عليه كلامه ، وفي اليوم الثاني دعاهم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى تناول الطعام فأكلوا وشربوا وانبرى النبيّ خطيباً فقال : **يا بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ ، إِنِّي وَاللهِ مَا أَعْلَمُ شاباً فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا قَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ تَعالىٰ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ ، فَأَيُّكُمْ يُوَازِرُنِي عَلىٰ هٰذَا الْأَمْرِ عَلىٰ أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيْفَتِي فِيكُمْ ؟**

فأحجم القوم كلّهم ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة كأنّ على رؤوسهم الطير ، ولم يجبه أحد منهم ، فانبرى إليه الإمام أمير المؤمنين فقال له بحماس : **أَنا يا نَبِيَّ اللهِ أَكُونُ وَزِيْرَكَ عَلَيْهِ** .

فأخذ النبي صلى الله عليه وآله برقبته ، وخاطب القوم قائلاً : **إِنَّ هٰذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيْكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا** .

وتعالت أصوات أُولئك الأقزام بالسخرية والاستهزاء قائلين لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع(١) .

وهذا الحديث من أوضح الأدلّة ، ومن أكثرها بياناً وعطاءً على إمامة الإمام أمير المؤمنين ، وأنّه وزير النبيّ صلى الله عليه وآله وخليفته الشرعي من بعده على أُمّته .

لقد قرن النبيّ صلى الله عليه وآله دعوته إلى التوحيد بالدعوة إلى الخلافة والوزارة والإمامة من بعده ، وقلّدها إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فهو أوّل من آمن بالرسول صلى الله عليه وآله ،

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٢ : ٦٣ . الكامل في التاريخ : ٢ : ٢٤ . مسند أحمد بن حنبل : ١ : ٦٣ .
ومن الغريب أنّ ابن كثير في تفسيره ذكر الحادثة ، وكتب على كلام النبيّ : « أيّكم يوازرني ليكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم » كتب يقول : أيّكم يوازرني على أن يكون كذا وكذا .
وكذلك كتب على قول : النبيّ : « هذا أخي ووصيّي ... إلخ » أيّكم يوازرني على أن يكون كذا وكذا ، قاتل الله هذه العصبية التي تنمّ عن نفس لا علاقة لها بالواقع ولا صلة لها بالتعبّد بقول النبيّ .

وأجاب دعوته ، وصدّق برسالته ، والذي ينكر ذلك فليس برشيد .

ووصف الشاعر الملهم السيّد الحميري دعوة النبيّ ﷺ أسرته إلى الإسلام ، ونكوصهم عن إجابته ، وإيمان الإمام عليه السلام بها بقوله :

وَيَومَ قالَ لَهُ جِبرِيلُ قَدْ عَلِمُوا　　أَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَدنَيْنَ إنْ بَصُرُوا
فَقالَ يا قَومِ إنَّ اللهَ أَرْسَلَني　　إلَيكُمْ فَأَجيبوا اللهَ وَادَّكِرُوا
فَأَيُّكُمْ يَجْتَبي قَوْلي وَيُؤْمِنُ بي　　أَنّي نَبِيٌّ رَسُولٌ فَانبَرَوْا غُدَرُ
فَقالَ تَبّاً أَتَدعونا لِتَلفِتَنا　　عَنْ دينِنا ثُمَّ قامَ القَومُ فَاسْتَمَروا
مِنَ الَّذي قالَ مِنْهُمْ وَهوَ أَحْدَثُهُمْ　　سِنّاً وَخيرُهُمُ في الذِّكْرِ إذْ سُطِروا
آمَنتُ بِاللهِ قَدْ أُعْطيتَ نافِلَةً　　لَمْ يُعْطَها أَحَدٌ جِنٌّ ولا بَشَرُ[1]

وقال الحميري في قصيدة أُخرى منها هذه الأبيات :

فَقالَ لَهُمْ إنّي رَسُولٌ إلَيْكُمْ　　وَلَسْتُ أَراني عِنْدَكُمْ بِكَذُوبِ
فَأَيُّكُمُ يَقْفُو مَقالي ؟ فَأَمْسَكُوا　　فَقالَ أَلَا مِنْ ناطِقٍ فَمُجِيبي ؟
فَفازَ بِها مِنْهُمْ عَلِيٌّ وَسادَهُمْ　　وَمَا ذاكَ مِنْ عاداتِهِ بِغَرِيبِ[2]

وعلى أي حال فقد انفضّ القوم ، ولم يفلح أي أحد منهم بإجابة الرسول ﷺ وتصديقه سوى أخيه وابن عمّه الإمام عليه السلام .

فزع القرشيّين

وفزعت قريش أشدّ ما يكون الفزع من دعوة رسول الله ﷺ واضطربت حياتهم

---

(١) ديوان الحميري : ٢٠٣ .

(٢) ديوان الحميري : ١١٨ .

الاجتماعية والفردية ، وانتشرت الكراهة والبغضاء في أوساطهم ، فقد صبا إلى الإسلام فريق من شبابهم ، وبعض السيّدات من نسائهم ، والأرقّاء من عبيدهم ، والمستضعفون في ديارهم أمثال عمّار وياسر وسميّة ، فكان الولد ينفر من أبويه ، وأمّا المرأة فقد خلعت طاعة زوجها ، واحتقرته ولا تقرب منه ، وأمّا الأرقّاء والمستضعفون فقد فتح لهم الإسلام آفاقاً كريمة من العزّة والكرامة وبشّرهم بمستقبل كريم ، إنّهم سيكونون سادة المجتمع ، وستكون جبابرة قريش وطغاتها أذلّاء صاغرين .

لقد عمّت الاضطرابات معظم بيوت مكّة ، وحدث زلزال عنيف في ذلك المجتمع ، واستحكم العداء بين الولد وأبويه ، والأخ مع أخيه والسادة مع أرقّائهم .

إجراءات قاسية

وأجمعت قريش على مناجزة الرسول صلى الله عليه وآله ومناهضته بجميع ما تملك من وسائل القوّة ، كما أجمعت على تعذيب من آمن به من شبابهم ونسائهم وأرقّائهم والمستضعفين منهم ، وقد اتّخذوا من الاجراءات القاسية ضدّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه ما يلي :

١ ـ إغراء صبيانهم بمحاربة النبيّ صلى الله عليه وآله

وأوعزت قريش إلى صبيانهم بمحاربة النبيّ صلى الله عليه وآله وإلقاء الحجارة والتراب والرماد عليه ، وإنّما عمدت لذلك لتعتذر من أبي طالب حامي النبيّ ، والمدافع عنه ، وتنفي عنها المسؤولية وتلقيها على أطفالهم وصبيانهم الذين لا يعقلون ، ولا يؤاخذون بشيء من أعمالهم ، وقد تصدّى لأُولئك الصبيان الإمام عليه السلام ، وكان في سنّه المبكر قويّ الساعدين ، يحمل عليهم بعنف وقسوة فيوجعهم لكماً وضرباً ، فإذا خرج النبيّ صلى الله عليه وآله سار الإمام خلفه ، فإذا رأوه فرّوا منهزمين إلى آبائهم وأُمّهاتهم يسايرهم

الرعب والخوف من الإمام عليه السلام.

٢ـ اتّهام النبيّ صلى الله عليه وآله بالجنون

من الوسائل التي لجأت إليها قريش في محاربة النبيّ صلى الله عليه وآله رميه بالجنون لأنّه جاءهم بشريعة مجافية لعقولهم التي ران عليها الجهل وخيّم عليها الشرك.

لقد اتّهموه بالجنون، وهو العقل المدبّر للإنسانية، والدماغ المفكّر الذي استوعب بوعي جميع قضايا الإنسان ووضع لها الحلول الحاسمة، لقد اتّهموه بذلك لإفشال دعوته، وصدّ الجماهير من اعتناقها، وقد باءوا بالفشل والخزي، وسارت دعوة الرسول كالضوء، فقد آمنت كوكبة من الشباب بالدعوة المباركة، ووقفوا قوّة ضاربة لحمايتها.

٣ـ اتّهامه صلى الله عليه وآله بالسحر

وأشاعت قريش أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ساحر وأنّه غير مرسل من السماء.. وقد اتّهموه بذلك حينما كان يتلو عليهم كتاب الله تعالى البالغ حد الاعجاز في بلاغته وفصاحته، وماكان يلقيه عليهم من روائع الحِكم والآداب التي تأخذ بمجامع العقول والنفوس، بالاضافة إلى ما كان يريهم من آيات معجزاته التي أمدّه الله تعالى بها لتصديقه، وإيمان الناس به، وقد باءت هذه التهمة بالفشل، ولم تلقَ أي أُذن صاغية لها.

٤ـ تعذيب المؤمنين

وصبّ القرشيّون جامَ غضبهم على من آمن بالرسول صلى الله عليه وآله من أبنائهم ونسائهم وأرقّائهم والمستضعفين منهم، فقد نكّلوا بهم كأقسى وأفظع ما يكون التنكيل، فقد عذّبوا ياسراً وسميّة وعمّاراً عذاباً منكراً وأليماً، وكان النبيّ يجتاز عليهم فيراهم

يئنّون تحت وطأة التعذيب فتتقطّع أنياط قلبه عليهم ألماً ، فقال فيهم كلمته الخالدة التي كانت وسام شرف وفخر لهذه الأسرة الكريمة في جميع الأحقاب والآباد : « صَبْراً آلَ ياسِرٍ فإنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةَ »(١) . واستشهد ياسر ، واستشهدت معه سميّة بأيدي جبابرة قريش ، ونجا الصحابي العظيم عمّار بعد ما عذّب .

وقد عانى المؤمنون من الرجال والنساء جميع صنوف التعذيب والاضطهاد والتنكيل ممّا اضطرّهم إلى الهجرة من وطنهم مكّة إلى الحبشة ، وكان فيهم جعفر الطيّار ، وقد لاحقتهم قريش لإرجاعهم إلى مكّة لتصفيتهم جسدياً إلّا أنّ ملك الحبشة لم يستجب لهم وأبقاهم في بلده ولم يعرض لهم أحد بمكروه .

٥ ـ في شِعب أبي طالب

وأجمع رأي وجوه القرشيّين وساداتهم على حبس النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته في شِعب أبي طالب ، وفرض الإقامة الجبرية عليهم حتى لا يختلطوا بالناس فيغيّروا عقائدهم ويغسلوا أدمغتهم من براثن الجاهلية ، وقد اتّخذوا من القرارات ما يلي :

١ ـ أن لا يزوّجوا هاشمياً بامرأة منهم .

٢ ـ لا يتزوّج أحد منهم بهاشمية .

٣ ـ لا يبايعون هاشمياً ولا يشترون شيئاً منهم .

وكتبوا في ذلك وثيقة علّقوها في جوف الكعبة ، وأقام الرسول صلى الله عليه وآله ومن آمن به من الهاشميّين في شِعب أبي طالب ، وهم يعانون أشقّ وأقسى ألوان الاضطهاد والضيق ، وقد أمدّتهم بجميع ما يحتاجون إليه أمّ المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها حتى نفد ما عندها من الثروة والأموال ، فما أعظم عائدتها على الإسلام والمسلمين !

---

(١) شرح نهج البلاغة : ١٣ : ٢٥٥ .

الافراح عن النبيّ وآله عليهم السلام

وبقي النبيّ صلى الله عليه وآله محاصراً في الشِعب سنتين أو ما يزيد عليهما، وقد سلّط الله تعالى الأرضة على صحيفة قريش فأتت عليها، فأخبر النبيّ صلى الله عليه وآله عمّه أبا طالب بذلك فهرع إليهم وأخبرهم بالأمر فخفّوا مسرعين إلى الصحيفة فوجدوها كما أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فذهلوا ووجموا، وانبرى جماعة من قريش فطالبوا قومهم برفع الحصار عن الهاشميّين فعارضهم أبوجهل، إلّا أنّ معارضته لم تجد شيئاً، فقد رفعوا الحصار عن النبيّ صلى الله عليه وآله مع من آمن به، وخرجوا من الشِعب وهم في أقصى ما يتصوّر من الجهد والعناء.

وخرج النبيّ صلى الله عليه وآله من الشِعب وهو يدعو الناس إلى الإيمان بالإسلام ونبذ الجاهلية، ولم يحفل بتهديد القرشيّين وإجماعهم على مناهضته، فقد احتمى بعمّه أبي طالب شيخ البطحاء ومؤمن قريش، فكان مع أبنائه سدّاً حصيناً وقوّة ضاربة يحتمي بها، وقد شجّعه على أداء رسالته ومقاومة المدّ الجاهلي قائلاً له:

اذْهَبْ بُنَيَّ فَما عَلَيْكَ غَضاضَةٌ ... اذْهَبْ وَقُرَّ بِذاكَ مِنْكَ عُيُونا
وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتّىٰ أُوَسَّدَ فِي التُّرابِ دَفِينا
وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ ناصِحِي ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قِبْلُ أَمِينا (١)
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيانِ الْبَرِيَّةِ دِينا (٢)
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ ما عَلَيْكَ غَضاضَةٌ ... وَابْشِرْ بِذاكَ وَقُرَّ مِنْكَ عُيُونا (٣)

ودلّ هذا الشعر على إيمان أبي طالب وتفانيه في الولاء لابن أخيه وتصديقه

---

(١) إيمان أبي طالب: ٢٥٧.

(٢) تاريخ أبي الفداء: ١: ١٢٠.

(٣) أسنى المطالب: ١٨.

لرسالته صلى الله عليه وآله .

وعلى أي حال فقد ورمت قلوب القرشيّين غيظاً على النبيّ صلى الله عليه وآله وحسداً له ، وممّا زاد في بغضهم للنبيّ صلى الله عليه وآله ما يعلنه من التنديد بالأصنام التي اتّخذوها آلهة يعبدونها من دون الله تعالى ، وقد ازداد حسد الطغاة من قريش للنبيّ حينما كانت الأندية تتحدّث عن سموّ أخلاقه وعظيم ما جاء به من هدى ورحمة وخير إلى الناس وإيمان بعض الناس برسالته .

وفاة أبي طالب وخديجة

رزئ النبيّ صلى الله عليه وآله بكارثة كبرى ، وهي وفاة عمّه أبي طالب حامي الإسلام وأقوى مدافع عنه ، كما ورزئ بوفاة زوجته أُمّ المؤمنين خديجة التي كانت من أقوى المناصرين له ، فقد وهبت جميع ما تملكه من الثراء العريض في سبيل الإسلام ، وكانت وفاتها بعد وفاة عمّه أبي طالب بثلاثة أيام[١] ، وبلغ الحزن من النبيّ صلى الله عليه وآله أقصاه ، فقدْ فقدَ عمّه وزوجته الرؤوم ، وقد سمّي ذلك العامّ عام الحزن ، فلم يجد بعد عمّه ركناً شديداً يأوي إليه ، وبقي في أرباض مكّة تسايره الهموم والأحزان خوفاً من بطش القرشيّين وكيدهم .

إجماع القرشيّين على قتل النبيّ صلى الله عليه وآله

وبعدما نكب الرسول صلى الله عليه وآله بفقد عمّه حامي الإسلام صمّم على مغادرة مكّة والهجرة إلى يثرب ؛ لأنّه وجد فيها ركناً شديداً يأوي إليه ، وهم الذين آمنوا بدعوته من الأوس والخزرج ، فقد كانوا قوّة ضاربة تحمي دعوته .

---

(١) إيمان أبي طالب : ٢٦١.

وفي تاريخ اليعقوبي : ٢ : ٢٥ : إنّ أُمّ المؤمنين توفّيت في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفّي أبوطالب بعدها بثلاثة أيام .

وحينما أُشيع عزم النبيّ ﷺ على الهجرة إلى المدينة اضطرب القرشيّون، وتعاظم سخطهم، وورمت آنافهم، فاجتمعوا بدار الندوة، وعرضوا فيها الأخطار الهائلة التي مُنوا بها من دعوة النبيّ ﷺ التي صبا إليها شبابهم ونساؤهم ورقيقهم والمستضعفون في ديارهم، فصمّموا على قتل النبيّ ﷺ مهما كلّفهم الأمر، وكان فيما يروي بعض المؤرّخين قد حضر إبليس في ندوتهم فأشار عليهم بإسناد تنفيذ الجريمة إلى عدد يربو على أربعين شخصاً ينتمي كلّ واحد منهم إلى قبيلة معيّنة حتى من الأُسرة الهاشمية، وبذلك يتّخذ قتله صفة عامّة لجميع القبائل فلا تكون قبيلة معيّنة مسؤولة عن دمه حتى لا يستطيع أنصاره والمؤمنون به الثأر منهم جميعاً، وقد عيّنوا يوماً لذلك سمّوه يوم الزحمة، وأخبر الله تعالى نبيّه العظيم بما عزمت عليه قريش في قتله(١).

هجرة النبيّ ﷺ إلى يثرب

ولمّا حان اليوم الذي عيّنته قريش لقتل النبيّ ﷺ أحاطوا بداره ليلاً من جميع الجهات شاهرين سيوفهم يترقّبون بفارغ الصبر طلوع الفجر لتمزّق سيوفهم جسم النبيّ ﷺ ويطفئوا ذلك النور الذي أراد أن يحرّرهم من ظلمات الجاهلية ومآثم الحياة.. لقد أرادت قريش أن تنصر أصنامها وأوثانها وتعيد ما فقدته من الهيبة في أوساط العرب.

مبيت الإمام عليه السلام على فراش النبيّ ﷺ

وأوعز النبيّ ﷺ إلى أخيه وابن عمّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يبيت في فراشه، ويتّشح ببردته الخضراء(٢)؛ ليوهم على أُولئك الأقزام أنّه النبيّ ﷺ حتّى

---

(١) امتاع الأسماع: ١: ٣٨.

(٢) امتاع الأسماع: ١: ٣٩.

يسلم من شرّهم ، وتلقّى الإمام عليه السلام أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بمزيد من السرور والابتهاج وشعر بالسعادة التي لم يحلم بها من قبل ليكون فداءً لرسول الله صلى الله عليه وآله .

وخرج النبيّ من الدار ، ورماهم بحفنة من التراب أتت على وجوههم الكريهة قائلاً : **شاهَتِ الْوجُوهُ ذلاً** .

وأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يتلو قوله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾**[١] .

إنّ مبيت الإمام عليه السلام على فراش النبيّ صلى الله عليه وآله ووقايته له بنفسه صفحة مشرقة من جهاده ، ومنقبة لا تعدلها أيّة منقبة ، وقد أنزل الله تعالى آية من كتابه ، قال تعالى : **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾**[٢] .

ويقول الرواة : إنّ الله تعالى باهى ملائكته بالإمام ، فقد أوحى إلى جبرئيل وميكائيل أنّي آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر ، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة ، فاختار كلاهما الحياة على صاحبه ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما : أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه ، فنزلا فكان جبرئيل عند رأس عليّ ، وميكائيل عند رجليه ، وجبرئيل يقول للإمام عليه السلام : « بخ بخ ، من مثلك يابن أبي طالب ، يُباهِي الله عزّ وجلّ به الملائكة » ، فأنزل الله على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة في شأن علي : **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾**[٣] .

---

(١) يٰس ٣٦ : ٩ .

(٢) البقرة ٢ : ٢٠٧ .

(٣) أُسد الغابة : ٤ : ٢٥ . نور الأبصار : ٧٧ . تفسير الرازي : ٥ : ٢٢٣ في تفسير هذه الآية . مسند أحمد بن حنبل : ١ : ٣٤٨ . تاريخ بغداد : ١٣ : ١٩١ . الطبقات الكبرى : ٨ : ٣٥ ، وغيرها . ⇦

إنّ مبيت الإمام في فراش النبيّ ﷺ يوحي أنّه الشخصية الثانية في رسالة الإسلام الذي يخلف النبيّ ﷺ ويمثّل شخصيّته ويقوم مقامه ، ولهذه الكرامة دور مهم في دعوة الإسلام لم ينلها أحد من أسرة النبيّ ﷺ وأصحابه .

ويقول الشاعر الملهم الكبير الشيخ هاشم الكعبي في رائعته :

وَمَواقِفٌ لَكَ دُونَ أَحْمَدَ جاوَزَتْ ... بِـمقامِكَ التَّـعْرِيفَ وَالتَّـحْدِيدا
فَعَلَى الْفِراشِ مَبِيتُ لَيْلِكَ وَالْعِدى ... تُـهْدِي إِلَـيْكَ بَـوارِقـاً وَرُعـودا
فَـرَقَدْتَ مَـثْلُوجَ الْـفُؤادِ كَـأَنَّما ... يُـهْدِي الْـقِراعُ لِسَـمْعِكَ التَّـغْرِيدا
فَكُـفِيتَ لَـيْلَتَهُ وَقُـمْتَ مُـعارِضاً ... بِـالنَّفسِ لَا فَشِـلاً ولا رِعْـدِيدا
وَاسْتَصْبَحُوا فَرَأَوا دُوَيْـنَ مُـرادِهِـمْ ... جَـبَلاً أَشَـمَّ وَفـارِساً صِـنْدِيدا
رَصَدُوا الصَّباحَ لِيُنْفِقُوا كَنزَ الْـهُدى ... أَوَ مـا دَرَوْا كَـنزَ الْـهُدى مَـرصودا

دعاء الإمام عليه السلام

وأنفق الإمام عليه السلام ليله ساهراً يدعو الله تعالى لينقذه وأخـاه النـبيّ ﷺ مـن هـذه المحنة الحازبة ، وهذا دعاؤه :

يَا مَنْ لَيْسَ لَهُ رَبٌّ يُدْعىٰ ، يَا مَنْ لَيْسَ فَوْقَهُ خَالِقٌ يُخْشىٰ ، يٰا مَنْ لَيْسَ دُونَهُ إِلـٰهٌ يُتَّقىٰ ، يٰا مَنْ لَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ يُرْشىٰ ، يٰا مَنْ لَيْسَ لَهُ نَدِيمٌ يُغْشىٰ ، يَا مَنْ لَيْسَ لَهُ حَاجِبٌ يُنَادىٰ ، يَا مَنْ لَا يَزْدَادُ عَلىٰ كَثْرةِ السُّؤالِ اِلَّا كَرَماً وَجُوداً ، يَا مَـنْ لَا يَزْدَادُ عَلَى عَظِيمِ ذُنُوبِ عِبادِهِ اِلَّا رَحْمَةً وَعَفْواً[1] .

⇦ ذكرت مبيت الإمام علي عليه السلام في فراش النبيّ ﷺ ووقايته له بنفسه .

(١) الصحيفة العلويّة الثانية : ١١٧ .

وأثر عنه أنّه دعا في تلك الليلة الحازبة بهذا الدعاء أيضاً وهو :

أَمْسَيْتُ اللّٰهُمَّ مُعْتَصِماً بِذِمَامِكَ الْمَنِيعِ الَّذي لَا يُحَاوَلُ وَلَا يُطَاوَلُ ، مِنْ شَرِّ كُلِّ غَاشِمٍ وَطَارِقٍ مِنْ سَائِرِ مَنْ خَلَقْتَ ، وَمَا خَلَقْتَ مِن خَلْقِكَ الصَّامِتِ وَالنَّاطِقِ ، فِي جُنَّةٍ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ ، بِلِبَاسٍ سَابِغَةٍ بِوَلَاءِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ، مُحْتَجِباً مِنْ كُلِّ قَاصِدٍ لي بِأَذِيَّةٍ ، بِجِدَارٍ حَصِينِ الْإِخْلَاصِ فِي الْإِعْتِرَافِ بِحَقِّهِمْ ، وَالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِهِمْ ، مُوقِناً أَنَّ الْحَقَّ لَهُمْ وَمَعَهُمْ وَفِيهِمْ ، وَبِهِمْ وَمِنْهُمْ وَإِلَيْهِمْ ، أُوالي مَنْ والَوْا ، وَأُعَادِي مَنْ عَادَوا ، وَأَجَانِبُ مَنْ جَانَبُوا .

فَصَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وأَعِذْني اللّٰهُمَّ بِهِمْ اتَّقِي مِنْ شَرِّ كُلِّ مَا أَتَّقِيهِ يَا عَظِيمُ ، حَجَزْتُ عَنِّي الْأَعَادِيَ بِبَدِيعِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ (١) .

وظلّ الإمام راقداً في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله ، ولمّا اندلع نور الصبح هجم الطغاة شاهرين سيوفهم على سرير النبيّ صلى الله عليه وآله ، فطلع منه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كالأسد الضاري شاهراً سيفه ، فلمّا رأوه ذهلوا وجبنوا ، وصاحوا به : أين محمّد ؟

فقابلهم الإمام عليه السلام بعنف قائلاً: **أَجَعَلْتُموني عَلَيْهِ رَقِيباً ؟**(٢)

ونكصوا على أعقابهم يجرّون رداء الخيبة والخسران ، فقد فلت من قبضتهم

---

(١) البلد الأمين : ٤٨.

(٢) بحار الأنوار: ١٩ : ٥٠.

الرسول ﷺ الذي جاء ليحرّرهم من ويلات الجاهلية وخرافاتها .

وحقدت قريش على الإمام أشدّ ما يكون الحقد ، ورمته بنظرات حادّة ، فقد أفلت منها بسببه النبيّ محمّد ﷺ ، وصفعها الإمام بتلك الصفعة المذلّة ، وتحدّاها واستخفّ بها ، وجعل يغدو ويروح أمامها ساخراً ومستهزئاً بها .

مرافقة أبي بكر للرسول ﷺ

وغادر النبيّ ﷺ مكّة ميمّماً وجهه صوب يثرب ، وقد أنجاه الله من شرّ أُولئك الوحوش الكاسرة الذين أُترعت نفوسهم بالآثام والرذائل ، وصادفه في الطريق أبوبكر فصحبه ، وسار معه حتى انتهيا إلى جبل ثور[١] ، وفي أعلاه غار فدخلا فيه ، وأقاما فيه ثلاثة أيام ، وأرسل الله تعالى زوجاً من الحمام فباضا في مدخله ، وأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسجت بيتاً لها فيه ، وخفّت قريش مسرعة في طلب النبيّ ﷺ ، يتقدّمهم سراقة بن مالك ، وكان عالماً بصيراً بمعرفة الأثر ، فانتهى إلى باب الغار فرأى البيض وبيت العنكبوت ، فقال : لو دخله أحد لانكسر البيض ، والنبيّ ﷺ يراهم وهو يدعو : « **اللّهُمَّ أَعْمِ أَبْصَارَهُمْ** » .

وأعمى الله أبصارهم ، وسلب لبّهم ، وقال أبو بكر للنبيّ ﷺ : لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا .. وبلغ به الخوف أقصاه ، فقال له النبيّ ﷺ : « **لَا تَخَفْ إِنَّ اللهَ مَعَنا** » .

ونزلت الآية الكريمة على النبيّ العظيم : ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٢] ، ونزل رجل من قريش فبال على باب الغار ففزع أبوبكر ،

---

(١) جبل ثور : يقع في يمين مكّة على مسيرة ساعة ـ الكشّاف ٢ : ٢١٣ .

(٢) التوبة ٩ : ٤٠ .

وقال: يا رسول الله، قد أبصرونا، فهدّأه النبيّ وقال له: «**لَوْ أَبْصَرُونا ما اسْتَقْبَلُونا بِعَوْراتِهِمْ**»(١).

ولمّا أمن النبيّ وأبوبكر من الطلب خرجا من الغار متّجهين نحو المدينة المنوّرة.

استقبال المدينة للرسول

ولمّا علم أهالي يثرب بتشريف النبيّ ﷺ هرعوا جميعاً لاستقباله، وقد علت زغاريد النساء وهن ينشدن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنا ... مِنْ ثَنِيّاتِ الْوَداعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنا ... ما دَعا لِلهِ داعْ(٢)

وكان ذلك اليوم مشهوداً لم يمرّ على يثرب مثله، وحينما استقرّ النبيّ ﷺ فيها أخذ يؤسّس معالم دولته الكبرى دولة التوحيد التي تبنّت القضايا المصيرية لجميع شعوب العالم وأُمم الأرض، وأعلنت حقوق الإنسان، وما يسمو به من الآداب والفضائل.

وقد وجد النبيّ ﷺ من ولاء أهل المدينة له وتباشيرهم بقدومه ما ملأ قلبه فرحاً وسروراً، وأيقن أنه سيجد منهم أنصاراً لدعوته وبناة لدولته.

هجرة الإمام عليه السلام إلى يثرب

ولمّا نزح الرسول ﷺ من مكّة إلى يثرب قام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأداء الأمانات التي عند النبيّ، وردّ الودائع، وقضاء ديونه ﷺ، وأمر منادياً ينادي بالأبطح مَن كانت له عند رسول الله ﷺ أمانة فليأت ويستلم أمانته، وبعد ما أدّى

---

(١) مجمع البيان: ٥: ٣٠.
(٢) البداية والنهاية: ٣: ٢٤١.

ذلك حمل السيّدات الزاكيات من الفواطم وهاجر بهنّ إلى يثرب ، فلحقه سبعة من عتاة قريش لصدّه عن السفر ، فانبرى إليهم الإمام ببسالة وعزم ، فقتل واحداً منهم ، وهرب الباقون[١] .

وسار الإمام يطوي البيداء لا يلوي على شيء حتّى انتهى إلى يثرب ، وقيل إلى قبا قبل أن يدخل النبيّ إلى المدينة[٢] .

ولمّا بلغ النبيّ قدوم عليّ أمر بإحضاره فقيل له إنّه لا يقدر على المشي ، فأتاه النبيّ فلمّا رآه اعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم من كثرة المشي فأخذ النبيّ من ريقه ومسح به رجليه فبرئتا ، ولم يَشْكُ بعد ذلك منهما شيئاً[٣] .

الاخوّة بين المسلمين

وأوّل عمل قام به الرسول صلى الله عليه وآله أنّه آخى بين المهاجرين والأنصار ، وربط بينهم برباط الاخوة الصادقة فشارك كلّ واحد منهم أخاه في مكاره الدهر ولينه ، وآخى بينه وبين الإمام عليه السلام[٤] . كما قام صلى الله عليه وآله بالإصلاح وإشاعة المودّة بين الأوس والخزرج الذين كانوا يشكّلون الأكثرية الساحقة من سكّان المدينة المنوّرة ، وكانت البغضاء سائدة بينهما فأطفأها النبيّ صلى الله عليه وآله .

تأسيس الجامع النبويّ

وحينما استقرّ النبيّ صلى الله عليه وآله في يثرب قام بتأسيس مسجده المعظّم ليكون مقرّاً

---

(١) أعيان الشيعة : ٣ : ٩٢.

(٢) الطبقات الكبرى : ٣ : ٢٢.

(٣) أُسد الغابة : ٤ : ٩٢.

(٤) الطبقات الكبرى : ٣ : ٢٢. وجاء فيه : «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال للإمام : **أَنْتَ أخي، تَرِثُني وَأَرِثُك**».

لحكومته ، ومركزاً لعبادته ، ومعهداً لتعاليمه ، وكان طوله وعرضه (٦٠) ذراعاً ، وقد انبرى المسلمون من المهاجرين والأنصار إلى العمل فيه ، وكان النبيّ ﷺ من جملة العمّال ، وقد انبرى أحد المسلمين محرّضاً لهم على العمل قائلاً:

لَـئِنْ قَـعَدْنا وَالنَّـبيُّ يَـعْمَلُ   لَذاكَ مِـنّا الْـعَمَلُ الْـمُضَلَّلُ

وردّد المسلمون في أثناء عملهم قائلين:

لَا عَـيشَ إلّا عَـيشُ الآخِـرَة   اللّهمّ ارْحَمِ الْأَنْصارَ وَالمُهاجِرَة

وكان النبيّ ﷺ يردّد: «**لَا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الْآخِـرَةِ... اللّهُمَّ ارْحَـمِ الْـمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصار**».

وكان من جملة العاملين الصحابي العظيم الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر ، وقد أثقله بعض الحاقدين عليه بحمل الكثير من اللِبن ، فجاء إلى النبيّ ﷺ وقد أعياه التعب قائلاً: يا رسولَ اللهِ ، قتلوني ، يُحمّلون عليَّ ما لا يَحمِلون.

قالت أُمّ سلمة : رأيت رسول الله ﷺ ينفض فروة عمّار بيده ويقول له : «**وَيْحَ ابْنَ سُمَيَّةَ ، لَيْسوا بِالَّذِينَ يَقْتُلونَك ، إنَّما تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْباغِيَةُ**».

وكان الإمام عليّ عليه السلام من جملة العاملين في تأسيس الجامع النبوي وهو يرتجز:

لَا يَسْتَوِي مَن يَعْمُرُ المَساجِدا   يَـدْأَبُ فـيهِ قـائِمـاً وَقـاعِـدا

وَمَنْ يُرىٰ عَنِ الْغُبارِ حائِداً (١)

وتمّ بناء الجامع النبوي ومساكن النبيّ ﷺ وأهله ، وسرعان ما انتشر الإسلام في يثرب ونواحيها ، وبذلك تشكّلت الدولة الإسلامية العظمى.

---

(١) السيرة النبويّة: ٤: ١٤٢.

الإمام عليه السلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله وفترة الخلافة

مَعَ ٱلنَّبِيِّ

فِي جِهَادِهِ وَغَزَوَاتِهِ

تبنّى النبيّ ﷺ بصورة إيجابية الدعوة إلى السلم وتحرير الإنسان من ويلات الحروب ومآثم الحياة ، وقد انطلقت دعوته المشرقة من مكّة التي كانت مركزاً للقوى الجاهلية المتمثّلة في القرشيّين الذين انطوت أفكارهم على الجهل والغطرسة والأنانية ، فورمت آنافهم ، وانتفخ سحرهم ، وهبّوا لمناجزة رسول الله ﷺ وتعذيب من آمن به من المستضعفين ، حتى اضطرّوا إلى الهجرة للحبشة للتخلّص من عنف القرشيّين واضطهادهم .

وكان النبيّ ﷺ محتمياً بعمّه شيخ البطحاء ومؤمن قريش أبي طالب ، ولمّا انتقل إلى حظيرة القدس لم يجد النبيّ ركناً يأوي إليه ، فاجتمعت قريش على قتله ـ كما تحدّثنا عن ذلك في البحوث السابقة ـ ، فهاجر إلى يثرب فوجد في أهلها الحماية والإيمان بدعوته والاستجابة لنصرته ، وقامت قيامة القرشيّين وفزعوا أشدّ ما يكون الفزع ، فأجمع رأيهم على شنّ الحرب عليه بلا هوادة ، وتسخير جميع إمكانياتهم الاقتصادية لمناجزته وإطفاء نور رسالته .

ووقف الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام إلى جانب النبيّ ﷺ يحميه ويذبّ عنه في جميع الحروب التي شنّتها عليه قريش ، وقد أسند إليه قيادة جيشه ، وجعله رافعاً للوائه ، وقد لازمه الإمام في غزواته التي كان الغرض منها رفع كلمة الله وتحرير إرادة الإنسان وفكره من عبادة الأوثان والأصنام التي هي من الأوبئة على الفكر ، ومن الأمراض الخطرة التي تلحق الإنسان بقافلة الحيوان السائم ، وتصدّه عن

الطريق القويم .

وعلى أي حال فإنّا نعرض للحروب وبعض الغزوات التي خاضها الإمام مع النبيّ ﷺ دفاعاً عن كلمة الإسلام ورافعاً لراية التوحيد ، وفيما يلي ذلك :

واقعة بدر

سجّلت واقعة بدر[1] نصراً مبيناً للإسلام ، وفتحاً عظيماً للمسلمين ، وضربة قاصمة لأئمّة الكفر والضلال من الطغاة القرشيّين وجبابرتهم ، لقد أعزّ الله عبده ورسوله محمّد ﷺ بواقعة بدر ، وأذلّ أعداءه ، وأظهر دينه ، ورفع كلمته ، وكان البطل البارز في تلك المعركة هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد كان سيفه منجل الموت الذي حصد رؤوس المشركين ، وعتاة الملحدين من القرشيّين.. ونتحدّث ـ بإيجاز ـ عن بعض فصول هذه المعركة :

استنجاد أبي سفيان بقريش

كان أبو سفيان ـ العدوّ الأوّل للإسلام ـ قد خرج إلى الشام في تجارة له ومعه سبعون شخصاً من قريش ، ولمّا فضت تجارتهم واشتروا من البضائع ما يريدون قفلوا راجعين إلى مكّة ، وعلم النبيّ ﷺ بقدومهم فندب إليهم أصحابه لمصادرة بضائعهم وأموالهم ، وذلك لإضعافهم اقتصادياً حتى لا يتمكّنوا من مناجزته ، وعلم أبو سفيان ذلك فاستنجد بالقبائل القرشية وطلب منها حمايتهم وحماية بضائعهم وأموالهم ، فهبّت قريش لنجدته ، وسلك أبو سفيان طريقاً غير الطريق العامّ فنجا من قبضة المسلمين ، وزحف النبيّ ﷺ بمن معه من المسلمين لإلقاء القبض على أبي

---

(١) بدر : موضع يقع بين مكّة والمدينة ، سمّي بهذا الاسم لأنّ فيه ماء لرجل يسمّى بدراً ، فسمّي الموضع به ـ مجمع البحرين : ١ : ٤٩٨.

سفيان، وعسكر بجيشه ببدر.

رؤيا عاتكة

رأت السيّدة عاتكة بنت عبدالمطلب في منامها رؤيا أفزعتها فسارعت إلى أخيها العبّاس بن عبدالمطّلب فقصّتها عليه قائلة: إنّي رأيت الليلة رؤيا أفزعتني.

وسارع العبّاس قائلاً: ما رأيت؟

وأخذت تقصّ عليه رؤياها بفزع وخوف قائلة: إنّي أتخوّف أن يدخل على قومك منها شرّ عظيم فاكتم منّي ما أُحدّثك به.

فقال: أفعل ذلك ولا أُحدّث به.

ولمّا ضمن لها أن لا يذيع رؤيتها بين قريش أخذت تحدّثه بها قائلة: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثمّ صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل نجد لمصارعكم، فأرى الناس اجتمعوا إليه.. ثمّ أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكّة ولا دار إلّا دخلتها منها فلقة.

وفزع العبّاس من هذه الرؤيا التي تنبئ بالخطر العظيم على أهالي مكّة، ولم يستطع كتمانها، فقد ضاق صدره منها وراح يشيعها ويتحدّث بها إلى الناس، ووصل خبرها إلى أبي جهل، فانطلق إلى العباس وقال ساخراً: يا بني عبدالمطلب، أما رضيتم أن يتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نساؤكم[1].

وصدقت رؤيا عاتكة، فقد حلّ بالقرشيّين الدمار الشامل، فقد كانت واقعة بدر

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام: ٢: ٢٤٥. تاريخ الأُمم والملوك: ٢: ١٣٦. بحار الأنوار: ١٩: ٢١٦. الطبقات الكبرى: ٨: ٤٤.

التي نشرت في بيوتهم الثكل والحزن والحداد، وخيّم عليها الذلّ والهوان.

نصيحة عتبة بن ربيعة

وقبل أن تندلع نار الحرب أشار عتبة بن ربيعة على قومه القرشيّين بعدم مناجزة الرسول صلى الله عليه وآله ونهاهم عن فتح باب الحرب مع المسلمين قائلاً: إنّي أرى قوماً مستميتين لا تصلون إليهم.

يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، ولقد علمتم أنّي لست بأجبنكم.

وسمع أبو جهل نصيحة عتبة فاستشاط غضباً وغيظاً وصاح به: أنت تقول هذا؟ والله! لو غيرك يقول هذا لعضضته، لقد ملئت رئتك وجوفك رعباً..

وردّ عليه عتبة بعنف قائلاً: إيّاي تعيّر يا مُصَفِّراً استه، ستعلم اليوم أيّنا أجبن؟[١]

ونظر النبيّ صلى الله عليه وآله إلى عتبة، وكان على جمل أحمر، فرأى في وجهه الرشد والخير، فقال لأصحابه: **إنْ يَكُنْ فِي أَحَدٍ مِنَ الْقَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ صاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ، إنْ يُطِيعُوهُ يَرْشُدُوا**[٢].

ولم تصغ قريش لنصيحة عتبة، ومضت سادرة في غيّها وجهلها، وصمّمت على مناجزة النبيّ صلى الله عليه وآله، ونظر أبو جهل إلى قلّة أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله فاستضعفهم واستهان بهم وقال: إنّ محمّداً وأصحابه أكلةُ جزور...[٣].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ٢: ١٣٤. كنز العمّال: ٣٩٥ و ٣٩٦. البداية والنهاية: ٣: ٣٣٩.

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام: ٢: ٤٥٣. تاريخ الأمم والملوك: ٢: ١٤٥. البداية والنهاية: ٣: ٣٢٨.

(٣) السيرة النبويّة / ابن هشام: ٢: ٤٥٣. كنز العمّال: ١٠: ٤١٧.

سقاية الإمام عليه السلام للجيش

وأصاب الجيش الإسلامي ظمأ في بدر فانبرى الإمام عليه السلام إلى القليب وجاء بالماء حتى أروى المسلمين(١).

دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله للأنصار

ونظر النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الأنصار وهم يتعاقبون في الحمل على النوق التي لم تكن تكفيهم ، فدعا لهم وقال : **اللّهُمَّ إنَّهُمْ حُفاةٌ فَاحْمِلْهُمْ ، وَعُراةٌ فَاكْسُهُمْ ، وَجِياعٌ فَأَشْبِعْهُمْ ، وَعالَةٌ فَأَغْنِهِم مِنْ فَضْلِكَ.**

واستجاب الله تعالى دعاء نبيّه العظيم ، فما انتهت معركة بدر إلّا وجد كلّ واحد منهم بعيراً يعتليه ، واكتسى منهم كلّ عار ، وأصابوا الطعام من متاع قريش ، وأصابوا فداء الأسرى فاغتنى به كلّ عائل منهم(٢).

دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله على قريش

وأنفق النبيّ صلى الله عليه وآله ليله ساهراً يصلّي إلى جانب شجرة ، وقد نام جميع المسلمين إلّا هو ، كما حدّث بذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يدعو الله تعالى بهذا الدعاء : «**اللّهُمَّ هٰذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِها وفَخْرِها تُحارِبُكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ ، اللّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذي وَعَدْتَني ، اللّهُمَّ أَحِنْهُمُ(٣) الْغَداةَ...**»(٤).

---

(١) مناقب آل أبي طالب : ١ : ٤٠٦. بحار الأنوار : ٣٩ : ٩٥.

(٢) إمتاع الأسماع : ١ : ٦٤. بحار الأنوار : ١٩ : ٣٣٠.

(٣) **أحِنْهُمُ** : أي أهلكهم.

(٤) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٢٧٣. تاريخ الأمم والملوك : ٢ / ١٤٥. البداية والنهاية : ٣ : ٣٢٨.

النبيّ صلى الله عليه وآله مع أصحابه

وأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يلهم أصحابه القوّة والنشاط قائلاً لهم : **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لا يُقاتِلُهُم رَجُلٌ فَيُقْتَلَ صابِراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ** .

وبعثت هذه الكلمات في نفوسهم العزم ، فاندفعوا كالأسود لمناجزة أعداء الله .

المعركة

بدأت المعركة صباح يوم الجمعة في اليوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة (٢هـ) ، المصادف ١٥ كانون الثاني سنة ٦٢٤م ، وقد فتح القرشيّون باب الحرب ، فبرز منهم عتبة بن ربيعة وشيبة والوليد ، وهم أبطال قريش وطليعة فرسانهم ، وبرز إليهم فتيان من الأنصار فاحتقرهم عتبة وأخذته العزّة بالإثم فقال لهم : لا نريد هؤلاء ، ولكن نريد أن يبارزنا بنو أعمامنا من بني عبدالمطلب ، فندب الرسول صلى الله عليه وآله لمبارزتهم عبيدة وعليّاً وحمزة ، وبرز حمزة لعتبة ، وعبيدة لشيبة ، وعليٌّ للوليد(١) .

أمّا الإمام عليّ وحمزة فكلّ منهما قتل صاحبه ، وأمّا عبيدة وعتبة بن ربيعة فقد اختلفا بضربتين ، وأثبت كلّ منهما سيفه في رأس صاحبه ، فكرّ عليه الإمام وحمزة بأسيافهما وتركاه جثة هامدة(٢) ، واشتدّت الحرب ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله من أشدّ الناس بأساً ومن أقرب جيشه إلى العدو ، وكان المسلمون يلوذون به كما حدّث بذلك الإمام عليه السلام(٣) ، وبان الانكسار في صفوف القرشيّين وانهارت معنوياتهم

---

(١) سنن البيهقي : ٣: ٢٧٩. المستدرك : ٣: ١٩٤. فتح الباري : ٧: ٢٣١.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٢: ٣٢٥. البداية والنهاية : ٣: ٣٣٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل : ٢: ٦٤، الحديث ٦٥٤. الغدير : ٧: ٢٠٩. شرح نهج البلاغة : ١٣: ٢٧٩. الأعلام : ٦: ٢١٩.

وانهزموا شرّ هزيمة .

بسالة الإمام عليه السلام

وأبدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من البسالة والصمود ما لا يوصف ، فكان القوّة الضاربة في جيش الرسول صلى الله عليه وآله ، فقد غاص في أوساط القرشيّين يحصد رؤوسهم ويشيع فيهم القتل والدمار ، وقد بهرت ملائكة السماء من بسالته ، ونادى جبرئيل : **لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفِقارِ**(١) ، **وَلَا فَتىٰ إِلَّا عَلِيٌّ**(٢) .

وكتب الله النصر المبين للإسلام على يد الإمام القائد الملهم العظيم الذي أذلّ القرشيّين وأخزاهم وألحق بهم الهزيمة والعار .

أسماء من قتلهم الإمام عليه السلام

من المؤكّد أنّه لم يكن بيت من بيوت القرشيّين لم ينله سيف الإمام عليه السلام في تلك المعركة ، وهذه أسماء من حصد رؤوسهم وهم :

١ ـ الوليد بن عتبة ، كان جريئاً فتّاكاً تهابه الرجال ، وهو أخو هند أمّ معاوية وزوجة أبي سفيان .

٢ ـ حنظلة بن أبي سفيان .

٣ ـ العاص بن سعيد ، وكان هولاً تهابه الأبطال .

---

(١) سمّي هذا السيف بذي الفقار لأنّه كانت له فقرات كفقرات الظهر .

(٢) كنز العمّال : ٣ : ١٥٤ . السيرة النبويّة / ابن هشام : ٣ : ٥٣ .

وفي ذخائر العقبى : ٧٤ : « نادى ملك من السماء يوم بدر : لا سيف إلّا ذو الفقار ، ولا فتى إلّا عليّ » . الكافي : ٨ : ١١٠ ، الحديث ٩٠ . تاريخ مدينة دمشق : ٣٩ : ٢٠١ . ميزان الاعتدال : ٣ : ٣٢٤ .

٤ ـ نوفل بن خويلد ، وكان من أشدّ المشركين عداوة لرسول الله ﷺ ، وكانت قريش تقدّمه وتعظّمه وتطيعه ، وهو من بني نوفل بن عبد مناف .

٥ ـ زمعة بن الأسود .

٦ ـ النضر بن الحارث بن كلدة من بني عبدالدار .

٧ ـ طعيمة بن عدي بن نوفل ،كان من رؤوس أهل الضلال .

٨ ـ عمير بن عثمان بن كعب بن تيم عمّ طلحة بن عبيدالله .

٩ ـ عثمان بن عبيد الله .

١٠ ـ مالك بن عبيد الله أخو عثمان .

١١ ـ مسعود بن أُميّة بن المغيرة من بني مخزوم .

١٢ ـ حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة .

١٣ ـ قيس بن الفاكه بن المغيرة .

١٤ ـ أبو قيس بن الوليد بن المغيرة .

١٥ ـ عمرو بن مخزوم .

١٦ ـ الحارث بن زمعة .

١٧ ـ أبو المنذر بن أبي رفاعة .

١٨ ـ منبه بن الحجّاج السهمي .

١٩ ـ العاص بن منبه من بني سهم .

٢٠ ـ علقمة بن كلدة .

٢١ ـ أبو العاص بن قيس بن عدي .

٢٢ ـ معاوية بن المغيرة بن أبي العاص .

٢٣ ـ لوذان بن ربيعة .

٢٤ ـ عبدالله بن المنذر بن أبي رفاعة.

٢٥ ـ حاجب بن السائب بن عويم.

٢٦ ـ أوس بن المغيرة بن لوذان.

٢٧ ـ زيد بن مليص.

٢٨ ـ غانم بن أبي عويف.

٢٩ ـ سعيد بن وهب حليف بني عامر.

٣٠ ـ معاوية بن عامر بن عبدالقيس.

٣١ ـ السائب بن مالك.

٣٢ ـ عبدالله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد.

٣٣ ـ أبو الحكم بن الأخنس.

٣٤ ـ هشام بن أبي أميّة بن المغيرة(١).

هؤلاء الذين حصد رؤوسهم الإمام عليه السلام بسيفه في سبيل الإسلام.

وقوف النبيّ صلى الله عليه وآله على القتلى

وقف النبيّ صلى الله عليه وآله على قتلى بدر فتأمّلهم، وتذكّر ما عاناه منهم من صنوف التنكيل والارهاق، وخاطبهم بقوله: **يا أَهْلَ الْقَلِيبِ، يا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، وَيا أَبا جَهْلِ بْنَ هُشامٍ....**

وعدّد عصابة من الذين بالغوا في التنكيل به، ثمّ قال لهم: **هَلْ وَجَدْتُم ما وَعَدَ رَبُّكُم حَقّاً؟ فَإنِّي قَدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً.**

وبهر أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله من خطابه للقتلى فقالوا له: يا رسول الله، أتنادي قوماً

---

(١) أعيان الشيعة: ٣: ٩٨ و ٩٩.

قد جيفوا ؟

فأجابهم الرسول : **وَما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِما أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلٰكِنَّهُم لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي**[١] .

إنّ الأرواح لا تفنى ، وإنّما الأجسام تبلى ، وتعود إلى عنصرها الذي تكوّنت منه ، هذا ما أعلنه الرسول .

الأسرى من قريش

ووقع سبعون أسيراً من قريش[٢] بأيدي القوات المسلّحة من جيش الرسول ، فأخذ النبيّ ﷺ من بعضهم الجزية وأطلق سراحهم ، ومن لم يتمكّن من دفع الجزية وكان يحسن القراءة والكتابة أمره أن يعلّم أبناء المسلمين بدل الجزية ، وبذلك أقام النبيّ أوّل صرح في عاصمته لمحو الأميّة .

حزن القرشيّين على قتلاهم

وحزن القرشيّون أشدّ ما يكون الحزن على قتلاهم ، وكان حزنهم كامناً في نفوسهم ، فقد نذر أبو سفيان أن لا يمسّ رأسه ماء من جنابة ، وأمّا زوجه هند فقد هامت في تيارات من الحزن وكتمت حزنها على أهل بيتها ، وقالت : كيف أبكيهم فيبلغ محمّداً وأصحابه فيشمتوا بنا ، لا والله ! حتى أثأر من محمّد وأصحابه ، والدهن عليَّ حرام حتى نغزو محمّداً .

لقد ترك قتلى بدر لوعة في نفوس القرشيّين ، وقد رثاهم بعض شعرائهم بقوله:

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٤٤٩ ـ ٤٥٠ . مجمع الزوائد : ٦ : ٩١ . كنز العمّال : ١٠ : ٣٧٧ ، الحديث ٢٩٨٧٥ و ٢٩٨٧٦ و ٢٩٨٧٧ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ١٥٦ .

(٢) تاريخ أبي الفداء : ١ : ١٣٦ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ١٣٥ . شرح نهج البلاغة : ١٢ : ٦٠ .

فَـماذا بِـالقَليبِ قَـليبِ بَـدرٍ مِـنَ الفِـتْيانِ وَالقَـومِ الكِـرامِ
وَمـاذا بِـالقَليبِ قَـليبِ بَـدرٍ مِنَ الشِّيزى[١] تُكَلَّلُ بِالسَّنامِ[٢]

وظلّت قريش حاقدة على الإمام حتى بعد ما أعلنت الإسلام وبويع الإمام بالخلافة ، فقد نظم أسيد بن أناس هذه الأبيات يحرّض قريشاً على مناهضة الإمام ونكث بيعته قائلاً :

فـي كُـلِّ مَـجمَعِ غـايَةٍ أَخْـزاكُـمُ جَذَعٌ أَبَرُّ عَلى المَذاكي القُرَّحِ[٣]
لِلهِ دَرُّكُـــمُ أَلَـــما تُـــنْصِفوا قَدْ يُنْصِفُ الحُرُّ الكَرِيمُ وَيَستَحي
هذا ابْنُ فاطِمَةَ[٤] الَّذي أَفْـناكُـمُ ذَبْـحاً وَقَـتْلَةَ قَـعْصِهِ كَـمْ تُـذْبَحِ
أَعْـطوهُ خَـرْجاً وَاتَّـقوا بِـضَريبِهِ فِـعلَ الذَّلِيـلِ وَبَـيعَةً لَـمْ تُـربَحِ
أَيْـنَ الكُـهولُ وَأَيـنَ كُـلُّ دِعـامَةٍ في المُعضِلاتِ وَأَينَ زَينُ الأَبطَحِ
أَفْناهُمُ قَعْصاً[٥] وَضَـرباً يَـفتَري بِالسَّيْفِ يُعمِلُ حَدَّهُ لَمْ يَصْفَحِ[٦]

لقد سقا الإمام بطل الإسلام القرشيّين أخزاهم الله كأساً مصبرة ، وأشاع في بيوتهم الثكل والحزن والحداد ، وأورثهم الذلّ والعار لأنّهم أعداء الإسلام وخصومه الذين

---

(١) **الشيزى** : شجرة يتّخذ منها الجفان .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١١٨ . أمالي المرتضى : ١٨ .

(٣) **الجذع** : الشابّ الحدث ، يعني به الإمام ، فقد حصد رؤوس القرشيّين وهو في روعة الشباب . **الابر** : الغالب والمنتصر . **المذاكي** : الخيل .

(٤) **فاطمة** : هي السيّدة الجليلة اُمّ الإمام أمير المؤمنين .

(٥) **القَعْص وَالقَعَص** : القتل المعجّل ، **والقعصة** : المرّة منه .

(٦) إرشاد المفيد : ١ : ٧٧ . أسد الغابة : ٤ : ٢٠ . رسائل المرتضى : ٤ : ١٢٠ . مناقب آل أبي طالب : ٢ : ٣١٣ .

جهدوا على لفّ لواء الإسلام وإطفاء كلمة التوحيد.

انتصار الإسلام

وانتصر الإسلام انتصاراً رائعاً في واقعة بدر وقويت شوكة المسلمين وأكسبتهم قوّة هائلة، فهي أُمّ الفتوح، كما شجّعتهم على الخوض في المعارك التي يشنّها عليهم أعداء الإسلام.

لقد انتهت معركة بدر وكان البطل البارز فيها أسد الله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان سيفه منجل الموت الذي أرهفه على رقاب القرشيّين الذين ما آمنوا بالله طرفة عين حتى بعد إعلانهم المزيّف للإسلام، فقد أخذوا يكيدون له في وضح النهار وفي غلس الليل، وجميع ما عاناه المسلمون وابتلوا به من الأزمات كانت من صنع القرشيّين وتدبيرهم، ومن الجدير بالذكر أنّ اقتران الإمام عليه السلام بسيّدة نساء العالمين زهراء الرسول عليها السلام كانت بعد واقعة بدر المجيدة، وقد عرضنا لها فصلاً خاصّاً.

واقعة أُحُد

واستقبلت قريش نبأ هزيمتهم المنكرة وخسائرهم الفادحة في معركة بدر بمزيد من الأسى واللوعة، وساد في أوساطهم حزن عميق وأسى مرير، وقد حرّمت هند أُمّ معاوية على القرشيّين نساء ورجالاً البكاء على قتلاهم حتى يظلّ الحزن كامناً في نفوسهم لا يُطْفِئُهُ إلّا طلب الثأر لقتلاهم والانتقام من المسلمين.

وكان أبو سفيان قائد قريش في واقعة أُحد والزعيم الأوّل في هذه المعركة، إنّ أبا سفيان جاهلي بجميع معاني هذه الكلمة، لا يحمل في أعماق نفسه أي معنى من القيم الإنسانية ولم يؤمن بالله طرفة عين، فأخذ يؤلّب الجماهير ويحرّض القبائل

على حرب رسول الله ﷺ ، ويجمع الأموال فيشتري بها السلاح والعتاد لحرب المسلمين ، وقد استجابت له جماهير القرشيّين الذين أُترعت نفوسهم بالحقد والعداء للرسول ، فقد خرجوا بحدّهم وجدّهم وحديدهم وأحابيشهم ومن تابعهم لحرب النبيّ ﷺ وصحبوا معهم نساءهم حتى يخلصوا في الحرب ، وقد قادت النساء هند أمّ معاوية ، وكنّ يضربن بالدفوف ويبعثن الحماس في نفوس أزواجهنّ وأبنائهن وهن ينشدن :

وَيهاً بَني عَبدِالدّار وَيهاً حُماةَ الأَديار ضَرباً بِكُلِّ بَتّار

وكان صوت هند يعلو أصواتهن ، وأخذت تخاطب قومها :

إنْ تُقْبِلوا نُعانِقْ وَنَفرِشُ النَّمارِقْ
أَوْ تُدْبِروا نُفارِقْ فِراقَ غَيرَ وامِقْ

لقد قادت أمّ معاوية النساء وقاد زوجها الرجال لحرب رسول الله ﷺ ، وهما يحملان أرجاس المردة والطغاة والممسوخين من القبائل القرشية التي جهدت على إطفاء نور الله وإقصاء الخير عن الناس .

الحرب

وكانت جيوش المشركين ثلاثة آلاف ، وجيوش المسلمين سبعمائة مقاتل ، ويتقدّم جيوش المشركين طلحة بن أبي طلحة وبيده اللواء ، وقد رفع عقيرته قائلاً : يا أصحاب محمّد ، تزعمون أنّ الله يعجّلنا بأسيافكم إلى النار ، ويعجّلكم بأسيافنا إلى الجنّة ، فأيكم يبرز لي ؟

فبرز إليه بطل الإسلام وأسد الله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً : **وَاللهِ! لَا أُفارِقُكَ حَتّىٰ أُعَجِّلَكَ بِسَيْفِي إِلَى النّارِ**.

وبادره الإمام بضربة فبرى بها رجله ، فسقط إلى الأرض يتخبّط بدمه ، وأراد الإمام

أن يجهز عليه ، فناشده الله والرحم أن يتركه ، فتركه ، ولم يلبث إلّا ساعة حتى هلك ، وفرح النبيّ صلى الله عليه وآله بهلاكه ، كما عمّت الفرحة جميع المسلمين[١] ، فقد كان من أبطال القرشيّين ، وكان يسمّى كبش الكتيبة لشجاعته ، وقد انخذل المشركون ووهنوا لقتله وبانت الهزيمة في صفوفهم ، وأخذ اللواء من بعده أبطال القرشيّين فأرداهم الإمام قتلى ، وكانت هند في وسط المعسكر وهي تلهب في نفوس الجيش العزيمة لمحاربة المسلمين ، وإذا انهزم رجل من قريش دفعت له ميلاً ومكحلة وقالت له : إنّما أنت امرأة فاكتحل بهذا[٢] .

ومن صور تلك المعركة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله منح أبا دجانة ، وهو من خيار الصحابة سيفاً ولم يعطه للزبير ، وقد ضاق الزبير ذرعاً من ذلك ، وراح ينظر ما يصنع به أبو دجانة ، فقد أخرج عصابة حمراء فتعصّب بها ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت وبرز إلى ميدان الحرب وهو يقول :

أَنا الَّذي عاهَدَني خَليلي　　وَنَحنُ بِالسَّفْحِ لَدى النَّخيل
أَلّا أَقومَ الدَّهرَ في الكَيُّولِ[٣]　　أَضْرِبْ بِسَيفِ اللهِ وَالرَّسولِ
ضَربَ غُلامٍ ماجِدٍ بُهلولِ[٤]

وأعرب بهذا الشعر عن بسالته وصلابة عزمه في الذبّ عن الرسول صلى الله عليه وآله ، وجعل أبو دجانة ينشر الموت بين صفوف القرشيّين ، وحمل على هند اُمّ معاوية حتى بلغ سيفه مفرق رأسها إلّا أنّه عدل عن ذلك ترفّعاً منه ، ولمّا نظر الزبير إلى شجاعة

---

(١) نور الأبصار : ٧٨. الإرشاد : ١ : ٨٥ و ٨٦. بحار الأنوار : ٢٠ : ٨٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن : ٤ : ١٢. تفسير القمّي : ١ : ١١٦.

(٣) **الكيّول** : آخر الصفوف.

(٤) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٣ : ٧٣. لسان العرب : ١١ : ٦٠٦. اُسد الغابة : ٢ : ٣٥٢. تاريخ الطبري : ٢ : ٢١١.

أبي دجانة استصوب رأي النبيّ ﷺ .

هزيمة المسلمين

من المؤسف حقّاً أنّ المسلمين منوا بهزيمة ساحقة وخسائر فادحة كادت تلفّ لواء الإسلام ، وذلك من جرّاء مخالفة فرقة في الجيش الإسلامي للمخطّطات الحربية التي وضعها الرسول ﷺ وألزمهم بتنفيذها ، فقد وضع كتيبة من الرماة على جبل بقيادة عبدالله بن جبير(١) لتحمي المسلمين من خلفهم ، وشدّد عليها أن لا تتخلّف عن مواقعها ، وقد وجّه الرماة سهامهم ونبالهم صوب معسكر قريش فأنزلوا بها خسائر فادحة في الأرواح ، وانهزمت قريش تاركة وراءها أمتعتها وسلاحها ، وأقبل المسلمون على نهبها ، فلمّا رأى الرماة ذلك ترك بعضهم مكانه وانسابوا ينهبون الأمتعة مخالفين الأوامر المشدّدة من النبيّ ﷺ في لزوم الإقامة بمواضعهم .

ويصر خالد بن الوليد ذلك فحمل على من بقي في الجبل من الرماة فقتلهم وحمل على أصحاب النبيّ من خلفهم فهزمهم وقتل جماعة منهم .. وأباد جيش المشركين معظم قادة الجيش الإسلامي ، واستهدف المشركون بصورة خاصّة حياة الرسول ﷺ ، فقد أُصيب بجروح بالغة ، فكسرت رباعيّته وشقّت شفته ، وجعل الدم يسيل على وجهه الشريف وهو يمسحه ويقول : **«كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ»**(٢) !

وأحاط اللئام الحقراء من القرشيّين بالنبيّ ﷺ يريدون الإجهاز عليه ، وكان على رأسهم أبو سفيان وهو يحرّضهم على قتل الرسول ، وأمر شخصاً فنادى أنّ محمّداً

---

(١) عيون الأثر : ٢ : ٥ . الكامل في التاريخ : ٢ : ١٠٥ . أُسد الغابة : ٣ : ١٣٠ و ١٣١ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٢ : ١٠٨ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ١٩٨ . البداية والنهاية : ٤ : ٢٦ .

قد قُتل ، ففرّ المسلمون ، وحاول بعض كبار الصحابة من الفارّين أن يكتب لأبي سفيان يطلب منه الأمان .

مصرع الشهيد حمزة

وأبدى الشهيد الخالد حمزة بن عبدالمطلب من البسالة ما لا يوصف ، فقد وقف كالجبل الأشمّ محامياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو يجندل الأبطال ويروي الأرض من دماء الكفرة الملحدين ، قد سخر من الموت ووهب حياته لله ربّ العالمين .

ونظر إليه الوغد الأثيم وحشي وهو يهدّ الناس بسيفه فهزّ حربته ووجّهها صوبه فأصابته في لبته وخرجت من بين رجليه ، ووقع البطل العظيم على الأرض صريعاً يتخبّط بدمه ، ولم يلبث قليلاً حتى فارق الحياة(١) ، وخسر المسلمون ألمع قائد لهم ، وكانت شهادته من أفدح النكبات التي واجهها الرسول صلى الله عليه وآله .

فسلام الله عليه من شهيد محتسب ، وسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً .

مصرع الشهيد مصعب

وكان مصعب فتى قريش آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله إيماناً نفذ إلى أعماق قلبه ودخائل نفسه ، وتعرّض إلى أعنف ألوان التعذيب ، وقد بعثه النبيّ إلى يثرب مبشّراً بالدين الإسلامي وداعياً إلى الله ، وقد أسلم الكثيرون من المدنيّين على يده . وكان أحد القادة في جيش الرسول صلى الله عليه وآله في معركة أُحد ، وقد قتله ابن قمنة ظانّاً أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد رفع عقيرته قائلاً : قتلت محمّداً ، وقد خسرت القيادة الإسلامية في جيش الرسول أنبل قائد فيها ، رحمه الله وأجزل له المزيد من الأجر ، فما أعظم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ١٩٩ . الطبقات الكبرى : ٣ : ١٠ .

عائدته على الإسلام(١)!

حماية الإمام عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله

وتوالت الهزائم المنكرة في جيش المسلمين، وفرّ معظمهم يطاردهم الفزع والخوف، وزاد في رعبهم نداء أبي سفيان أنّ محمّداً قد قُتل.. وتركوا النبيّ وقد أحاط به أعداء الله، وقد أُصيب بجروح بالغة وقد وقع في حفرة عملها أبو عامر وأخفاها ليسقط فيها المسلمون من حيث لا يعلمون، وكان الإمام إلى جانبه فأخذ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً(٢)، ولم يبق مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا نفر قليل في طليعتهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فالتفت إليه النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: **يا عَلِيُّ، ما فَعَلَ النّاسُ؟**

فأجابه بأسى ومرارة: **نَقَضُوا الْعَهْدَ وَوَلَّوا الدُّبُرَ**.

وحملت على النبيّ صلى الله عليه وآله عصابة مجرمة من القرشيّين، فضاق منهم ذرعاً فقال لعلي: **إكْفِني هٰؤُلاءِ**، فحمل عليهم الإمام فكشفهم عنه، وحملت عليه كتيبة أُخرى تقارب خمسين فارساً، فقال لعليّ: **إكْفِني هٰؤُلاءِ**، فحمل عليهم الإمام وكان راجلاً فقتل أربعة من أبناء سفيان بن عويف، وستّة من تلك الكتيبة، وقد ذادها عن النبيّ صلى الله عليه وآله بعد جهد شاق.

وحملت على النبيّ صلى الله عليه وآله كتيبة فيها هشام بن أُميّة، فقتله الإمام، ففرت كتيبته، وحملت على النبيّ صلى الله عليه وآله كتيبة فيها بشر بن مالك، فقتله الإمام، وولّت كتيبته منهزمة... وبهر جبرئيل من مواساة الإمام وجهاده وصبره فقال للنبيّ: **إنَّ هٰذِهِ الْمُواساةَ قَدْ عَجِبَتْ مِنها الْمَلائِكَةُ**.

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام: ٢: ٧٣. الطبقات الكبرى: ٢: ٤٢.

(٢) أعيان الشيعة: ٣: ١١١. البداية والنهاية: ٤: ٢٧. السيرة النبويّة / ابن هشام: ٣: ٥٩٨.

فقال له النبيّ : **وَما يَمْنَعُهُ وَهُوَ مِنّي وَأَنا مِنْهُ ؟**

فقال جبرئيل : **وَأَنا مِنْكُما** (١).

وظلّ الإمام صامداً في تلك المعركة الرهيبة مدافعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وفادياً له بنفسه ، وقد أُصيب بست عشرة ضربة كل ضربة تلزمه الأرض ، وما كان يرفعه إلّا جبرئيل (٢).

ففي ذمّة الإسلام ما لاقاه إمام المتّقين وسيّد الموحّدين من المصاعب والأهوال في سبيل نشر دعوة الإسلام ، ولولاه لما قام الإسلام على سوقه ولا ارتفعت له كلمة ، ومن المؤسف أنّ هذا العملاق العظيم والمجاهد الأوّل قد دفع عن مقامه وقرن بينه وبين أعضاء الشورى الذين ليس لهم سابقة الجهاد مثله .

تشفّي هند

وشفت هند غليلها وانطفأت جمرة حقدها حينما علمت بمصرع الشهيد حمزة ، فسارعت تفتّش عن جثّته وهي مثلوجة الفؤاد ناعمة البال ، فلمّا أبصرتها أقبلت عليها كالكلبة فمثّلت بها شرّ تمثيل ، فاستخرجت كبده فلاكته ثمّ لفظته ، وجدعت أنفه وأُذنيه وجعلتها قلادة لها ، وأُثر عنها من الشعر ما سجّلت فيه شكرها لوحشي قاتل حمزة وهو :

نَحْنُ جَزَيناكُمْ بِيَومِ بَدرِ ... وَالحَرْبُ بَعدَ الحَربِ ذاتُ سُعْرِ

ما كانَ عَنْ عُتبَةَ لي مِنْ صَبرِ ... وَلَا أَخي وَعَمِّهِ وَبَكْري

شَفَيتُ نَفسي وَقَضَيتُ نَذري ... شَفَيتَ وَحْشِيُّ غَليلَ صَدْري

---

(١) أعيان الشيعة : ٣ : ١١١ . بحار الأنوار : ٢٠ : ١٣٧ . شرح نهج البلاغة : ١٠ : ١٨٢ .

(٢) أُسد الغابة : ٤ : ٢٠ . الغدير : ٧ : ٢٠٤ .

فَشُكْـرُ وَحْشِـيٍّ عَلَيَّ عُـمْرِي حَتَّىٰ تَرِمَّ أَعْظُمِي فِي قَـبْرِي[١]

وحكى هذا الشعر خساسة طبعها ولؤم عنصرها ، وقد مثّلت هند بـجثّة حـمزة عمّ النبي شرّ تمثيل .

تشفّي أبي سفيان

وسارع الجاهلي أبـو سـفيان نـحو ساحة المـعركة يـتفرّس فـي وجـوه شـهداء المسلمين ليروي غليله ، فرأى جثّة الشهيد حمزة التي مزّقتها هـند ، فـطار سـروراً وفرحاً وقال بصوت تفيض منه الشماتة والأحقاد : يا أبا عمارة ، دار الدهر ، وحال الأمر ، واشتفت منكم نفسي .

ثمّ هزّ رمحه وطعن به شدق جثّة حمزة ، وهو يردّد : ذق عقق .. ذق عقق[٢] .

وولّى وهو ناعم البال قرير العين قد روى قلبه المترع بالشرك والرذائل من زعيم الهاشميّين وبطل الإسلام .

حزن النبيّ ﷺ

ووقف النبيّ ﷺ على جثمان عمّه الذي مثّلت به هند أبشع ألوان التمثيل فذابت نفسه أسى وحزناً أشدّ ما يكون الحزن ، وراح يقول مخاطباً عمّه : **« لَنْ أُصابَ بِمِثْلِكَ أبداً ، ما وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هٰذا ، لَوْلَا أَنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ وَيَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْتُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ فِي بُطُونِ السِّباعِ وَحَواصِلِ الطُّيُورِ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَىٰ قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنَ الْمَواطِنِ لَأُمَثِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ »** .

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٣ : ٩٧. أسد الغابة : ٥ : ٥٥٩.

(٢) الإمام عليّ بن أبي طالب / عبدالفتّاح عبدالمقصود : ١ : ٨٢. الغدير : ١٠ : ٨٣. السيرة النبويّة / ابن هشام : ٣ : ٤٤.

وانبرى المسلمون بلوعة وأسى قائلين : واللهِ ! لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثّلنّ بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب .

ونزل جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله يرشده إلى ما ينبغي له مع قريش ، وكره له التمثيل بهم بهذه السعة ، فقد رفع له هذه الآية : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾(١) .

فعفا رسول الله صلى الله عليه وآله وصبر ونهى عن المُثلة ، وقال : « **إِنَّ الْمُثْلَةَ حَرامٌ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ** » .

لقد كانت معركة أُحد المعركة الوحيدة التي هزم فيها المسلمون شرّ هزيمة ، وقد قال ابن إسحاق : « كان يوم أُحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحن به المنافقين ممّن كان يُظهر الإيمان بلسانه وهو مستخفٍ بالكفر في قلبه ، ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة »(٢) .

وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد انتهاء المعركة أنّه لا يصيب المشركون من المسلمين مثلها حتى يفتح الله علينا تعالى على المسلمين(٣) .

ملاحقة النبيّ صلى الله عليه وآله للقرشيّين

ولم يمكث النبيّ صلى الله عليه وآله في يثرب إلّا زمناً يسيراً بعد رجوعه من معركة أُحد حتى أمر أصحابه أن ينفروا لحرب قريش ، وخصّ طلبه بالذين اشتركوا معه في الحرب بما فيهم الجرحى ، والسبب في ذلك أن يوهم على قريش أنّه محتفظ بقوّته حتى

---

(١) النحل ١٦ : ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٣ : ١١٢ .

(٣) البداية والنهاية : ٤ : ٤٧ . تاريخ ابن خلدون : ٢ : ٢٧ . السيرة النبويّة / ابن هشام : ٣ : ٦١٥ .

لا يكرّوا الرجعة إليه ، وكانوا قد عزموا على ذلك ، فلمّا وافتهم الأنباء بزحف النبيّ إليهم تثاقلوا وتراجعوا عمّا صمّموا عليه ، وكانت هذه الخطة من أروع الخطط السياسية والحربية.

سرور القرشيّين

ورجعت قريش إلى مكّة وهي تعزف أبواق النصر بما حقّقته من نصر على المسلمين وما أوقعته فيهم من الخسائر الفادحة في النفوس والأموال ، وكان من أعظم المسرورين أبوسفيان وزوجته هند وسائر بني أُميّة ، فقد أخذوا ثأرهم من النبيّ ﷺ وذلك بما سفكوه من دم عمّه حمزة وسائر الأبطال من المسلمين.

واقعة الخندق

أمّا واقعة الخندق فهي واقعة الأحزاب ، سمّيت بذلك لتحزّب القبائل على حرب رسول الله ﷺ ، وقد ضاق منها المسلمون ذرعاً وساد فيهم الرعب والخوف ، وذلك لقوّة المشركين وانضمام اليهود إليهم ، فقد كان عددهم عشرة آلاف مقاتل وعدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد حكى القرآن الكريم مدى الفزع الذي أصاب المسلمين من أعدائهم قال تعالى : ﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾[1] ، وقد كتب الله تعالى النصر للإسلام على يد الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام ، فهو الذي أحرز الفتح المبين.

ونقدّم عرضاً موجزاً لهذه الواقعة التي خاضها الإمام عليه‌السلام.

---

(١) الأحزاب ٣٣: ١٠.

دور اليهود في المعركة

أمّا اليهود فكانوا العنصر الفعّال في هذه المعركة، فقد خفّت منهم عصابة إلى القرشيّين يحرّضونهم على حرب النبيّ ﷺ، ويطلبون منهم الانضمام إليهم قائلين لهم: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

وهتف القرشيّون قائلين: يا معشر اليهود، إنّكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه، هو محمّد أفديننا خير أم دينه؟

وأسرع اليهود قائلين: بل دينكم ـ وهو عبادة الأوثان والأصنام ـ خير من دينه، وأنتم أوْلى بالحقّ منه..

وحكى القرآن الكريم هذه المحاورة، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً * أَم لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً** ﴾[١].

إنّ اليهود في جميع فترات تأريخهم أعداء الفكر والحق ومصدر الفتنة في الأرض، وقد استجابت القوى الكافرة من القرشيّين لحرب النبيّ ﷺ، كما استجابت قبائل غطفان وتجهّزوا لحرب النبيّ ﷺ.

النبيّ ﷺ مع نعيم

أسلم نعيم على يد النبيّ ﷺ في تلك الفترة الرهيبة، وكان من زعماء غطفان،

---

(١) النساء ٤: ٥٠ ـ ٥٥.

فقال للنبيّ : يا رسول الله ، إنّي قد أسلمت وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي فأمرني بما شئت . فأمره النبيّ ﷺ بتخذيل القبائل عنه وخداعهم ، فإنّ الحرب خدعة ، وقام نعيم بن مسعود بدور إيجابي وفعّال في تفتيت القوى المحاربة للنبيّ من اليهود والقرشيّين ، فقد انطلق إلى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية فقال لهم : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودّي إيّاكم والخاصّة التي بيني وبينكم . .

وهتفوا قائلين : صدقت لست عندنا بمتّهم .

وأشار عليهم بنصيحة قائلاً : إنّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على تحوّل منه إلى غيره ، وإنّ قريشاً وغطفان جاءوا لحرب محمّد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن رأوا نهزة[1] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمّداً حتى تناجزوه . .

وهتفوا جميعاً : أشرت بالرأي .

ومضى إلى قريش فقال لأبي سفيان ومن معه من زعماء قريش : قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمّداً ، وإنّه بلغني أمر قد رأيت عليّ حقّاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عنّي .

وطفقوا قائلين : نفعل ذلك .

إنّ اليهود قد ندموا على ما صنعوه مع محمّد ، وأرسلوا إليه أنّهم قد ندموا على ما فعلوه ، وإنّه إذا يرضيه أن يأخذوا من أشراف قريش وغطفان جماعة ويسلّموهم

---

(١) **النهزة** : انتهاز الشيء واختلاسه .

إليه ليضرب أعناقهم ، ثمّ يكونوا معه .. فإن بعثت لكم اليهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً .

وأرسل أبو سفيان ورؤساء بني غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل مع جماعة من قريش وغطفان فطلبوا منهم الالتحاق بهم لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت بنو قريظة : لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا حتّى نناجز محمّداً .

ورجعت الرسل إلى قريش وغطفان فأخبروهم بمقالة بني قريظة ، فصدّقوا مقالة نعيم بن مسعود ، وقالوا : لا نعطيهم أي واحد منّا ، وبذلك فقد تخلّص المسلمون من يهود بني قريظة ، فلم ينضمّوا إلى قريش ولم يشتركوا معهم في حرب رسول الله(١) .

حفر الخندق

ولمّا علم النبيّ صلى الله عليه وآله خروج القرشيّين وقبائل غطفان لحربه جمع أصحابه وأحاطهم علماً بالأمر ، وطلب منهم اتّخاذ أهمّ وسيلة لصدّ العدوان عن المسلمين ، فأشار عليه الصحابي الجليل سلمان المحمّدي بحفر الخندق حول المدينة ليمنع من وصول العدوّ لهم .

واستصوب النبيّ صلى الله عليه وآله هذا الرأي ، وقام مع أصحابه بحفر الخندق ، وكانت خطّة حكيمة وَقَت المسلمين من شرّ أعدائهم ، ووقفت قريش مذهولة لا حيلة لها ، فلم تقدر على اجتيازه والوصول إلى محاربة المسلمين ، واستخدمت النبال في حربها ، وكان المسلمون يردّون عليهم بالمثل ، وبقي التراشق بين الفريقين من دون أن تقع حرب عامّة .

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٢٢٩ ـ ٢٣٠ . تاريخ الأُمم والملوك : ٢ : ٢٤٢ و ٢٤٣ . البداية والنهاية : ٤ : ١٢٨ و ١٢٩ .

مبارزة الإمام عليه السلام لعمرو

وضاقت القبائل القرشية ذرعاً من هذه المناوشات التي لم يحرزوا فيها نصراً، والتمسوا منهم مكاناً ضيّقاً، فأقحموا خيولهم فيه وعبروا الخندق، كان منهم عمرو ابن عبد ودّ فارس قريش في الجاهلية وفارس كنانة، وهو مدجّج بالسلاح كأنّه القلعة فوق جواده، واهتزّت الأرض من تيهه وزهوه وقوّة بدنه، وساد الوجوم بين المسلمين وعمّ فيهم الرعب وتهيّبوه، وجعل يصول ويجول أمامهم محتقراً لهم وقد رفع صوته قائلاً: يا رجال محمّد، هل من مبارز؟

وخلعت قلوب المسلمين، فكان كالصاعقة عليهم.

وهتف ثانياً: ألا رجل يبارز؟

ولبّى نداءه حامي الإسلام وبطل المسلمين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: **أَنا لَهُ يا رَسُولَ اللهِ!**

وكان الرسول صلى الله عليه وآله ضنيناً على ابن عمّه، فقال للإمام: **إِنَّهُ عَمْرُو**.

وجلس الإمام عليه السلام ممتثلاً لأمر النبيّ صلى الله عليه وآله، وعاد عمرو ساخراً من المسلمين قائلاً لهم: يا أصحاب محمّد، أين جنّتكم التي زعمتم أنّكم داخلوها إذا قُتِلْتم؟ ألا يريدها رجل منكم؟

ولم يستجب أحد من المسلمين لنداء عمرو سوى الإمام، فأخذ يلحّ على النبيّ أن يأذن له، فأذِن له النبيّ بعد إصراره وإلحاحه.

وقلّده الرسول وساماً من أعظم الأوسمة التي تقلّدها الإمام حين قال صلى الله عليه وآله: **بَرَزَ الْإِيمانُ كُلُّهُ إِلَى الشِّرْكِ كُلِّهِ**.

يا لها من كلمة خالدة، فقد حدّدت الإمام بالإيمان بجميع رحابه ومفاهيمه، فهو الذي يحكيه. ورفع النبيّ صلى الله عليه وآله يديه بالدعاء مبتهلاً إلى الله تعالى قائلاً: **اللّهُمَّ إِنَّكَ**

أَخَذْتَ مِنِّي حَمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَعُبَيْدَةَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَاحْفَظِ الْيَوْمَ عَلِيّاً . رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ .

وبرز الإمام مزهواً لم يخالجه رعب ولا خوف من عمرو بن عبد ودّ ، وعجب عمرو من جرأة هذا الفتى وإقدامه على مناجزته ، فقال له : من أنت ؟

فأجابه الإمام ساخراً منه : **أَنا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .**

فأشفق عليه عمرو وقال له : قد كان أبوك صديقاً لي .

ولم يحفل الإمام بصداقة عمرو لأبيه وراح يقول له : **يا عَمْرُو ، إِنَّكَ عاهَدْتَ قَوْمَكَ أَلَّا يَدْعُوكَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلىٰ خِلَالٍ ثَلَاثٍ إِلَّا أَجَبْتَهُ ؟**

فقال : نعم ، هذا عهدي .

إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى الْإِسْلَامِ .

وضحك عمرو وقال للإمام بسخرية : أأترك دين آبائي ، دع هذا عنك .

أَكُفُّ يَدِي عَنْكَ فَلَا أَقْتُلُكَ وَتَرجِعُ ؟

وغضب عمرو وعجب من جرأة هذا الفتى عليه وقال له : إذن تتحدّث العرب عن فراري .

وعرض الإمام عليه الأمر الثالث فقال له : **إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى النِّزالِ ؟**[١] .

وعجب عمرو من جرأة الفتى وبسالته ، فنزل عن فرسه واستلّ سيفه وضرب رأس الإمام ، فاستقبلها بدرقته فقدّها ونفذ السيف إلى رأس الإمام فشجّه ، وأيقن المسلمون أنّ الإمام قد لاقى مصيره ، ولكن الله تعالى نصره وحماه ، فقد ضرب عمرواً ضربة هدّته وسقط إلى الأرض يخور بدمه كما يخور الثور عند ذبحه . وكبّر

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣ : ٣٢. الإرشاد : ١ : ٩٨. تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٧٨. تاريخ الطبري : ٢ : ٢٣٩.

الإمام ، وكبّر المسلمون ، فقد انقصم ظهر الشرك وتفلّلت قواه ، وأحرز الإسلام النصر الحاسم على يد إمام المتّقين وبطل الإيمان ، وراح النبيّ ﷺ يقلّده وساماً مشرقاً باقياً على امتداد التاريخ قائلاً: **لَمُبارَزَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِعَمْرِو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ أَعْمالِ أُمَّتِي إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ**(١).

وقال الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان : لو قسّمت فضيلة عليّ بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوسعتهم(٢).

وقال عبدالله بن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** ﴾(٣) قال : كفاهم بعليّ بن أبي طالب . وبكت قريش عمرو بن عبد ودّ لأنّ قتله كان هزيمة لهم ، وقد رثاه مسافع بن عبد مناف بن زهرة بقوله :

عَمرو بْنُ عَبدٍ كانَ أَوّلَ فارِسٍ ... جَزَعَ المَزادَ وَكانَ فارِسَ يَلْيَلِ
سَمِحُ الخَلائِقِ ماجِدٌ ذو مِرَّةٍ ... يَبغي القِتالَ بِشَكَّةٍ لَمْ يَنكُلِ(٤)

واعتزّت أُخت عمرو بالإمام قاتل أخيها لأنّه البطل الأوّل في الجزيرة ، ولو كان قاتله غير الإمام لحزنت عليه أشدّ ما يكون الحزن قالت :

لَوْ كانَ قاتِلُ عَمرٍو غَيرَ قاتِلِهِ ... لَكُنتُ أَبكي عَلَيهِ آخِرَ الأَبَدِ
لٰكِنَّ قاتِلَهُ مَنْ لَا يُعابُ بِهِ ... مَنْ كانَ يُدْعىٰ قَديماً بَيْضَةَ البَلَدِ(٥)

---

(١) تاريخ بغداد : ١٣ : ١٩ . مستدرك الحاكم : ٣ : ٣٢ . كشف الغمّة : ١ : ٤١٨ . شواهد التنزيل : ٢ : ١٤ .

(٢) رسائل الجاحظ : ٦٠ . الغدير : ٧ : ٢١٢ .

(٣) الأحزاب ٣٣ : ٢٥ .

(٤) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٣ : ٢٧٨ . لسان العرب : ١١ : ٧٤١ . شرح نهج البلاغة : ١٣ : ٢٨٨ .

(٥) أمالي المرتضى : ٢ : ٧ و ٨ . الإرشاد : ١ : ١٠٨ . ينابيع المودّة : ١ : ٤٤٩ .

وقتل الإمام عليه السلام بطلاً آخر من قريش وهو نوفل بن عبدالله ، وسبّب ذلك هزيمة كبرى لقريش ، وراح النبيّ صلى الله عليه وآله يقول له : **الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنا**[١].

وولّت قريش منهزمة على أعقابها تجرّ رداء الخيبة والخسران ، قد منيت بهزيمة ساحقة ولم تربح أي شيء في هذه المعركة ولم يخسر المسلمون فيها شيئاً .

فتح خيبر

وبعد ما شاعت الهزائم الساحقة في صفوف القرشيّين وأخزاهم الله وأذلّهم رأى النبيّ صلى الله عليه وآله بفكره الثاقب ورأيه الأصيل أنّه لا يستقيم للمسلمين أمر ولا تسلم لهم دولة ولا تسود كلمة الإسلام في الأرض مع وجود قوّة اليهود ، وهم من ألدّ أعداء الإسلام ، وتلك القوة هي حصون خيبر[٢] التي كانت مصنعاً للأسلحة على اختلاف أنواعها من السيوف والرماح والدروع والدبابات التي كانت تقذف بالماء الحار والرصاص بعد إذابته ، وهي من أخطر الأسلحة في ذلك العصر ، وكانت اليهود هي التي تمدّ القوى المحاربة للإسلام بالأسلحة .

وزحف النبيّ صلى الله عليه وآله بجيشه لاحتلال حصون خيبر ، وأسند قيادة جيشه لأبي بكر ، فمضى ، ولمّا أشرف على الحصون قوبل بالقذائف فرجع منهزماً خائباً ، وفي اليوم الثاني أسند النبيّ صلى الله عليه وآله قيادة الجيش إلى عمر بن الخطّاب ، فكان كصاحبه أبي بكر ، فقفل راجعاً منهزماً ، وظلّت الحصون مغلقة لم يمسّها أحد بسوء ..

---

(١) أعيان الشيعة : ٣ : ١١٣ . صحيح البخاري : ٥ : ٤٨ . كنز العمّال : ١٠ : ٣٨٣ ، الحديث ٢٩٨٩٩ .

(٢) خيبر : اسم ولاية مشتملة على حصون ومزارع ونخل كثير تبعد عن المدينة ثلاثة أيام ، سمّيت باسم أوّل من نزلها وهو خيبر أخو يثرب من أبناء عاد ، وكانت غزوة خيبر في آخر السنّة السادسة من الهجرة ، جاء ذلك في خزانة الأدب ٦ : ٦٩ .

وبعد ما عجز الجيش من اقتحام الحصن أعلن النبيّ ﷺ أنّه سيعيّن القائد الذي يفتح الله على يده قائلاً: «**لَأَدْفَعَنَّ الرَّايَةَ غَداً إِلىٰ رَجُلٍ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَا يَرْجِعُ حَتّىٰ يَفْتَحَ اللهُ لَهُ**»(١).

واستشرف الجيش بفارغ الصبر ينتظرون القائد الملهم الذي يفتح الله على يده، ولم يظنّوا أنّه الإمام؛ لأنّه كان مصاباً برمد، ولمّا اندلع نور الصباح دعاه النبيّ ﷺ وكان معصباً على عينيه فأزاح العصابة عنه وسقى عينيه بريقه فبرئتا بالوقت، وقال له: «**خُذْ هٰذِهِ الرَّايَةَ حَتّىٰ يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ**».

ووصف حسّان بن ثابت رمد الإمام وشفاءه من ريق النبيّ بقوله:

وَكانَ عَلِيٌّ أَرمَدَ العَينِ يَبتَغِي ... دَواءً فَلَمْ يُحْسِسْ طَبِيباً مُداوِيا
شَفاهُ رَسولُ اللهِ مِنهُ بِتَفلَةٍ ... فَبُورِكَ مَرْقِيّاً وَبُورِكَ راقِيا
وَقالَ: سأُعْطِي الرّايَةَ اليَومَ صارِماً ... كَمِيّاً مُحِبّاً لِلرَّسولِ مُوالِيا
يُحِبُّ إِلٰهي وَالإِلٰهُ يُحِبُّهُ ... بِهِ يَفتَحُ اللهُ الحُصونَ الأَوابِيا
فَأَصْفىٰ بِها دونَ البَرِيَّةِ كُلِّها ... عَلِيّاً وَسَمّاهُ الوَزيرَ المُؤاخِيا(٢)

ووصف الشاعر الموهوب الأزري الحادثة بقوله:

وَلَهُ يَومَ خَيبَرٍ فَتَكاتٌ ... كَبُرَتْ مَنظَراً عَلىٰ مَنْ رَآها
يَومَ قالَ النَّبِيُّ إِنّي لأُعْطِي ... رايَتي لَيثَها وَحامي حِماها
فَاسْتَطالَتْ أَعْناقُ كُلِّ فَريقٍ ... لِيَرَوا أَيَّ ماجِدٍ يُعْطاها

---

(١) حلية الأولياء ١: ٦٢. صفة الصفوة ١: ١٦٣. مسند أحمد ١: ١٨٥، رقم الحديث ٧٧٨. الإرشاد: ١: ٦٤. أمالي المفيد: ٥٧. مجمع الزوائد: ٩: ١٢٤.

(٢) إعلام الورى: ١٨٥ و ١٨٦. رسائل المرتضى: ٤: ١٠٤.

فَدَعا أينَ وارِثُ العِلمِ وَالحِلمِ ... مُجيرُ الأَيّامِ مِنْ بَأساها ؟
أينَ ذو النَّجدَةِ الَّذي لَوْ دَعَتْهُ ... في الثُّرَيّا مَروعَةٌ لَبّاها ؟
فَأَتاهُ الوَصِيُّ أرمَدَ عَيْنٍ ... فَسَقاهُ مِنْ ريقِهِ فَشَفاها
وَمَضىٰ يَطلُبُ الصُّفوفَ فَوَلَّتْ ... عَنهُ عِلماً بِأَنَّهُ أَمْضاها [1]

واستلم الإمام عليه السلام الراية من النبيّ صلى الله عليه وآله وقال له : **يا رَسُولَ الله ، أُقاتِلُهُمْ حَتّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنا ؟**

فقال له النبيّ : **انْفُذْ عَلىٰ رَسْلِكَ حَتّى تَنْزِلَ بِساحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ.**

فَوَاللهِ ! لَئِنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ [2].

وأسرع القائد العظيم مزهوّاً لم يختلج في قلبه رعب ، وهو يلوّح بلواء النصر متّجهاً نحو الحصن ، فقلع بابه وتترّس بها [3] ووقته من ضربات اليهود وقذائفهم ، وذعر اليهود وأصابتهم أوبئة الخوف وفزعوا من هذا البطل الذي قلع باب حصنهم وتترّس بها .

---

(١) شرح الأزرية : ١٤١ و ١٤٢ . الأنوار العلويّة : ١٩٨ و ١٩٩ .

(٢) صفوة الصفوة : ١ : ١٦٤ . صحيح البخاري : ٧ : ١٢١ .

وفي وسائل الشيعة : ٦ : ٣٠ : « **يا عَلِيُّ ، لَا تُقاتِلَنَّ أَحَداً حَتّىٰ تَدْعُوَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ** ».

العمدة : ١٤٢ . مسند أحمد بن حنبل : ٥ : ٣٣٣ . تاريخ دمشق : ٤٢ : ٨٦ .

(٣) مناقب آل أبي طالب : ٢ : ١٢٦ .

إنّ قلع الإمام لباب خيبر كان من المعاجز ، فقد كانت الباب لا يقلعها إلّا أربعون رجلاً ، كما نصّت عليه المصادر التالية : تاريخ بغداد : ١١ : ٣٢٤ . ميزان الاعتدال : ٣ : ١١٣ . كنز العمّال ٦ : ٣٦٨ .

وفي الرياض النضرة : ٢ : ١٨٨ : « إنّه اجتمع سبعون رجلاً فأعادوا الباب بعد جهد ».

مبارزة الإمام عليه السلام لمرحب

وبرز مرحب ـ وهو من أبطال اليهود وشجعانهم ـ صوب الإمام وعليه مغفر يماني وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه ، وهو يرتجز :

قَـدْ عَـلِمَتْ خَـيبَرُ أَنّـي مَـرحَبُ   شـاكـي السِّلاحِ بَـطَلٌ مُـجَرَّبُ
إذا اللُّـيوثُ أَقْـبَلَتْ تَـلْتَهِبُ

واستقبله حامي الإسلام وعليه جبّة حمراء فأجابه :

أَنـا الَّـذي سَـمَّتْني أُمِّـي حَـيْدَرَهْ   ضِـرْغامُ آجـامٍ وَلَـيْثُ قَسْـوَرَهْ[١]
عَـبْلُ الذِّراعَـيْنِ شَـديدُ الْـقَسْوَرَهْ   كَـلَيْثِ غـاباتٍ كَـريهِ الْـمَنْظَرَهْ[٢]
أَضْـرِبُ بِـالسَّيْفِ رِقـابَ الْكَـفَرَةِ   أَكِيلُهُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّـنْدَرَهْ[٣]

ولم يختلف الرواة في أنّ هذا الشعر للإمام[٤] ، وقد حكى هذا الشعر قوّة بأس الإمام عليه السلام وشجاعته ، وتقدّم إليه الإمام فبادره بضربة قدّت البيضة والمغفر ورأسه ، وسقط إلى الأرض صريعاً يتخبّط بدمه ، فأجهز عليه وتركه جثّة هامدة ، وبذلك فقد كتب الله النصر للإسلام ، وفتحت حصون خيبر ، وأذلّ اليهود ولقّنهم درساً قاسياً يذكرونه بأسى ولوعة على امتداد التاريخ .

---

(١) **الآجام** : جمع أجمة ، وهي الشجر الكثير الملتفّ أو القصب يكونان مأوى للأسود ، وهو إشارة إلى فرط قوّته ومنعة جانبه ، فإنّه لم يكتف بحماية أجمة ، وإنّما حمى آجاماً .
القسورة : أوّل الليل ، وتأتي بمعنى الأسد ، وهو من القسر لأنّه يأخذ فريسته قسراً وقهراً .

(٢) **العبل** : الضخم .

(٣) **السندرة** : اختلف في معناها ، فقال ابن الاعرابي : هي المكيال ، والمعنى : أنّي أقتلكم قتلاً واسعاً كثيراً ، وقال غيره : هي امرأة كانت توفي الكيل ، أي أقتلكم قتلاً وافياً .

(٤) خزانة الأدب : ٦ : ٦٥ . بحار الأنوار : ٢١ : ١٨ . ينابيع المودّة : ١ : ١٥٥ .

وسُرّ النبيّ ﷺ سروراً بالغاً بهذا النصر المبين الذي أعزّ الله به المسلمين وقهر أعداءهم اليهود ، وصادف في ذلك اليوم رجوع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فقال ﷺ : **ما أَدْرِي بِأَيِّهِما أَنا أَسَرُّ أَبِقُدُومِ جَعْفَرٍ أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ**[1] ؟

غزوة بني قريظة

وبنو قريظة من شرائح اليهود الذين يشكّلون خطراً على المسلمين ويكيدونهم في وضح النهار وغلس الليل ، وقد هبط جبرئيل على رسول الله ﷺ بأمر من الله تعالى أن ينازلهم الحرب ويستأصل شأفتهم[2] ، وخفّ النبيّ ﷺ لحربهم ، وقدّم الإمام أمير المؤمنين أمامه وهو يحمل رايته ، فسار لهم ، فلمّا دنا من حصونهم سمع منهم مقالة قبيحة في النبيّ ، فرجع حتى التقى به وقال له : **يا رَسُولَ اللهِ ، لا عَلَيْكَ أَنْ لا تَدْنُو مِنْ هٰؤُلاءِ الْأَخْباثِ** .

فقال له : **لَمْ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذىً ؟**

قال: **نَعَمْ** .

فقال النبيّ : **لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذٰلِكَ شَيْئاً** ... وحاصرهم النبيّ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

نصيحة كعب لبني قريظة

وأيقنت بنو قريظة أنّ رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم الحرب فتقدّم إليهم كعب بن أسد بنصيحة لهم قائلاً: يا معشر اليهود ، قد نزل بكم من الأمر

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٤: ١٢٨ . عمدة الطالب : ٣٥. بحار الأنوار: ٢١: ٢٣. أُسد الغابة : ١: ٢٨٧.

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢: ٢٣٣. تاريخ دمشق : ٩: ٩٢.

ما ترون ، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم ؟

وهتفوا جميعاً : ما هي ؟

عرض عليهم نصيحته قائلاً : نتابع هذا الرجل ونصدّقه ، فوالله ! لقد تبيّن لكم أنّه نبيّ مرسل ، وأنّه للذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم .

وأشار عليهم بنجاتهم وسلامتهم ، إلّا أنّهم لم يستجيبوا له وردّوا عليه قائلين : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

وأشار عليهم ثانياً : فإذا أبيتم عليّ هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثمّ نخرج إلى محمّد وأصحابه مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمّد ، فإن نهلك فهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء .

ورفضوا هذا المقترح قائلين : ونقتل هؤلاء المساكين فما خير للعيش بعدهم .

واقترح عليهم ثالثاً : فإن أبيتم عليّ هذه فإنّ الليلة ليلة السبت ، وأنّه عسى أن يكون محمّد وأصحابه قد امنونا فيها ، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمّد وأصحابه غرّة . .

ورفضوا ذلك وقالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونُحدث فيه ما لم يُحدث مَن كان قبلنا إلّا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ، ولم ينصاعوا لرأيه وأصرّوا على جهلهم[١] .

نزولهم على حكم الرسول صلى الله عليه وآله

وضاق بنو قريظة ذرعاً وسدّت عليهم جميع النوافذ فنزلوا على حكم رسول

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٢٣٥ ـ ٢٣٦ . بحار الأنوار : ٢٠ : ٢١٠ و ٢١١ . تاريخ الطبري : ٢ : ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

الله ﷺ وما يراه فيهم .

تحكيم سعد

وأوكل النبيّ ﷺ أمرهم إلى سعد بن معاذ ، وكان من أجلّاء الصحابة ، لا تأخذه في الله لومة لائم وكان جريحاً ، فحُمِل إلى رسول الله ﷺ فقام إليه وسائر الصحابة تكريماً وقالوا له : يا أبا عمرو ، إنّ رسول الله ﷺ قد أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، إنّ الحكم فيهم لما حكمت .

فقال : نعم .

وحكم سعد فيهم بقتل رجالهم وتقسيم أموالهم وسبي نسائهم وذراريهم .

وهو حكم عادل في هؤلاء اليهود الذين هم مصدر فتنة وفساد في الأرض .

وأقرّ النبيّ ﷺ حكم سعد ، وقال له : **لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**(١) .

ونفّذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حكم الاعدام في هؤلاء الأشرار ، فقد حصد رؤوسهم بسيفه .

غزوة بني النضير

وبنو النضير من فصائل اليهود الذين أُترعت نفوسهم بالبغض والعداء إلى الرسول ﷺ ، وقد سار إليهم في جماعة من أصحابه ، في طليعتهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وذلك لأخذ دية منهم كان قد اتّفق معهم عليها ، وجلس النبيّ ﷺ إلى جانب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض وتآمروا على أن يلقي بعضهم

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٢٣٩ ـ ٢٤٠. بحار الأنوار : ٢٠ : ٢١١ و ٢١٢. تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٢٤٩.

صخرة من السطح على رأس النبيّ ، واستجاب عمرو بن جحاش لذلك ، وأخذ معه الصخرة ، فنزل الوحي من السماء على النبيّ ﷺ يخبره بذلك ، فسارع قائماً وترك أصحابه في مجالسهم وقفل راجعاً إلى المدينة .

وفي ذلك يقول السبكي :

وَجاءَكَ الوَحْيُ بِالَّذي أَضمَرَتْ بَنو النَّضيرَةِ وَقَدْ هَمّوا بِإلقاءِ صَخْرَةِ[1]

وسارع الإمام عليه السلام إلى اليهودي الذي حاول اغتيال الرسول ﷺ فقتله ، وهربت العصابة التي معه ، فطلب الامام من الرسول ملاحقتهم فأذن له ، وزوّده بكوكبة من جيشه فلحقوهم قبل دخول حصنهم وقتلوهم ، وكان ذلك السبب في فتح حصونهم ، وانبرى جماعة من الشعراء كان منهم حسّان بن ثابت فنظّموا في شعرهم الحادثة ، وأثنوا على الإمام عليه السلام على ما بذله من جهد شاقّ في فتح حصَون بني النضير .

غزوة وادي القرى

ولمّا فتح النبيّ ﷺ حصون خيبر أتى وادي القرى ، وقد سكنه اليهود ، فعرض عليهم الإسلام فأبوا . . . واختاروا قتاله ، فقاتلهم المسلمون ، وقتل منهم أحد عشر رجلاً قد قتل الإمام بعضهم ، وفتح الله للنبيّ ﷺ ديارهم ، وغنم المسلمون أموالهم ، وترك لهم ما في أيديهم من الأرض والنخيل ، وعاملهم بها مثل معاملته لأهل خيبر[2] .

---

(١) إنسان العيون : ٢ : ١٧٦ . السيرة الحلبيّة : ٢ : ٥٦٠ .

(٢) إنسان العيون : ٣ : ٦٨ و ٦٩ . تاريخ الإسلام : ٢ : ٤٤٢ . البداية والنهاية : ٤ : ٢٤٨ .

فتح اليمن

وأرسل النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام عليه السلام مع كتيبة عسكرية إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام أو الحرب ، وأخذ الإمام يجدّ في السير لا يلوي على شيء لينفّذ رسالة الرسول صلى الله عليه وآله .

دعاء الإمام

وكان الإمام عليه السلام قد دعا بهذا الدعاء الشريف حين توجّهه إلى اليمن ، وهذا نصّه :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِلَا ثِقَةٍ مِنِّي بِغَيْرِكَ ، وَلَا رَجَاءٍ يَأْوِي بِيَ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا قُوَّةٍ أَتَّكِلُ عَلَيْهَا ، وَلَا حِيْلَةٍ أَلْجَأُ إِلَيْهَا إِلَّا طَلَبَ فَضْلِكَ ، وَالتَّعَرُّضَ لِرَحْمَتِكَ ، وَالسُّكُونَ إِلىٰ أَحْسَنِ عَادَتِكَ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا سَبَقَ لِي فِي وَجْهِي هٰذَا مِمّا أُحِبُّ وَأَكْرَهُ ، فَأَيَّما أَوْقَعْتَ عَلَيَّ فِيهِ قُدْرَتُكَ ، فَمَحْمُودٌ فِيهِ بَلَاؤُكَ مُتَّضِحٌ فِيهِ قَضَاؤُكَ ، وَأَنْتَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ .

اللَّهُمَّ فَاصْرِفْ عَنِّي مَقَادِيرَ كُلِّ بَلَاءٍ ، وَمَقْضِي كُلِّ لَأْوَاءٍ ، وَابْسُطْ عَلَيَّ كَنَفاً مِنْ رَحْمَتِكَ وَسَعَةً مِنْ فَضْلِكَ ، وَلُطْفاً مِنْ عَفْوِكَ حَتّىٰ لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ ، وَذٰلِكَ مَعَ مَا أَسْأَلُكَ أَنْ تَخْلُفَنِي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي ، وَصُرُوفِ حُزَانَتِي بِأَحْسَنِ مَا خَلَفْتَ بِهِ غَائِباً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْصِينِ كُلِّ عَوْرَةٍ وَسَتْرِ كُلِّ سَيِّئَةٍ ، وَحَطِّ كُلِّ مَعْصِيَةٍ ، وَكِفَايَةِ كُلِّ مَكْرُوهٍ .

وَارْزُقْنِي عَلىٰ ذٰلِكَ شُكْرَكَ وَذِكْرَكَ ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَالرِّضَا بِقَضَائِكَ ، يَا وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاجْعَلْنِي وَمَا خَوَّلْتَنِي وَوَلَدِي ، وَرَزَقْتَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي حِمَاكَ الَّذِي لَا يُسْتَبَاحُ ، وَذِمَّتِكَ الَّتِي لَا تُخْفَرُ ، وَجِوَارِكَ الَّذِي لَا يُرَامُ ، وَأَمَانِكَ الَّذِي لَا يُنْقَضُ ، وَسَتْرِكَ الَّذِي لَا يُهْتَكُ ، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ فِي

حِمَاكَ وَذِمَّتِكَ وَجِوَارِكَ وَأَمَانِكَ وَسِتْرِكَ كَانَ آمِناً مَحْفُوظاً ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ »[١].

وحكى هذا الدعاء مدى اعتصام الإمام عليه السلام بالله تعالى والتجائه إليه وانقطاعه الكامل لإرادته ومشيئته.

إسلام همدان

وانتهى الإمام مع الوفد العسكري إلى اليمن والتقى بزعماء اليمانيّين ووجوههم، وعرض عليهم دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله، وشرح لهم محاسن الإسلام وما تنشده مبادؤه من القيم الكريمة والمُثل العليا، وقد بهر اليمانيّون بكمال الإمام وفضله وأدبه فاستجابوا لدعوته، وأعلنت همدان بأسرها الإسلام والتمسّك بقيمه، وبذلك فقد كان الإمام رسول السلام الذي نجح في فتح اليمن بلا حرب[٢].

فتح مكّة

وكتب الله تعالى النصر المبين لعبده ورسوله محمّد صلى الله عليه وآله، فقد أذلّ القوى المعادية من القرشيّين واليهود، وامتدّت دولته على كثير من مناطق الجزيرة العربية، فقد سادت فيها كلمة الإسلام ورفعت عليها راية التوحيد.

وقد رأى النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه لا يتحقّق له النصر الحاسم والفتح المبين إلّا بفتح مكّة التي هي قلعة الشرك والإلحاد والتي حاربته حينما كان فيها وحينما نزح عنها.

وسار النبيّ صلى الله عليه وآله بجيش مكثّف قوامه عشرة آلاف جندي مسلّح أو يزيد على

---

(١) مهج الدعوات: ١٢٤ و ١٢٥. بحار الأنوار: ٩٢: ٣٠٣ و ٣٠٤.

(٢) أمالي المرتضى: ١: ٢٩٢. تاريخ ابن خلدون: ٢: ٥٥. الإرشاد: ١: ٦٢.

ذلك ، وهو مزوّد بجميع آلات الحرب ، وقد أحاط اتّجاهه إلى مكّة بكثير من الكتمان ، فلم تعلم القطعات من جيشه اتّجاهها ، فقد خاف النبيّ أن تستعد قريش لمحاربته إن علمت بمسيرة جيوشه لاحتلال بلدهم فتراق الدماء في البلد الحرام ، فأخفى ذلك عليهم حتى يفاجئهم بجيشه فلا يتمكّنوا من مناهضته .

رسالة حاطب لقريش

وكتب حاطب بن أبي بَلْتَعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بتوجّه النبيّ صلى الله عليه وآله لاحتلال بلدهم ، وأعطى الكتاب إلى امرأة وأوصاها بالكتمان الشديد ، وجعل لها جعلاً إن هي أوصلت الرسالة إلى القرشيّين ، فجعلت الكتاب في شعر رأسها وأخفته حتى لا يعلم به أحد ، ونزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وأحاطه علماً بالكتاب ، فاستدعى أخاه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والزبير بن العوّام وأمرهما بالقبض على المرأة وأخذ الكتاب منها .

وسارع الإمام مع الزبير في السير حتى أدركا المرأة ، فسألاها عن الكتاب ، فأنكرت ذلك .

فصاح بها الإمام وزجرها قائلاً : **إنّي أَحْلِفُ بِاللهِ ما كَذَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَلا كَذَّبْنا ، لَتُخْرِجِنَّ الْكِتابَ أَوْ لَنَكْشِفَنَّكِ** .

فاستولى عليها الرعب وخافت فأخرجت الكتاب من شعر رأسها وأعطته للإمام ، وخفّ الإمام مع الزبير مسرعين إلى النبيّ فسلّماه الكتاب ، فدعا بحاطب ، فلمّا مثل عنده قال له : **ما حَمَلَكَ عَلى هٰذا ؟**

وأبدى حاطب معاذيره للرسول صلى الله عليه وآله قائلاً : يا رسول الله ، إنّي مؤمن بالله ورسوله ، ما غيّرت ولا بدّلت ، ولكن ليس لي في قريش أصل ولا عشيرة ، فصانعتهم عليه » .

وقبل النبيّ صلى الله عليه وآله معاذيره ، ونزلت الآية الكريمة في حقّه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الآية[١] »[٢].

في رحاب مكّة

وسارعت الجيوش الإسلامية لا تلوي على شيء حتى انتهت إلى مشارف مكّة وأهلها غافلون لا يعلمون شيئاً ، فقد أحاط النبيّ ﷺ مسيرته بكثير من التعتيم حفظاً على السلام وعدم إراقة الدماء ، وأمر النبيّ جيشه بجمع الحطب ، فجمعت كميات هائلة منه ، فلمّا اختلط الظلام أمر بإشعال النار فيه ، فكان لهبها يرى في مكة ، وفزع أبو سفيان وأوجس في نفسه خيفة منها ، فقال لبديل بن ورقاء ـ وكان إلى جانبه ـ : ما رأيت كالليلة نيراناً قطّ ؟

ويادر بديل قائلاً : وهذه واللهِ ! خزاعة حمشتها الحرب .

وسخر أبو سفيان منه وراح يقول له : خزاعة أذلّ وأقلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . واستولى عليه الفزع والخوف ، واطمأنت نفسه أنّها جيوش المسلمين جاءت لاحتلال مكّة .

العبّاس وأبو سفيان

ولمّا علم العباس بقدوم الجيوش الإسلامية لاحتلال مكّة ، أوجس في نفسه خيفة على قومه القرشيّين ، وأخذ يحدّث نفسه قائلاً : واصباح قريش ، واللهِ ! لئن دخل رسول الله ﷺ مكّة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنّه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . وجهد على أن يجد شخصاً فيأتي إلى مكّة فيخبر أهلها بمكان رسول الله ﷺ

---

(١) التحريم ٦٦ : ١.

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٣٩٨. بحار الأنوار : ٣٠ : ٥٧٦ و ٥٧٧. سير أعلام النبلاء : ١ : ٧٨.

فيخفّوا إليه ليطلبوا منه الأمن، وبينما هو غارق في تيار من الهواجس والخوف على قومه إذ بصر بأبي سفيان فهتف به: يا أبا حنظلة.

وعرفه أبو سفيان فسارع قائلاً: أبو الفضل.

فقال العبّاس: نعم.

فأجابه أبو سفيان: فداك أبي وأُمّي.

فقال العبّاس: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس واصباح قريش.

وذعر أبو سفيان وجمد دمه، وخاف على نفسه وقومه فبادر قائلاً: ما الحيلة فداك أبي وأُمّي؟

وسارع العباس يدلّه على الطريق الذي يحافظ به على دمه قائلاً له: واللهِ! لئن ظفر بك رسول الله صلى الله عليه وآله ليضربنّ عنقك، فاركب على عجز هذه البغلة حتى آتي بك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأستأمنه لك.

فأردفه خلفه، فكان كلّما مرّ على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: عمّ رسول الله، وبصر به عمر بن الخطّاب فعرفه، فصاح: هذا أبو سفيان عدوّ الله.

ثمّ صاح ثانياً: الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد..، ووجم أبو سفيان واضطربت خلجات قلبه وهام في تيارات من الهواجس، وخاف على نفسه وقومه الذين لم يبقوا في قاموس الإساءة والمكروه شيئاً إلّا صبّوه على النبيّ وأصحابه.

وجرت مناوشات كلامية بين العباس وعمر في شأن أبي سفيان، وبادر العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأحاطه علماً بأسر أبي سفيان، فأمره النبيّ أن يذهب به إلى رحله ويأتي به عند الصباح، وبات أبو سفيان ليلته مع العباس وهو وجل مضطرب قد أنفق ليله ساهراً.

أبو سفيان بين يدي النبيّ ﷺ

ولمّا اندلع نور الصبح أقبل العباس ومعه أبو سفيان، فلمّا مثلا أمام النبيّ التفت إلى أبي سفيان فقال له: **وَيْحَكَ يا أَبا سُفْيانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ؟**

ولم يعرض النبيّ ﷺ إلى ما عاناه من صنوف التنكيل والاضطهاد من أبي سفيان وقومه، فقد أسدل الستار على ذلك لنشر الوئام وإفهامه بروح الإسلام التي لا تعرف الانتقام من الأعداء. وراح أبو سفيان يتضرّع إلى النبيّ ويطلب منه العفو قائلاً: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، واللهِ! لقد ظننت أنّه لو كان مع الله إله غيره لأغنى عنّي.

والتفت إليه النبيّ بلطف ورفق قائلاً: **وَيْحَكَ يا أَبا سُفْيانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**

ولم يستطع أن يقرّ أبو سفيان بذلك، فقد أترعت نفسه بالكفر والالحاد والنفاق، فلم يستطع أن يخفي ما انطوى عليه ضميره وراح يقول: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هذه فإنّ في النفس منها شيئاً حتى الآن.

وانبرى العباس لأبي سفيان ينذره ويتهدّده إن لم يستجب لدعوة الرسول قائلاً: ويحك أسلم واشهد أن لا إلـه إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك..

ولم يجد الخبيث بدّاً فأعلن الإسلام بلسانه على كره خوفاً من حدّ السيف، وانطوى قلبه على الكفر والنفاق.

ألطاف النبيّ ﷺ على أبي سفيان

ووسعت رحمة النبيّ ﷺ أبا سفيان الذي هو ألدّ أعدائه وخصومه، والذي أثار عليه الأحزاب وقاد الجيوش لحربه، فقبل إسلامه المزيّف، ولم يقابله بالمثل، وقد أعطى النبيّ ﷺ بذلك مثلاً لرحمة الإسلام وإيثاره للسلم.

والتفت العباس إلى النبيّ فطلب منه أن يسدي يداً على أبي سفيان قائلاً: يا رسول الله ، إنّ أبا سفيان رجل يحبّ الفخر فاجعل له شيئاً ؟

واستجاب الرسول لدعوة العبّاس ، وقال : **نَعَمْ ، مَنْ دَخَلَ دارَ أَبِي سُفْيانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .**

وربح أبو سفيان هذه الكرامة كما ربح لقومه العفو العامّ الذي لم يحدث له مثيل في جميع فترات التاريخ ، فقد غمرهم الرسول بألطافه وهم الذين جرّعوه ألواناً قاسية من المحن والخطوب .

أبو سفيان في مضيق الوادي

وأمر النبيّ صلى الله عليه وآله العباس بحبس أبي سفيان في مضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ عليه جنود الله فيراها حتى يحذّر قريشاً من مناهضة النبيّ صلى الله عليه وآله ، وحبسه العباس في المضيق ، واجتازت عليه الكتائب وهي تحمل رايات النصر ، وكلّما مرّت عليه كتيبة سأل عنها فيعرّفه العباس بها ، واجتازت عليه كتيبة مدجّجة بالسلاح فقال للعبّاس : يا عبّاس ، من هذه ؟

قال : سليم .

فقال : ما لي ولسليم .

واجتازت عليه كتيبة اُخرى فقال للعباس : يا عبّاس ، ما هذه ؟

قال : مزينة .

فقال : ما لي ولمزينة .

ولمّا انتهت الكتائب مرّ عليه النبيّ صلى الله عليه وآله في كتيبة خضراء ، وهي في منتهى القوّة ، فقد شهرت السيوف على رأس الرسول ، وأحاطت به صناديد أصحابه ، فبهر أبو سفيان وقال للعبّاس : من هذه الكتيبة ؟

فقال : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار .

ولم يملك أبو سفيان إعجابه وراح يقول للعباس : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة . لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً .

فردّ عليه العبّاس قائلاً : يا أبا سفيان ، إنّها النبوّة .

فهزّ أبو سفيان رأسه العفن وقال بسخرية : نعم إذن[١] .

وما كان هذا الجاهلي ليفقه الإسلام ، وإنّما كان يفقه الملك والسلطان ، ثمّ أمر النبيّ بإطلاق سراح أبي سفيان ، فأُطلق ، وولّى إلى مكّة .

نداء أبي سفيان

وانطلق أبو سفيان مسرعاً يسبق الجيش إلى مكّة وهو رافع عقيرته ينادي بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فهبّت قريش قائلة : وما تغني عنّا دارك ؟

وهتف فيهم ثانياً : مَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن .

فسكن روع القرشيّين وسارعوا إلى دورهم وإلى المسجد .

معارضة هند

وانبرت هند زوج أبي سفيان وهي مذعورة قد ملئت نفسها بالألم والحزن ، فجعلت تثير عواطف القرشيّين وتستهين بزوجها قائلة : اقتلوا الحميت[٢] الدنس

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٤٠٣ ـ ٤٠٤ . بحار الأنوار : ٢١ : ١٠٣ و ١٠٤ . مجمع الزوائد : ٦ : ١٦٧ . تاريخ دمشق : ٢٣ : ٤٥٠ . تاريخ الأُمم والملوك : ٢ : ٣٣٢ .

(٢) **الحميت** : الشديد الدناسة .

قبّح من طليعة قوم.

وراح أبو سفيان يحذّر قريشاً من مغبّة عصيانه ويحذّرهم من بطش المسلمين.

دخول النبيّ صلى الله عليه وآله مكّة

وسارعت جيوش المسلمين لدخول مكّة وهي فرحة مستبشرة بهذا النصر، فإنّها لم تلق أيّة مقاومة من قريش، وقد حمل الراية سعد بن عبادة، وهو يلوّح بها في الفضاء ويهتف: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحرمة.

فسمعها عمر بن الخطّاب ـ كما يقول ابن هشام ـ فسارع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قائلاً: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد؟

فأمر النبيّ صلى الله عليه وآله بأخذ اللواء من سعد وإعطائه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فأخذه وأدخله إدخالاً رقيقاً، ورفع صوته قائلاً: **اَلْيَوْمَ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ، اَلْيَوْمَ تُصانُ الْحُرَمَةُ**.

وعمّت الفرحة الكبرى جميع أوساط القرشيّين، وأيقنوا أنّ النبيّ لا يؤاخذهم بما اقترفوه تجاهه من التنكيل والاعتداء.

النبيّ صلى الله عليه وآله في الكعبة

وسارع النبيّ صلى الله عليه وآله بعد دخوله مكّة إلى بيت الله الحرام، فأغلق بوجهه عثمان ابن طلحة باب الكعبة وصعد على سطحها، وأبى أن يدفع إليه المفتاح، وبادر إليه الإمام عليه السلام فلوى يده وأخذ المفتاح منه وفتحها للنبيّ صلى الله عليه وآله، فصلّى فيها ركعتين[١] ثمّ سلّم المفتاح له، وقال له: **يا عُثْمانُ، اَلْيَوْمَ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفاءٍ**[٢].

---

(١) صبح الأعشى: ٤: ٢٦٩. البداية والنهاية: ٤: ٣٣٢.

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام: ٢: ٤١٢. البداية والنهاية: ٤: ٣٤٤.

تطهير البيت من الأصنام

ولمّا دخل النبيّ ﷺ البيت الحرام كان أوّل عمل قام به تحطيمه وإزالته للأصنام والأوثان التي اتّخذها القرشيّون آلهة يعبدونها من دون الله تعالى ، والتي تنمّ عن جهلهم وانحطاطهم الفكري ، وقد كانت الأصنام المعلّقة على الكعبة ثلثمائة وستين صنماً ، ولكلّ حيّ من العرب صنم خاصّ بهم .

وكان على جهة باب البيت المعظّم الصنم الأعلى لقريش وهو هبل ، فجعل النبيّ ﷺ يطعن بقوسه في عينه ، وهو يقول : **جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ ، إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً** ، ثمّ أمر بتحطيمه وتطهير البيت منه ، وقد شقّ ذلك على أبي سفيان وغيره من عتاة القرشيّين .

ثمّ اعتلى النبيّ ﷺ على منكب الإمام عليه السلام لتكسير الأصنام ، فعجز الإمام عن النهوض به ، فقال له الرسول : **إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ حَمْلَ ثِقْلِ النُّبُوَّةِ ، فَاصْعَدْ أَنْتَ** ، فاعتلى الإمام على كاهل رسول الله ﷺ .

وقال الإمام : **لَوْ شِئْتُ لَنِلْتُ أُفُقَ السَّماءِ** ، وأقبل على الأصنام فجعل يقلعها ويرمي بها إلى الأرض ، ولم يبق إلّا صنم خزاعة وكان موتداً بأوتاد من حديد ، فقال له الرسول : **عالِجْهُ** .

فعالجه الإمام وهو يقول : **جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ ، إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً** ، فعالجه حتى تمكّن منه فقذفه حتى تكسّر(١) ، وبذلك فقد تطهّر البيت الحرام من أصنام قريش على يد بطل الإسلام وقائد مسيرته الظافرة .

لقد حطّم الإمام الأصنام كما حطّمها جدّه إبراهيم خليل الله ، وقد نظم الشاعر الملهم محمّد بن أحمد الكاتب المعروف بـ(المفجّع) هذه المأثرة للإمام عليه السلام

---

(١) إنسان العيون : ٣ : ٩٩ ـ ١٠٠ . الاحتجاج : ١ : ١٧٨ و ١٧٩ . ينابيع المودّة : ١ : ٢٧٦ و ٢٨٧ .

بقوله :

وَلَـهُ مِـنْ أَبـيهِ ذِي الأَيْـدِ إِسْـما عِـيلَ شِـبْهُ مَـا كـانَ عَـنِّي خَـفِيّا
إِنَّـهُ عـاوَنَ الْـخَلِيلَ عـلَى الكَـعْـ ـبَةِ إِذْ شـادَ رُكْـنها المَـبْنِيّا
وَلَـقَدْ عـاوَنَ الوَصِـيُّ حَـبيبَ اللّـ ـهِ إِذْ يَـغْسِلانِ مِـنْها الصَّـفِيّا
رامَ حَمْلَ النَّبِيِّ كَيْ يَقْطَعَ الأَصْـنا مَ مِنْ سَطْحِهَا المَثُولِ الحَبِيّا [١]
فَـحَناهُ ثِـقْلُ النُّـبُوَّةِ حَـتّىٰ كـادَ يَـنْآدُ تَـحْتَهُ مَـنْئِيّا [٢]
فَـارْتَقىٰ مَـنْكِبَ النَّـبِيِّ عِـلِيٌّ صِـنْوُهُ مَـا أَجَـلَّ ذَا المُـرْتَقَيا
فَأَمَاطَ الأَوْثَانَ عَـنْ ظَـاهِرِ الْكَـعْبَـ ـةِ يَـنْفِي الأَرجَـاسَ عَـنْهَا نَـفِيّا
وَلَو أَنَّ الوَصِيَّ حَاوَلَ مَسَّ النَّجمِ بِـالكَفِّ لَـمْ تَـجِدْهُ قَـصِيّا [٣]

إنّ تحطيم الأصنام وتطهير الكعبة منها أقسى ضربة موجعة للقرشيّين الذين تفانوا في عبادة الأوثان ، كما كان أعظم انتصار رائع للإسلام الذي جاء لتحرير العقول ونشر الوعي بين الناس ، فقد باءت بالفشل والخزي جميع المقاومات والاعتداءات على الإسلام ، وها هو يرفع رايته وينشر مبادئه العملاقة في ديارهم .

خطاب النبيّ صلى الله عليه وآله

وأحاطت جماهير أهالي مكّة بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وهي تنتظر بفارغ الصبر ما يواجهونه منه ، فهل يُنزل بهم العقاب الصارم ويقابلهم بالانتقام من جرّاء ما صبّوه عليه وعلى أتباعه المستضعفين من صنوف الخطوب والكوارث ، أو إنّه سيعفو عنهم

---

(١) **المثول** : جمع ماثل ، أي المنتصب.
الحبي : جمع حاب ، أي المرتفع.

(٢) **منئياً** : أي مثقلاً.

(٣) معجم الأدباء : ١٧ : ٢٠٢. الغدير : ٣ : ٣٥٣.

ويقابلهم بالصفح الجميل ؟ واعتلى الرسول ﷺ منصّة الخطابة واستمال الجمع إلى أُذن صاغية ، فعرض ﷺ في خطابه إلى توحيد الله والثناء عليه وإلى نصره لدينه وهزيمته للمشركين ثمّ قال : **يا مَعْشَرَ قُرَيْش ، إنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجاهِلِيَّةِ وَتَعَظِيْمَها بِالْآباءِ . النّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُراب .**

ثمّ تلا قوله تعالى : **﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾**(١) .

يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، ما تَرَوْنَ أَنّي فاعِلٌ بِكُمْ ؟

فهتفوا جميعاً بلسان واحد : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

فأصدر رسول الرحمة العفو عنهم قائلاً : **اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**(٢) .

وتمثّلت الرحمة والشرف والكرامة بجميع ما تحمل هذه الألفاظ من معنى في هذا العفو ، فلم يقابل أُولئك الجفاة الجناة بالمثل وأعرض عمّا لاقاه منهم من صنوف الإساءة والأذى ، ولم يؤاخذهم بجرائمهم وآثامهم التي تقتضي أن يعدم رجالهم ويستصفي أموالهم ، ولا يترك لهم أي أثر أو وجود على الأرض .

غزوة حنين

وفزعت هوازن أشدّ ما يكون الفزع حينما وافتهم الأنباء بفتح النبيّ ﷺ مكّة ، وخضوع القبائل القرشية لحكم الإسلام ، فانبرى مالك بن عوف وهو زعيم هوازن فجمع قبيلته ، واستنجد ببعض القبائل العربية الأُخرى وفي طليعتها ثقيف ، فعرض عليهم الأخطار الهائلة التي ستواجههم من اتّساع الإسلام ، وأنّ النبيّ ﷺ سيزحف

---

(١) الحجرات ٤٩ : ١٣ .

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٤١٢ . تاريخ الأُمم والملوك : ٢ : ٣٣٧ . البداية والنهاية : ٤ : ٣٤٤ . تاريخ ابن خلدون : ٢ : ٤٥ .

بجيوشه لاحتلالهم ، فآمن الجميع بدعوته واستجابوا لقوله ، وزحفت هوازن ومن تابعهم من القبائل لحرب النبيّ ﷺ ، وأوصاهم مالك بن عوف وهو القائد العامّ لجيوشهم فقال لهم : إذا رأيتموهم ـ أي المسلمين ـ فاكسروا جفون سيوفكم ، ثمّ شدّوا شدّة رجل واحد(١) .

ولمّا انتهت أنباؤهم إلى النبيّ ﷺ أوفد للقياهم عبدالله الأسلمي ، وأمره بالتعرّف على أنبائهم ، فمضى ، وعلم أنّهم مصمّمون على حرب النبيّ ، فقفل راجعاً إلى مكّة ، وأخبر النبيّ بذلك ، فزحف بجيشه البالغ عدده اثني عشر ألفاً ، وكان فيهم من لم يخالط الإسلام قلبه كأبي سفيان بن حرب وأمثاله من المنافقين والطامعين في الغنائم والأسلاب .

وتحرّك جيش النبيّ ﷺ من مكّة وقد وزّع الرايات على قادة جيشه ، وأعطى لواء المهاجرين إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وسارعت جيوش المسلمين تطوي البيداء لا تلوي على شيء ، فانتهت إلى وادي حنين(٢) .

فرار المسلمين

وكانت هوازن قد أعدّت خطّة رهيبة ومحكمة للايقاع بالمسلمين ، فقد احتلّت وادي حنين وكمنت في شِعابه ومضايقه ، فلمّا اجتازت عليهم جيوش المسلمين ، ولم يكونوا على علم بما دبّر لهم ، وثبت عليهم هوازن من كلّ زاوية في الوادي ، فجفل المسلمون وانهزموا هزيمة منكرة لا يلوي أحد منهم على أحد ، وانحاز رسول

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٢ : ٤٣٩ . مناقب آل أبي طالب : ١ : ١٨٠ . تاريخ دمشق : ١٧ : ٢٣٩ . أسد الغابة : ٤ : ٢٨٩ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٣٤٦ .

(٢) وادي حنين : موضع قريب من مكّة ، وقيل : هو وادٍ قبل الطائف بجنب ذي المجاز ، وقال الواقدي : بينه وبين مكّة ثلاث ليالي ، جاء ذلك في معجم البلدان ٢ : ٣١٣ .

الله ﷺ ذات اليمين، وجعل يدعو المسلمين إلى الثبات والصبر على الجهاد وعدم الفرار قائلاً: **أيُّها النّاس، إليَّ أنا رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالله**[١].

شجاعة الإمام عليه السلام

وأبدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من البسالة ما لا يوصف، فقد أخذ يجول في الميدان يجندل الأبطال، ويُنزل بهم أفدح الخسائر، وقد أجمع الرواة أنّه كان من أصلب المدافعين عن النبيّ ﷺ[٢]، وناول الإمام عليه السلام النبيّ ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها وجوه المشركين من هوازن وغيرهم[٣]، والتحم الإمام مع المشركين التحاماً شديداً، وقد التحق به مائة رجل من فرسان المسلمين فقاتلوا قتالاً أهونه الشديد، ولمّا رأى النبيّ ﷺ ذلك قال:

أنـا النّـبيُّ لَا كَـذِبْ   أَنا ابْنُ عَـبْدِالْـمُطَّلِبْ

الآن حمي الوطيس[٤]، واشتدّ الحرب، فسقطت الرؤوس والأيدي.

شماتة أبي سفيان وصفوان

وسرّ المنافقون بهزيمة المسلمين وطاروا فرحاً، وأبدى أبو سفيان رأس المنافقين شماتته بذلك فقال: لا تنتهي هزيمتهم ـ أي هزيمة المسلمين ـ دون البحر.

كما أبدى المنافق صفوان بن أُميّة شماتته بانهيار جيش المسلمين قائلاً: الآن

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢: ١٧٨. مسند أحمد بن حنبل: ٣: ٣٧٦. تاريخ الأمم والملوك: ٢: ٣٤٧.

(٢) مجمع الزوائد: ٦: ١٨٠. تاريخ اليعقوبي: ٢: ٦٣.

(٣) تاريخ بغداد: ٤: ٣٣٤. مجمع الزوائد: ٦: ١٨٢.

(٤) **الوطيس**: هو التنّور، وقيل: هي الحجارة التي يوقد عليها النار، وهو كناية عن اشتداد الحرب.

بطل السحر[١].

هزيمة المشركين

ولمّا بلغت قلوب المسلمين الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً وساد عليهم الجزع والخوف نصر الله تعالى رسوله الكريم ، فقتل من المشركين سبعون رجلاً من أبطالهم وانهزم الباقون شرّ هزيمة ، ولاحقتهم جيوش المسلمين فأشاعت فيهم القتل وأسرت جماعة منهم[٢] ، وكان النصر المؤزّر على يد بطل الإسلام وحامي حوزته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وبذلك فقد انتهت هذه المعركة التي كانت من أعنف المعارك ومن أشدّها هولاً وقسوة ، وبها قد انتصر الإسلام انتصاراً حاسماً وهابته جميع قبائل الشرك.

الغنائم

وبعد ما وضعت الحرب أوزارها ارتحل الرسول صلى الله عليه وآله من أرض المعركة إلى الجعرانة ، فأتته وفود هوازن طالبين منه أن يردّ عليهم ما أُخذ منهم ، فخيّرهم بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم ، فاختاروا أبناءهم ونساءهم ، وانبرى زهير بن صرد أبو صرد من بني سعد بن بكر فقال : يا رسول الله ، إنّما في الحضائر عمّاتك وخالاتك ، وحواضنك اللّاتي كنّ يكفلنك ، ولو أنّا أرضعنا الحارث بن أبي شمر الغسّاني أو النعمان بن المنذر لرجونا عطفه ، وأنت خير المكفولين ، ثمّ قال :

أُمـنُنْ عَـلَينا رَسـولَ اللهِ فـي كَـرَمٍ ... فَـإنَّكَ المَـرْءُ نَـرجـوهُ وَنَـدَّخِرُ
أُمـنُنْ عَـلىٰ نِسـوَةٍ قَـدْ عـاقَها قَـدَرٌ ... مُمَزَّقٌ شَمْلُها فـي دَهْـرِها غِـيَرُ[٣]

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢ : ١٧٨. بحار الأنوار : ٢١ : ١٦٦. مجمع الزوائد : ٦ : ١٨٠.

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام : ٤ : ٦٦.

(٣) الكامل في التاريخ : ٢ : ٢٦٨. تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٣٥٦.

يــا خَـيرَ طِـفلٍ وَمَـولودٍ وَمُـنتَخَبٍ — في العـالَمينَ إذا مـا حـصِّلَ البَشَـرُ
إنْ لَـمْ تَـدارَكَـها نَـعماءَ تَـنْشُرُها — يا أَرجَحَ النّاسِ حِلْماً حـينَ يُـخْتَبَرُ
أُمنُنْ عَلىٰ نِسْوَةٍ قَد كُنتَ تَـرضَعُها — إِذْ فـوكَ تَـملَأُهُ مِـنْ مَـحضِها الدُّرَرُ
إذْ كُنتَ طِفلاً صَغيراً كُنتَ تَرضَعُها — وَإِذ يُـزينُكَ ما تَـأْتي وَمـا تَـذَرُ (١)

ووهبهم النبيّ ﷺ ما كان له ولبني عبدالمطّلب، واستجاب المهاجرون والأنصار وبنو سليم لرغبة النبيّ فوهبوا حصّتهم، ولم يستجب غيرهم لذلك، ثمّ قسّم النبيّ ﷺ الإبل والغنم، وازدحموا عليه حتى اختطفت رداؤه.

ثمّ قال: **رُدُّوا عَلَيَّ رِدائي أَيُّها النّاسُ، فَوَاللهِ! لَوْ كانَ لِي عَدَدُ شَجَرِ تِهامَةَ نَعَمٌ لَقَسَّمْتُها عَلَيْكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا جَباناً.**

ولم يعط النبيّ ﷺ الأنصار شيئاً، فوجدوا في أنفسهم وضاقوا ذرعاً، وأمر النبيّ ﷺ سعد بن عبادة بجمع الأنصار، فلمّا مثلوا عنده قال لهم: **ما حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالاً فَهَداكُمُ اللهُ بِي؟ وَفُقَراءَ فَأَغْناكُمُ اللهُ بِي؟ وَأَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟**

فانبروا جميعاً قائلين: بلى واللهِ! يا رسول الله، لله ورسوله المنّ والفضل.

وخاطبهم النبيّ ﷺ بلطف وحنان قائلاً: **أَلا تُجِيبُونِي؟**

فقالوا: بماذا نجيبك؟

ونظر النبيّ ﷺ لهم بولاء وإخلاص قائلاً: **وَاللهِ! لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُم، فَصَدَقْتُم: أَتَيْتَنا مُكَذَّباً فَصَدَّقْناكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْناكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْناكَ، وَعائِلاً فَواسَيْناكَ، أَوَجَدْتُمْ، يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ أَنْفُسَكُمْ فِي لُعاعَةٍ (٢) مِنَ الدُّنْيا تَأَلَّفْتُ بِها قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ**

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢: ١٨٢. المعجم الكبير: ٥: ٢٧١.

(٢) **اللعاعة**: نبت ناعم قليل البقاء.

إلى إسْلامِكِمْ؟ أَفَلا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلىٰ رِحالِكُمْ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءاً مِنَ الْأَنْصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصارِ.

اللّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصارَ، وَأَبْناءَ الْأَنْصارِ، وَأَبْناءَ أَبْناءِ الْأَنْصارِ.

وغرق الأنصار بالبكاء واخضلّت لحاهم من دموعهم وراحوا يهتفون: رضينا برسول الله قسماً وحظّاً (١).

إنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أعظم قائد عرفته الإنسانية في جميع أدوارها، فقد غيّر مجرى تاريخ العالم وألّف بين قلوب أتباعه، وعقد أواصر المحبّة والألفة بينهم، وكانت أخلاقه البلسم الذي داوى به النفوس المريضة والقلوب المنحرفة.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن غزوة حنين التي هي من أعظم غزوات الرسول صلى الله عليه وآله، وكان البطل البارز فيها هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

الإمام عليه السلام وسورة البراءة

وعهد النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر أن يمثّله في أهالي مكّة ليقرأ عليهم بنوداً من سورة البراءة وما قنّنه الإسلام من أحكام لمن طاف في بيت الله الحرام، وهذه بعضها:

أوّلاً: لا يطوف في البيت عريان، وكانت العادة المتّبعة أن يطوف الرجل عرياناً.

ثانياً: لا يدخل الجنّة إلّا من آمن بالله ورسوله.

ثالثاً: من كان بينه وبين رسول الله مدّة فأجله إلى مدّته.

رابعاً: إنّ الله ورسوله بريئان من المشركين (٢).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ٢: ٣٦١. الكامل في التاريخ: ٢: ٢٧١. مسند أحمد بن حنبل: ٣: ٧٧. مجمع الزوائد: ١٠: ٢٩ و ٣٠.

(٢) التنبيه والأشراف: ١٨٦. البداية والنهاية: ٥: ٤٥.

وسار أبو بكر حاملاً رسالة النبيّ ﷺ ، فهبط الوحي على النبيّ ﷺ يأمره بإسناد هذه المهمّة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإقصاء أبي بكر ، وبادر الإمام مسرعاً فأدرك أبا بكر في الطريق فأخذ الرسالة منه(١) ، وقرأها على أهالي مكّة ، وقفل أبو بكر راجعاً وملء إهابه ألم ممضّ .

فلمّا رأى النبيّ بكى وقال : يا رسول الله ، حدث فيَّ شيء ؟

فهدّأ النبي روعه وقال له : **ما حَدَثَ فِيْكَ إلَّا خَيْرٌ ، وَلٰكِنْ أُمِرْتُ أَنْ لَا يُبَلِّغُها إلَّا أَنا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي**(٢) .

وهذه البادرة من الأدلّة التي تمسّكت بها الشيعة على إمامة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد قالوا : إنّه لو كانت لأبي بكر مرشّحات للخلافة لما عزلته السماء عن أداء هذه الرسالة التي هي من أبسط المسؤوليات وأقلّها أهمّية .

غزوة تبوك

وواكب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله ﷺ في جميع حروبه وغزواته إلّا في غزوة تبوك ، فقد أبقاه ممثّلاً عنه في يثرب ، وأرجف المنافقون وأشاعوا أنّ النبيّ ﷺ إنّما أبقاه في المدينة لكراهته له ، وبلغ ذلك الإمام عليه السلام فأخبر النبيّ ﷺ بمقالتهم ، فردّ عليهم مزاعمهم وقلّد الإمام عليه السلام أسمى الأوسمة قائلاً : **كَذَبُوا ، وَإنَّما خَلَّفْتُكَ لِما وَرائِي ، فَارْجِعْ فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ ، أَمَا تَرضىٰ يا عَلِيُّ أَنْ**

---

(١) مسند أحمد بن حنبل : ١ : ٣ . خصائص النسائي : ٢٠ . كنز العمّال : ٤ : ٢٤٦ . تفسير الطبري : ١٠ : ٤٦ . مستدرك الحاكم : ٣ : ٥١ . صحيح الترمذي : ٢ : ١٨٣ . تذكرة الخواص : ٣٧ .

(٢) أمالي المرتضى : ١ : ٢٩٢ . مسند أحمد بن حنبل : ١ : ٣ . مجمع الزوائد : ٣ : ٢٣٩ . كنز العمّال : ٢ : ٤١٧ ، الحديث ٤٣٨٩ . تفسير القمّي : ١ : ٢٨٢ .

تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ ، إلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي[١].

ورجع الإمام قرير العين مثلوج القلب ، فقد قلّده الرسول صلى الله عليه وآله وسام الخلافة والوصاية من بعده ، وجعله منه بمنزلة هارون من موسى ، وباء حسّاده بالفشل والخيبة .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن جهاد الإمام عليه السلام ودفاعه عن قيم الإسلام ومبادئه ، فقد اشترك مع النبيّ صلى الله عليه وآله في جميع حروبه وغزواته ، وناضل أشدّ ما يكون النضال لرفع راية لا إلـه إلّا الله ، فما أعظم عائدته على الإسلام والمسلمين !

الإمام عليه السلام يصف جهاده

وقبل أن نطوي الحديث عن جهاد الإمام ومناجزته للمشركين نذكر ما أدلى به في وصف جهاده قال عليه السلام : **وَلَقَدْ كُنّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آباءَنا وَأَبْناءَنَا وَإِخْوانَنا وَأَعْمامَنا ؛ ما يَزِيدُنَا ذٰلِكَ إلَّا إيماناً وَتَسْلِيماً ، وَمُضِيّاً عَلَىٰ اللَّقَمِ**[٢] **، وَصَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ الْأَلَمِ ، وَجِدّاً في جِهادِ الْعَدُوِّ ؛ وَلَقَدْ كانَ الرَّجُلُ مِنّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنا يَتَصاوَلانِ تَصاوُلَ الْفَحْلَيْنِ ، يَتَخالَسانِ أَنْفُسَهُما ؛ أَيُّهُما يَسْقِي صاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنا مِنْ عَدُوِّنا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنا مِنّا ، فَلَمّا رَأَىٰ اللهُ صِدْقَنا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنا الْكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلامُ مُلْقِياً جِرانَهُ ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطانَهُ . وَلَعَمْرِي لَوْ كُنّا نَأْتِي ما أَتَيْتُمْ ما قامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَّ لِلإيمانِ عُودٌ**[٣] .

لقد جاهد الإمام أعظم ما يكون الجهاد في سبيل الإسلام فحارب الأقارب وناهض الأرحام .

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢ : ١٩٠ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٣٦٨ . ذخائر العقبى : ٦٣ .

(٢) **اللقم** : الجادة الواضحة .

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٤ : ٣٣ . بحار الأنوار : ٣٢ : ٥٤٩ . الغارات : ٢ : ٣٧٣ .

طَلائِعُ الرَّحِيلِ

وأدّى نبي الرحمة ﷺ رسالة ربّه إلى عباده كاملة مشرقة ، فأنقذهم بعد اللّتيا والتي من مآثم هذه الحياة فحرّر العقول ، وأيقظ النفوس ، وفتح لها آفاقاً كريمة من الوعي والتطوّر ، وأمدّها بجميع وسائل النهوض والنمو في جميع مناحي حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، فما أعظم عائدته على الإنسانية جمعاء .

وقد عانى ﷺ في أداء رسالة ربّه جميع صنوف المحن وألوان الخطوب من فراعنة قريش ، اتّهموه بأنّه ساحر ومجنون وكذّاب ، وأغروا صبيانهم بإلقاء الحجارة عليه ، وعذّبوا من آمن به بأقسى ألوان العذاب ، وقد استشهد من تعذيبهم ياسر وسميّة ، واضطرّت طلائع المؤمنين به إلى الهجرة من ديارهم إلى الحبشة .

وبعد موت حاميه وناصره أبي طالب أحاطوا بداره شاهرين سيوفهم ليمزّقوا جسده الطاهر ، ففرّ منهم بعد أن ترك أخاه وابن عمّه الإمام أمير المؤمنين في فراشه ، وقد نجا منهم بلطف الله تعالى وتسديده ، فهاجر إلى يثرب واتّخذها عاصمة له ، فقامت قيامة القرشيّين وورمت آنافهم وامتلأت قلوبهم غيظاً ، فجهّزوا الجيوش لإطفاء نور الإسلام ، فكانت واقعة بدر وأُحد وغيرهما ، ولكنّ الله تعالى ردّ كيدهم ، ونصر نبيّه نصراً عزيزاً ، وفتح له فتحاً مبيناً ، فخضعوا صاغرين له ودخلوا في دين الإسلام مكرهين مرغمين لا عن إيمان وبصيرة بما يحمله هذا الدين من القيم الكريمة ، والمبادئ الرفيعة ، فقد أُترعت نفوسهم بآثام الجاهلية وفسوقها .

وعلى أي حال ، فإنّ الرسول ﷺ بعد أن أدّى رسالته الخالدة بدت عليه امارات

الرحيل من هذه الدنيا إلى الفردوس الأعلى ، وكانت تتكرّر عليه مؤذنة له بالسفر إلى الله تعالى ، وكان منها ما يلي :

أوّلاً : إنّ القرآن الكريم نزل عليه مرّتين بعد أن كان ينزل عليه مرّة واحدة ، فاستشعر من ذلك حضور الأجل المحتوم منه[١] ، وأخذ ينعى نفسه ، ويشيع ذلك بين المسلمين ، وقد أحاط بضعته الطاهرة سيّدة نساء العالمين بانتقاله إلى حظيرة الخلد قائلاً : **إنَّ جَبْرَئيلَ كانَ يُعارِضُني بِالْقُرْآنِ في كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإنَّهُ عارَضَنِي بِهِ فِي هٰذَا الْعامِ مَرَّتَيْنِ ، وَما أَرىٰ ذٰلِكَ إلَّا اقْتِرابَ أَجَلي**[٢] .

وذابت نفسها شعاعاً ، وودّت مفارقة الحياة ولم تسمع هذه الكلمات من أبيها .

ثانياً : نزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وآله بهذه الآية : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** ﴾[٣] ، وكانت هذه الآية إنذاراً له بمفارقة الحياة ، وأثارت في نفسه كوامن الألم ، وسمعه المسلمون يقول : **لَيْتَنِي أَعْلَمُ مَتىٰ يَكُونُ ذٰلِكَ ؟**

ثالثاً : نزلت عليه سورة النصر ، فشعر منها بدنو أجله ، وكان يسكت بين التكبير والقراءة ويقول : **سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ** ، وذهل المسلمون من ذلك ، وراحوا يسألونه عن هذه الحالة الغريبة فأجابهم : **إِنَّ نَفْسِي قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ**[٤] .

وهام المسلمون في تيارات من الهواجس ، فقد كان نعي النبيّ صلى الله عليه وآله لنفسه

---

(١) الخصائص الكبرى : ٢ : ٣٦٨.

(٢) البداية والنهاية : ٥ : ٥٢٣. المعجم الكبير : ٢٢ : ٤١٨ و ٤١٩. تاريخ مدينة دمشق : ٣ : ١٥٥. كنز العمّال : ١٢ : ١٠٧ ، الحديث ٣٤٢١٤.

(٣) الزمر : ٣٠ و ٣١.

(٤) مجمع الزوائد : ٩ : ٢٧. المعجم الكبير : ٣ : ٥٩.

كالصاعقة عليهم ، فلا يدرون ما سيجري عليهم إن خلت الدنيا من محمّد ﷺ .

حجّة الوداع

ولما أيقن النبيّ ﷺ بقرب انتقاله إلى دار القدس رأى لزاماً عليه أن يحجّ البيت الحرام ، ويضع الخطوط السليمة لنجاة اُمّته من الفتن ، وتطوير حياتها وسيادتها على بقيّة الأمم ، وإنّ أضمن مكان لذلك هو البيت الحرام ، فحجّ لهذا الغرض حجّته الأخيرة الشهيرة بحجّة الوداع ، وذلك في السنة العاشرة من الهجرة . وأعلن بين الوافدين للحجّ أنّ التقاءه بهم في عامهم هذا هو آخر لقاء قائلاً : **إنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عامِي هٰذا بِهٰذَا الْمَوْقِفِ أَبَداً** .

وفزع الحجّاج وذهلوا ، فقد طافت بهم موجات من الهموم ، وراحوا يقولون : النبيّ ينعى نفسه ، ومضى النبيّ يضع المناهج السليمة التي تضمن سعادتهم في الدارين قائلاً : **أَيُّها النَّاسُ ! إنِّي تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ ، كِتابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي** .

التمسّك بكتاب الله والعمل بما فيه ، والولاء للعترة الطاهرة والأخذ بما اُثر عنهم هما الضمان لنجاة هذه الاُمّة وسلامتها من الزيغ والانحراف .

ولمّا أنهى النبيّ ﷺ مراسيم الحجّ وقف عند بئر زمزم ، وأمر ربيعة بن خلف فوقف تحت راحلته ، وأمره أن يبلّغ الحجّاج ما يقوله ، فقال : **يا رَبِيعَةُ قُلْ :**

أَيُّها النَّاسُ ، إنَّ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ لَكُم : لَعَلَّكُمْ لَا تَلْقَوْنِي عَلىٰ مِثْلِ حالِي هٰذِهِ ، أَتَدْرُونَ أَيَّ بَلَدٍ هٰذا ؟

أَتَدْرُونَ أَيَّ شَهْرٍ هٰذا ؟

أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هٰذا ؟

فهتفوا جميعاً : نعم ، هذا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، واليوم الحرام .

وأخذ النبيّ ﷺ يتلو عليهم المبادئ الكريمة والمُثل القيّمة قائلاً : **إنَّ اللهَ حَرَّمَ**

عَلَيْكُمْ دِماءَكُمْ وَأَمْوالَكُم كَحُرْمَةِ بَلَدِكُمْ هٰذا ، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هٰذا ، وَكَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هٰذا ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟

فأجابوا جميعاً : نعم .

ثمّ أخذ النبيّ ﷺ يعرض على الحجّاج الأحكام التي يلزمون برعايتها وتنفيذها قائلاً : **اللّٰهُمَّ اشْهَدْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، فَمَنْ كانَ عِنْدَهُ أَمانَةٌ فَلْيُؤَدِّها .**

النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ سَواءٌ طَفُّ الصَّاعِ لِآدَمَ وَحَوّاءَ ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلىٰ أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا لِأَعْجَمِيٍّ عَلىٰ عَرَبِيٍّ إِلَّا بِتَقْوى اللهِ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟

وانبروا جميعاً قائلين : نعم .

وأخذ النبيّ ﷺ يتلو عليهم معالم دينه القويم قائلاً : **اللّٰهُمَّ اشْهَدْ ، لَا تَأْتُونِي بِأَنْسابِكُمْ وَائْتُونِي بِأَعْمالِكُمْ ، فَأَقُولُ لِلنَّاسِ : هٰكَذا ، وَلَكُمْ هٰكَذا ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟**

قالوا : نعم .

ثمّ واصل الرسول ﷺ بيان الأحكام التي يجب الأخذ بها قائلاً : **اللّٰهُمَّ اشْهَدْ ، كُلُّ دَمٍ كانَ فِي الْجاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمِي ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمُ ابْنِ بن رَبِيعَةَ بْنِ الْحارِثِ بْنِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ**[١] **، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟**

قالوا : نعم .

قال ﷺ : **اللّٰهُمَّ اشْهَدْ ، وَكُلُّ رِباً كانَ فِي الْجاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمِي ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُهُ رِبا الْعَبّاسِ بْنِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟**

قالوا : نعم .

---

(١) ابن ربيعة كان مسترضعاً في هذيل فقتله بنو سعد بن بكر .

اللّهُمَّ اشْهَدْ. أيُّها النَّاس، إنَّما النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ.

أُوْصِيْكُمْ بِالنِّساءِ خَيْراً فَإنَّما هُنَّ عَوارٍ عِنْدَكُمْ، لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئاً، وَإنَّما أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكِتابِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقٌّ: كِسْوَتُهُنَّ وَرِزْقُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئْنَ فِراشَكُمْ أَحَداً، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ إلَّا بِعِلْمِكُمْ وَإذْنِكُمْ..، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ.

قالوا نعم.

اللّهُمَّ اشْهَدْ، فَأُوْصِيْكُم بِمَنْ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَأَطْعِمُوهُم مِمَّا تَأْكُلُونَ...، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

قالوا: نعم.

اللّهُمَّ اشْهَدْ..إنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَغُشُّهُ، وَلَا يَخُونُهُ، وَلَا يَغْتابُهُ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ دَمُهُ، وَلَا شَيْءٌ مِنْ مالِهِ إلَّا بِطِيْبٍ مِنْهُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

قالوا: نعم.

ويستمرّ النبيّ ﷺ في تأسيس المناهج التربوية والأخلاقية والاجتماعية، وما يسعد به الإنسان في دنياه وآخرته، ثمّ يختتم خطابه الرائع بقوله:

لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً مُضَلِّلِينَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ، إنِّي خَلَّفْتُ فِيْكُمْ ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

قالوا: نعم.

اللّهُمَّ اشْهَدْ..إنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ مِنْكُمُ الْغائِبَ(١).

---

(١) فضائل الصحابة: ١٥. مجمع الزوائد: ٣: ٢٦٧ و ٢٦٨. الخصال: ٤٨٦ و ٤٨٧، ⇐

وانتهى هذا الخطاب الحافل بجميع القيم الاجتماعية والسياسية التي تسمو بها أُمّته ، وتتحقّق لها السيادة على شعوب العالم وأُمم الأرض . وقد ختم الرسول ﷺ بأهمّ وصيّة له ، وهي لزوم التمسّك بكتاب الله العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والتمسّك بالعترة الطاهرة لتكون لها القيادة العامّة لأُمّته على مسرح حياتها السياسية والاجتماعية .

مؤتمر غدير خم

وبعد ما أدّى النبيّ ﷺ الحجّ إلى بيت الله الحرام ووضع الخطط السليمة لصيانة أُمّته من الزيغ قفل راجعاً إلى يثرب ، وحينما اجتاز موكبه في غدير خم هبط عليه جبرئيل وهو يحمل رسالة من الله تعالى بالغة الخطورة تتعلّق بمصير الأُمّة الإسلامية ومستقبلها الحضاري ، فقد أمره الله تعالى أن يحطّ رحله في ذلك المكان لينصّب الإمام عليّاً عليه السلام خليفة من بعده ويقلّده المرجعية العامّة ، ولم يرخصه في التأخير قيد لحظة واحدة ، وكان أمر السماء بهذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...** ﴾[١] .

ونصّ الرواة على أنّها نزلت في غدير خم[٢] ، وطابع هذه الآية الإنذار الشديد ، فالنبيّ إن لم يبلّغ ما أُنزل إليه من ربّه في تقليد الإمام لمنصب الخلافة فقد ضاعت جهوده وتبدّدت أتعابه .

وتلقّى الرسول ﷺ الأمر بأهمّية بالغة ، فانبرى بعزم ثابت وإرادة صلبة لتنفيذ

⇦ الحديث ٦٣ ، نقلاً عن تاريخ اليعقوبي : ٢ : ٩٠ ـ ٩٢ .

(١) المائدة ٥ : ٦٧ .

(٢) أسباب النزول / الواحدي : ١٥٠ . تفسير الرازي : ٣ : ٦٣٦ . مجمع البيان / الطبرسي : ٤ : ٣٤٤ . تفسير العيّاشي : ١ : ٣٣١ و ٣٣٢ ، الحديث ١٥٢ . الدرّ المنثور : ٢ : ٢٩٨ ، وغيرها .

أمر الله تعالى ، فوضع أعباء المسير ، وحطّ رحله في رمضاء الهجير وأمر قوافل الحجّ أن تحطّ رحالها ، وكان الوقت قاسياً في حرارته ، فكان الرجل يضع طرف ردائه تحت قدميه ليتّقي به من الحرّ.

واجتمع الحجّاج فصلّى بهم النبيّ ﷺ وبعد ما فرغ من الصلاة أمر بوضع حدائج الإبل لتكون منبراً له ، فصنعوا له ذلك ، فاعتلى عليها ، وكان عدد الحاضرين مائة ألف أو يزيدون ، وأقبلت الجماهير بقلوبها نحو النبيّ ، فخطب فيهم معلناً ما عاناه من الجهود الشاقّة في سبيل الإسلام ، وما كانوا فيه من الضلال والحياة البائسة فأنقذهم منها ، ثمّ ذكر كوكبة من أحكام الإسلام وتعاليمه ، ثمّ التفت إليهم قائلاً: **انْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِي الثَّقَلَيْن ؟**

فناده منادٍ من القوم : ما الثقلان يا رسول الله ؟

وعرض عليهم أمر الثقلين قائلاً: **الثَّقَلُ الْأَكْبَرُ: كِتابُ اللهِ طَرَفٌ بِيَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ وَلاَ تَضِلُّوا ، وَالْآخَرُ الْأَصْغَرُ: عِتْرَتِي ، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ نَبَّأَنِي أَنَّهُما لَنْ يَفْتَرِقا حَتّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ ، فَسَأَلْتُ ذٰلِكَ رَبِّي لَهُما ، فَلَا تَقَدَّمُوهُما فَتَهْلِكُوا ، وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُما فَتَهْلِكُوا .**

ووضع النبيّ ﷺ بذلك المناهج السليمة لسلامة اُمّته من الضلال والانحراف عن طريق الحقّ ، ثمّ أخذ النبيّ ﷺ بيد وصيّه وسيّد عترته وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ففرض ولايته على المسلمين ، وأقامه علماً لهدايتهم ، فرفعها حتى بان بياض إبطيهما ، ورفع صوته عالياً قائلاً: **أَيُّها النّاسُ ، مَنْ أَوْلَى النّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟**

فأجابوا جميعاً : الله ورسوله أعلم .

فقال ﷺ : **إِنَّ اللهَ مَوْلَايَ ، وَأَنا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنا أَوْلىٰ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ** » ، قال ذلك ثلاث مرّات .

ثمّ قال: **اللّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعادِ مَنْ عاداهُ، وَأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ، وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دارَ، أَلا فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ الْغائِبَ.**

وبذلك أنهى خطابه الشريف الذي أدّى فيه رسالة ربّه، فنصب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده، وأثبت له الولاية الكبرى على عموم المسلمين كما كانت له صلى الله عليه وآله الولاية العامّة على جميع المسلمين.

البيعة العامّة للإمام عليه السلام

وأقبل المسلمون يبايعون الإمام بولاية العهد ويهنّئونه بإمرة المسلمين، وأمر النبيّ صلى الله عليه وآله أمّهات المؤمنين بمبايعته[١]، وأقبل عمر بن الخطّاب فهنّأ الإمام وصافحه وقال له مقالته المشهورة: هنيئاً يابن أبي‌طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[٢].

وانبرى حسان بن ثابت فنظم هذه الحادثة الخالدة بقوله:

يُناديهِمُ يَومَ الغَديرِ نَبيُّهُمْ ... بِخُمٍّ وَأَسْمِعْ بِالرَّسولِ مُنادِيا
فَقالَ فَمَنْ مَولاكُمُ وَنَبِيُّكُمْ ... فَقالوا وَلَمْ يُبدوا هُناكَ التَّعامِيا
إِلهُكَ مَوْلانا وَأَنتَ نَبِيُّنا ... وَلَمْ تَلْقَ مِنّا فِي الوِلايَةِ عاصِيا
فَقالَ لَهُ قُمْ يا عَلِيُّ فَإِنَّني ... رَضيتُكَ مِنْ بَعْدي إِماماً وَهادِيا
فَمَنْ كُنتُ مَولاهُ فَهذا وَلِيُّهُ ... فَكونوا لَهُ أَتْباعَ صِدْقٍ مَوالِيا

---

(١) الغدير: ٢: ٣٤. الإرشاد: ١: ١٧٦.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٤: ٢٨١. رسائل المرتضى: ٤: ١٣١. الإرشاد: ١: ١٧٧. شواهد التنزيل: ١: ٢٠٢.

هُـــناكَ دَعــا اللّـــهُمَّ والِ وَلِـــيَّهُ　　وَكُنْ لِلَّذي عادىٰ عَلِيّاً مُعادِيا (١)

وقال الشاعر الملهم السيّد الحميري :

وَقـامَ مُـحَمَّدٌ بِـغَديرِ خُـمٍّ　　فَـنادىٰ مُـعلِناً صَـوتاً نَـدِيّا
لِمَنْ وافاهُ مِنْ عُربٍ وعُجْمٍ　　وَحفُّوا حَولَ دَوحَتِهِ جِثِيّا
ألا مَنْ كُـنتُ مَـولاهُ فَـهٰذا　　لَـهُ مَـوْلىً وَكـانَ بِـهِ حَـفِيّا

وقال شاعر الإسلام الكميت الأسدي :

وَيَومُ الدَّوْحِ دَوحِ غَديرِ خُمٍّ　　أبــانَ لَـهُ الوِلايَـةَ لَـوْ أُطـيعا
وَلٰـكِـنَّ الرِّجـالَ تَـبايَعوها　　فَـلَمْ أرَ مِـثْلَها حَـقّاً أُضـيعا

وسجّل المحقّق الأميني في الغدير كوكبة من الشعراء الذين نظموا حادثة الغدير من عصر النبوّة حتى يوم الناس هذا .

نزول آية إكمال الدين

وفي ذلك اليوم الخالد في دنيا الإسلام نزلت هذه الآية الكريمة : **﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾**(٢) .

لقد كمل الدين ، وتمّت نعمة الله الكبرى على المسلمين بولاية إمام المتّقين وسيّد الموحّدين ، وبقيادته الروحية والزمنية على جميع المؤمنين .

---

(١) الغدير : ١ : ٢٧١ . الإرشاد : ١ : ١٧٧ .

(٢) المائدة ٥ : ٣ .

ونصّ على نزول الآية في يوم الغدير : الخطيب البغدادي في تاريخه : ٨ : ٢٩٠ . السيوطي في الدرّ المنثور : ٢ : ٢٥٩ . الطبرسي في مجمع البيان : ٣ : ٢٤٦ . شواهد التنزيل : ١ : ٢٠٢ ، الحديث ٢١٢ .

لقد وضع النبيّ صلى الله عليه وآله المنهج السليم لصيانة أُمّته وجمع كلمتها وتوحيد صفوفها ، ولم يترك الأمر من بعده فوضى يتلاعب فيه الطامعون وعشاق الملك والسلطان ، فقد سدّ الباب ولم يترك أي منفذ يسلك منه ، فقد عيّن القائد والموجّه لأُمّته في جميع شؤونها ولم يهمل هذا الأمر الحسّاس ـ كما يقولون ـ .

وعلى أي حال فموضوع الغدير جزء من رسالة الإسلام وركن من أركان الدين ، فمن أنكره فقد أنكر الإسلام كما يقول الشيخ العلائلي .

المَأساةُ الخالِدةُ

وبعدما أقام الرسول الأعظم ﷺ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة على أُمّته في غدير خمّ ونصّبه إماماً من بعده قفل راجعاً إلى يثرب، وقد بدت صحّته تنهار يوماً بعد يوم، فقد ألمّ به المرض وأصابته حمى مبرحة، حتى كأن به لهباً منها، وقد لازمته ولم تنقطع عنه، وكانت عليه قطيفة، فإذا وضع أزواجه وعوّاده أيديهم عليها شعروا بحرّها [1]، وقد وضعوا إلى جواره إناء فيه ماء بارد، فكان يضع يده فيه ويمسح بها وجهه الشريف لتخفّ حرارة الحمى منه.

وتذهب بعض المصادر إلى أنّ وفاته تستند إلى طعام مسموم قدّمته إحدى اليهوديات له، فكان يقول: **ما أَزالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعامِ الَّذِي أَكَلْتُهُ بِخَيْبَرَ، فَهٰذا أَوانُ وَجَدْتُ انْقِطاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذٰلِكَ السُّمِّ**[2].

ولمّا أُشيع مرضه هرع المسلمون لعيادته وهم ما بين باكٍ وواجم، قد طافت بهم موجات من الألم والذهول، واستقبلهم الرسول بأسى بالغ فنعى إليهم نفسه الشريفة، وأوصاهم بما يضمن لهم الاستقامة والتوازن في حياتهم قائلاً: **أَيُّها النّاسُ، يُوشِكُ أَنْ أُقْبَضَ قَبْضاً سَرِيعاً فَيُنْطَلَقُ بِي، وَقَدَّمْتُ إِلَيْكُمُ الْقَوْلَ مَعْذِرَةً إِلَيْكُمْ، أَلا إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمْ كِتابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي**.

---

(١) البداية والنهاية: ٥: ٢٢٦.

(٢) فتح الباري: ٨: ١٠٠. المستدرك: ٣: ٥٨.

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانبه ، فأخذ بيده وقال لعوّاده : **هٰذا عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ ، لَا يَفْتَرِقانِ حَتّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ**(١) .

وقد وضع النبيّ صلى الله عليه وآله أهمّ المخطّطات التي تضمن لأُمّته النجاح وتقيها من الأزمات ، وهي :

أوّلاً : التمسّك بكتاب الله والعمل بما فيه ، فإنّه يهدي للتي هي أقوم .

ثانياً : التمسّك بالعترة الطاهرة وعلى رأسها سيّدها الإمام أمير المؤمنين ، فإنّها لا تألوا جهداً في إسعادها وبلوغ أهدافها .

إعطاء القصاص من نفسه صلى الله عليه وآله

ولمّا علم النبيّ صلى الله عليه وآله إنّ لقاءه بربّه قريب ، دعا الفضل بن عباس ، فأمره أن يأخذ بيده ويجلسه على المنبر ، كما أمره أن ينادي بالناس الصلاة جامعة ، فنادى الفضل بذلك ، فاجتمع الناس ، فخطب فيهم الرسول صلى الله عليه وآله قائلاً : **أَيُّها النّاسُ ، إِنَّهُ قَدْ دَنا مِنّي خُلُوفٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، وَلَنْ تَرَوْنِي فِي هٰذَا الْمَقامِ فِيْكُم ، وَقَدْ كُنْتُ أَرىٰ أَنَّ غَيْرَهُ غَيْرُ مُغْنٍ عَنّي حَتّىٰ أُقَوِّمَهُ فِيكُمْ ، أَلَا فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْراً فَهٰذا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ ، وَمَنْ كُنْتُ أَخَذْتُ مِنْهُ مالاً فَهٰذا مالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضاً فَهٰذا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ... وَلَا يَقُولَنَّ قائِلٌ : أَخافُ الشَّحْناءَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللهِ ، أَلَا وَإِنَّ الشَّحْناءَ لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِي وَلَا مِنْ خُلُقِي ، وَإِنَّ أَحَبَّكُم إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ حَقّاً كانَ لَهُ عَلَيَّ ، أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عِنْدِي مَظْلِمَةٌ** .

يالروعة العدل !!

يالروعة الخُلق النبوي !!

---

(١) الصواعق المحرقة : ٢ : ٣٦١ . الاحتجاج : ١ : ٢١٦ . ينابيع المودّة : ١ : ١٢٤ ، الحديث ٥٦ .

لقد أسّس النبيّ ﷺ جميع صنوف العدل التي لم يؤسّسها أي مصلح اجتماعي .

لقد أعطى رسول الإنسانية القصاص من نفسه وهو في الساعات الأخيرة من حياته ، ليخرج من هذه الدنيا وليس لأي أحد أي تبعة عليه ، وقد انبرى رجل من القوم فقال للرسول : يا رسول الله ، لي عندك ثلاثة دراهم .

فقابله الرسول بلطف قائلاً : **أَمّا أنا فَلا أُكَذِّبُ قائِلاً ، وَلا مُسْتَحْلِفُهُ عَلىٰ يَمِينٍ ، فَبِمَ كانَتْ لَكَ عِنْدِي ؟**

فسارع الرجل قائلاً : أما تذكر أنّه مرّ بك سائل فأمرتني أن أُعطيه ، فأعطيته ثلاثة دراهم .

وأمر النبيّ ﷺ الفضل بإعطائه الدراهم ، ثمّ عاد النبيّ إلى خطابه فقال : **مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْغُلُولِ شَيْءٌ فَلْيَرُدَّهُ .**

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ، عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله ، فقال له النبيّ : **لِمَ غَلَلْتَها ؟**

كنت محتاجاً إليها .

فأمر النبيّ ﷺ الفضل أن يأخذها منه فأخذها ، وعاد النبيّ في خطابه ، فقال : **أَيُّها النّاس ، مَنْ أَحَسَّ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً فَلْيَقُمْ أَدْعُ اللهَ لَهُ .**

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ، إنّي لمنافق ، وإنّي لكذوب ، وإنّي لشؤوم .

فزجره عمر وصاح به ، وقال له : لقد سترك الله ، لو سترت على نفسك .

والتفت النبيّ ﷺ إلى عمر فقال له : **صَهْ يابْنَ الْخَطّابِ ! فُضُوحُ الدُّنْيا أَهْوَنُ مِنْ فُضُوحِ الآخِرَةِ .**

ودعا النبيّ ﷺ للرجل فقال : **اللّٰهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقاً وَإِيماناً ، وَأَذْهِبْ عَنْهُ الشُّؤْمَ**[١] ،

---

(١) البداية والنهاية : ٥ : ٢٣١ . السيرة النبويّة / ابن كثير : ٤ : ٤٥٧ و ٤٥٨ .

وانبرى رجل من أقصى القوم يسمّى سوادة بن قيس فقال : يا رسول الله ، إنّك ضربتني بالسوط على بطني ، وأنا أُريد القصاص منك .

فاستجاب الرسول صلى الله عليه وآله لطلبه وأمر بلالاً بإحضار السوط ليقتصّ منه سوادة ، وذهل الحاضرون ، وساد عليهم صمت رهيب من هذا العدل ، وانطلق بلال رافعاً عقيرته قائلاً : أيّها الناس ، اعطوا القصاص من أنفسكم في دار الدنيا ، فهذا رسول الله قد أعطى القصاص من نفسه .

ومضى بلال إلى بيت النبيّ صلى الله عليه وآله فجاء بالسوط وناوله إلى سوادة ، فأخذه وأقبل رافعاً له صوب النبيّ الذي ألمّت به الأمراض ، وهو في الساعات الأخيرة من حياته ، واتّجه المسلمون بقلوبهم وأبصارهم نحو سوادة فقال للنبيّ : يا رسول الله ، اكشف عن بطنك .

فكشف الرسول عن بطنه ، فقال سوادة وهو غارق في البكاء : يا رسول الله ، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك ؟

نَعَمْ .

ووضع سوادة وجهه على بطن الرسول ودموعه تتبلور على خدّيه وهو يقول بصوت حزين النبرات : أعوذ بموضع القصاص من رسول الله من النار يوم القيامة .

والتفت إليه النبيّ قائلاً : **أَتَعْفُو يا سَوادَةُ أَمْ تَقْتَصُّ ؟**

بل أعفو يا رسول الله .

فرفع النبيّ يديه بالدعاء قائلاً : **اللّهُمَّ اعْفُ عَنْ سَوادَةَ كَما عَفا عَنْ نَبِيِّكَ .**

إنّ هذا الخلق النبوي أحقّ بالبقاء وأجدر بالخلود من هذا الكوكب الذي نعيش فيه ، فقد تجسّدت فيه جميع القيم والمبادئ الكريمة التي سما بها النبيّ على سائر الأنبياء .

سرية أُسامة

واستبانت للنبيّ ﷺ التيارات الحزبية من صحابته الذين صمّموا على صرف الخلافة عن أهل بيت النبوة ، فرأى خير وسيلة يتدارك بها الموقف أن يبعث بجميع أصحابه لغزو الروم حتى تخلو عاصمته منهم إذا انتقل إلى حظيرة القدس ، وبذلك يتمّ ما أراده من تسلّم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مقاليد الحكم من دون منازع له ، وقد أمر أعلام المهاجرين والأنصار بالالتحاق بالجيش ، كان من بينهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجرّاح وبشير بن سعد[١] ، وهم من أقطاب الحزب المعارض للإمام ، وعهد النبيّ ﷺ بإمارة الجيش إلى أُسامة بن زيد ، وكان في شرخ الشباب ، ولم يعهد بها إلى شيوخ أصحابه ، وكان في ذلك إشعار منه بأنّ القيادة العامّة لا تخضع لكبر السنّ والتقدّم في العمر ، وإنّما تخضع للمؤهّلات والقابليات التي يتمتّع بها القائد .

وقال النبيّ ﷺ لأُسامة : **سِرْ إِلىٰ مَوْضِعِ قَتْلِ أَبِيكَ فَأَوْطِئْهُمُ الْخَيْلَ ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هٰذَا الْجَيْشَ فَاغْزُ صَباحاً عَلىٰ أَهْلِ أُبْنى[٢] وَحَرِّقْ عَلَيْهِم ، وَأَسْرِعِ السَّيْرَ لِتَسْبِقَ الْأَخْبارَ ، فَإِنْ أَظْهَرَكَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَأَقْلِلِ اللُّبْثَ فِيهِمْ ، وَخُذْ مَعَكَ الْأَدِلَّاءَ ، وَقَدِّمِ الْعُيُونَ وَالطَّلَائِعَ مَعَكَ .**

وحفلت هذه الوصية بالمناهج العسكرية الرائعة التي دلّت على أصالة التعاليم العسكرية في الإسلام .

وفي اليوم التاسع والعشرين من صفر رأى النبيّ ﷺ جيشه قد مُني بالتمرّد ،

---

(١) كنز العمّال : ٥ : ٣١٢ . الطبقات الكبرى / ابن سعد : ٤ : ٤٦ . تاريخ الخميس : ٢ : ٤٦ . أمالي الصدوق : ٧٣٣ و ٧٣٤ . بحار الأنوار : ٢٢ : ٥٠٨ و ٥٠٩ .

(٢) أبنى : ناحية بالبلقاء من أرض سوريا ، تقع بين عسقلان والرملة بالقرب من مؤتة التي استشهد فيها الشهيد الخالد جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة .

فلم يلتحق أعلام الصحابة بوحداتهم العسكرية ، فساءه ذلك وخرج مع ما به من المرض فحثّهم على المسير ، وعقد بنفسه اللواء لأسامة وقال له : **اغْزُ بِسْمِ اللهِ ، وَفِي سَبيلِ اللهِ ، وَقاتِلْ مَنْ كَفَرَ باللهِ** ، وخرج أُسامة معقوداً لواؤه ، فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف[١] ، وتثاقل الصحابة من الالتحاق بالمعسكر ، وأظهروا العصيان والطعن بقيادة أُسامة ، يقول له عمر : مات رسول الله ، وأنت عليَّ أمير ؟

ونقلت هذه الكلمات إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وكانت قد ازدادت به الحمى فغضب ، وخرج وهو معصب الرأس قد دثّر بقطيفته ، فصعد المنبر وهو متبرّم ، فأعلن سخطه على من لم يلتحق بجيش أُسامة .

أَيُّها النّاسُ ، ما مَقالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْ بَعْضِكُمْ فِي تَأْمِيرِي أُسامَةَ ؟ وَلَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي تَأْمِيرِي أَباهُ ، وَأَيْمُ اللهِ إِنَّهُ كانَ لَخَليقاً بِالْإِمارَةِ وَإِنَّ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيقٌ بِها[٢] .

ثمّ نزل عن المنبر وهو متألّم أشدّ ما يكون الألم ، وجعل يؤكّد على الالتحاق بجيش أُسامة ، ويلعن من تخلّف عنه قائلاً :

جَهِّزُوا جَيْشَ أُسامَةَ .

نَفِّذُوا جَيْشَ أُسامَةَ .

لَعَنَ اللهُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ جَيْشِ أُسامَةَ .

ولم تثر هذه الأوامر المشدّدة من رسول الله صلى الله عليه وآله حفائظ نفوسهم ، ولم تدفعهم إلى الالتحاق بجيش أُسامة ، فقد تثاقلوا واعتذروا للرسول بشتّى المعاذير الواهية ، وهو سلام الله عليه لم يمنحهم العذر ، وإنّما أظهر السخط وعدم الرضا .. وهناك

---

(١) **الجرف** : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو جهة الشام ، كانت به أموال لعمر بن الخطّاب ولأهل المدينة ، وفيه بعض الآبار . معجم البلدان : ٢ : ١٢٨ .

(٢) السيرة الحلبيّة : ٣ : ٣٤ . المغازي للواقدي : ٣ : ١١١٩ . الطبقات الكبرى : ٢ : ١٩٠ .

بحوث مهمّة عرضنا لها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسن عليه السلام) .

رزية يوم الخميس

واستبان للنبيّ صلى الله عليه وآله بصورة مكشوفة ما عليه بعض الصحابة من تصميمهم على صرف الخلافة عن وصيّه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فرأى أن يكتب كتاباً خاصّاً بالنصّ عليه ، ويعزّز بيعة يوم الغدير ، ويسدّ بذلك أبواب المتآمرين عليه ، فقال : **ائْتُونِي بِالْكَتِفِ وَالدَّواةِ لِأَكْتُبَ لَكُمْ كِتاباً لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَداً** .

يا لها من نعمة كبرى على المسلمين إنّه التزام من سيّد الكائنات بأن لا تضلّ اُمّته على امتداد التاريخ إن كتب لها الكتاب ، إنّه الكتاب الذي أراد الرسول به أن يصون اُمّته من الزيغ والانحراف ، ولا تصاب بأيّة نكسة في جميع الأحقاب والآباد .

وعلم بعض الصحابة ما يريده النبيّ صلى الله عليه وآله من نصب الإمام عليه السلام خليفة من بعده وقائداً لمسيرة اُمّته ، فقال : حسبنا كتاب الله .

والمتأمّل في هذا الكلام يطلّ على الغاية المنشودة لهذا القائل وهو صرف النبيّ صلى الله عليه وآله من الكتابة في حقّ الإمام عليه السلام ، فلو كان يعتقد أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يريد أن يوصي بحماية الثغور أو بجهاد الكفّار أو بالمحافظة على الطقوس الدينية لما ردّ على النبيّ صلى الله عليه وآله وقابله بهذه الجرأة ووقف بصلابة دون تنفيذ رغبته .

وعلى أي حال ، فقد كثر الجدل بين القوم ، فطائفة حاولت تنفيذ ما أمر به النبيّ صلى الله عليه وآله ، وطائفة اُخرى أصرّت على معارضتها والحيلولة بينه وبين ما طلبه من الكتابة ؛ وذلك خوفاً على فوات مصالحها وأطماعها ، وانطلقت بعض السيّدات من وراء الستر فأنكرن على القوم هذا الموقف المتّسم بالجرأة على النبيّ وهو في ساعاته الأخيره ، فقلن لهم : ألا تسمعون ما يقول رسول الله ؟

ألا تنفّذون ما يريد رسول الله ؟

فثار عمر وهو بطل الموقف، وزعيم المعارضة فصاح بالنساء قائلاً: إنّكنّ صويحبات يوسف إذا مرض عصرتن أعينكن، وإذا صحّ ركبتن عنقه.

فرمقه الرسول بطرفه وصاح به: **دَعُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ خَيْرٌ مِنْكُمْ**.

وبدا صراع رهيب بين القوم وكادت تفوز الجبهة التي أرادت أن يكتب النبيّ، فانبرى بعض الحاضرين فسدّد سهماً لما رامه النبيّ، فقال ـ ويا لهول ما قال! ـ: إنّ النبيّ لَيَهْجُر(١)!

ما أعظم هذه الجرأة على النبي!

ما أقسى هذا الاعتداء على مركز النبوّة!

يالها من كلمة تحمل جميع ألوان الشرور! ألم يسمع هذا القائل كلام الله تعالى في حقّ نبيّه العظيم: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ** ﴾(٢)؟

ألم تمرّ عليه هذه الآية في سموّ مكانة رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ** ﴾(٣)؟

بلى والله! لقد سمع هذا القائل ما أنزل الله من الآيات في كتابه المجيد في شأن رسوله الكريم، ولكن الأطماع السياسية دفعته إلى هذا الموقف الذي يحزّ في نفس كلّ مسلم. وكان ابن عباس حبر الأمّة إذا ذكر هذا الحادث الرهيب يذوب لوعة

---

(١) نصّ على هذه الحادثة المؤلمة جميع المؤرّخين في الإسلام، ذكرها البخاري في صحيحه عدّة مرّات في ٤: ٦٨ ـ ٦٩ و ٦: ٨، وقد كتم اسم القائل.

وفي نهاية ابن الأثير: ٤: ١٣٠، وشرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٣: ١١٤ وغيرهما تصريح باسمه. مجمع الزوائد: ٩: ٣٤. كنز العمّال: ٥: ٦٤٤، الحديث ١٤١٣٣.

(٢) النجم ٥٣: ٢ ـ ٥.

(٣) التكوير: ١٩ و ٢٠.

ويبكي حتى تسيل دموعه على خدّيه كأنّها نظام اللؤلؤ وهو يقول: يوم الخميس، وما يوم الخميس؟ قال رسول الله ﷺ: **«ائْتُونِي بِالْكَتِفِ وَالدَّواةِ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتاباً لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبداً»**، فقالوا: إنّ رسول الله يهجر[١].

حقّاً لأن يجزع ابن عبّاس ويبكي بأمرّ ألوان البكاء، فقد دهمت المسلمين كارثة مدمّرة ألقتهم في شرّ عظيم، فقد حيل بينهم وبين ما أراده الرسول من تطوير حياتهم وسيادتهم في جميع الأحقاب والآباد.

وأكبر الظنّ أنّ النبيّ ﷺ لو كتب في حقّ عليّ ونصّ على خلافته لما أجدت كتابته شيئاً، فقد اتّهموه بالهجر وعدم الوعي، وفي ذلك طعن صريح في مركز النبوّة وقداسة الرسول، فرأى صلوات الله عليه الاعراض عن الكتابة.

فجيعة الزهراء عليها السلام

ومنيت زهراء الرسول عليها السلام بكارثة مدمّرة حينما علمت أنّ أباها سيفارق الحياة، فقد نخب الحزن قلبها الرقيق، وهامت في تيارات من الأسى واللوعة، وقد لازمت أباها وهي مذهولة كأنّها جثمان فارقته الحياة، وقد أحدقت بوجهه فسمعته يقول: **وَا كَرْباه!**

وامتلأ قلبها الطاهر حزناً، فأسرعت قائلة: **وَا كَرْبِي! لِكَرْبِكَ يا أَبَتِ**، وأشفق عليها أبوها وراح يسلّيها قائلاً: **لَا كَرْبَ عَلىٰ أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ**[٢].

وكانت هذه الكلمات أشدّ على نفسها من الموت، ورآها النبيّ وهي ولهى

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ١: ٣٥٥. صحيح مسلم: ٥: ٧٦. الطبقات الكبرى: ٢٠: ٢٤٣. تاريخ الطبري: ٢: ٤٣٦.

(٢) سنن ابن ماجة: ١: ٥٢٢. كنز العمّال: ٧: ٢٦٠، الحديث ١٨٨١٨. تاريخ بغداد: ٦: ٢٥٩. تهذيب الكمال: ١٤: ٥١٧.

مذهولة قد خطف الحزن لونها كأنّما تعاني آلام الاحتضار فأمرها بالدنوّ منه، فأسرّ إليها بحديث فغامت عيناها بالدموع، ثمّ أسرّ إليها ثانياً، فقابلته ببسمات فيّاضة بالبشر والرضا، وكانت عائشة إلى جنبها فبهرت من ذلك، وراحت تقول: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن!

وسألتها عمّا أسرّ إليها أبوها، فأشاحت بوجهها عنها وأبت أن تخبرها، ولمّا انصرفت أخبرت سلام الله عليها بعض السيّدات عن ذلك فقالت: **أَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرَئِيلَ كَانَ يُعارِضُني بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عارَضَنِي بِهِ فِي هٰذَا الْعامِ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَراهُ إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي.**

وكان هذا هو السبب في لوعتها وبكائها، وأمّا سبب سرورها وابتهاجها فتقول: **أَخْبَرَنِي أَنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لُحُوقاً بِي، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنا لَكِ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِساءِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ**(١)؟

وغرقت سيّدة النساء في البكاء، فأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يخفّف عنها آلامها قائلاً: **يا بُنَيَّةَ، لَا تَبْكِي، وَإِذا مِتُّ فَقُولِي: إِنّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، فَإِنَّ فِيها مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ مَعُوضَةً.**

وذابت نفسها شعاعاً، وغامت عيناها بالدموع، فقالت له بصوت متقطّع بالبكاء: **وَمِنْكَ يا رَسُولَ اللهِ؟**

نعم، ومنّي(٢).

واشتدّ الوجع برسول الله صلى الله عليه وآله، فنظرت إليه سيّدة النساء فقالت له: **أَنْتَ وَاللهِ! كَما قالَ الْقائِلُ:**

---

(١) فضائل الصحابة: ٧٧. تهذيب الكمال: ٣٥: ٢٤٩.

(٢) أنساب الأشراف: ١: ١٣٣. كنز العمّال: ١١: ٤٦٨. الطبقات الكبرى: ٢: ٣١٢.

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغمامُ بِوَجْهِهِ ثِمالُ الْيَتامىٰ عِصْمَةٌ لِلْأَرامِلِ »

فقال لها أبوها : هٰذا **قَوْلُ عَمِّك أَبِي طَالِبٍ** ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[(١)](٢).

النبيّ ﷺ يوصي بأهل بيته عليهم السلام

روى أنس بن مالك ، قال : جاءت فاطمة ومعها الحسنان إلى رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفّي فيه فانكبّت عليه وألصقت صدرها بصدره وهي غارقة بالبكاء ، ثمّ انطلقت إلى بيتها ، والنبيّ تسبقه دموعه وهو يقول : **اللّٰهُمَّ أَهْلَ بَيْتِي ، وَأَنا مُسْتَوْدِعُهُمْ كُلَّ مُؤْمِنٍ** .

وجعل يردّد ذلك ثلاث مرّات[(٣)] وهو مثقل بالألم والحزن ، فقد استشفّ من وراء الغيب ما يجري عليهم من المحن والخطوب .

وصيّة النبيّ ﷺ بسبطيه عليهما السلام

وقبل أن ينتقل النبيّ إلى حظيرة القدس بثلاثة أيام أوصى الإمام عليه السلام برعاية سبطيه قائلاً : **يا أَبا الرَّيْحانَتَيْنِ ، أُوصِيكَ بِرَيْحانَتَيَّ مِنَ الدُّنْيا ، فَعَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُّ رُكْناكَ ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ** .

ولمّا قبض النبيّ قال الإمام : **هٰذا أَحَدُ رُكْنَيَّ الَّذِي قالَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ** ،

---

(١) آل عمران ٣ : ١٤٤ .

(٢) الإرشاد : ١ : ١٨٦ و ١٨٧ . بحار الأنوار : ٢٢ : ٤٧٠ .

(٣) بحار الأنوار : ٢٢ : ٤٦١ . ينابيع المودّة : ٢ : ٧١ . أنساب الأشراف : ١ : ١٣٣ .

ولمّا ماتت فاطمة قال : **هـٰذا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قالَ لِي رَسُولُ اللهِ**(١) .

إلى الفردوس الأعلى

وآن لسيّد الكائنات أن يلتحق بالفردوس الأعلى مقرّ الأنبياء والأوصياء ، فقد وفد عليه ملك الموت فاستأذن بالدخول عليه ، فأخبرته زهراء الرسول بأنّه مشغول بنفسه عنه ، فانصرف ، وبعد قليل عاد طالباً الإذن ، فأفاق النبيّ وقال لبضعته : **أَتَعْرِفِينَهُ ؟**

قالت عليها السلام : **لَا ، يا رَسُولَ اللهِ** .

قال صلى الله عليه وآله : **إِنَّهُ مُعَمِّرُ الْقُبورِ ، وَمُخَرِّبُ الدُّورِ ، وَمُفَرِّقُ الْجَماعاتِ** ، وذهلت حبيبة الرسول ، وقدّ قلبها ، واندفعت تقول : **وَا أَبَتاهُ ! لِمَوْتِ خاتَمِ الْأَنْبِياءِ ، وَامُصِيبَتاهُ ! لِمَماتِ خَيْرِ الْأَتْقِياءِ ، وَلانْقِطاعِ سَيِّدِ الْأَصْفِياءِ** ، واحَسْرَتاهُ ! **لِانْقِطاعِ الْوَحْيِ مِنَ السَّماءِ ، فَقَدْ حُرِمْتُ الْيَوْمَ كَلامَكَ** .

وتصدّع قلب الرسول وذابت نفسه ، وراح يسلّي زهراءه قائلاً : **لا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقاً بِي**(٢) .

وأذن النبيّ لملك الموت بالدخول عليه ، ولمّا مثل أمامه قال له : **يا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ ما تَأْمُرُنِي بِهِ ، إِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَقْبِضَ نَفْسَكَ قَبَضْتُها ، وَإِنْ تَأْمُرْنِي أَنْ أَتْرُكَها تَرَكْتُها** .

وبهر النبيّ صلى الله عليه وآله وقال له : **أَتَفْعَلُ يا مَلَكَ الْمَوْتِ ذٰلِكَ ؟**

---

(١) أمالي الصدوق : ١١٩ . بحار الأنوار : ٤٣ : ١٧٣ ، الحديث ١٤ . كنز العمّال : ١٣ : ٦٦٤ ، الحديث ٣٧٦٨٨ . تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ١٦٦ . ميزان الاعتدال : ٤ : ٧٦ .

(٢) درّة الناصحين : ٦٦ . الكشّاف : ٤ : ٢٩٥ . الطبقات الكبرى : ٢ : ١٩٣ .

بِذٰلِكَ أُمِرْتُ أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ ما أَمَرْتَنِي .

ولم يحظ أحد من أنبياء الله ورسله بمثل ما حظي به خاتم الأنبياء ، فقد أمر الله تعالى ملك الموت بإطاعته ، والاستئذان بالدخول عليه .

وهبط جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال له : **يا أَحْمَدُ ، إِنَّ اللهَ اشْتاقَ إِلَيْكَ** ، واختار النبيّ جوار ربّه ، فإنّ الآخرة خير له وأبقى ، وأذن لملك الموت باستلام روحه المقدّسة ، ودعا وصيّه وباب مدينة علمه الامام عليه السلام فقال له : **ضَعْ رَأْسِي فِي حِجْرِكَ ، فَقَدْ جاءَ أَمْرُ اللهِ ، فَإِذا فاضَتْ نَفْسِي فَتَناوَلْها ، وَامْسَحْ بِها وَجْهَكَ ، ثُمَّ وَجِّهْنِي إِلَى الْقِبْلَةِ ، وَتَوَلَّ أَمْرِي ، وَصَلِّ عَلَيَّ أَوَّلَ النَّاسِ ، وَلَا تُفارِقْنِي حَتّى تُوارِيَنِي فِي رَمْسِي وَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ .**

وأخذ الإمام رأس النبيّ فوضعه في حجره ، ومدّ يده اليمنى تحت حنكه ، وأخذ النبي يعاني آلام الموت وقسوته حتى فاضت روحه العظيمة ، فمسح بها الإمام وجهه(١) . لقد مادت الأرض ، وخبا نور العدل ، وانطفأت تلك الشعلة المشرقة التي أضاءت سماء الدنيا بالعلم والإيمان . . يالمدينة الرسول وآل الرسول ، يالهم من يوم خالد في دنيا الأحزان ، يوم ليس كمثله في الأيام الحالكات ، ووجم المسلمون ، وطاشت أحلامهم ، وهرعت السيّدات صوب دار الرسول وهن يلدمن الوجوه ، قد علت أصواتهنّ بالبكاء ، أمّا أُمّهات المؤمنين فقد وضعن الجلابيب عن رؤوسهنّ ، وهن يلدمن صدورهنّ ، وأمّا نساء الأنصار فقد ذبحت حلوقهنّ من الصياح(٢) .

وكان أعظم أهل البيت حزناً بضعة الرسول وريحانته ، فقد وقعت على الجثمان

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٢٩ ، وتواترت الأخبار أنّ النبيّ توفي ورأسه في حجر عليّ ، جاء ذلك في الطبقات الكبرى : ٢ : ٥١ . مجمع الزوائد : ١ : ٢٩٣ . كنز العمّال : ٤ : ٥٥ . ذخائر العقبى : ٩٤ . الرياض النضرة : ٢ : ٢١٩ . بحار الأنوار : ٢٢ : ٤٧٠ .

(٢) أنساب الأشراف : ١ : ٥٧٤ . إمتاع الأسماع : ٢ : ١٣٧ .

المقدّس وهي تبكي أمرّ البكاء وتقول بذوب روحها : **وا أبَتاهُ !**

وا نبيَّ رَحْمَتاه . اَلْآنَ لَا يَأْتِي الْوَحْيُ . الْآنَ يَنْقَطِعُ عَنّا جَبْرَئِيلُ ، اللّٰهُمَّ أَلْحِقْ رُوحِي بِرُوحِهِ ، وَاشْفَعْنِي بِالنَّظَرِ إِلىٰ وَجْهِهِ ، وَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَهُ وَشَفاعَتَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ »(١) .

وأخذت تجول حول الجثمان العظيم وهي ولهى قد أخرسها الخطب قائلة :

وَا أَبَتاهُ ! إِلَى جَبْرَئِيلَ أَنْعَاهُ .

وَا أَبَتاهُ ! جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ .

وَا أَبَتاهُ ! أَجَابَ رَبّاً دَعَاهُ »(٢) .

ومادت الأرض بالمسلمين وذهلوا حتى عن نفوسهم لعظم الكارثة .

تجهيز الجثمان العظيم

وتولّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تجهيز جثمان أخيه وابن عمّه ، وذلك بأمر منه ، وهو يذرف الدموع ، فغسّل الجسد ، وهو يقول :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ . خَصَّصْتَ حَتّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ ، وَعَمَّمْتَ حَتّىٰ صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً . وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً ، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً(٣) .

---

(١) تاريخ الخميس : ٢ : ١٩٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٢ : ٨٨ . سنن ابن ماجة : ١ : ٥١١ ، وجاء فيه : أنّ حمّاد بن زيد قال : رأيت ثابت راوي الحديث حينما يحدّث به يبكي حتى رَأَيْتُ أَضْلَاعَهُ تَخْتَلِفُ . سنن الدارمي : ١ : ٤١ . تاريخ بغداد : ٦ : ٢٥٩ . صحيح البخاري : ٥ : ١٤٤ . كنز العمّال : ٧ : ٢٦١ .

(٣) نهج البلاغة : ٢ : ٢٥٥ . نهج البلاغة : ٢ : ٢٢٨ ، الحديث ٢٣٥ . بحار الأنوار : ٢٢ : ٥٤٢ ، الحديث ٥٥ .

قال عليه السلام : **وَلَقَدْ وَلِيْتُ غُسْلَهُ - صلى الله عليه وآله - وَالْمَلائِكَةُ أَعْوانِي ، فَضَجَّتِ الدّارُ وَالْأَفْنِيَةُ ، مَلأٌ يَهْبِطُ وَمَلأٌ يَعْرُجُ ، وَما فارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ**(١) **يُصَلُّونَ عَلَيْهِ** .

وكان العباس عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأُسامة يناولان الإمام الماء من وراء الستر(٢) .

وكان الطيب في أثناء الغسل يخرج من الجسد الطاهر ، والإمام يقول : **بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يا رَسُولَ اللهِ ، طِبْتَ حَيّاً وَمَيِّتاً**(٣) ، أمّا الماء الذي غسّل فيه الرسول فهو من بئر يقال لها الغرس ، وكان يشرب منها(٤) ، وبعد الفراغ من الغسل أدرجه الإمام في أكفانه ، ووضعه على السرير .

الصلاة على الجثمان العظيم

وأوّل من صلّى على الجثمان المقدّس هو الله تعالى من فوق عرشه ، ثمّ جبرئيل ، ثمّ إسرافيل ، ثمّ الملائكة زمراً زمراً(٥) ، وهرع المسلمون للصلاة على جثمان نبيّهم ، فقال لهم الإمام : **لَا يَقُومُ عَلَيْهِ إِمامٌ مِنْكُمْ ، هُوَ إِمامُكُمْ حَيّاً وَمَيِّتاً** ، فكانوا يدخلون عليه رسلاً رسلاً فيصلّون عليه صفّاً ليس لهم إمام ، وأمير المؤمنين واقف إلى جانب الجثمان وهو يقول :

«السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ.. اللّهُمَّ إِنّا نَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ ، وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتّىٰ أَعَزَّ اللهُ دِينَهُ وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ ، اللّهُمَّ فَاجْعَلْنا

---

(١) **الهينمة** : الصوت الخفي .

(٢) البداية والنهاية : ٥ : ٢٨٢ . سبل الهدى والرشاد : ١٢ : ٣٢٢ . دلائل الإمامة : ٧ : ٢٤٤ . الطبقات الكبرى : ٢ : ٢١٣ .

(٣) الطبقات الكبرى : ٢ : ٦٣ . سنن ابن ماجة : ١ : ٤٧١ ، الحديث ١٤٦٧ .

(٤) البداية والنهاية : ٥ : ٢٦١ . تاريخ المدينة : ١ : ١٦٢ . السيرة النبويّة / ابن كثير : ٤ : ٥٢٠ .

(٥) حلية الأولياء : ٤ : ٧٧ . مجمع الزوائد : ٩ : ٣٠ . المعجم الكبير : ٣ : ٦٣ .

مِمَّنْ يَتَّبِعُ ما اُنْزِلَ إِلَيْهِ ، وَثَبِّتْنا بَعْدَهُ ، وَاجْمَعْ بَيْنَنا وَبَيْنَهُ » .

وكان المصلّون يقولون : آمين[١] ، وكانت جموع المسلمين تمرّ على الجثمان العظيم فتلقي عليه نظرة الوداع وهي مذهولة ، قد هامت في تيارات من الهواجس ، فقد مات المنقذ ، ومات المعلّم ، ومات من أسّس لهم دولة تدعو إلى تطوّرهم وسعادتهم .

مواراة الجثمان المقدّس

وبعد ما فرغ المسلمون من الصلاة على الجثمان العظيم قام الإمام بحفر القبر ، وبعد الانتهاء منه وارى جثمان أخيه ، وقد وارى أعظم شخصية خلقها الله في الأرض ، وأفضل هبة من الله لعباده .. وقد انهارت قوى الإمام ، ووقف على حافّة القبر ، وهو يروي ترابه من ماء عينيه قائلاً : **إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ ، وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ**[٢] .

وانطوت في ذلك اليوم الخالد في دنيا الأحزان ألوية العدل ، وغاب ذلك النور الذي أضاء سماء الكون وغيّر مجرى حياة الإنسان من واقع مظلم ليس فيه بصيص من النور إلى حياة آمنة مزدهرة بالعدل ، تتلاشى فيها آهات المظلومين وأنين المحرومين وتنبسط فيها خيرات الله على عباده .

فزع أهل البيت عليهم السلام

وفزع أهل البيت عليهم السلام أشدّ ما يكون الفزع وداخلهم خوف رهيب من الأسر

---

(١) كنز العمّال : ٤ : ٥٤ . الطبقات الكبرى : ٢ : ٢٩١ . البداية والنهاية : ٥ : ٢٨٦ .

(٢) نهج البلاغة : ٣ : ٢٢٤ . بحار الأنوار : ٧٩ : ١٣٤ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٩ : ١٩٥ .

القرشيّة الذين وترهم الإمام بسيفه وروى الأرض من دمائهم ، وكانت تتربّص بهم الدوائر ، وتبغي لهم الغوائل ، وقد بات أهل البيت بأطول ليلة ، قد حاطت بهم الهواجس والآلام.

وحكى الإمام الصادق عليه‌السلام مدى ذعرهم وفزعهم بقوله : **لَمّا ماتَ النَّبِيُّ صلى‌الله‌عليه‌وآله باتَ أَهْلُ بَيْتِهِ كَأَنْ لا سَماءَ تُظِلُّهُمْ ، وَلا أَرْضَ تُقِلُّهُمْ ؛ لِأَنَّهُ وَتَرَ الْأَقْرَبَ وَالْأَبْعَدَ**(١).

وقد انصبّت المحن والكوارث على العترة الطاهرة بعد وفاة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فقد انتقمت منهم قريش ، وأبعدتهم عن مراكزهم ، وحالت بينهم وبين ما أراده الله ورسوله لهم ، ولم تمض على انتقاله إلى حظيرة القدس خمسون عاماً وإذا هم بموكب جهير يجوب الأقطار حاملين رؤوس أبنائه على أطراف الرماح ، وبناته سبايا يتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد.

تأبين الإمام عليه‌السلام للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله

ووقف الإمام عليه‌السلام على منبر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو يصوغ من حزنه كلمات وقال :

بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي يا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ ! إِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلّا عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلّا عَنْكَ ، وَإِنَّ الْمُصيبَةَ بِكَ لَأَجَلُّ ، وَإِنَّ ما بَعْدَكَ وَما قَبْلَكَ لَجَلَلٌ ، ثمّ قال :

«ما فاضَ دَمْعِي عِنْدَ نازِلَةٍ ... إِلّا جَعَلْتُكَ لِلْبُكا سَبَبا
فَإِذا ذَكَرْتُكَ سامَحَتْكَ بِهِ ... مُقَلُ الْجُفُونِ فَفاضَ وَانْسَكَبا
إِنّي أُجِلُّ ثَرىً حَلَلْتَ بِهِ ... مِنْ أَنْ أَرىٰ بِسِواهُ مُكْتَئِبا»(٢)

---

(١) الكافي : ١ : ٤٤٥ ، الحديث ١٩

(٢) ربيع الأبرار : ٤ : ١٩٢ . نهج السعادة : ١ : ٣٨.

مؤتمر السقيفة
وحكومة أبي بكر

ليس في دنيا الإسلام كارثة مدمّرة امتحن بها المسلمون امتحاناً عسيراً كحادثة السقيفة، فقد أولدت الأحقاد، وأجّجت نار الفتن بين المسلمين، وفتحت أبواب الطمع والتهالك على السلطة بين الزعماء.

إنّ جميع ما عاناه السادة المعظّمون من أهل البيت عليهم السلام يستند أوّلاً وبالذات إلى مؤتمر السقيفة التي تعمّد أعضاؤها على الغضّ من شأنهم، ومعاملتهم معاملة عادية تتّسم بالكراهة والحقد عليهم، متناسين ما ألزمه الله تعالى بمودّتهم ﴿ **قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[1]، وما حثّ عليه النبيّ صلى الله عليه وآله في لزوم مودّتهم، وتعظيم شأنهم، فلم يرعوا لاهتمام النبي بهم، فأقصوهم عن مركز الحكم وعن جميع ما يتعلّق بالدولة الإسلامية التي أنشأها جدّهم الرسول، وقامت على أكتاف أخيه وباب مدينة علمه، لقد آلت الخلافة الإسلامية ـ مع الأسى والأسف ـ إلى بني أُميّة فأمعنوا في ظلم العترة الطاهرة وإبادتها، وما كارثة كربلاء الخالدة في دنيا الأحزان إلّا من تبعات السقيفة، ورحم الله الإمام كاشف الغطاء إذ يقول:

تـاللهِ مـا كَـرْبلا لَـوْلا سَـقيفَتُهُمْ وَمِثْلُ هٰذا الفَرْعِ ذاكَ الأَصلُ أَنْتَجَهُ

إنّ الأحداث الجسام التي فزع منها المسلمون كإباحة مدينة النبيّ صلى الله عليه وآله، وحرق الكعبة، وتسلّط الأشرار المارقين عن الدين على رقاب المسلمين أمثال بسر

---

(١) الشورى ٤٢: ٢٣.

بن أبي أرطاة، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، وعبيدالله بن زياد وأمثالهم من الخونة المجرمين الذين أمعنوا في ظلم المسلمين، وأغرقوهم في المآسي والخطوب كلّها قد نجمت من السقيفة، وما يرتبط بها من أحداث.

ولسنا في البحث عن السقيفة خاضعين للمؤثّرات المذهبية، نعوذ بالله أن نخضع لغير الحقّ، وأن نكتب ما تمليه علينا العواطف التقليدية، وإنّما نكتب هذه البحوث على ضوء الدراسة العلمية التي اقتبسناها من الوثائق التاريخية، وحلّلنا أبعادها بأمانة وإخلاص، وفيما اعتقد أنّ كلّ من يتأمّل في أحداث السقيفة يؤمن بأنّها غير طبيعيّة وأنّها دبّرت لصرف الخلافة عن أهل البيت.

وعلى أي حال فلا بدّ لنا من وقفة قصيرة للبحث عن هذا الحادث المروع الذي ابتلي فيه المسلمون كأشدّ وأقسى ما يكون الابتلاء، وفيما يلي ذلك:

البواعث لمؤتمر السقيفة

وعقد الأنصار في اليوم الذي توفّي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله مؤتمراً في سقيفة بني ساعدة، ضمّ الجناحين منهم الأوس والخزرج، تداولوا فيه شؤون الخلافة، وأن لا تخرج من حوزتهم، ولا يكونوا تبعاً لزعامة المهاجرين من قريش وتحت نفوذهم.

والشيء الذي يدعو إلى التساؤل لماذا سارعوا إلى عقد مؤتمرهم بهذه السرعة الخاطفة، والرسول لم يغيبه عن عيون القوم مثواه، وأكبر الظنّ أنّ أسباب ذلك تتلخّص بما يلي:

أوّلاً: إنّ الأنصار قد استبان لهم بصورة مكشوفة لا خفاء فيها على تصميم المهاجرين من قريش للاستيلاء على الحكم بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وصرفه عن الإمام أمير المؤمنين، ويدعم ذلك:

١ - إنّ المهاجرين من قريش أعلنوا رفضهم الكامل لبيعة الإمام يوم غدير خمّ، فقد قالوا: لقد حسب محمّد أنّ هذا الأمر قد تمّ لابن عمّه وهيهات أن يتمّ، وتناقلت

حديثهم معظم الأوساط في يثرب.

٢ ـ امتناع قادة المهاجرين من الالتحاق بجيش أُسامة خوفاً أن يتمّ الأمر للإمام بعد وفاة النبيّ ﷺ ويفلت الزمام منهم، ولم يكن يخفى على الأنصار ذلك.

٣ ـ قيام بعض المهاجرين بالحيلولة بين النبيّ وبين ما رآه من الكتابة التي تضمن لأُمّته السعادة في جميع الأحقاب والآباد ـ على حدّ تعبيره ـ، فقد رموه بالهجر، وهو طعن مؤسف في شخصية الرسول ﷺ، فامتنع بأبي وأُمّي من الكتابة التي تهدف إلى النصّ الصريح على خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

ثانياً: إنّ الأنصار كانوا على يقين لا يخامره شكّ أنّ المهاجرين من قريش كانوا حاقدين على الإمام؛ لأنّه قد وترهم، وحصد رؤوس أعلامهم، وقد أعلن ذلك عثمان بن عفّان، فقد قال للإمام: ما أصنع إن كانت قريش لا تحبّكم وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين رجلاً كأنّ وجوههم شنوف الذهب تصرع آنافهم قبل شفاههم[١].

أرأيتم كيف صوّر عثمان لوعة القرشيّين على فتيانهم وفرسانهم الذين أبادهم الإمام في يوم بدر وأبادتهم القوّات المسلّحة في الجيش الإسلامي.. وكانت قريش ترى أنّ الإمام عليه السلام هو الذي وترها، فهي تطالبه بذحلها.

ويقول الكناني من شعراء قريش محرّضاً لها على الوقيعة بالإمام:

فــي كُــلِّ مَـجمَعِ غــايَةٍ أَخـزاكُـمُ ... جَـذَعٌ أَبَـرُّ عَـلى المَـذاكي القُرَّحِ
لِلهِ دَرُّكُــــمُ أَلَــــمّا تَــذْكُـروا ... قَـدْ يَـذكُرُ الحُـرُّ الكَـريمُ وَيَستَحيَ
هــذا ابْـنُ فـاطِمَةَ[٢] الَّـذي أَفْـناكُـمُ ... ذَبْــحاً وَقَــتْلَةَ مَـعْصِهِ لَـمْ تُـذْبَحِ

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٩: ٢٢. بحار الأنوار: ٣١: ٤٦١. تاريخ مدينة دمشق: ٤٢: ٩.

(٢) فاطمة بنت أسد أمّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

أَيْـنَ الكُـهولُ وَأَيْـنَ كُـلُّ دَعـامَةٍ   في المُعْضِلاتِ وَأَينَ زَيْنُ الأَبْطَحِ [١]؟

وروى ابن طاووس عن أبيه أنّه قيل للإمام زين العابدين : ما بال قريش لا تحبّ عليّاً ؟

فأجابهم الإمام : لأنّه أورد أوّلهم النار ، وألزم آخرهم العار [٢].

لقد كان بغض القرشيّين للإمام عليه السلام مكشوفاً وغير خفي على أحد ، وخاف الأنصار من استيلاء المهاجرين على دست الحكم فينزلون بهم الضربات القاصمة لولائهم للإمام عليه السلام ومودّتهم له .

ثالثاً : إنّ الأنصار كانوا العمود الفقري للقوّات الإسلامية ، وقد أشاعوا الحزن والحداد في بيوت القرشيّين ، ومن المؤكّد أنّ القرشيّين كانوا يحقدون أشدّ الحقد على الأنصار ، وأنّهم لا يألون جهداً في الانتقام منهم ، فلذا سارعوا في عقد مؤتمرهم خشية من المهاجرين ، يقول الحباب بن المنذر وهو من مفكّري الأنصار : لكنّنا نخاف أن يليها بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم واخوانهم [٣].

وتحقّق ما تنبأ به الحباب ، فإنّه لم يكد ينتهي حكم الخلفاء القصير الأمد حتى آل الحكم إلى الأمويّين فسعوا جاهدين في إذلالهم والتنكيل بهم . وقد أمعن معاوية في قهرهم وظلمهم ، ولمّا ولي الأمر بعده يزيد جهد على الوقيعة بهم فأباح دماءهم وأموالهم وأعراضهم في واقعة الحرّة المحزنة التي لم يشاهد التاريخ لها نظيراً في فظاعتها وقسوتها .

رابعاً : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله استشفّ من وراء الغيب ما تعانيه الأنصار من بعده

---

(١) أُسد الغابة : ٤ : ٢٠. تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٩. رسائل المرتضى : ٤ : ١٢٠.

(٢) معجم الشيوخ / ابن الاعرابي : ٤ : ١٦. بحار الأنوار : ٢٩ : ٤٨٢ و : ٧٥ : ١٥٨ و ١٥٩. تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٢٩٠.

(٣) بحار الأنوار : ٢٨ : ٣٢٦. السقيفة / محمّد رضا المظفّر : ٩٧. حياة الصحابة : ١ : ٤٢٠.

من جهد وبلاء ، فقال لهم : **سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتّىٰ تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ** ، فخافوا أشدّ ما يكون الخوف ، فلذا بادروا إلى عقد مؤتمرهم ليكونوا بمأمن من الاثرة والجهد .

وفيما أحسب أنّ هذه العوامل هي بعض الأسباب التي أدّت إلى عقد الأنصار مؤتمرهم في سقيفة بني ساعدة .

خطاب سعد

ولمّا عقد الأنصار مؤتمرهم في السقيفة انبرى سعد بن عبادة زعيم الخزرج إلى افتتاح مؤتمرهم ، وكان مريضاً لا يتمكّن أن يجهر بكلامه ، وإنّما كان يقول فيبلغ بعض أقربائه مقالته ، وهذا نصّ كلامه :

يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إنّ محمّداً ﷺ لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمٰن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به إلّا قليل ، ما كانوا يقدرون على منعه ، ولا على إعزاز دينه ، ولا على دفع ضيم حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصّكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والاعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشدّ الناس على عدوّه ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً ، فدانت لرسوله بأسيافكم العرب ، وتوفّاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قرير العين .. استبدّوا بهذا الأمر دون الناس فإنّه لكم دونهم[١] .

وحفل خطاب سعد بالاشادة بإيمان الأنصار وبسالتهم وحمايتهم للإسلام ، وأنّه

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢ : ٢٢٢ . تاريخ الأمم والملوك : ٣ : ٣٠٧ . بحار الأنوار : ٢٨ : ٣٣١ . الإمامة والسياسة : ١ : ٢٢ .

قام على سوقه عبل الذراع مفتول الساعد بفضل جهادهم ونصرتهم له ، فهم الذين حموه أيام غربته ومحنته .. فإذن هم أوْلى بالنبيّ ، وأحقّ بمركزه ومقامه ، فإنّ من كان عليه العزم فهو أوْلى بالغنم .

وكان من بنود هذا الخطاب التنديد بالقرشيّين الذين ناهضوا النبيّ ﷺ وناجزوه الحرب ، حتى اضطرّ إلى الهجرة إلى يثرب ، وما آمن به من قومه إلّا فئة قليلة لم تتمكّن من حمايته والذبّ عنه .. وبذلك فلا حقّ للقرشيّين في الخلافة ولا نصيب لهم بها .

المؤاخذة على سعد

وتناسى سعد في خطابه المصيبة العظمى التي دهمت المسلمين وهي موت سيّد الكائنات ، فلم يشر إليها بقليل ولا بكثير ، ولم يعزّ الأنصار بهذا الخطب المروع ،كما تناسى في خطابه العترة الطاهرة التي هي وديعة النبيّ في اُمّته ، وعديلة القرآن الكريم ، ولم يتعرّض لسيّد المسلمين وإمام المتّقين الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام الذي هو باب مدينة علم النبيّ ، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى ، فقد تجاهله سعد بالمرّة ، ونسى البيعة له يوم غدير خم ، فدعا لنفسه وقومه .

لقد أخطأ سعد إلى حدّ بعيد ، ولا مبرّر له في عقد مؤتمره ، فقد أخلد للاُمّة الفتن والمصاعب ، وألقاها في شرّ عظيم ، ومن ذلك اليوم عانت العترة الطاهرة ألواناً قاسية من الكوارث والخطوب ، وآلت الخلافة إلى الطلقاء وأبنائهم فاتّخذوها مغنماً ووسيلة لنيل شهواتهم ورغباتهم ، ولم يعد للاُمّة أي ظلّ لمصالحها طيلة الحكم الأموي والعباسي .

وعلى أي حال فقد لاقى سعد جزاء عمله ، فإنّه لم يكد يستقرّ الحكم القصير الأمد إلى أبي بكر حتى جهد في ملاحقته ، وفرض الرقابة عليه حتى اضطرّ إلى الهجرة إلى الشام ، فتبعه خالد بن الوليد مع صاحب له ، فكمنا له ليلاً وطعناه وألقياه في

البئر ، وتحدّثوا أنّ الجنّ هي التي قتلته وأوردا على لسانها شعراً تفتخر فيه بقتله وهو :

نَحْنُ قَتَلْنا سَيِّدَ الخَزرَجِ سَعدَ بْنَ عُبادَه   وَرَمَيناهُ بِسَهمَينِ فَلَمْ نُخْطِئْ فُؤادَه

ومن الغريب أنّ دبلوماسية الحكم في ذلك العصر استخدمت الجنّ في أغراضها السياسية ، وقد آمن بذلك البسطاء والسذّج من غير وعي للأهداف السياسية .

ضعف نفسية الأنصار

ولم تكن للأنصار إرادة صلبة ولا عزم ثابت ، فقد منوا بالضعف والوهن والتخاذل ، فكانوا بعد خطاب زعيمهم سعد متخاذلين ، فقد أخذ بعضهم يقول لبعض : فإن أبى المهاجرون من قريش ، وقالوا : نحن المهاجرون وأصحابه الأوّلون وعشيرته وأولياؤه فعلام تنازعون هذا الأمر بعده .

وانبرت طائفة منهم فقالوا : فإنّا نقول : منّا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا أبداً .

وأظهرت هذه المحاورة ضعفهم وانهيار عزائمهم وخوفهم من المهاجرين من قريش ، وثار سعد حينما رأى منهم هذه الروح الانهزامية فقال لهم : هذا أوّل الوهن(١) .

أجل إنّ هذا أوّل الوهن وآخره ، فقد تنازلوا للقرشيّين وشاركوهم في الأمر في حين أنّ الساحة قد خلت من كلّ قرشي ، وقد دلّ هذا على عدم نضوجهم السياسي وعدم عمقهم ، فإنّهم قد أحاطوا مؤتمرهم بكثير من الكتمان ليسبقوا الأحداث ويظفروا بالحكم قبل أن يعلم المهاجرون من قريش ، فقد ظلّوا قابعين في هذا

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢ : ٢٢٢ . بحار الأنوار : ٢٨ : ٣٤٢ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٤٥٦ . الإمامة والسياسة : ١ : ٢٢ .

الصراع الفارغ فأضاعوا عليهم الفرصة ، فقد دهمهم المهاجرون وسيطروا على الوضع ، واستلموا الحكم بمهارة فائقة كما سنبيّن ذلك .

اختلاف الأنصار

وشيء بالغ الأهمّية في انهزام الأنصار وعدم سيطرتهم على الموقف هو ما منوا به من الصراع القبلي بين الأوس والخزرج ، فقد كانت بينهما أحقاد وضغائن منذ عهد بعيد ، وشاعت بينهما الفتن والحروب ، وكان آخر أيام حروبهم هو (يوم بغاث) وكان ذلك قبل أن يهاجر النبيّ صلى الله عليه وآله إليهم ، ولمّا حلّ في ديارهم جهد على نشر المحبّة والوئام فيما بينهم ، ولكن لم تزل الأحقاد كامنة في نفوسهم ، وقد ظهرت بشكل سافر يوم السقيفة ، فإنّه حينما عزموا على مبايعة سعد حقد عليه أُسيد بن حضير زعيم الأوس ، فقال لقومه : لئن ولّيتموها ـ أي الخلافة ـ سعداً عليكم مرّة واحدة لا زالت لهم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر[١] .

وحكى ذلك مدى الحقد المستحكم في نفوس الأوس للخزرج ، فإنّ سعداً إذا ولي الحكم مرّة واحدة تكون له فضيلة على الأوس وتفوّق عليهم ، وفعلاً فقد انبرى مع قومه فبايع أبا بكر ولولاه لما تمّ الأمر له .

ومضافاً إلى الأحقاد بين الأوس والخزرج إنّ بعض أبناء الخزرج الذين هم من أُسرة سعد كانوا يحقدون عليه ، فهذا بشير بن سعد الخزرجي انبرى فبايع أبا بكر .

---

(١) بحار الأنوار : ٢٨ : ٣٠٤ ، الحديث ٦٩ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٤٥٨ . الإمامة والسياسة : ١ : ٢٦ .

فذلكة عمر

وشيء خطير بالغ الأهمّية قام به عمر لتجميد الأوضاع وإيقاف أيّة عملية تؤدّي إلى انتخاب خليفة على المسلمين، فإنّ صاحبه أبا بكر لم يكن في يثرب عند وفاة النبيّ ﷺ وإنّما كان في السنح[١]، فبعث خلفه من يأتي به على وجه السرعة، وانطلق عمر وهو يجوب شوارع المدينة، وقد شهر السيف ويلوّح به وينادي بصوت عالٍ: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله ﷺ قد مات، واللهِ! ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران. والله ليرجعنّ رسول الله ﷺ فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم ممّن أرجفوا بموته.

وجعل لا يمرّ بأحد يقول مات رسول الله إلّا خبطه بسيفه وتهدّده وتوعّده[٢].

وذهل الناس وساورتهم موجات من الشكوك والأوهام، فلا يدرون أيصدّقون مزاعم عمر بحياة النبيّ وأنّه لم يمت وهي من أعزّ أمانيهم، ومن أروع أحلامهم، أم يصدّقون ما عاينوه من جثمان النبيّ ﷺ وهو مسجّى بين أهله لا حراك فيه.

ويستمرّ عمر يجول في الأزقّة والشوارع وهو يبرق ويرعد حتى أزبد شدقاه، وهو يتهدّد بقتل من أرجف بموت النبيّ ويقطع يده، ولم يمض قليل من الوقت حتى أقبل أبو بكر فانطلق معه إلى بيت النبيّ فكشف الرداء عن وجهه فتحقّق من وفاته، فخرج إلى الناس وأخذ يفنّد مزاعم عمر، وخاطب الجماهير التي أخرسها الخطب وذهلها المصاب قائلاً: من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً**

---

(١) **السنح**: محل يبعد عن المدينة بميل، وقيل: هو أحد عواليها، ويبعد عنها بأربعة أميال.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٦: ٢٢٠، نقلاً عن شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٢: ٤٠.

وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١).

وصدق عمر بسرعة مقالته ، وراح يقول : فو الله ما هو إلّا إذا سمعتها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي ، وقد علمت أنّ رسول الله ﷺ قد مات(٢).

نظرة وتأمّل

ولم تكن الحادثة بسيطة وساذجة ، فقد حفّت بالغموض ويواجهها عدّة من التساؤلات وهي :

١ - إنّ القرآن الكريم أعلن بصراحة ووضوح أنّ كلّ إنسان لا بدّ أن يسقى كأس المنية ، سواء أكان نبيّاً أم غيره ، قال تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾(٣).

وقال تعالى في خصوص نبيّه : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ...** ﴾ .

وهذه الآيات الكريمة تتلى في وضح النهار وفي غلس الليل ، فهل خفيت على أبي حفص ولم يسمعها ، وهو يصابح رسول الله ﷺ ويماسيه ، ويسمع منه ما يتلوه من كتاب الله .

٢ - إنّ عمر بالذات كان متفائلاً بموت النبيّ ﷺ ، فقد قال لأسامة بن زيد حينما ولّاه النبيّ على الجيش الذي فيه عمر وأبو بكر : مات رسول الله وأنت عليَّ أمير ، وهذا يدلّ بوضوح على أنّه كان مطمئناً بوفاته ، مضافاً إلى أنّ النبيّ ﷺ في أيامه الأخيرة قبل مرضه وبعده قد نعى نفسه إلى المسلمين .

---

(١) آل عمران ٣ : ١٤٤ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٢ : ٢١٩ . تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٤٤٢ و ٤٤٣ . الدرّ المنثور : ٢ : ٨١ .

(٣) العنكبوت : ٥٧ .

٣ ـ إنّ عمر هو الذي حال بين النبيّ ﷺ وبين ما رامه من الكتابة التي ضمن فيها أن لا تضلّ اُمّته في جميع الأحقاب والآباد ، فقال له : حسبنا كتاب الله ، وقال : إنّ النبيّ يهجر ، ومن المؤكّد انه إنّما قال ذلك بعد الاعتقاد بوفاته ، ولو كان يحتمل أنّ النبيّ لا يموت في مرضه لما قال ذلك .

٤ ـ سكوت عمر وهدوء ثورته الجامحة حينما جاء أبو بكر وأعلن وفاة النبيّ ، فصدّقه ولم يناقشه ، فإنّه يقضي على اتّفاق مسبق بينهما في ذلك .

٥ ـ إنّ حكم عمر بأنّ رسول الله ﷺ سوف يرجع إلى الأرض ويقطع أيدي رجال وأرجلهم ممّن اُرجفوا بموته لا يخلو من مناقشة ، فإنّ تقطيع الأيدي والأرجل والحكم بالاعدام إنّما هو على الذين يخرجون عن دين الله أو يسعون في الأرض فساداً ، والذهاب إلى موت الرسول لا يوجب ذلك قطعاً .

٦ ـ إنّ حكم أبي بكر بأنّ من كان يعبد محمّداً فإنّه قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت لا يخلو من النظر ؛ لأنّه لم يؤثر عن أي أحد من المسلمين أنّه كان يعبد محمّداً واتّخذه ربّاً يعبده من دون الله ، وإنّما أجمع المسلمون على أنّه عبدالله ورسوله اختاره الله لوحيه ، واصطفاه لرسالته . .

هذه بعض الملاحظات التي تحوم حول هذه الحادثة ، وقد ذكرناها في كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه السلام) .

مداهمة الأنصار

وبينما كان الأنصار في سقيفتهم يدبّرون أمرهم ويتداولون الرأي في شؤون الخلافة ويحدّدون موقفهم من المهاجرين من قريش إذ خرج من مؤتمرهم ـ وهم لا يشعرون ـ عويم بن ساعدة الأوسي ، ومعن بن عدي حليف الأنصار ، وكانا من أولياء أبي بكر على عهد رسول الله ﷺ ومن أعضاء حزبه ، كما كانا من ألدّ أعداء سعد ، فانطلقا مسرعين صوب أبي بكر ، وأحاطاه علماً بما جرى ، وفزع أبو بكر

وعمر وسارعا نحو السقيفة ، ومعهما أبو عبيدة بن الجرّاح ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وجماعة من المهاجرين ، فكبسوا الأنصار في ندوتهم ، وذعر الأنصار وأُسقط ما بأيديهم ، وغاض لون سعد وخاف من خروج الأمر منهم ، وذلك لعلمه بضعف الأنصار وتصدّع وحدتهم ، وفعلاً فقد فشل سعد وانهارت جميع مخطّطاته .

خطاب أبي بكر

وبعد أن داهم المهاجرون ندوة الأنصار أراد عمر أن يفتح الحديث معهم فنهره أبو بكر ، وذلك لعلمه بشدّته ، وهي لا تنجح في مثل هذا الموقف الملبّد بالضغائن والأحقاد ، الأمر الذي يستدعي الكلمات الناعمة لكسب الموقف ، فانبرى أبوبكر فخاطب الأنصار وقابلهم ببسمات فيّاضة بالبشر قائلاً :

نحن المهاجرين أوّل الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأمسّهم برسول الله صلى الله عليه وآله .

وأنتم اخواننا في الإسلام ، وشركاؤنا في الدين ، نصرتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأُمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلّا لهذا الحيّ من قريش ، فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين ما فضّلهم الله به ، فقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ـ يعني عمر بن الخطّاب وأبا عبيدة بن الجرّاح[١] ـ .

دراسة وتحليل

ويؤخذ على خطاب أبي بكر كثير من التساؤلات ، كان منها ما يلي :

١ ـ إنّه لم يعن بصورة مطلقة بوفاة النبيّ صلى الله عليه وآله التي هي أعظم كارثة مدمّرة فجع بها المسلمون ، فكان الأجدر به ـ فيما يقول المحقّقون ـ أن يعزّي الحاضرين بوفاة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٣ : ٦٢ . تاريخ مدينة دمشق : ٣٠ : ٢٨٢ ، مع اختلاف في اللفظ.

المنقذ العظيم الذي برّ بدين العرب ودنياهم ، ويدعوهم إلى الالتفاف حول جثمانه حتى يواروه في مقرّه الأخير ، ويعودوا بعد ذلك إلى عقد مؤتمر عامّ يضمّ المسلمين لينتخبوا عن إرادتهم وحرّيتهم من يرضونه خليفة لهم ـ على فرض أنّ رسول الله ﷺ لم يعهد إلى الإمام عليه‌السلام بولاية العهد ـ .

٢ ـ إنّ هذا الخطاب قد حفل أوّلاً وأخيراً بطلب الامرة والسلطان ، وقد عرض أبو بكر على الأنصار التنازل عن الخلافة ومنحها للمهاجرين ومنّاهم عوض ذلك أن تكون لهم الوزارة ، إلّا أنّه من المؤسف لمّا تمّ له الأمر لم يقلّدهم أي منصب من مناصب الدولة وأقصاهم عن جميع مراتب الحكم .

٣ ـ وتجاهل خطاب أبي بكر بالمرّة حقّ الأُسرة النبوية التي هي عدل القرآن ، أو كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وهوى ، حسبما تواترت الأخبار بذلك عن النبيّ ﷺ .

وكان الأجدر بأبي بكر التريّث بالأمر حتى يتمّ تجهيز النبيّ ﷺ ، ويؤخذ رأي عترته الطاهرة في الخلافة حتى تحمل طابعاً شرعياً ، ولا يحدث انقسام بين صفوف المسلمين ، ولا توصم بيعته بأنّها فلتة وقى الله المسلمين شرّها ـ كما يقول عمر ـ ، وعلّق الإمام شرف الدين على إهمال العترة الطاهرة وعدم أخذ رأيها في بيعة أبي بكر بقوله : « لو فرض أن لا نصّ بالخلافة على أحد من آل محمّد ﷺ ، وفرض كونهم غير مبرزين في حسب أو نسب أو أخلاق أو جهاد أو علم وعمل أو ايمان أو إخلاص ، ولم يكن لهم السبق في مضامير كلّ فضل ، بل كانوا كسائر الصحابة ، فهل كان مانع شرعي أو عقلي أو عرفي يمنع من تأجيل عقد البيعة إلى فراغهم من تجهيز رسول الله ﷺ ، ولو بأن يوكل حفظ الأمن إلى القيادة العسكرية مؤقّتاً حتى يستتبّ أمر الخلافة .

أليس هذا المقدار من التريّث كان أرفق بأُولئك المفجوعين وهم وديعة النبيّ

لديهم ، وبقيّته فيهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾(١) ؟

أليس من حقّ هذا الرسول الذي يعزّ عليه عنت الأمّة ، ويحرص على سعادتها وهو الرؤوف بها الرحيم لها أن لا تعنت عترته فلا تفاجأ بمثل ما فوجئت به ، والجرح لمّا يندمل والرسول لما يقبر »(٢) .

٤ ـ إنّ الحجّة التي استند إليها أبو بكر في أحقّية المهاجرين للخلافة هي أنّهم أمسّ الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأقربهم إليه ، وبهذه الحجّة تغلّب على الأنصار ، وممّا لا ريب فيه أنّ هذا الملاك متوفّر في أهل البيت فهم ألصق الناس به ، وأمسّهم رحماً به ، وقد عرض لذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : **احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ** .

وأثر عنه أنّه خاطب أبا بكر بقوله :

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَىٰ مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ ... فَكَيْفَ بِهٰذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَىٰ حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيْرُكَ أَوْلَىٰ بِالنَّبِيِّ وأَقْرَبُ

وقال الإمام عليه السلام في حديث له : **وَاللهِ ! إِنِّي لَأَخُوهُ** ـ أي أخو النبيّ ـ ، **وَوَلِيُّهُ ، وَابْنُ عَمِّهِ ، وَوارِثُ عِلْمِهِ ، فَمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنِّي ؟**

والتفت المتكلّمون من الشيعة إلى هذه الجهة ، يقول **الكميت** في إحدى روائعه :

بِحَقِّكُمُ أَمسَتْ قُرَيْشٌ تَقودُنا ... وَبِالفَذِّ مِنها وَالرَّدِيفَيْنِ نَركَبُ
وَقالوا وَرِثْناها أَبانا وَأُمَّنا ... وَما وَرَّثَتْهُمْ ذاكَ أُمٌّ وَلا أَبُ

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

(٢) النصّ والاجتهاد : ٧ . بحار الأنوار : ٢٩ : ٢٢٥ . الاحتجاج : ١ : ١٣٧ .

يَرَونَ لَهُمْ فَضْلاً عَلَى النّاسِ واجِباً   سِفاهاً وَحَقُّ الهاشِمِيّينَ أَوْجَبُ[١]

وعلى أي حال فقد أعرض القوم عن أهل البيت عامدين أو غير عامدين، فواجهت الأُمّة منذ ذلك اليوم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها أعنف المشاكل وأقسى ألوان الخطوب.

٥ـ إنّ أبا بكر في خطابه رشّح لقيادة الأُمّة عمر وأبا عبيدة بن الجراح، وكان ذلك منه التفاتة بارعة، فقد جرّد نفسه من الأطماع السياسية، وغزا نفوس الأنصار، وملك عواطفهم ومشاعرهم، وقد أجابه عمر بلباقة: لا يكون هذا وأنت حيّ، ما كان أحد ليؤخّرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله ﷺ.

وعلّق بعض المحقّقين على مقالة عمر بقوله: لا نعلم متى أقامه رسول الله ﷺ، أو دلّل عليه، وقد كان مع بقيّة المهاجرين جنوداً في سرية أُسامة، ولو كان قد رشّحه للخلافة لأقامه معه في يثرب، وما أخرجه إلى ساحات الجهاد.

هذه بعض الملاحظات التي تواجه خطاب أبي بكر.

فوز أبي بكر بالحكم

وكسب الموقف أبوبكر في خطابه السالف الذي أثنى فيه على الأنصار، فقد منّاهم بالوزارة، وأزال ما في نفوسهم ما كانوا يحذرونه من استبداد المهاجرين بالحكم، إلّا أنّ بعض الأنصار شجب البيعة لأبي بكر، فردّ عليه عمر بعنف قائلاً: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، واللهِ! لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولّي أمرها من كانت النبوّة فيهم، وولي أُمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى الحجّة الظاهرة والسلطان المبين من ذا ينازعنا سلطان محمّد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته؟ إلّا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورّط

---

(١) الهاشميات: ٣١ ـ ٣٣.

في هلكة .

وليس في هذا الكلام شيء جديد سوى أنّ المهاجرين من قريش أوْلى بالرسول لأنّهم من أُسرته القرشية ، وإذا أخذوا الحكم بهذه الحجّة وسيطروا على الموقف بها فإنّ عليّاً أوْلى لأنّه من صميم الأُسرة النبوية بالاضافة إلى جهاده وجهوده في سبيل الإسلام .

يقول الأُستاذ محمّد الكيلاني : « إنّه احتجّ عليهم ـ أي على آل النبيّ ـ بقرابة المهاجرين للرسول ، ومع ذلك فقد كان واجب العدل يقضي بأن تكون الخلافة لعليّ بن أبي طالب ما دامت القرابة اتّخذت سنداً بحيازة ميراث الرسول ، لقد كان العبّاس أقرب الناس إلى النبيّ ، وكان أحقّ الناس بالخلافة ، ولكنّه تنازل بحقّه هذا لعليّ ، فمن هنا صار لعليّ الحقّ وحده في هذا المنصب »[١] .

وعلى أي حال فإنّ عمر لم ينته من كلامه حتى ردّ عليه الحباب بقوله :

يا معشر الأنصار ، املكوا عليكم أمركم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد ، وتولّوا عليهم هذه الأُمور ، فأنتم ـ والله ! ـ أحقّ بهذا الأمر منهم ؛ فإنّه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين من دان ممّن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكّك ، وعذيقها المرجّب ، أنا شبل في عرينة الأسد والله ! لو شئتم لنعيدنها جذعة ، والله ! لا يرد أحد عليّ ما أقول إلّا حطّمت أنفه بالسيف .. » .

وحفل هذا الخطاب بالعنف والتهديد ، والدعوة إلى الحرب ، وإجلاء المهاجرين ـ الذين لا يتجاوز عددهم الأصابع ـ عن يثرب ، كما حفل بالاعتزاز بنفس المتكلّم والافتخار بشجاعته ، وردّ عليه عمر بغيظ قائلاً : إذاً يقتلك الله .

فردّ عليه الحباب : بل إيّاك يقتل .

---

(١) أثر التشيّع في الأدب العربي : ٥ .

وخاف أبوبكر من تطوّر الأحداث فهدّأ الموقف وبادر أعضاء حزبه بسرعة خاطفة فبايعوه ، وكان أوّل من بايعه عمر وبشير وأسيد بن حضير وعويم بن ساعدة ومعن بن عدي وأبو عبيدة بن الجرّاح وسالم مولى أبي حذيفة ، وكان من أشدّهم حماساً واندفاعاً لبيعته عمر وخالد بن الوليد ، واشتدّ هؤلاء في حمل الناس وإرغامهم على مبايعة أبي بكر ، وجعل عمر يجول ويصول ويدفع الناس دفعاً إلى البيعة ، ومن أبى علاه بدرّته ، وسمع الأنصار يقولون : قتلتم سعداً .

فاندفع يقول بعنف : اقتلوه قتله الله ، فإنّه صاحب فتنة .

وكادوا يقتلون سعداً ، وهو مزمن وجع ، وحمل إلى داره وهو وجع قد انهارت آماله وتبدّدت أحلامه وضاعت أمانيه .

وانتهت البيعة لأبي بكر بهذه السرعة ، فأقبل به حزبه يزفّونه إلى مسجد رسول الله ﷺ زفاف العروس إلى بيت زوجها (١) ، وقد علا منهم التكبير والتهليل ، وكان النبيّ ﷺ مسجّى في فراش الموت لم يغيبه عن عيون القوم مثواه ، وقد انشغل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بتجهيزه ، ولمّا علم ببيعة أبي بكر تمثّل بقول القائل :

وَأصبحَ أَقوامٌ يَقولونَ ما اشْتَهَوا ... وَيَطغَونَ لَمّا غالَ زَيْداً غَوائِلُهْ (٢)

وعلى أي حال لقد تمّت البيعة لأبي بكر بهذه الكيفيّة التي أُهمل فيها رأي الأُسرة النبوية ورأي خيار الصحابة أمثال الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر وأبي ذرّ وسلمان الفارسي وغيرهم من أعلام الإسلام .

هزيمة الأنصار

وأفل نجم الأنصار وانهارت قواهم ، وعراهم الذلّ والهوان ، وقد حكى حسّان بن

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٦ : ٤٠ . بحار الأنوار : ٢٨ : ٣٣٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٦ : ١٤ . بحار الأنوار : ٢٨ : ٣٥٢ .

ثابت خيبة آمالهم بقوله :

نَـصَرنا وَآوَيـنا النَّبيَّ وَلَـمْ نَـخَفْ صُروفَ اللَّيالي وَالبَلاءَ عَلىٰ وَجلِ
بَـذَلْنا لَـهُمْ أَنْـصافَ مـالِ أَكُـفِّنا كَقِسْمَةِ أَيْسارِ الجَزورِ مِنَ الفَضْلِ
فَكـانَ جَـزاءُ الفَـضلِ مِـنّا عَـلَيهِمُ جَهالَتَهُمْ حُمْقاً وَما ذاكَ بِالعَدْلِ(١)

وتعرّضت الأنصار للمحن والخطوب في كثير من عهود الخلفاء والملوك ، وكان ذلك جزاء ما اقترفوه في حقّ العترة الطاهرة ، فهم الذين فتحوا الباب لظلمهم والاعتداء عليهم .

ابتهاج القرشيّين

وابتهجت الأُسر القرشية بحكومة أبي بكر واعتبرته فوزاً ساحقاً لهم ، وقد عبّر عن مدى فرحها وسرورها أبو عبرة القرشي بقوله :

شُكـراً لِـمَنْ هُـوَ لِـلثَّناءِ حَـقيقُ ذَهَبَ اللَّجاجُ وَبُـويعَ الصِّدِّيقُ
مِـنْ بَـعدِ مـا زَلَّتْ بِسَـعْدٍ نَـعْلُهُ وَرَجـا رَجـاءً دونَـهُ العَـيُّوقُ
إنَّ الخِلافَةَ في قُرَيْشٍ مـا لَكُـمْ فـيها وَرَبِّ مُـحَمَّدٍ مَـعْروقُ(٢)

وحكى هذا الشعر سرور القرشيّين البالغ بحرمان الأنصار من الخلافة ، كما أظهر عمرو بن العاص سروره وفرحه ببيعة أبي بكر ، ولم يكن في يثرب وإنّما كان في سفر له ، فلمّا قدم وسمع بالبيعة قال :

أَلا قُـلْ لأَوسٍ إذا جِـئْتَها وَقُلْ ما إذا جِئْتَ لِلخَزْرَجِ

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٦ : ٢٥ .

(٢) أخبار الموفّقيات : ٨٠ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٦ : ٨ . تاريخ مدينة دمشق : ٣٠ : ٢٩٩ .

تَمَنَّيتُمُ المُلْكَ فـي يَـثْرِبٍ　　　فَأُنْزِلَتِ القِدْرُ لَمْ تَنْضَجِ[(١)]

لقد عمّت الفرحة الكبرى جميع القرشيّين ببيعة أبـي بكـر ، فـقد تـخلّصوا مـن حكومة الأنصار وحكومة الأُسرة النبوية .

موقف أبي سفيان

وأعلن أبو سفيان معارضته لحكومة أبي بكر ، ومضى إلى الإمام عليه السلام يحفّزه على فتح باب الحرب على أبي بكر ، ويعده بنصره إن نهض لاسترداد حقّه يقول له : إنّي لأرى عجاجة لا يطفئها إلّا دم يا آل عبدمناف فيم أبوبكر من أُموركم .

أين المستضعفان ؟ أين الأذلّان عليّ والعبّاس ؟ . .

ما بال الأمر في أقلّ حيّ من قريش ؟ ثمّ قال للإمام : ابسط يدك أُبايعك ، فواللهِ! لئن شئت لأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً ، وتمثّل بشعر المتلمّس :

وَلَنْ يُقيمَ عَلىٰ خَسفٍ يُـرادُ بِـهِ　　　إلّا الأَذَلّانِ عَـيْرُ الحَـيِّ وَالوَتَـدُ
هٰـذا عَلَى الخَسفِ مَربوطٌ بِرُمَّتِهِ　　　وَذا يُشَجُّ فَلَا يَـبْكي لَـهُ أَحَـدُ[(٢)]

وقال أبو سفيان :

وَأَضحَتْ قُرَيشٌ بَعدَ عِـزٍّ وَمِـنْعَةٍ　　　خُضوعاً لِتَيْمٍ لَا بِضَربِ القَواضِبِ
فَيا لَهفَ نَفْسي لِلَّذي ظَفِرَتْ بِـهِ　　　وَما زالَ مِنها فـائِزاً بِـالرَّغائِبِ[(٣)]

ولم يكن موقف أبي سفيان متّسماً بالإخلاص والولاء للإمام ، فهو العدوّ الأوّل للإسلام وللمسلمين ، ولم تكن تخفى على الإمام دوافعه ، فلم يستجب له ونـهره

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد ٦ : ٣٠. أعيان الشيعة : ١٠ : ٢٢٤.

(٢) الكامل في التاريخ : ٢ : ٣٢٦. تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٤٤٩.

(٣) الأغاني : ٦ : ٣٥٦.

وأغلظ له في القول قائلاً: **وَاللهِ! ما أَرَدْتَ بِهٰذا إِلَّا الْفِتْنَةَ ، وَإِنَّكَ وَاللهِ طالَما بَغَيْتَ لِلْإِسْلَامِ شَرّاً ، لَاحاجَةَ لَنا فِي نَصِيحَتِكَ**[١].

وراح أبو سفيان يشتدّ لإثارة الفتنة بين المسلمين ، ويدعو الإمام إلى إعلان الثورة على حكومة أبي بكر ، وكان ينشد هذه الأبيات :

بَني هاشِمٍ لَا تُطمِعُوا النّاسَ فيكُمُ ... وَلَا سِيَّما تَيمَ بنَ مُرَّةَ أَوْ عَدِي
فَما الأَمْرُ إِلّا فيكُمُ وَإِلَيكُمُ ... وَلَيسَ لَها إِلّا أَبو حَسَنٍ عَلِي
أَبا حَسَنٍ فَاشْدُدْ بِها كَفَّ حازِمٍ ... فَإِنَّكَ بِالأَمْرِ الَّذي يُرْتَجى عَلِي[٢]

ومن المؤكّد أنّه لم تكن معارضة أبي سفيان ناشئة عن إيمان بحقّ الإمام وإخلاص له ، فإنّه بعيد عن ذلك كلّ البعد ، وإنّما كانت عواطف كاذبة أراد بها الكيد للإسلام والبغي عليه ، وتمزيق صفوف المسلمين ، ولذا أعرض الإمام عنه ولم يعر لكلامه أي اهتمام .

لقد كانت علاقة أبي سفيان بأبي بكر وثيقة للغاية ، فقد روى البخاري أنّ أبا سفيان اجتاز على جماعة من المسلمين فيهم أبوبكر وسلمان وصهيب وبلال فقال بعضهم : أما أخذت سيوف الله من عنق عدوّ الله مأخذها ؟

فزجرهم أبو بكر قائلاً: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيّدهم ؟

ومضى أبوبكر مسرعاً إلى النبيّ ﷺ فأخبره بمقالة القوم في أبي سفيان ، فردّ عليه النبيّ قائلاً: **يا أَبابَكْرٍ ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ اللهَ**[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢ : ٢٢٠. بيت الأحزان : ٦٩.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٦ : ٧. الإرشاد : ١ : ١٩٠. بحار الأنوار : ٢٢ : ٥٢٠. تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٢٦.

(٣) صحيح البخاري : ٢ : ٣٦٢. صحيح مسلم : ٧ : ١٧٣. اختيار معرفة الرجال : ١ : ٢٧.

ودلّت هذه البادرة على الصلة الوثيقة بينهما ، كما كانت الصلة وثيقة للغاية بين أبي سفيان وعمر ، فقد أفرد عمر غرفة في داره فرشها بأحسن فرش ، ولم يسمح لأحد بالدخول إليها إلّا لأبي سفيان ، وقد سئل عن ذلك فقال : هذا شيخ قريش[١].

وعلى أي حال فقد جهد أبوبكر في استمالة أبي سفيان وكسب عواطفه ، فقد استعمله عاملاً على ما بين آخر الحجاز وآخر حدّ من نجران[٢] ، كما عيّن ولده يزيد والياً على الشام ، ولم يعيّن أحداً من أعلام المسلمين والياً في هذا المكان الحسّاس ، ويقول المحلّلون للأخبار إنّ نجم بني أُميّة قد علا في أيام حكومة أبي بكر.

موقف الإمام من بيعة أبي بكر

وأجمع المؤرّخون والرواة على أنّ موقف الإمام تجاه بيعة أبي بكر كان متّسماً بالكراهية وعدم الرضا ، فهو أحقّ بالخلافة وأوْلى بها من غيره ؛ لأنّه ألصق الناس برسول الله ﷺ ، بالاضافة إلى ما يتمتّع به من القابليات الفذّة والمواهب العظيمة التي لم تتوفّر بعضها في غيره ، وما كان يظنّ أنّ القوم يزعجون هذا الأمر ويخرجونه عنه ، فقد بادره عمّه العبّاس قائلاً : يابن أخي ، امدد يدك أُبايعك فيقول الناس عمّ رسول الله ﷺ بايع ابن عمّ رسول الله فلا يختلف عليك اثنان.

فردّ عليه الإمام : **مَنْ يَطْلُبُ هٰذَا الْأَمْرَ غَيْرُنا**[٣].

وعلّق الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي على ذلك بقوله : « نظر العباس في الأمر فرأى ابن أخيه أحقّ منه بوراثة السلطان ؛ لأنه ربيب النبيّ ، وصاحب السابقة في الإسلام ، وصاحب البلاء الحسن الممتاز في المشاهد كلّها ؛ ولأنّ النبيّ كان

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ : ٣٤١.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد ٦ : ١٠ و ١١.

(٣) الإمامة والسياسة : ١ : ٤. بحار الأنوار : ٢٨ : ٢٩٨.

يدعوه أخاه حتى قالت له أمّ أيمن ذات يوم مداعبة : تدعوه أخاك وتزوّجه ابنتك ؟ ولأنّ النبي قال له : **أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلَّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي** ، وقال للمسلمين يوماً آخر : **مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ** ، من أجل ذلك أقبل العبّاس بعد وفاة النبيّ على ابن أخيه وقال له : ابسط يدك أبايعك »(١) .

وعلى أي حال فإنّ الإمام امتنع عن بيعة أبي‌بكر ، وأعلن سخطه البالغ على ذلك في كثير من خطبه وكلماته .

امتناع الإمام عليه السلام من البيعة

وأجمع رأي الجهاز الحاكم على ارغام الإمام وقسره على البيعة لأبي بكر ، فأرسلوا حفنة من الشرطة فأحاطت بداره ، وأمامهم عمر بن الخطّاب وهو يرعد ويبرق ويتهدّد ويتوعّد ، وبيده قبس من نار يريد أن يحرق بيت الوحي ، فخرجت إليه حبيبة الرسول وبضعته الصدّيقة الطاهرة الزهراء فصاحت به : **ما الَّذي جِئْتَ بِهِ يابْنَ الْخَطّاب ؟**

فأجابها بعنف : الذي جئت به أقوى ممّا جاء به أبوك(٢) .

---

(١) عليّ وبنوه : ١٩ . الطبقات الكبرى : ٢ : ٢٤٦ .

(٢) أنساب الأشراف / البلاذري : ٢ : ١٠ .

وقد أجمع المؤرّخون والرواة على تهديد عمر للإمام بإحراق داره ، يقول شاعر النيل **حافظ إبراهيم** :

وَقَــولَةٌ لِـعَلِيٍّ قــالَها عُـمَرٌ ... أَكْـرِمْ بِسـامِعِها أَعْـظِمْ بِمُلْقيها
حَرَّقْتُ دارَكَ لا أُبْـقي عَـلَيْكَ بِـها ... إِنْ لَمْ تُبايِعْ وَبِنْتُ الْمُصْطَفى فيها
ما كانَ غَـيرُ أَبـي حَـفْصٍ بِـقائِلِها ... أَمـامَ فـارِسِ عَـدْنانٍ وَحـاميها

وقد نصّت على ذلك هذه المصادر : الإمامة والسياسة : ١ : ١٢ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٣٤ . تاريخ الأمم والملوك : ٣ : ٢٠٢ . تاريخ أبي الفداء : ١ : ١٥٦ . ⇦

وأخرج الإمام بعنف ، وجيء به إلى أبي بكر ، فصاح به حزبه : بايع أبا بكر.

فأجابهم الإمام بحجّته الدامغة ـ وهو غير وجل من جبروتهم ـ قائلاً :

« أنا أَحَقُّ بِهـٰذَا الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، لا أُبايِعُكُمْ وَأَنْتُمْ أَوْلىٰ بِالْبَيْعَةِ لِي ، أَخَذْتُمْ هـٰذَا الْأَمْرَ مِنَ الْأَنصارِ ، وَاحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِالْقَرابَةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَأْخُذونَهُ مِنّا أَهْلَ الْبَيْت غَصْباً ، أَلَسْتُمْ زَعَمْتُم لِلْأَنْصارِ أَنَّكُمْ أَوْلىٰ بِهـٰذَا الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَمّا كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْكُمْ فَأَعْطَوْكُمُ الْمَقادَةَ وَسَلَّمُوْا إِلَيْكُمُ الْإِمارَةَ ؟ وَأَنا أَحْتَجُّ عَلَيْكُمْ بِمِثْلِ ما احْتَجَجْتُمْ بِهِ عَلَى الْأَنْصارِ ، نَحْنُ أَوْلىٰ بِرَسُولِ اللهِ حَيّاً وَمَيِّتاً فَأَنْصِفُونا إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ وَإِلّا فَبُوءوا بِـالظُّلْمِ وَأَنْـتُمْ تَعْلَمُونَ »(١).

وحكى هذا الخطاب الحجّة التي تغلّب بها المهاجرون من قريش على الأنصار ، وهي قربهم من النبيّ ﷺ ، فإنّها متوفّرة فيه على أكمل الصور والوجوه ، فهو ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وأبو سبطيه ، وختنه على ابنته ، ولم يجد هذا المنطق الفيّاض مع القوم ، فاندفع عمر بعنف قائلاً : بايع .

فقال عليه‌السلام : **وَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟**

قال : واللهِ ! الذي لا إله إلّا هو نضرب عنقك .

ونظر الإمام فإذا ليس له معين ولم يكن يأوي إلى ركن شديد ، فقال بصوت حزين النبرات : **إِذَنْ تَقْتُلُونَ عَبْداً للهِ وَأَخا رَسُولِهِ** .

واندفع ابن الخطّاب بثورة قائلاً : أمّا عبداً لله فنعم ، وأمّا أخو رسوله فلا.

ونسي عمر أنّ الإمام أخو النبيّ وباب مدينة علمه ، والتفت إلى أبي بكر يحثّه

⇐ تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٠٥ . الأموال / أبو عبيد : ١٣١ . مروج الذهب : ١ : ٤١٤ . الإمام عليّ بن أبي طالب / عبدالفتاح عبدالمقصود : ١ : ٢١٣ . أعلام النساء : ٣ : ٢٠٥ .

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ٢٨ . شرح نهج البلاغة : ٦ : ١١ . الاحتجاج : ١ : ٩٥ .

على الوقيعة به قائلاً: ألا تأمر فيه بأمرك؟

وخاف أبوبكر من الفتنة فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جانبه.

وانبرى أبو عبيدة بن الجرّاح، وهو من أبرز أنصار أبي بكر فخاطب الإمام قائلاً: يابن عمّ، إنّك حدث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلّا أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به، فسلّم الأمر لأبي‌بكر، فإنّك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق، وبه حقيق في فضلك ودينك وعلمك وسابقتك ونسبك وصهرك.

وأثارت هذه المخادعة كوامن الألم والأسى في نفس الإمام فاندفع يخاطب المهاجرين ويعظهم قائلاً:

«اللهَ اللهَ يا مَعْشَرَ الْمُهاجِرينَ لَا تُخرِجُوا سُلْطانَ مُحَمَّدٍ فِي الْعَرَبِ عَنْ دارِهِ، وَقَعْرِ بَيْتِهِ إِلىٰ دُورِكُمْ وَقُعُورِ بِيُوتِكُمْ، وَلَا تَدْفَعُوا أَهْلَهُ عَنْ مَقامِهِ فِي النّاسِ وَحَقِّهُ.. فَوَاللهِ يا مَعْشَرَ الْمُهاجِرِينَ! لَنَحْنُ أَحَقُّ النّاسِ بِهِ ـ لِأَنّا أَهْلُ الْبَيْتِ ـ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِهٰذا الْأَمْرِ مِنْكُمْ، ما كانَ فِينا إِلَّا الْقارِئُ لِكِتابِ اللهِ، الْفَقِيهُ فِي دِينِ اللهِ، الْعالِمُ بِسُنَنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، الْمُضْطَلِعُ بِأَمْرِ الرَّعِيَّةِ، الدّافِعُ عَنْهُمُ الْأُمُورَ السَّيِّئَةَ، الْقاسِمُ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ، وَاللهِ! إِنَّهُ لَفِينا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ فَتَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَتَزْدادُوا مِنَ الْحَقِّ بُعْداً»[١].

وحفل كلام الإمام عليه السلام بما يتمتّع به أهل البيت من الصفات القيادية من الفقه بدين الله والعلم بسنن رسول الله، والاضطلاع بأمور الرعية، وغير ذلك من الصفات التي يعتبرها الإسلام فيمن يتولّى شؤون الحكم، وهي لم تتوفر إلّا في أهل البيت عليهم السلام.

احتجاجات صارمة

وتخلّفت الأسرة النبوية ومن يتّصل بها من أعلام الإسلام عن بيعة أبي‌بكر،

(١) بحار الأنوار: ٢٨: ٣٤٨، نقلاً عن الإمامة والسياسة: ١: ٢٩. الغدير: ٧: ٨٠.

واحتجّت عليه بحجج دامغة بأنّ آل النبيّ ﷺ أوْلى بمقامه، وأحقّ بمركزه منه، ونعرض لها فيما يلي:

١ ـ احتجاج الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

واحتجّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بكوكبة من الاحتجاجات الصارمة على أبي‌بكر، وقد ذكرنا احتجاجاته عليه وعلى غيره في جزء خاصّ من هذه الموسوعة.

٢ ـ الزهراء عليها السلام

احتجّت سيّدة نساء العالمين على أبي بكر وغيره بحجج بالغة على أحقّية الإمام للخلافة، وندّدت بما اقترفه القوم من إقصاء الإمام عنها، وأنّ الأمّة من جرّاء ذلك ستواجه أعنف المشاكل وأقسى ألوان الخطوب، قالت سلام الله عليها:

وَيْحَهُمْ أَنَّىٰ زَحْزَحُوها ـ أي الخلافة ـ **عَنْ رَواسِي الرِّسالَةِ، وَقَواعِدِ النُّبُوَّةِ، وَمَهْبِطِ الرُّوحِ الْأَمينِ! وَالطَّبِنِ[1] بِأُمُورِ الدُّنْيا وَالدِّينِ، أَلَا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبينُ، وَمَا الَّذي نَقَمُوا مِنْ أَبِي الْحَسَنِ؟ نَقَمُوا وَاللهِ! مِنْهُ نَكيرَ سَيْفِهِ، وَقِلَّةَ مُبالَاتِهِ لِحَتْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ، وَنَكالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَه فِي ذَاتِ اللهِ.**

وَتَاللهِ لَوْ مَالُوا عَنِ الْمَحَجَّةِ اللَّائِحَةِ، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ، لَرَدَّهُمْ إِلَيْهَا، وَحَمَلَهُمْ عَلَيْهَا، ولَسَارَ بِهِمْ سَيْراً سُجُحاً[2]، لَا يُكْلَمُ خُشَاشُهُ[3]، وَلَا يَكِلُّ سَائِرُهُ، وَلَا يَمَلُّ رَاكِبُهُ، وَلَأَوْرَدَهُمْ مَنْهلاً نَمِيراً صَافِياً رَوِيّاً، تَطْفَحُ ضِفَّتَاهُ[4]، وَلَا يَتَرَنَّقُ

---

(١) **الطبن**: الخبير.

(٢) أي سهلاً.

(٣) **الخشاش**: عود يجعل في أنف البعير يشدّ به الزمام.

(٤) **تطفح ضفّتاه**: أي يمتلئ ويفيض منه الماء.

جَانِبَاهُ ، وَلَأَصْدَرَهُمْ بِطَاناً [١] ، وَنَصَحَ لَهُمْ سِرّاً وَإِعْلَاناً .

أَلَا هَلُمَّ فَاسْمَعْ ، وما عِشْتَ أراكَ الدَّهرُ عَجَباً !

أَمَا لَعَمْرِي ، لَقَدْ لَقِحَتْ ، فَنَظِرَةٌ رَيْثَمَا تُنْتِجُ ، ثُمَّ احْتَلِبُوا مِلْءَ الْقَعْبِ دماً عَبِيطاً ، وذُعَافاً [٢] مُبِيداً ، هُنَالِكَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ، ويَعْرِفُ التَّالُونَ غِبَّ مَا أَسَّسَ الْأَوَّلُونَ . ثُمَّ طِيبُوا عَنْ دُنْيَاكُمْ أَنْفُساً ، وَاطْمَئِنُّوا لِلْفِتْنَةِ جَأْشاً ، وأَبْشِرُوا بسَيفٍ صَارِمٍ ، وَسَطْوَةِ مُعْتَدٍ غَاشِمٍ ، وَبَهْرَجٍ شَامِلٍ ، وَاسْتِبْدادٍ مِنَ الظَّالِمِينَ ، يَدَعُ فَيْئَكُمْ زَهِيداً ، وَجَمْعَكُمْ حَصِيداً .

فَيَا حَسْرَةً لَكُمْ ، وَأَنَّىٰ بِكُمْ ، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [٣] .

اِسْتَبْدَلُوا وَاللهِ ! الذُّنَابىٰ بِالْقَوَادِمِ ، وَالْعَجُزَ بِالْكَاهِلِ [٤] ، فَرَغْماً لِمَعَاطِسِ قَوْمٍ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٥] ، وَيْحَهُمْ ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [٦] ؟ [٧] .

محتويات الاحتجاج

وشجبت بضعة الرسول صلى الله عليه وآله في خطابها على نساء الأنصار والمهاجرين بيعة

---

(١) **أصدرهم بطاناً** : أي أشبعهم وأفاض عليهم بالخير.

(٢) **الذعاف** : الطعام الذي يجعل فيه السم.

(٣) هود ١١ : ٢٨.

(٤) **الكاهل** : سند القوم ومعتمدهم.

(٥) البقرة ٢ : ١٢.

(٦) يونس ١٠ : ٣٥.

(٧) بلاغات النساء : ٢٠. أعلام النساء : ٣ : ٢١٩ و ٢٢٠. شرح نهج البلاغة : ١٦ : ٢٣٣ و ٢٣٤. الاحتجاج : ١ : ١٤٧ ـ ١٤٩.

أبي بكر، وأنّهم قد جافوا بها عترة الرسول ﷺ، وقد حفل خطابها الذائع البليغ بما يلي:

أوّلاً: إنّها أدلت بالأسباب التي من أجلها أعرض القوم عن بيعة الامام، وهي:

١ ـ نكير سيف الإمام الذي حصد به رؤوس المشركين من قريش، ذلك السيف الذي كان معجزة للنبيّ ﷺ، وقد أولد في نفوس القوم حقداً على الإمام وكراهية له.

٢ ـ شدّة وطأة الإمام، فإنّه لم يصانع طيلة حياته، ولم يهب أحداً، ولم تأخذه في الله تعالى لومة لائم، الأمر الذي ملأ قلوب أعداء الله عليه غيظاً وحنقاً.

٣ ـ تنمّره في ذات الله، فقد وهب حياته لله تعالى، وتنكّر للقريب والبعيد إرضاءً لله وتفانياً في طاعته.. هذه هي الأسباب التي أدّت إلى إعراض القوم عن بيعة الإمام عليه السلام.

ثانياً: إنّ الأمّة لو تابعت الإمام وأخذت بهديه لظفرت بما يلي:

١ ـ أن يسير فيهم بسيرة العدل الخالص، والحقّ المحض، ويحكم فيهم بما أنزل الله.

٢ ـ إنّه يوردهم منهلاً عذباً ويقودهم إلى شاطئ الأمن والسلام.

٣ ـ إنّه ينصح لهم في السرّ والعلانية، ويهديهم إلى سواء السبيل.

٤ ـ إنّ الإمام لو تقلّد زمام الحكم لما تحلّى من دنياهم بطائل، وما استأثر من أموالهم بشيء من متع الحياة، وحينما صارت إليه الخلافة اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعامه بقرصيه، وما وضع لبنة على لبنة، وعاش عيشة الفقراء البائسين، وهو القائل: **أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هٰذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ وَجُشُوبَةِ الْعَيْشِ!**

٥ ـ إنّ الإمام لو تقلّد الحكم بعد النبيّ ﷺ لانتشرت خيرات الله وبركاته وعمّت جميع أنحاء الأرض، ولأكل الناس من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، ولكن

المسلمين حرموا أنفسهم وحرموا الأجيال الآتية من بعدهم، فقد استبدلوا الذنابى بالقوادم، والعجز بالكاهل، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ثالثاً: إنّ بضعة الرسول صلى الله عليه وآله استشفّت من وراء الغيب ما تعانيه الأُمّة من الأزمات والخطوب من جرّاء ما اقترفه القوم من إقصاء الإمام عليه السلام عن الحكم وهي:

١ ـ انتشار الفتن بين المسلمين وتفلّل وحدتهم.

٢ ـ تنكيل السلطات الحاكمة بهم.

٣ ـ استبداد الظالمين بشؤونهم.

وقد تحقّق كلّ ذلك على مسرح الحياة الإسلامية حينما ولي معاوية على المسلمين فأمعن في ظلمهم وإرهاقهم، وسلّط عليهم جلاوزته الجلّادين أمثال سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه، وبسر بن أبي أرطاة وأمثالهم من الجناة الذين لا يرجون لله وقاراً، فنشروا الخوف وأخذوا الناس بالظنّة والتهمة، خصوصاً في عهد زياد؛ فقد سمل الأعين، واستخرج قلوب المسلمين، وصلب على جذوع النخل، أبعده الله عن رحمته.

وولّى معاوية من بعده ابنه يزيد صاحب الاحداث والموبقات، فاقترف من الجرائم ما لا توصف لمرارتها وقسوتها، وأخلد للمسلمين الفتن والمصائب وذلك بإبادته لعترة رسول الله صلى الله عليه وآله في صعيد كربلاء، مضافاً إلى ما اقترفه في المدينة المنوّرة من الآثام، فقد أباحها لجنده وحمل أهلها على البيعة له على أنّهم عبيد له، كما هدم الكعبة وأحرقها بالنار.

استنجاد الزهراء عليها السلام ببني قيلة

واستنجدت بضعة الرسول وريحانته ببني قيلة، وهم القوّة الضاربة من الأنصار في الجيش الإسلامي فقالت لهم:

«ايهاً بَنِي قَيلَةَ ، أأُهْضَمُ تُراثَ أَبِي وَأَنْتُمْ بِمَرْأَىً مِنِّي وَمَسْمَعٍ وَمُنْتَدىً وَمَجْمَعٍ ، تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ ، وَتَشْمَلُكُمُ الْخُبْرَةُ ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْأَداةِ وَالْقُوَّةِ ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ ، تُوَافِيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلَا تُجِيبُونَ ، وَتَأْتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلَا تُغِيثُونَ ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفاحِ ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ ، وَالنُّخْبَةُ الَّتِي انْتُخِبَتْ ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتِيرَتْ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ .

قَاتَلْتُمُ الْعَرَبَ ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ ، وَنَاطَحْتُمُ الْأُمَمَ ، وَكَافَحْتُمُ الْبُهَمَ ، لا نَبْرَحُ أَوْ تَبْرَحُونَ ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ ، حَتَّىٰ إِذَا دَارَتْ بِنَا رَحَى الْإِسْلَامِ ، وَدَرَّ حَلَبُ الْأَيَّامِ ، وَخَضَعَتْ نُعَرَةُ الشِّرْكِ ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الْإِفْكِ ، وَخَمَدَتْ نِيرانُ الْكُفْرِ ، وَهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرَجِ ، وَاسْتَوْسَقَ نِظَامُ الدِّينِ ، فَأَنَّىٰ حِرْتُمْ بَعْدَ الْبَيَانِ ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الْإِعْلَانِ ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الْإِقْدَامِ ، وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ؟[١] .

وأثارت حفائظ النفوس ، وألهبت نار الثورة في النفوس ، إلّا أنّ أبابكر استقبلها باحترام بالغ ، فأخمد الثورة وشلّ حركتها .

٣ ـ الإمام الحسن عليه السلام

كان الإمام الحسن عليه السلام لا يتجاوز عمره سبع سنين حينما ولّي أبوبكر ، فقد انطلق إلى مسجد جدّه فرأى أبابكر على المنبر ، فوجّه إليه لاذع القول قائلاً : **انْزِلْ عَنْ مِنْبَرِ أَبِي وَاذْهَبْ إِلَىٰ مِنْبَرِ أَبِيكَ** .

فبهت أبوبكر وأخذته الحيرة والدهشة ، واستردّ خاطره فقال له بناعم القول : صدقت ، والله ! إنّه لمنبر أبيك لا منبر أبي[٢] .

---

(١) بلاغات النساء : ١٨ . الاحتجاج : ١ : ١٤٠ . بحار الأنوار : ٢٩ : ٢٢٨ و ٢٢٩ . أعلام النساء : ٣ : ٢١٤ .

(٢) الرياض النضرة : ١ : ١٣٩ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ١٧ . مقتل الحسين ⇦

إنّ احتجاج الإمام الحسن عليه السلام وهو في غضون الصبا انبعث عن طموح وعبقرية وذكاء، كان يرى المنبر يرقاه جدّه الرسول صلى الله عليه وآله، وهو لا يجد أحداً خليقاً بأن يرقاه سوى أبيه سيّد الأوصياء.

٤ ـ سلمان الفارسي رضي الله عنه

وهو من أكثر الصحابة وعياً للإسلام وإحاطة بأحكامه ومبادئه، وقد عنى به الرسول فألحقه بأُسرته، فقال: **سَلْمانُ مِنّا أَهْلَ الْبَيْتِ**»، «**لَا تَقُولُوا سَلْمانُ الْفارِسِيُّ وَلٰكِنْ قُولُوا سَلْمانُ الْمُحَمَّدِي**، وحرّم عليه الصدقة كما حرّمها على أهل بيته، فقال: **الصَّدَقَةُ حَرامٌ عَلىٰ سَلْمانَ**.

ولمّا رأى هذا الصحابي العظيم الخلافة قد انتزعت من العترة الطاهرة اندفع إلى الانكار على أبي بكر فقال له: يا أبا بكر، إلى من تسند أمرك إذا نزل بك ما لا تعرفه، وإلى من تفزع إذا سئلت عمّا لا تعلمه، وما عذرك في تقدّمك على من هو أعلم منك، وأقرب إلى رسول الله، وأعلم بتأويل كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه، ومن قدّمه النبيّ في حياته وأوصاكم به عند وفاته، فنبذتم قوله، وتناسيتم وصيّته، وأخلفتم الوعد، ونقضتم العهد، وحللتم العقد الذي كان عقده عليكم من النفوذ تحت راية أُسامة[(١)].

وفي هذا الاحتجاج دعوة إلى الحقّ، ودعوة إلى جمع الكلمة، ووحدة الصفّ،

⇦ / الخوارزمي: ١: ٩٣. مناقب آل أبي طالب: ٢: ١٧٢.

وفي الإصابة: ٢: ١٥: «إنّ هذا الاحتجاج كان من الإمام الحسين عليه السلام».

وجاء في الصواعق المحرقة: ١٠٥، وفي إسعاف الراغبين (المطبوع على هامش نور الأبصار): ١٢٥: «أنّ الحسن عليه السلام قال ذلك لأبي بكر، ووقع للحسين عليه السلام مثل ذلك مع عمر بن الخطّاب».

(١) الاحتجاج: ١: ٤٢. بحار الأنوار: ٢٨: ١٩٤ و ١٩٥.

وتسليم الأمر إلى أعلم من في الأمّة وهو الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام.

٥ ـ عمّار بن ياسر رضي‌الله‌عنه

وعمّار بن ياسر من المساهمين في بناء صرح الإسلام، ومن المعذّبين في سبيل الله، وكان أثيراً عند النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، ومن خلّص أصحابه، ولمّا آلت الخلافة إلى أبي بكر اندفع إلى الانكار عليه وعلى القرشيّين قائلاً: يا معاشر قريش، و يا معاشر المسلمين، إن كنتم علمتم وإلّا فاعلموا أنّ أهل بيت نبيّكم أوْلى به، وأحقّ بإرثه، وأقوم بأُمور الدين، وآمن على المؤمنين، وأحفظ لملّته، وأنصح لأُمّته، فمروا صاحبكم فليردّ الحقّ إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم، ويضعف أمركم، ويظهر شقاقكم، وتعظم الفتنة بكم، وتختلفون فيما بينكم، ويطمع فيكم عدوّكم، فقد علمتم أنّ بني هاشم أوْلى بهذا الأمر منكم، وعليّ أقرب منكم إلى نبيّكم، وهو من بينهم وليّكم بعهد الله ورسوله، وفرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد حال عندما سدّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله أبوابكم التي كانت إلى المسجد كلّها غير بابه، وإيثاره إيّاه بكريمته فاطمة، دون سائر من خطبها إليه منكم، وقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «**أَنا مَدِينَةُ الْحِكْمَةِ وَعَلِيٌّ بابُها، فَمَنْ أَرادَ الْحِكْمَةَ فَلْيأْتِ الْبابَ**».

وأنّكم جميعاً مضطرّون فيما أشكل عليكم من أُمور دينكم إليه، وهو مستغنٍ عن كلّ أحد منكم، إلى ما له من السوابق التي ليست لأفضلكم عند نفسه، فما بالكم تحيدون عنه، وتبتزّون عليّاً على حقّه، وتؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، بئس للظالمين بدلاً، أعطوه ما جعله الله له، ولا تولّوا عنه مدبرين، ولا ترتدّوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين(١).

وحفل احتجاج عمّار بالدعوة إلى صالح الأمّة وإبعادها من مظانّ الفتن والأهواء،

---

(١) الاحتجاج: ١: ٤٣. بحار الأنوار: ٢٨: ١٩٨ و ١٩٩، الحديث ٦.

كما دعاها إلى تسليم القيادة العامّة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو باب مدينة علم النبيّ صلى الله عليه وآله، والعالم بما تحتاج إليه الأُمّة في جميع مجالاتها.

٦ ـ أبو ذرّ رضي الله عنه

أمّا أبو ذرّ فهو صوت العدل والحقّ في الإسلام الذي استوعب فكره تعاليم الدين وأحكامه الهادفة إلى بسط العدالة الاجتماعية في الأرض، وهو في طليعة الثائرين والناقمين على الحكم الأموي الذي اتّخذ مال الله دولاً وعباده خولاً، وقد نقم هذا الصحابي الجليل على القوم لإقصائهم الإمام عن الخلافة، فقال مخاطباً القرشيّين والأنصار: أمّا بعد يا معشر المهاجرين والأنصار، لقد علمتم وعلم خياركم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**الْأَمْرُ لِعَلِيٍّ بَعْدِي ثُمَّ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، ثُمَّ فِي أَهْلِ بَيْتِي مِنْ وُلْدِ الْحُسَيْنِ**»، فطرحتم قول نبيّكم وتناسيتم ما أوعز إليكم، واتّبعتم الدنيا، وتركتم نعيم الآخرة الباقية التي لا يهدم بنيانها، ولا يزول نعيمها، ولا يحزن أهلها، ولا يموت سكانها، وكذلك الأُمم التي كفرت بعد أنبيائها بدّلت وغيّرت، حذو القذّة بالقذّة، والنعل بالنعل، فعمّا قليل تذوقون وبال أمركم، وما الله بظلّام للعبيد..(١).

وحكى خطاب الثائر العظيم ما ستعانيه الأُمّة في مستقبلها من الويلات من جرّاء فصل الخلافة عن بيت النبوّة ومركز الدعوة الإسلامية، وتحقّق ذلك على مسرح الحياة الإسلامية، فقد سفكت الدماء، وتهالك الأشرار من بني أُميّة على الحكم، فعاثوا فساداً في الأرض حينما استولوا عليه، فأنفقوا أموال المسلمين على رغباتهم وشهواتهم، ونكلوا أشد التنكيل وأقساه بعترة النبيّ صلى الله عليه وآله.

٧ ـ المقداد رضي الله عنه

أمّا المقداد فهو من أعلام الإسلام، ومن خلّص أصحاب الإمام عليه السلام، ومن عيون

---

(١) الخصال: ٤٣٢. الاحتجاج: ١: ١٠٠ و ١٠١. بحار الأنوار: ٢٨: ١٩٦.

أصحابه ، وقد نقم على أبوبكر وخاطبه بعنف قائلاً: يا أبا بكر ، ارجع عن ظلمك ، وتب إلى ربّك ، وسلّم الأمر إلى صاحبه الذي هو أوْلى به منك ، فقد علمت ما عقده رسول الله ﷺ في عنقك من بيعته [١] ، وألزمك بالنفوذ تحت راية أُسامة بن زيد ، وهو مولاه ، ونبّه على بطلان وجوب هذا الأمر لك ولمن عضدك عليه ، بضمّه لكما إلى علم النفاق ومعدن الشنآن والشقاق عمرو بن العاص الذي أنزل الله فيه على نبيّه ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ [٢].

وأضاف بعد ذلك قائلاً: اتّق الله ، وبادر بالاستقالة قبل فوتها ، فإنّ ذلك أسلم لك في حياتك وبعد وفاتك ، ولا تركن إلى دنياك ، ولا تغرّنك قريش وغيرها ، فعن قليل تضمحلّ عنك دنياك ، ثمّ تصير إلى ربّك فيجزيك بعملك ، وقد علمت وتيقّنت أنّ عليّ بن أبي طالب هو صاحب الأمر بعد رسول الله ﷺ ، فسلّمه إليه ما جعله الله له ، فإنّه أتمّ لسترك ، وأخف لوزرك ، فقد واللهِ نصحت لك إن قبلت نصيحتي وإلى الله ترجع الأمور [٣].

ولو أنّ القوم استجابوا لنصحه ، وسلّموا الأمر للإمام لما ابتلي المسلمون بالأزمات والكوارث.

٨ ـ عتبة بن أبي لهب

ومن الناقمين على إقصاء الإمام عن الخلافة عتبة بن أبي لهب ، وقد عبّر عن شعوره بهذه الأبيات :

---

(١) يشير بذلك إلى حديث الغدير الذي بايع فيه المسلمون الإمام بالإمرة والخلافة ، والحديث مجمع عليه.

(٢) الكوثر ١٠٨ : ٣.

(٣) الاحتجاج : ١ : ١٠١. بحار الأنوار : ٢٨ : ١٩٦ و ١٩٧.

ما كُنتُ أَحسَبُ أَنَّ الأَمرَ مُنصَرِفٌ عَنْ هاشِمٍ ثُمَّ مِنهُمْ عَنْ أَبي حَسَنِ
عَنْ أَوَّلِ النّاسِ إِيماناً وَسابِقَةً وَاعْلَمِ النّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ
وَآخِرِ النّاسِ عَهْداً بِالنَّبِيِّ وَمَنْ جِبريلُ عَونٌ لَهُ في الْغُسْلِ وَالْكَفَنِ
مَنْ فيهِ ما فيهِمُ لا يَمْتَرونَ بِهِ وَلَيسَ في الْقَوْمِ ما فيهِ مِنَ الْحَسَنِ(١)

وحكت هذه الأبيات عن أساه ولوعته عن عدم تقلّد الإمام للخلافة الذي هو أوّل الناس إيماناً برسول الله ﷺ وأعلمهم بالكتاب والسنّة، وآخرهم عهداً بالنبيّ ﷺ، وأنّ الصفات الكريمة المتوفّرة فيه لا توجد عند غيره، فكيف أقصي هذا العملاق العظيم عن الخلافة.

٩ - أبو أيوب الأنصاري

أمّا أبو أيّوب الأنصاري فهو من ألمع أصحاب الإمام عليه السلام، وقد شهد معه مشاهده كلّها، وقد آمن بحقّه، وأنّه أولى بالخلافة من غيره(٢).

وقد أنبرى للإنكار على أبي بكر فقال له:

اتّقوا الله عباد الله في أهل بيت نبيّكم، وردّوا إليهم حقّهم الذي جعله الله لهم، فقد سمعتم مثل ما سمع اخواننا في مقام بعد مقام لنبيّنا ﷺ، ومجلس بعد مجلس يقول: **«أَهْلُ بَيْتِي أَئِمَّتُكُمْ بَعْدِي»** ويومئ إلى عليّ، ويقول: **وَهذا أَميرُ الْبَرَرَةِ، وَقاتِلُ الْكَفَرَةِ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ، مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ، فَتُوبُوا إِلَى اللهِ مِنْ ظُلْمِكُم إِيّاهُ، إِنَّ اللهَ تَوّابٌ رَحِيمٌ، وَلا تَتَوَلَّوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ**(٣).

وفي هذا الخطاب دعوة إلى الحقّ، ووئام المسلمين، وجمع كلمتهم، ووحدة

---

(١) تاريخ أبي الفداء: ١: ١٥٩. تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٢٤. الجمل: ٥٨.
(٢) الكنى والألقاب: ١: ١٣. اختيار معرفة الرجال: ١: ١٦٨.
(٣) الكنى والألقاب: ١: ١٣. الاحتجاج: ١: ١٠٣. بحار الأنوار: ٢٨: ٢٠١، الحديث ١٢.

صفّهم إلّا أنّ القوم أعاروا خطابه أُذناً صمّاء.

١٠ ـ أبيّ بن كعب

وأبيّ بن كعب الأنصاري سيّد القرّاء، ومن أصحاب العقبة الثانية، شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلّها، وكان عمر يسمّيه سيّد المسلمين(١)، وقد أنكر على أبي بكر تقمّصه للخلافة، وقال له: يا أبا بكر، لا تجحد حقّاً جعله الله لغيرك، ولا تكن أوّل من عصى رسول الله ﷺ في وصيّه وصفيّه، وصدف عنه أمره، اردد الحقّ إلى أهله تسلم، ولا تتماد في غيّك فتندم، وبادر الإنابة يخفّ وزرك، ولا تختصّ بهذا الأمر الذي لم يجعله الله لك، فتلقى وبال عملك، فعن قليل تفارق ما أنت فيه، وتصير إلى ربّك فيسألك عمّا جنيت، وما ربّك بظلّام للعبيد(٢).

وفي هذا الخطاب الإشادة بمركز الإمام عليه السلام، وأنّه أحقّ بالخلافة من غيره.

١١ ـ النعمان بن عجلان

والنعمان بن عجلان لسان الأنصار وشاعرهم، وهو من الناقمين على أبيبكر، وقد خاطب القوم بهذه الأبيات:

وَقُلتُمْ حَرامٌ نَصْبُ سَعدٍ وَنَصْبُكُمْ ... عَتيقَ بْنَ عُثمانٍ حَلالٌ أَبا بَكْرِ؟
وَأَهْلُ أَبوبَكْرٍ لَها خَيرُ قائِمٍ ... وَإِنَّ عَلِيّاً كانَ أَخْلَقَ بِالأَمْرِ
وَإِنَّ هَواناً في عَلِيٍّ وَإِنَّهُ ... لأَهْلَها مِنْ حَيثُ يَدْري وَلَا يَدْري(٣)

---

(١) الإصابة: ١: ٣١. السنن الكبرى: ٦: ١٦٨. كنز العمّال: ١٣: ٢٦١، الحديث ٣٦٧٦٥. تاريخ دمشق: ٧: ٣٣٩.

(٢) هذه هي الشيعة: ٩٦. تحف العقول: ٤٢٨. الاحتجاج: ١: ١٠٢. بحار الأنوار: ٢٨: ١٩٩ و ٢٠٠.

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٦: ١٧٤. بيت الأحزان: ٧٠.

ومعنى هذا الشعر أنّ المهاجرين أنكروا على سعد تصدّيه للخلافة وحرّموها عليه ؛ لأنّه ليس من الأسر القرشية وأخذوها منه ؛ لأنّهم يمتّون إلى النبيّ ﷺ بصلة النسب ، فهلّا أرجعوها إلى الإمام الذي هو ألصق الناس برسول الله وأقربهم إليه .

١٢ ـ عثمان بن حنيف

وكان عثمان بن حنيف من خيار الصحابة ، وقد انضمّ إلى الجماعة التي أنكرت على أبي بكر ، فقد قال له : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : **أَهْلُ بَيْتِي نُجُومُ الْأَرْضِ ، فَلَا تَتَقَدَّمُوهُمْ ، فَهُمُ الْوُلَاةُ مِنْ بَعْدِي** .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ، وأي أهل بيتك ؟

فقال : **عَلِيٌّ وَالطَّاهِرُونَ مِنْ وُلْدِهِ**[١] .

وحكى هذا الاحتجاج النصّ الوارد من النبيّ ﷺ في شأن أهل بيته ، وهو صريح واضح في تعيينهم خلفاء لأمّته .

١٣ ـ سهل بن حنيف

أمّا سهل بن حنيف فهو من خيار الصحابة ، وقد أعلن تأييده للإمام عليه السلام ، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبيّ : يا معشر قريش ، اشهدوا عليَّ ، إنّي أشهد على رسول الله ﷺ وقد رأيته في هذا المكان ـ يعني جامعه ـ وقد أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول : « **أَيُّها النّاسُ ، هٰذا عَلِيٌّ إِمامُكُمْ مِنْ بَعْدِي ، وَوَصِيِّي فِي حَياتِي وَبَعْدَ وَفاتِي ، وَقاضِي دَيْنِي ، وَمُنْجِزُ وَعْدِي ، وَأَوَّلُ مَنْ يُصافِحُنِي عَلىٰ حَوْضِي ، طُوبىٰ لِمَنْ تَبِعَهُ وَنَصَرَهُ ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَخَذَلَهُ** »[٢] .

---

(١) بحار الأنوار : ٢٨ : ٢٠١ . الاحتجاج : ١ : ١٠٣ .

(٢) بحار الأنوار : ٢٨ : ٢٠١ .

لقد أدلى سهل بشهادته أمام القوم بأنّ الرسول ﷺ قد نصّ على إمامة الإمام أمير المؤمنين وعلى سمو منزلته ، وعظيم مكانته عند الله تعالى وعند رسوله .

١٤ ـ خزيمة بن ثابت

أمّا خزيمة بن ثابت فهو من ألمع الصحابة ومن أوثقهم وآثرهم عند النبيّ ﷺ ، وقد كانت شهادته عند النبيّ تعادل شهادة شاهدين ، وذلك لما عرف به من الصدق ، وقد أعلن تأييده الكامل للإمام عليه السلام قال : أيّها الناس ، ألستم تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قَبِل شهادتي وحدي ، ولم يرد معي غيري ؟

فقالوا : بلى .

قال : فأشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **أَهْلُ بَيْتِي يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَهُمُ الْأَئِمَّةُ الَّذِينَ يُقْتَدىٰ بِهِمْ** » ، وقد قلت ما علمت ، وما على الرسول إلّا البلاغ المبين[١] .

وحكى خزيمة في احتجاجه ما سمعه من رسول الله ﷺ في شأن عترته ، وهم الأئمّة الذين يقتدى بهم ، وهي شهادة صدق وحقّ .

١٥ ـ أبو الهيثم بن التيهان

وأبو الهيثم بن التيهان ممّن عرف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد أدلى بشهادته على أنّه أوْلى بالخلافة من غيره ، فقال : أنا أشهد على نبيّنا ﷺ أنّه أقام عليّاً يوم غدير خمّ ، فقالت الأنصار : ما أقامه إلّا للخلافة ، وقال بعضهم : ما أقامه إلّا ليعلم الناس أنّه مولى مَن كان رسول الله ﷺ مولى له ، وكثر الخوض في ذلك ، فبعثنا رجالاً منّا إلى رسول الله فسألوه عن ذلك ؟ فقال : « **قُولُوا لَهُم : عَلِيٌّ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدِي ، وَأَنْصَحُ**

---

(١) الاحتجاج : ١ : ١٠٢ . الخصال : ٤٦٤ . بحار الأنوار : ٢٨ : ٢١٣ ، الحديث ٨ .

النّاسِ لِأُمَّتِي » ، وقد شهدت بما حضرني فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً (١) .

وحكت شهادة أبي الهيثم أنّ الرسول صلى الله عليه وآله أقام الإمام عليه السلام خليفة على اُمّته ، وقلّده منصب الإمامة من بعده ، وعلى هذا الأساس بنت الشيعة إطارها العقائدي في إمامة الإمام عليه السلام .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن الاحتجاجات الصارمة التي اُثرت عن أعلام الإسلام المتحرّجين في دينهم على أحقّية الإمام بالخلافة والولاية العامّة لأُمور المسلمين .

وعلى أي حال فإنّ أحداث السقيفة هي التي أدّت إلى انشقاق المسلمين وتفرّق كلمتهم ، فهي مصدر الفتنة الكبرى التي مُني بها المسلمون على امتداد التاريخ ، ولم تنشأ الفتنة في أيام عثمان وعليّ ، كما يذهب إلى ذلك عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين .

لقد نظرت الشيعة بعمق وشمول إلى ما أُثر عن النبيّ صلى الله عليه وآله من الأخبار في فضل الإمام والإشادة بشخصيّته ، ولم يرد بعضها في غيره من أعلام الصحابة ، الأمر الذي يدلّ بوضوح على أنّه صلى الله عليه وآله قد نصّ عليه بالخلافة ، ولو لم تكن النصوص في حقّه موجودة لكان هو المتعيّن لهذا المنصب وذلك لمواهبه وعبقرياته وجهاده في سبيل الإسلام ، وقد ألمحنا في فصول هذا الكتاب إلى ذلك .

إجراءات مؤسفة

واتّخذت حكومة أبي بكر مع أهل البيت عليهم السلام إجراءات مؤسفة اتّسمت بالقسوة والشّدة ، كان منها ما يلي :

---

(١) الاحتجاج : ١ : ١٠٣ . بحار الأنوار : ٢٨ : ٢٠٠ ، الحديث ٩ .

١ ـ كبس دار الإمام عليه السلام

ولمّا أعلن الإمام عليه السلام رفضه الكامل لبيعة أبي بكر ، واحتجّ عليه بأنّه أوْلى بالخلافة منه لأنّه أخو النبيّ وأبو سبطيه وختنه على بضعته ، والمجاهد الأوّل في الإسلام ، وانضمّ إليه كبار الصحابة ، وكانوا يعقدون الاجتماع في داره ، فضاق أبوبكر من ذلك ذرعاً ، فاقتضت سياسته أن يكبس دار الإمام ويتّخذ معه جميع وسائل العنف ، فأصدر أوامره إلى عمر بكبس داره وإخراجه قسراً إلى الجامع ليبايع ، وراح عمر يشتدّ ومعه شرطته وجنوده ، وحمل معه قبساً من النار ، وحمل جنوده الحطب وراحوا مسرعين يعلوهم الغضب ليحرقوا بيت الوحي والتنزيل ، البيت الذي أذهب الله عن أهله الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وهجم عمر على دار الإمام وهو مغيظ محنق رافعاً صوته : والذي نفس عمر بيده ليخرجنّ أو لأحرقنّها على مَن فيها .

فعذلته طائفة ، وحذّرته من عقوبة الله قائلة : إنّ فيها فاطمة .

وقد ذكرته بحفاوة رسول الله بها وقوله فيها : « **إنّ اللهَ يَرْضىٰ لِرِضاكِ ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِكِ** »[1] ، فلم يحفل ابن الخطّاب بذلك وصاح بهم غير مكترث ولا مبال : وإن ، وإن .

معناه وإن كانت فاطمة فيها لأحرقنّها غير حافل ومعتنٍ بها ، وخرجت بضعة الرسول وريحانته قائلة : « **لا عَهْدَ لِي بِقَوْمٍ حَضَرُوا أَسْوَأَ مَحْضَرٍ مِنْكُمْ ، تَرَكْتُمْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله جَنازَةً بَيْنَ أَيْدِينا ، وَقَطَعْتُمْ أَمْرَكُمْ بَيْنَكُمْ ، لَمْ تَسْتَأْمِرُونا وَلَمْ تَرُدُّوا لَنا حَقّاً** » .

وتبدّد جبروت القوم وذاب عنفهم ، وأسرع عمر وهو بطل الموقف نحو أبوبكر طالباً منه حمل الإمام بالقوّة للبيعة قائلاً : ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة ؟

واستجاب أبوبكر له ، فأرسل معه قنفذاً ، وكان شريراً معروفاً بالغلظة والشدّة

---

(١) الحديث متواتر أخرجته الصحاح والسنن.

ومعه جماعة من الشرطة ، فاقتحموا دار الإمام وأخرجوه مُلبباً بحمائل سيفه ، وانطلقت خلفه زهراء الرسول ، وهي تهتف بأبيها وتستغيث به قائلةً : **يا أَبَتِ ، يا رَسُولَ اللهِ ، ماذا لَقِينا بَعْدَكَ مِنِ ابْنِ الْخَطّابِ وَابْنِ أَبِي قُحافَةَ** .

وازدحمت الجماهير على باب الإمام وعلاها الذهول ، وأغرق بعضهم في البكاء ، إلّا أنّ ابن الخطّاب وحزبه لم يجد معهم موقف بضعة الرسول وهي ولهى مستغيثة بأبيها ، فلم تلن قلوبهم وعواطفهم ، فأخرجوا الإمام وانطلقوا به يهرول نحو أبي بكر ، فقال له : بايع .. بايع .

فردّ عليه الإمام : **وَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟**

فأسرع القوم وقد أضلّهم الهوى وأعماهم حبّ الدنيا قائلين : والله! الذي لا إله إلّا هو نضرب عنقك ..

وسكت الإمام برهة فنظر إلى القوم ، فإذا ليس له ركن شديد يفزع إليه ، فقال بصوت حزين النبرات : **إذاً تَقْتُلُونَ عَبْداً للهِ وَأَخاً لِرَسُولِهِ** .

فاندفع ابن الخطّاب بشراسته قائلاً : أمّا عبداً لله فنعم ، وأمّا أخو رسوله فلا .

ونسي عمر ما أعلنه النبيّ أنّ الإمام أخوه وباب مدينة علمه ، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى ، كلّ ذلك تنكّر له ابن الخطّاب ، والتفت إلى أبي بكر يحثّه على التنكيل به قائلاً : ألا تأمر فيه بأمرك ؟

وخاف أبو بكر من تطوّر الأحداث وتبلور الرأي العامّ ، فقال لابن الخطّاب : لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جانبه . وأطلقوا سراح الإمام ، ومضى يهرول نحو مثوى أخيه رسول الله صلى الله عليه وآله يشكو إليه ما ألمّ به من المحن والخطوب ، وهو يبكي أمرّ البكاء قائلاً : **يابْنَ أُمَّ ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي**(١) .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ الأعراف ٧: ١٥٠.

لقد استضعفه القوم وتنكرّوا له ، وأعرضوا عمّا أوصاهم به النبيّ ، وقفل الإمام راجعاً إلى بيته وهو كئيب حزين ، وقد استبان له ما يحمله القوم من الحقد والكراهية .

٢ ـ تأميم فدك

وروى المؤرّخون أنّ الجيوش الإسلامية لمّا فتحت حصون خيبر قذف الله الرعب والفزع في قلوب أهالي فدك فهرعوا إلى رسول الله ﷺ نازلين على حكمه ، فصالحهم على نصف أراضيهم ، فكانت ملكاً خاصّاً له ؛ لأنّ المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، ولمّا أنزل الله تعالى على نبيّه الآية : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾[1] بادر فأنحل فاطمة فدكاً ، فاستولت عليها وتصرّفت فيها تصرّف الملّاك في أملاكهم .

ولمّا استولى أبوبكر على الحكم اقتضت سياسته مصادرة فدك ، وانتزاعها من سيّدة النساء ، وذلك لئلا تقوى شوكة الإمام على منازعته ، وهو إجراء اقتصادي باعثه إضعاف الجبهة المعارضة وشلّ فعاليّتها ، وهذا ما عليه الدول قديماً وحديثاً ، وقد مال إلى هذا الرأي عليّ بن مهنّا العلوي ، قال : « ما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها ـ أي عن فدك ـ ألّا أن يقوى عليّ بحاصلها وغلّتها على المنازعة في الخلافة »[2] .

مطالبة الزهراء عليها السلام بفدك

وبعدما استولى أبوبكر بالقوّة على فدك ، وأخرج منها عامل الزهراء عليها السلام طالبته بردّها ، فامتنع من إجابتها ، وطلب منها إقامة البيّنة على صدقها ، ويقول المعنيّون بالبحوث الفقهية من علماء الشيعة إنّ كلام أبي‌بكر لا يتّفق مع القواعد الفقهية ،

---

(١) الإسراء ١٧ : ٢٦.

(٢) أعلام النساء : ٣ : ٢١٥. الاحتجاج : ١ : ١٢٠. شرح نهج البلاغة : ١٦ : ٢٣٦.

وذلك لما يلي :

أوّلاً : إنّ صاحب اليد لا يُطالب بالبيّنة ، والزهراء قد وضعت يدها على فدك ، فليس عليها إلّا اليمين وعليه البيّنة ، وبذلك فقد شذّت دعوى أبي بكر عن المقرّرات الفقهية .

ثانياً : إنّ السيّدة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها سيّدة نساء هذه الأمّة ، وخيرة نساء العالمين ـ على حدّ تعبير رسول الله صلى الله عليه وآله ـ ، وقد نزلت في حقها وحقّ زوجها وولديها آية التطهير وهي صريحة في عصمتها من الزيغ والكذب ، وهي أصدق الناس لهجة ـ حسب قول عائشة[1] ـ ، أفلا يكفي ذلك في تصديقها .

ثالثاً : إنّ ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله أقامت البيّنة على ما ادّعت ، مضافاً إلى اليد ، أمّا بيّنتها فقد تألّفت من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، والسيّدة الفاضلة أمّ أيمن ، فشهدا عنده أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنحلها فدكاً ، فردّ شهادتهما معتذراً أنّ البيّنة لم تتمّ ، وهذا لا يخلو من المؤاخذات وهي :

١ ـ إنّ القواعد الفقهية قضت أنّ الدعوى إذا كانت على مال ، أو كان المقصود منها المال ، فإنّها تثبت بشاهد ويمين ، فالمدّعي إذا أقام شاهداً واحداً فعلى الحاكم أن يحلفه بدلاً من الشاهد الثاني ، فإن حلف أعطاه المال ، ولم يعن أبو بكر بذلك فردّ الشهادة وألغى الدعوى .

٢ ـ إنّه ردّ شهادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد صرّح النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه مع القرآن ، والقرآن معه لا يفترقان ..[2] .

٣ ـ إنّه قدح في شهادة السيّدة أمّ أيمن ، وقد خرجت زهراء الرسول بعد ردّ أبي

---

(١) حلية الأولياء : ٢ : ٤١ . مستدرك الحاكم : ٣ : ١٦٠ . ذخائر العقبى : ٤٤ .

(٢) مستدرك الحاكم : ٣ : ١٢٤ . الصواعق المحرقة : ٧٥ . ينابيع المودّة : ١ : ١٧٣ . المعجم الأوسط : ٥ : ١٣٥ .

بكر لدعواها ، وهي تتعثّر بأذيالها من الخيبة ، وقد ألمّ بها الحزن والأسى .

يقول الإمام شرف الدين نضّر الله مثواه : « فليته ـ أي أبابكر ـ اتّقى فشل الزهراء في موقفها بكلّ ما لديه من سبل الحكمة ، ولو فعل ذلك لكان أحمد في العقبى ، وأبعد عن مظانّ الندم ، وأنأى عن مواقف اللوم ، وأجمع لشمل الأُمّة ، وأصلح له بالخصوص » .

وقد كان في وسعه أن يربأ بوديعة رسول الله ووحيدته عن الخيبة ويحفظها عن أن تنقلب عنه ، وهي تتعثّر بأذيالها ، وماذا عليه إذ احتلّ محلّ أبيها لو سلّمها فدكاً من غير محاكمة ، فإنّ للإمام أن يفعل ذلك بولايته العامّة ، وما قيمة فدك في سبيل هذه المصلحة ، ودفع هذه المفسدة[1] .

لقد كان أبوبكر باستطاعته وصلاحيّته أن يقرّ يد بضعة رسول الله ﷺ ووديعته على فدك ويصنع معها الجميل والمعروف ، ولا يقابلها بمثل تلك القسوة ، ولكنّ الأمر كما حكاه علي بن الفاروق أحد أعلام الفكر العلمي في بغداد ، وأحد أساتذة المدرسة الغربية ، وأُستاذ العلّامة ابن أبي الحديد ، فقد سأله ابن أبي الحديد : أكانت فاطمة صادقة في دعواها النحلة ؟

فقال : نعم .

فلم لم يدفع لها أبوبكر فدكاً ، وهي عنده صادقة .

يقول ابن أبي الحديد : فتبسّم ، ثمّ قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وقلّة دعابته ، قال : لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكن حينئذٍ الاعتذار بشيء ؛ لأنّه يكون قد سجّل على نفسه بأنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى

---

(١) النصّ والاجتهاد : ٣٧.

بيّنة وشهود[١].

نعم، لهذه الجهة ولغيرها من الأحقاد والضغائن أجمع القوم على هضمها وسلب تراثها، وقد تركوا بذلك عترة النبيّ ووديعته يتقطّعون حسرات، قد نخب الحزن قلوبهم، وهاموا في تيارات من الأسى والشجون.

٣ ـ إلغاء الخمس

من الإجراءات المؤسفة التي اتّخذها أبوبكر ضدّ العترة النبوية إلغاء الخمس، الذي هو حقّ مفروض لها نصّ عليه القرآن قال تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[٢].

أجمع الرواة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يختصّ بسهم من الخمس ويخصّ أقاربه بسهم آخر منه، وكانت هذه سيرته إلى أن اختاره الله تعالى إلى جواره. ولمّا ولي أبوبكر أسقط سهم النبيّ وسهم ذوي القربى، ومنع بني هاشم من الخمس، وجعلهم كبقيّة المسلمين[٣]، وقد أرسلت زهراء الرسول وبضعته فاطمة الزهراء صلوات الله عليها إلى أبي‌بكر أن يدفع إليها ما بقي من خمس خيبر، فأبى أن يدفع إليها شيئاً منه[٤]،

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٦: ٢٨٤. الاحتجاج: ١: ١٢٠. النصّ والاجتهاد: ٨٤.

(٢) الأنفال ٨: ٤١.

(٣) تفسير الكشّاف ـ في تفسير آية الخمس: ٢: ٥٨٣. تفسير القرطبي: ٨: ١٠. فتح القدير: ٢: ٢٩٥.

(٤) صحيح البخاري: ٣: ٣٦. صحيح مسلم: ٢: ٧٢. مسند أحمد بن حنبل: ١: ٩. كنز العمّال: ٥: ٦٠٤.

فقد ترك شبح الفقر مخيّماً على آل النبيّ ﷺ وحجب عنهم ما فرضه الله لهم .

٤ ـ مصادرة تركة النبيّ ﷺ

واستولى أبوبكر على جميع ما تركه النبيّ ﷺ من بلغة العيش ، فحازه إلى بيت المال ، وقد سدّ بذلك كلّ نافذة اقتصادية على آل البيت ، وكانت حجّته في ذلك ما رواه عن رسول الله ﷺ : لا نورث ما تركناه صدقة(١) .

وهو اعتذار مهلهل حسب ما يقوله المحقّقون من علماء الشيعة ، وذلك لما يلي :

١ ـ إنّ الحديث لو كان صحيحاً لاطّلعت عليه سيّدة نساء العالمين ، وما دخلت مع أبي بكر ميدان المحاججة والمخاصمة ، وكيف تطالبه وهي سليلة النبوّة وأوثق سيّدة في دنيا الإسلام بأمر لم يكن مشروعاً .

٢ ـ إنّ النبيّ ﷺ كيف يحجب عن بضعته حكماً يرجع إلى تكليفها الشرعي ، وقد غذّاها بروح التقوى والإيمان ، وأحاطها علماً بجميع الأحكام الشرعية ، إنّ حجب ذلك عنها تعريض لها وللأمّة لأمور غير مشروعة .

٣ ـ إنّ من الممتنع أن يحجب النبيّ ﷺ هذا الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو حافظ سرّه ، وباب مدينة علمه ، وباب دار حكمته ، وأقضى أمّته ؛ فإنّ من المقطوع به أنّ النبيّ ﷺ لو كان لا يورّث لعرّفه الإمام عليه السلام ، وما كتمه النبيّ ﷺ عنه .

٤ ـ إنّ الحديث لو كان صحيحاً لعرفه الهاشميّون وهم أهل النبيّ ، وألصق الناس به ، فلماذا لم يبلّغهم به .

٥ ـ إنّ الحديث لو كان صحيحاً لما خفي عن أمّهات المؤمنين ، والحال أنهنّ أرسلن إلى عثمان بن عفان يطلبن منه ميراثهنّ من رسول الله ﷺ .

---

(١) بلاغات النساء : ١٦ . أعلام النساء : ٣ : ٢٠٧ . العمدة : ٣٩٠ . سنن الترمذي : ٣ : ٨٢ . كنز العمّال : ٥ : ٦٠٤ .

٦ ـ إنّ بعض أهل العلم يرى أنّ « ما » التي في الحديث : « **لَا نُوَرِّثُ ما تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ** » موصولة ، والمعنى أنّ ما تركناه من الصدقات ليس خاضعاً للمواريث ، وإنّما هو للفقراء ، وعلى هذا فيكون الحديث أجنبياً عن الاستدلال به من عدم توريث النبيّ صلى الله عليه وآله لما تركه من الأموال .

الخطاب الخالد للزهراء عليها السلام

وضاقت الدنيا على زهراء الرسول ووديعته في اُمّته من الإجراءات الصارمة التي اتّخذها أبوبكر ضدّها ، فرأت أن تلقي الحجّة عليه ، وتحفّز المسلمين للإطاحة بحكومته ، ويتحدّث الرواة أنّها سلام الله عليها استقلّت غضباً ، فلاثت خمارها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها ، تطأ ذيولها ، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله حتى دخلت على أبي‌بكر وهو في الجامع الأعظم ، وقد احتفّ بها المهاجرون والأنصار وغيرهم ، وقد اُنيطت دونها ملاءة[1] تكريماً لها ، فأنّت أنّة حسرة وألم وبكاء ، فأجهش القوم لها بالبكاء وارتجّ المجلس ، وذلك لأنّهم رأوا في شخصيّتها العظيمة شخصية أبيها العظيم الذي لم يعقب غيرها ؛ ولأنّهم قصّروا في حقّها وحقّ زوجها ، ولمّا سكن نشيجهم وهدأت فورتهم افتتحت خطابها الخالد بحمد الله والثناء عليه ، وانحدرت في خطابها كالسيل ، فلم يسمع قبلها ولا بعدها من هو أخطب منها ، وحسبها أنّها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله أفصح من نطق بالضاد ، وقد ورثت بلاغته وفصاحته .

وتحدّثت في خطابها الخالد عن معارف الإسلام وفلسفة تشريعاته وعلل أحكامه ، وعرضت إلى ما كانت عليه حالة الاُمم قبل أن يشرق عليها نور الإسلام من الجهل والانحطاط ووهن العقول وضحالة الفكر ، خصوصاً الجزيرة العربية ،

---

(١) **الملاءة** : الحجاب والستر.

فقد كانت على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطئ الأقدام ، وكانت حياتها الاقتصادية بالغة السوء ، فالأكثرية الساحقة كانت تقتاد القدّ ، وتشرب الطرق ، وظلّت على هذا الحال من الذلّ والفقر والهوان حتى أنقذها الله سبحانه وتعالى برسوله العظيم ، فدفعها إلى واحات الحضارة والتطوّر ، وجعلها في الطليعة الواعية من أُمم العالم ، فما أعظم عائدته على العرب وعلى الناس أجمعين ، كما عرضت سيّدة نساء العالم إلى فضل ابن عمّها الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام ، وجهاده المشرق في نصرة الإسلام والذبّ عن حياضه ، فالجاهلية الرعناء من قريش وغيرهم كلّما أوقدوا ناراً للحرب تقدّم إليها الإمام فوطأ صماخها بأخمصه وأخمد لهبها بسيفه ، في حين كان المهاجرون من قريش في رفاهية وادعين آمنين ، لم يكن لهم أي ضلع يذكر في نصرة الإسلام والدفاع عنه ، وإنّما كانوا ينكصون عند النزال ويفرّون من القتال .

وكانوا يتربّصون بأهل بيت النبيّ الدوائر ، ويتوقّعون فيهم نزول القواصم ، كما أعربت سيّدة نساء العالمين عن أسفها البالغ على ما مُني به المسلمون من الزيغ والانحراف ، والاستجابة الكاملة لدواعي الهوى وحبّ الدنيا ، وتنبّأت صلوات الله عليها ما سيواجهه المسلمون من الأحداث المروعة والكوارث المؤلمة نتيجة ما اقترفوه من الأخطاء والانحراف عمّا أمره الله ورسوله من التمسّك بالعترة الطاهرة التي هي مصابيح الهدى وطرق النجاة .

وبعد ما أدلت حبيبة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بهذه المواد عرضت إلى حرمانها المؤسف من إرث أبيها فقالت :

« وَأَنْتُمُ الآنَ تَزْعُمُونَ أَنْ لا إِرْثَ لَنا ، أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

أَفَلا تَعْلَمُونَ ـ بَلىٰ قَدْ تَجَلّىٰ لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضّاحِيَةِ ـ أَنّي ابْنَتُهُ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، أَأُغْلَبُ عَلىٰ تُراثِ أَبي ؟

يَابْنَ أَبي قُحافَةَ ، أَفِي كِتَابِ اللهِ تَرِثُ أَبَاكَ وَلَا أَرِثُ أَبي ؟

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً ، أَفَعلىٰ عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللهِ وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ إِذْ يَقُولُ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـانُ دَاوُدَ ﴾(١).

وَقالَ فِيمَا اقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيىٰ بْنِ زَكَرِيّا إِذْ قالَ: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾(٢).

وَقالَ: ﴿ وأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ ﴾(٣).

وَقالَ: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾(٤).

وَقالَ: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾(٥).

وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَا حَظْوَةَ لِي ، وَلَا إِرْثَ مِنْ أَبي ، وَلَا رَحِمَ بَيْنَنا ، أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْها أَبي ؟

أَمْ تَقُولُونَ : أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لَا يَتَوارَثانِ ؟ أَوَلَسْتُ أَنا وَأَبي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ؟

أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبي وَابْنِ عَمِّي ؟

---

(١) النمل ٢٧ : ١٦.

(٢) مريم ١٩ : ٦.

(٣) الأحزاب ٣٣ : ٦.

(٤) النساء ٤ : ١١.

(٥) البقرة ٢ : ١٨٠.

وحكى هذا المقطع من خطابها الخالد أوثق الأدلّة وأروعها على استحقاقها لميراث أبيها كان منها ما يلي :

١ ـ احتجّت على أنّ الأنبياء عليهم السلام كبقيّة الناس خاضعون للمواريث ، وقد استندت في ذلك إلى آيتي داود وزكريّا عليهما السلام ، وهما صريحتان بتوريث الأنبياء ، ومنهم أبوها سيّد المرسلين.

٢ ـ استدلت بعموم آيات المواريث ، وعموم آية الوصيّة ، وهي بالطبع شاملة لأبيها ، وخروجه منها من باب التخصيص بلا مخصّص ، وهو ممتنع كما صرح علماء الأصول.

٣ ـ إنّ ما يوجب تخصيص آية المواريث وعموم آية الوصية أن يختلف المورّث ووارثه في الدين بأن يكون المورّث مسلماً ووارثه كافراً ، فإنّه لا ميراث بينهما ، وهذه الجهة منتفية انتفاء قطعيّاً ، فسيّدة النساء أبوها مؤسّس الإسلام وخاتم الأنبياء ، وهي بضعته وريحانته وسيّدة نساء العالمين ، فكيف تمنع عن إرثها ؟ وبعد هذه الحجج البالغة وجّهت خطابها لأبي بكر قائلة له :

«فَدُونَكَهَا مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً تَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ وَنَشْرِكَ ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ ، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ» .

يا له من تقريع أمضى وأوجع من كلّ ألم ممضّ !

يا له من عتاب أقسى من ضرب السيوف !

ثمّ اتّجهت حبيبة الرسول إلى المسلمين تستنهض عزائمهم وتحثّهم على الاطاحة بحكومة أبي بكر قائلة :

«يَا مَعْشَرَ النَّقِيبَةِ وَأَعْضَادَ الْمِلَّةِ وَحَضَنَةَ الْإِسْلَامِ، مَا هٰذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي، وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلَامَتِي؟ أَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ أَبِي يَقُولُ: الْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ، سُرْعَانَ مَا أَحْدَثْتُمْ وَعَجْلَانَ ذَا إِهَالَةٍ، وَلَكُمْ طَاقَةٌ بِمَا أُحَاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلَىٰ مَا أَطْلُبُ وَأُزَاوِلُ؟

أَتَقُولُونَ: مَاتَ مُحَمَّدٌ فَخَطْبٌ جَلِيلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْنُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ، وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكُسِفَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَانْتَثَرَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الْآمَالُ، وَخَشَعَتِ الْجِبَالُ، وَأُضِيعَ الْحَرِيمُ، وَأُزِيلَتِ الْحُرْمَةُ عِنْدَ مَمَاتِهِ، فَتِلْكَ وَاللهِ! النَّازِلَةُ الْكُبْرىٰ، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمىٰ، لَا مِثْلُهَا نَازِلَةٌ، وَلَا بَائِقَةٌ عَاجِلَةٌ، أَعْلَنَ بِهَا كِتَابُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي أَفْنِيَتِكُمْ، وَفِي مُمْسَاكُمْ وَمُصْبَحِكُمْ، يَهْتِفُ فِي أَفْنِيَتِكُمْ هُتَافاً وَصُرَاخاً وَتِلَاوَةً وَأَلْحَاناً، وَلَقَبْلَهُ مَا حَلَّ بِأَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ حُكْمٌ فَصْلٌ، وَقَضَاءٌ حَتْمٌ، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾(١).

وأخذت زهراء الرسول تحفّز الأنصار على الثورة، وتذكّرهم ماضيهم المشرق في نصرة الإسلام وحماية مبادئه، وتطلب منهم القيام بقلب الحكم القائم، وإرجاع الخلافة إلى الإمام عليه السلام، وإرجاع حقوقها لها قائلة:

«إِيهاً بَنِي قَيْلَةَ(٢)، أَأُهْضَمُ تُراثَ أَبِي وَأَنْتُمْ بِمَرْأًىٰ مِنِّي وَمَسْمَعٍ وَمُنْتَدىً

---

(١) آل عمران ٣: ١٤٤.

(٢) بنو قيلة: هم الأوس والخزرج من الأنصار.

وَمَجْمَعٍ، تَلْبُسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وَتَشْمَلُكُمُ الْخُبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْأَدَاةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلَاحُ وَالْجُنَّةُ[١]، تُوَافِيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلَا تُجِيبُونَ، وَتَأْتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلَا تُغِيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفَاحِ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَالنُّخْبَةُ الَّتِي انْتُخِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتِيرَتْ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ. قَاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَنَاطَحْتُمُ الْأُمَمَ، وَكَافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلَا نَبْرَحُ أَوْ تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ، حَتَّىٰ إِذَا دَارَتْ بِنَا رَحَى الْإِسْلَامِ، وَدَرَّ حَلَبُ الْأَيَّامِ، وَخَضَعَتْ نُعَرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الْإِفْكِ، وَخَمَدَتْ نِيرَانُ الْكُفْرِ، وَهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرَجِ، وَاسْتَوْسَقَ نِظَامُ الدِّينِ، فَأَنَّىٰ جُرْتُمْ[٢] بَعْدَ الْبَيَانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الْإِعْلَانِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الْإِقْدَامِ، وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ؟

ولمّا رأت سيّدة نساء العالمين وهن الأنصار وتخاذلهم وعدم استجابتهم لنداء الحقّ، وجّهت إليهم أعنف اللوم وأشدّ العتب قائلةً:

«أَلَا وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ هٰذَا عَلَىٰ مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خَامَرَتْكُمْ وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرَتْهَا قُلُوبُكُمْ، وَلٰكِنَّهَا فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَحَوزُ الْقَنَاةِ، وَبَثَّةُ الصَّدْرِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ، فَدُونَكُمُوهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، بَاقِيَةَ الْعَارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللهِ، وَشَنَارِ الْأَبَدِ، مَوْصُومَةً بِنَارِ اللهِ الْمُوقَدَةِ ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾[٣]، فَبِعَيْنِ اللهِ

---

(١) الجنّة: بالضمّ ما يستتر به من السلاح.

(٢) جرتم: أي ملتم.

(٣) الهُمزة ١٠٤: ٧ و ٨.

مَا تَفْعَلُونَ ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ، وَأَنا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ ، فَاعْمَلُوا إِنَّا عامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ»[١].

وانتهى هذا الخطاب الثوري الذي حوى جميع مقوّمات الثورة على النظام القائم ، ولا أكاد أعرف خطاباً أبلغ ولا آثر منه إلّا أنّ القوم قد تخدّرت أعصابهم فصدّوا عن الطريق القويم . وعلى أي حال فقد لمس أبو بكر مدى تأثير خطاب الزهراء عليها السلام في نفوس الحاضرين وخاف من اندلاع الثورة فاستطاع بلباقته وقابليّاته الدبلوماسية أن يسيطر على الموقف ، وينقذ حكومته من الانقلاب فقابل بضعة الرسول صلى الله عليه وآله بكلّ حفاوة وتكريم ، وأظهر لها أمام الملأ أنّه يخلص لها ، ويكنّ لها التقدير والاحترام أكثر ممّا يكنّه لعائشة ابنته كما أظهر لها حزنه العميق على وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله .

وعرض لها أنّه لم يتقلّد منصب الحكم ، ولم يتّخذ معها الاجراءات الصارمة عن رأيه الخاص ، وإنّما كان عن رأي المسلمين فهم الذين قلّدوه ما تقلّد وباتّفاق منهم أخذ ما أخذ ، وبذلك فقد شارك المسلمين في إجراءاته وحمّلهم المسؤولية ، والحال أنّا ذكرنا كيفيّة بيعته ، وأنّها كانت فلتة على حدّ تعبير ابن الخطّاب .

ندم أبي بكر

وندم أبوبكر كأشدّ ما يكون الندم على ما فرّط تجاه بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله من كبس دارها وحرمانها من مواريثها ، فقال : وددت أنّي لم أكشف بيت فاطمة ، ولو أنّهم أغلقوه على الحرب[٢].

---

(١) أعلام النساء : ٣ : ٢٠٨ . بلاغات النساء : ١٢ ـ ١٩ . الاحتجاج : ١٣٨ ـ ١٤١ .

(٢) كنز العمّال : ٣ : ١٣٥ . تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٥٢ . بحار الأنوار : ٣٠ : ٥٢٦ . تاريخ مدينة دمشق : ٣٠ : ٤٢٠ . ميزان الاعتدال : ٣ : ١٠٩ . لسان الميزان : ٤ : ١٨٩ .

لقد أنّبه ضميره على الإجراءات القاسية التي ارتكبها مع زهراء الرسول ﷺ التي هي وديعته في أمّته.

محاولة فاشلة لإرضاء الزهراء عليها السلام

وحاول أبوبكر وصاحبه إرضاء حبيبة رسول الله والفوز بعفوها عنهما، وذلك لتكتسب حكومتهما الشرعية، ويتّخذا وسيلة لإرضاء المسلمين عنهما فانطلقا إلى بيتها، وطلبا منها السماح بمقابلتها، فأبت أن تأذن لهما، واستأذنا ثانياً، فامتنعت من إجابتهما، وخفّا نحو الإمام عليه السلام فطلبا منه أن يمنحهما الإذن لمقابلة وديعة النبيّ، فانطلق إلى الدار والتمس من سيّدة النساء أن تأذن لهما، فأجابته إلى ذلك، فأذِن لهما، ودخلا فسلّما عليها، فلم تجبهما، وتقدّما فجلسا أمامها، فأدارت وجهها عنهما، وراحا يلحّان عليها أن تسمع مقالتهما، فأذنت لهما في ذلك، فقال لها أبوبكر: يا حبيبة رسول الله، واللهِ! إنّ قرابة رسول الله أحبّ إليَّ من قرابتي، وإنّك لأحبّ إليَّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أنّي مت ولا أبقى بعده.

أفتراني أعرفك، وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقّك، وميراثك من رسول الله؟ إلّا أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورِّث ما تركناه فهو صدقة».

وفنّدت بضعة الرسول هذه الرواية في خطابها التأريخي الخالد، فلم تر حاجة إلى تفنيدها مرّة أخرى، والتفتت إليه وقد شركت معه عمر قائلة:

نَشَدْتُكُما اللهَ أَلَمْ تَسْمَعا رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: رِضا فاطِمَةَ مِنْ رِضايَ، وَسَخَطُ فاطِمَةَ مِنْ سَخَطِي، فَمَنْ أَحَبَّ فاطِمَةَ ابْنَتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَرْضىٰ فاطِمَةَ فَقَدْ أَرْضانِي، وَمَنْ أَسْخَطَ فاطِمَةَ فَقَدْ أَسْخَطَنِي؟

فأجابا بالتصديق قائلَين: أجل سمعناه يقول ذلك.

فرفعت وجهها وكفّيها إلى السماء، وراحت تقول بحزن وفؤاد مكلوم: **فإنِّي اُشْهِدُ**

اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ أَنَّكُما أَسْخَطْتُمانِي وَما أَرْضَيْتُمانِي ، وَلَئِنْ لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ لَأَشْكُوَنَّكُما إِلَيْهِ .

وانطلق أبوبكر يبكي ، فقالت له : **وَاللهِ ! لَأَدْعُوَنَّ عَلَيْكَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أُصَلِّيها**(١) ، فما كان أشدّها كلمات أخفّ من وقعها ضربات السيف ! . . مادت الأرض تحتهما ، ودارت كالرحى حتى سارا من هول ما لقيا يترنّحان ، وغادرا الدار وقد خبا أملهما في رضا زهراء الرسول ، وعلما مدى الغضب الذي أثارته عليهما ومدى السخط الذي باءا به(٢) .

وحقَّ لأبي بكر أن يحزن ويبكي بعد ما فاته رضا زهراء الرسول التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها كما حدّث بذلك أبوها (٣) .

أضواء على موقف الإمام عليه السلام

ووقف الإمام مع حكومة أبي بكر موقفاً سلبياً اتّسم بالعزلة التامّة عن الناس وعدم الاشتراك مع الجهاز الحاكم بأي لون من ألوان الاجتماع ، فقد انصرف إلى تدوين الأحكام الشرعية وتفسير القرآن الكريم ، فقد أعرض عن القوم وأعرضوا عنه لا يراجعهم ولا يراجعونه ، اللّهمّ إلّا إذا حلّت في ناديهم مشكلة فقهية لا يعرفون حلّها فزعوا إليه ليجيبهم عنها .

ويتساءل الكثيرون : لماذا لم يقف الإمام عليه السلام مع أبيبكر موقفاً سلبياً ، ويفتح معه

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٤ . أعلام النساء : ٣ : ١٢١٤ . الإمام عليّ بن أبي طالب / عبدالفتاح عبدالمقصود : ١ : ٢١٧ . فضائل آل البيت / المقريزي : ٦٦ .

(٢) الإمام عليّ بن أبي طالب : ١ : ٢١٧ . الإمامة والسياسة : ١ : ٢٠ ، ٣١ .

(٣) مستدرك الحاكم : ٣ : ١٥٣ . أسد الغابة : ٥ : ٥٢٢ . تهذيب التهذيب : ١٢ : ٢٤١ . ميزان الاعتدال : ٢ : ٧٢ . كنز العمّال : ٦ : ٢١٩ . ذخائر العقبى : ٣٩ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٥٢ .

باب الحرب ، ويأخذ حقّه منه بالقوّة ، فقد أعرض عن ذلك ، وخلد إلى الاعتزال ، وقد أدلى الإمام عليه السلام ببعض الأسباب التي دعته لإلقاء الستار على حقّه وهي :

١ ـ فقده للقوّة العسكرية

لم تتوفّر عند الإمام عليه السلام أيّة قوّة عسكرية يستطيع أن يتغلّب بها على الأحداث ، ويستلم مقاليد الحكم ، وقد صرّح بذلك في كثير من المناسبات ، وهذه بعضها :

ـ قال عليه السلام في خطبته الشقشقية :

« وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَىٰ طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ[(١)] ، يَهْرَمُ فيهَا الْكَبِيرُ ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّىٰ يَلْقَى رَبَّهُ ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ، فَصَبَرتُ وَفِي العَيْنِ قَذىً . وَفي الْحَلْقِ شَجاً[(٢)] ، أَرىٰ تُرَاثِي نَهْباً... »[(٣)] .

وقد حكى هذا المقطع من خطابه ما ألمّ به من الأسى من فقدان الناصر أيام حكومة أبي بكر ، فإنّه لم تكن عنده قوّة تحميه ولم يكن يأوي إلى ركن شديد لإرجاع حقّه ، فصبر على ما في الصبر من قذى في العين وشجاً في الحلق .

ـ قال عليه السلام :

« فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي ، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ ، وَأَغْضَيْتُ عَلَىٰ الْقَذَىٰ ، وَشَرِبْتُ عَلَىٰ الشَّجَا ، وَصَبَرْتُ عَلَىٰ أَخْذِ الْكَظَمِ ، وَعَلَىٰ أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ »[(٤)] .

---

(١) **الطخية** : الظلمة .

(٢) **الشجى** : ما يعترض في الحلق من عظم ونحوه .

(٣) نهج البلاغة : ١ : ٤٨ . الإرشاد : ١ : ٢٨٧ و ٢٨٨ .

(٤) نهج البلاغة : ١ : ٦٨ . الغارات : ١ : ٣٠٩ . بحار الأنوار : ٢٨ : ٣١ .

وحكى هذا المقطع أنّه لم يكن مع الإمام عليه السلام سوى أُسرته الماثلة في أبنائه وأبناء أخيه ، ومن المؤكّد أنّه لو فتح باب الحرب مع أبي‌بكر لقضي على الأُسرة الهاشمية ، بالاضافة إلى ما تواجهه الأُمّة من أخطار هائلة .

ـ وبايعت الأكثرية الساحقة أبابكر تحت ضغط عمر ، وقد أراد الإمـام عليه السلام أن يقيم عليهم الحجّة فطاف بزهراء الرسول على بيوت المهاجرين والأنصار يسـألهم النجدة ومناهضة الحكم القائم ، فكانوا يقولون لبضعة الرسول : يابنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل .

فتردّ عليهم حبيبة رسول الله : **أَفَتَدَعُونَ تُراثَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله يَخْرُجُ مِنْ دارِهِ إِلىٰ غَيْرِ دارِهِ ؟**

وراحوا يعتذرون إليها قائلين : يا بنت رسول الله ، لو أنّ زوجك سبق إليـنا قـبل أبي‌بكر لما عدلنا به .

ويجيبهم الإمام عليه السلام : **أَفَكُنْتُ أَدَعُ رَسُولَ‌اللهِ فِي بَيْتِهِ لَمْ أَدْفِنْهُ ، ثُمَّ أَخْرُجُ أُنازِعُ النَّاسَ سُلْطانَهُ ؟!**

وتدعم سيّدة النساء مقالة الإمام عليه السلام قـائلة : **ما صَنَعَ أَبُوالْحَسَنِ إِلَّا ما كانَ يَنْبَغِي لَهُ..وَقَدْ صَنَعُوا ما اللهُ حَسِيبُهُمْ عَلَيْهِ**(١) .

إنّ موقف الإمام عليه السلام مع حكومة أبي بكر متّسم بعدم الرضا إلّا أنّه لم يستطع القيام بأيّ عمل عسكري للاطاحة بها .

٢ ـ المحافظة على وحدة المسلمين

من الأحداث التي دعت الإمام إلى المسـالمة مـع القـوم حـرصه عـلى وحـدة المسلمين ، وقد أعلن ذلك حينما عزم القوم على البيعة لعثمان ، فقال عليه السلام :

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٢. بحار الأنوار : ٢٨ : ١٨٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥.

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا ـ أي الخلافة ـ **مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللهِ! لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذٰلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»**(١).

من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين وجمع كلمتهم سالم الإمام وأعرض عمّا يكنّه في نفسه من الألم والأسى على ضياع حقّه.

لوعة الزهراء عليها السلام وشجونها

وأعظم المآسي التي طافت بالإمام هو ما حلّ بابنة الرسول وبضعته من الآلام القاسية التي احتلّت قلبها الرقيق المعذّب على فقد أبيها الذي كان عندها أعزّ من الحياة، فكانت تزور جدثه الطاهر وهي حيرى قد أخرسها الخطب، وتأخذ حفنة من ترابه فتضعه على عينيها ووجهها وتطيل من شمّه، وتقبيله، وتجد في ذلك راحة، وهي تبكي أمرّ البكاء وأشجاه، وتقول:

مَاذَا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ ... أَنْ لَا يَشَمَّ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّهَا ... صُبَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا

قُلْ لِلْمُغَيَّبِ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى ... إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَرْخَتِي وَنِدَائِيَا

قَدْ كُنْتُ ذَاتَ حِمىً بِظِلِّ مُحَمَّدٍ ... لَا أَخْشَ مِنْ ضَيْمٍ وَكَانَ جَمَالِيَا

فَالْيَوْمَ أَخْضَعُ لِلذَّلِيلِ وَأَتَّقِي ... ضَيْمِي وَأَدْفَعُ ظَالِمِي بِرِدَائِيَا

فَإِذَا بَكَتْ قُمْرِيَّةٌ فِي لَيْلِهَا ... شَجَناً عَلَى غُصْنٍ بَكَيْتُ صَبَاحِيَا

فَلَأَجْعَلَنَّ الْحُزْنَ بَعْدَكَ مُونِسِي ... وَلَأَجْعَلَنَّ الدَّمْعَ فِيكَ وِشَاحِيَا(٢)

---

(١) نهج البلاغة: ١: ١٢٤. بحار الأنوار: ٢٩: ٦١٢. شرح نهج البلاغة: ٦: ١٦٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢: ١٣١. نظم درر السمطين: ١٨١. عيون الأثر: ٢: ٤٣٤، الحديث ٥٩٠.

وصوّرت هذه الأبيات مدى حزن زهراء الرسول ولوعتها على فقد أبيها الذي أخلصت له في الحبّ أعظم ما يكون الإخلاص، كما أخلص لها، وإنّ مصابها القاسي عليه لو صبّ على الأيام لخفّ ضياؤها وعادت قاتمة مظلمة.

وصوّرت هذه الأبيات الحزينة مدى منعتها وعزّتها أيام أبيها، وبعد فقدها له صارت بأقصى مكان من الهوان، فقد تنكّر لها القوم، وأجمعوا على هضمها، والغضّ من شأنها حتّى صارت تخضع للذليل وتتّقي من ظلمها بردائها.

وخلدت وديعة الرسول إلى البكاء والأسى حتى عدّت من البكائين الخمسة الذين مثلوا الحزن على امتداد التاريخ.

وبلغ من عظيم وجدها على أبيها أنّ أنس بن مالك استأذن عليها ليعزّيها بمصابها الأليم، وكان ممّن وسّد رسول الله صلى الله عليه وآله في مثواه الأخير، فقالت له: **أَنَسُ بْنُ مالِكٍ هٰذا؟**

فقال: نعم، يابنت رسول الله.

فقالت له بلوعة وبكاء: **كَيْفَ طابَتْ نُفُوسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا التُّرابَ عَلىٰ رَسُولِ اللهِ**(١)، وقطع أنس كلامه، وهو يذرف أحرّ الدموع، وقد هام في تيارات من الأسى والشجون.

وبلغ من عظيم وجد زهراء الرسول أنّها ألحّت على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يريها القميص الذي غسّل فيه أباها، فجاء به إليها، فأخذته بلهفة وهي توسعه تقبيلاً وشمّاً؛ لأنّها وجدت فيه رائحة أبيها الذي غاب في مثواه.

وخلدت بضعة الرسول إلى البكاء في وضح النهار وفي غلس الليل، وثقل ذلك

---

(١) سنن ابن ماجة: ١٨. المواهب اللدنية / القسطلاني: ٢: ٢٨١. المستدرك: ١: ٣٨٢. مجمع الزوائد: ٩: ٣١. سير أعلام النبلاء: ٢: ١٢٠.

على القوم ، فشكوها إلى الإمام وطلبوا منه أن تجعل لبكائها وقتاً خاصّاً لأنّهم لا يهجعون و لا يستريحون ، وعرض الإمام عليها ذلك ، فأجابته إلى ما أراد ، فكانت في النهار تخرج خارج المدينة وتصحب معها ولديها الحسن والحسين وبنتها زينب ، فتجلس تحت شجرة من الاراك وتبكي أباها طيلة النهار ، فإذا أوشكت الشمس أن تغرب قفلت راجعة مع أولادها إلى البيت الذي خيّم عليه الحزن والبكاء ، وعمد القوم إلى تلك الشجرة فقطعوها فصارت تبكي في حرّ الشمس ، فقام الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام فبنى لها بيتاً أسماه « بيت الأحزان » فاتّخذته مقرّاً لبكائها ، ونسب إلى مهدي آل محمّد (عجّل الله فرجه) أنّه قال فيه : **أَمْ تَراني اتَّخَذْتُ ـ لا وَعُلاها ـ بَعْدَ بَيْتِ الْأَحْزانِ بَيْتَ سُرورِ**.

وأثّر الحزن المرهق بوديعة النبيّ حتى فتكت بها الأمراض وذوت كما تذوي الأزهار . . وبادرت السيّدات من نساء المسلمين إلى عيادتها فقلن لها : كيف أصبحت من علّتك يا بنت رسول الله ؟

فرمقتهنّ بطرفها ، وأجابتهنّ بصوت خافت مشفوع بالأسى والحسرات : **أَجِدُني كارِهَةً لِدُنْياكُنَّ ، مَسْرُورَةً لِفِراقِكُنَّ ، أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ بِحَسَراتِكُنَّ فَما حُفِظَ لِيَ الْحَقُّ ، وَلَا رُعِيَتْ مِنِّي الذِّمَّةُ ، وَلَا قُبِلَتِ الْوَصِيَّةُ ، وَلَا عُرِفَتِ الْحُرْمَةُ**(١) .

وحكت هذه الكلمات مدى آلامها وشجونها من تقصير القوم بحقّها ، فما حفظوا حقّها ولا رعوا وصيّة النبي فيها . وبلغ من كراهتها لنساء القوم أنّهنّ طلبن حضورهنّ عند وفاتها فقلن لها : يا بنت رسول الله ، صيّري لنا في حضور غسلك حظّاً ؟

فأبت وقالت بمرارة : **أَتُرِدْنَ أَنْ تَقُلْنَ فِيَّ كَما قُلْتُنَّ فِي أُمِّي ، لَاحاجَةَ لِي في حُضُورِكُنَّ**(٢) .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ٩٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١١٥.

الزهراء عليها السلام في ذمّة الخلود

وطافت بزهراء الرسول موجات عاتية من الآلام على فقد أبيها وغصب حقّها، فقد برح بها المرض وأضرّ الأسى بقلبها الرقيق المعذّب، وقد فتكت بها الآلام، ومشى إليها الموت سريعاً وهي في فجر الصبا وروعة الشباب.. فقد حان موعد اللقاء بينها وبين أبيها الذي طلبت لقياه بفارغ الصبر.

وصيّتها عليها السلام

ودعت زهراء الرسول الإمام، فلمّا مثل عندها أوصته بأُمور كان منها:

١ ـ أن يواري جثمانها المقدّس في غلس الليل البهيم.

٢ ـ أن لا يحضر جنازتها أحد من الذين ظلموها وجحدوا حقّها فإنّهم أعداؤها وأعداء أبيها.

٣ ـ أن يعفّي موضع قبرها ليكون رمزاً لاستيائها على امتداد التاريخ.

٤ ـ أن يصنع لها نعشاً يواري جثمانها المقدّس؛ لأنّ الناس كانوا يضعون أمواتهم على سرير تبدو فيه الجثّة، فكرهت ذلك، وما أحبّت أن ينظر أحد إلى جثمانها.

وتعهّد الإمام لها بتنفيذ ذلك، وانصرف عنها وهو غارق في البكاء، قد استجاب لأحاسيس نفسه الولهى التي استوعبتها الهموم والآلام.

وفي اليوم الأخير من حياتها ظهرت عليها المسرّات، فقد علمت أنّها ستلتحق بأبيها الذي كرهت الحياة من بعده، وقد عمدت إلى ولديها السبطين فغسلتهما وصنعت لهما من الطعام ما يكفيهم يومهم، وأمرتهما بالخروج لزيارة مرقد جدّهما، وألقت عليهما نظرة الوداع الأخير، وهي تذرف أحرّ الدموع وذاب قلبها من اللوعة والوجد عليهما.

وخرج الحسنان وقد هاما في تيارات مذهلة من الهواجس، وأحسّا ببوادر مخيفة

أغرقتهما بالأسى والشجون.

والتفتت وديعة النبي إلى أسماء بنت عميس، وكانت هي التي تتولّى تمريضها وخدمتها فقالت لها: **يا أمّاه**.

- نعم، يا حبيبة رسول الله.

- **اسْكُبِي لِي غُسْلاً**.

فانبرت أسماء، وهيّأت لها الماء فاغتسلت فيه ثمّ قالت لها: **ايتيني بِثِيابِي الْجُدُدِ**.

فناولتها ثيابها، وهتفت بها ثانيةً: **اجْعَلِي فِراشي في وَسَطِ الْبَيْتِ**.

وذعرت أسماء ومشت الرعدة بأوصالها، فقد أحسّت أنّ وديعة النبيّ لاحقة بأبيها، ووضعت أسماء الفراش لها فاضطجعت عليه، واستقبلت القبلة، والتفتت إلى أسماء فقالت لها بصوت خافت: **يا أمّاه، إنِّي مَقْبُوضَةٌ الآنَ، وَقَدْ تَطَهَّرْتُ، فَلا يَكْشِفْنِي أَحَدٌ**(١).

وأخذت سيّدة النساء تتلو آيات من القرآن الكريم حتى فارقت الحياة ولسانها يلهج بذكر الله تعالى.

لقد سمت روحها العظيمة إلى الله تعالى شاكية إليه ما لاقته من الخطوب والكوارث، لقد ارتفعت تلك الروح العظيمة إلى جنان الله ورضوانه تحفّها ملائكة الله، ويستقبلها أنبياء الله. فما أظلّت سماء الدنيا في جميع مراحل الحياة مثل بضعة الرسول في قداستها وإيمانها، لقد انقطع بموتها آخر من كان في دنيا الوجود من نسل رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٦: ٤٦١ و ٤٦٢. أسد الغابة: ٥: ٥٩٠. المجموع / محيي الدين النووي: ٥: ١١٠. مناقب آل أبي طالب: ٣: ١٣٨. العمدة: ٣٨٩. بحار الأنوار: ٤٣: ١٨٣ و ١٨٤.

وقفل الحسنان إلى الدار بلهفة يسألان عن أُمّهما فأخبرتهما أسماء بوفاتها ، وهي ضاجّة بالعويل والبكاء ، فكان ذلك كالصاعقة عليهما فهرعا مسرعَين إلى جثمانها فوقع عليها الحسن وهو يقول : **يا أُمّاهُ ، كَلِّمِيني قَبْلَ أَنْ تُفارِقَ رُوحِي بَدَنِي** .

وألقى الحسين نفسه عليها وهو يقول بذوب روحه : **يا أُمّاهُ ، أَنا ابنُكِ الْحُسَيْنُ كَلِّمِيني قَبْلَ أَن يَنْصَدِعَ قَلْبِي** .

وأخذت أسماء توسعهما تقبيلاً وتعزّيهما ، وطلبت منهما أن يخبرا أباهما بوفاة أُمّهما ، فانطلقا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهما غارقان بالبكاء ، فاستقبلهما المسلمون بفزع قائلين لهما : ما يبكيكما يا ابني رسول الله ؟ لعلّكما نظرتما موقف جدّكما فبكيتما شوقاً إليه ؟

فأجابا بلوعة : **أَوَلَيْس قَدْ ماتَتْ أُمُّنا فاطِمَةُ ؟**

واضطرب الإمام حينما سمع النبأ المؤلم وراح يقول : **بِمَنِ الْعَزاءُ يا بِنْتَ مُحَمَّدٍ ؟ كُنْتُ بِكِ أَتَعَزّىٰ فَفِيمَ الْعَزاءُ بَعْدَكِ ؟**

وخفّ مسرعاً إلى الدار وهو يذرف أحرّ الدموع ، فلمّا انتهى إليها ألقى نظرة على جثمان حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وطافت به الآلام والهموم ، وأخذ ينشد :

لِكُلِّ اجْتِماعٍ مِنْ خَليلَيْنِ فُرْقَةٌ ... وَكُلُّ الَّذي دونَ الفِراقِ قَليلُ
وَإِنَّ افْتِقادي فاطِماً بَعدَ أَحْمَدٍ ... دَليلٌ عَلىٰ أَنْ لا يَدومَ خَليلُ

وارتفعت الصيحة في المدينة ، وهرع الناس من كلّ صوب نحو بيت الإمام ليفوزوا بتشييع جثمان وديعة نبيّهم التي ما رعوا حقّها .

وعهد الإمام إلى سلمان المحمّدي أن يصرف الناس ويعرّفهم بتأجيل تشييع جنازتها ، فأخبرهم بذلك ، فانصرفوا ، وأقبلت عائشة نحو بيت الإمام لتلقي نظرة على الجثمان المقدّس فحجبتها أسماء وقالت لها : لقد عهدت إليّ أن لا يدخل

أحد عليها[١].

ولمّا مضى من الليل شطره، قام الإمام فغسّل الجسد الطاهر ومعه الحسنان وزينب وأسماء، وقد أخذت اللوعة بمجامع قلوبهم، وبعد أن أدرج جسدها في أكفانها دعا بأطفالها الذين لم ينتهلوا من حنان أُمّهم ليلقوا عليها نظرة الوداع، ومادت الأرض من كثرة صراخهم وبكائهم، ثمّ عقد الرداء عليها. ولمّا حلّ الهزيع الأخير من الليل قام فصلّى عليها ومعه النخبة من أصحابه ثمّ حمل الجثمان المعظّم إلى مثواه الأخير ولم يخبر أحداً بالتشييع إلّا خلّص أصحابه القليلين جدّاً، ثمّ أودع الجثمان في القبر وأخفاه امتثالاً لوصيّتها، ووقف على حافّة القبر وهو يروي ثراه بدموع عينيه، واندفع يؤبّنها بهذه الكلمات:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ! قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إلَّا أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ «فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ!

أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَىٰ أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ.

وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَظافُرِ أُمَّتِكَ عَلَىٰ هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ؛ هٰذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣: ٣٦٥.

مُوَدِّعٍ ، لَا قَالٍ وَلَا سَئِمٍ ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِين (١).

وحكت هذه الكلمات حزنه العميق وألمه الممضّ على فقده لوديعة رسول الله ، كما حكت ما تقدّم به من الشكوى لرسول الله ﷺ على ما ألمّ ببضعته من الكوارث التي تجرّعتها من القوم ، ويطلب منه أن يلحّ عليها في السؤال لتخبره بما جرى عليها تفصيلاً من الظلم والضيم في تلك الفترة القصيرة التي عاشتها من بعده .

وعاد الإمام إلى داره وقد طافت به الأزمات يتبع بعضها بعضاً ، فهو ينظر إلى أطفاله وهم غارقون بالبكاء على أُمّهم الرؤوم التي اختطفتها يد المنون وهي في روعة الشباب ونضارة العمر . .

وينظر إلى إعراض القوم عنه ناسين جهاده في سبيل الإسلام وقربه من الرسول ، وقد أضافت إليه هموماً قاسية وأحزاناً مريرة .

وعلى أي حال فقد اعتزل الإمام القوم وأعرض عنهم ، وأعرضوا عنه ، وقد صمّموا على إبعاده عن الحياة السياسية وعدم مشاركته بأي شأن من شؤون الدولة .

ومن الجدير بالذكر أنّ حكومة أبي بكر لم ترشّح أحداً لمناصب الدولة وله ميول مع الإمام ، فقد روى المؤرّخون أنّ أبا بكر عزل خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي بعثه لفتح الشام ، ولم يكن هناك موجب لعزله إلّا ميله لعليّ يوم السقيفة ، وقد نبّهه لذلك عمر (٢) .

كما أنّ أبا بكر لم يعهد لأي أحد من الهاشميّين بأي منصب من مناصب الدولة ، وقد تحدّث عمر مع ابن عبّاس عن سبب حرمانهم من أنّه يخشى إذا مات وأحد

---

(١) نهج البلاغة : ٢ : ١٨٢ . روضة الواعظين : ١٥٢ . مناقب آل أبي طالب : ٣ : ١٣٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٣٥٢ . الخصال : ٤٦١ و ٤٦٢ . السقيفة وفدك : ٥٥ .

الهاشميّين والٍ على قطر من الأقطار الإسلامية أن يحدث في شأن الخلافة ما لا يحبّ[١].

وكان معظم ولاة أبي بكر من الأسرة الأموية ، وكان منهم ما يلي :

١ ـ يزيد بن أبي سفيان ، استعمله والياً على الشام[٢]، وخرج مودّعاً له إلى خارج يثرب ، وبعد وفاته أسندت ولاية الشام إلى أخيه معاوية .

٢ ـ عتاب بن اسيد بن أبي العاص ، استعمله والياً على مكّة[٣].

٣ ـ عثمان بن أبي العاص ، استعمله والياً على الطائف[٤].

٤ ـ أبو سفيان ، جعله عاملاً على ما بين آخر حدّ الحجاز وآخر مكان من نجران[٥].

وفي هذا الاجراء الذي اتّخذه قد برز نجم الأمويّين ، واحتلّوا مكانة مرموقة في الدولة الإسلامية ، وقد أبدى المراقبون لسياسة أبي بكر دهشتهم من هذه السياسة .

يقول العلائلي : «فلم يفز بنو تيم بفوز أبي بكر بل فاز الأمويّون وحدهم لذلك صبغوا الدولة بصبغتهم ، وأثروا في سياستها وهم بعيدون عن الحكم كما يحدّثنا المقريزي في رسالته (النزاع والتخاصم)»[٦].

---

(١) مروج الذهب : ٤ : ١٣٥.

(٢) الكامل في التاريخ : ٢ : ٢٨٩. مسند أحمد بن حنبل : ١ : ٦. المستدرك : ٣ : ٢٥٠. تاريخ مدينة دمشق : ٢ : ٧٧. تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٥٨٦.

(٣) الإصابة : ٢ : ٤٤٤. أسد الغابة : ١ : ٣٥٠.

(٤) الطبقات الكبرى : ٥ : ٥٠٩. سير أعلام النبلاء : ٢ : ٣٧٤. تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٢٢. الكامل في التاريخ : ٢ : ٢٨٩.

(٥) فتوح البلدان / البلاذري : ١ : ١٢٣ ، الحديث ٢٩٢. النزاع والتخاصم : ٥٢.

(٦) الإمام الحسين عليه‌السلام : ١٩١.

وكان الأولى بأبي بكر أن يعهد بأمور المسلمين إلى السادة من الأسرة النبوية وإلى الأخيار المتحرّجين في دينهم من الأوس والخزرج ، وإبعاد الأمويّين عن كلّ منصب من مناصب الدولة ، وأن يعاملهم بالازدراء كما عاملهم الرسول ﷺ ، وكما قابلهم المسلمون ، فقد كانوا ينظرون إليهم نظرة احتقار وامتهان لأنّهم خصوم الإسلام ، وإسلامهم لم يكن واقعياً وإنّما كان صورياً .

وفاة أبي بكر وعهده لعمر

وقبل أن نطوي الحديث عن مؤتمر السقيفة وما رافقه من الأحداث الجسام نعرض إلى وفاة أبي بكر وعهده لعمر بن الخطّاب وليّاً وخليفة من بعده .

ولم يطل سلطان أبي بكر ، فقد ألمّت به الأمراض بعد مضي سنتين من حكمه ، وقد صمّم وهو في الساعات الأخيرة من حياته على تقليد زميله عمر بن الخطّاب شؤون الخلافة ؛ لأنّه هو الذي أقامه في منصبه .

ويقول المؤرّخون : إنّه لاقى معارضة كثيرة في ترشيحه لعمر خليفة من بعده ، فقد انبرى إليه طلحة بعنف قائلاً : ماذا تقول لربّك وقد ولّيت علينا فظّاً غليظاً ، تفرق منه النفوس ، وتنفر منه القلوب(١) .

ووجم أبوبكر فلم يجبه إلّا أنّ طلحة كرّر عليه إنكاره قائلاً : يا خليفة رسول الله ، إنّا كنّا لا نتحمّل شراسته وأنت حيّ تأخذ على يديه ، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميّت وهو الخليفة ؟(٢)

ولم يعن أبوبكر لإنكار طلحة ، ولم يقم له أي وزن ، كما أنّ أكثر المهاجرين اندفعوا إلى الانكار عليه قائلين : نراك استخلفت علينا عمراً وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٥٥.

(٢) المصدر المتقدّم : ٩ : ٣٤٣.

وأنت بين أظهرنا ، فكيف إذا وليت عنا ، وأنت لاق الله عزّ وجلّ فسألك فما أنت قائل ؟

فأجابهم أبوبكر : لئن سألني الله لأقولنّ : استخلفت عليهم خيرهم في نفسي(١).

ويذهب الكثيرون إلى أنّ الأجدر بأبي بكر أن يستجيب لعواطف وآراء الأكثرية من المسلمين ، فلا يولّي عليهم أحداً إلّا بعد رضاهم وإجراء عملية انتخابية أو يستشير أهل الحلّ والعقد إلّا أنّه استجاب لعواطفه المترعة بالولاء والحبّ لابن الخطّاب ، وقد طلب أبو بكر من بعض خواصه أن يخبره عن رأي المسلمين في ذلك فقال له : ما يقول الناس في استخلافي عمر ؟

كرهه قوم ورضيه آخرون .

الذين كرهوه أكثر أم الذين رضوه ؟.

بل الذين كرهوه(٢).

وإذا كانت الأكثرية الساحقة ناقمة على ولاية عمر من بعده ، فكيف فرضه عليهم ، ولم يمنح المسلمين الحرية في انتخاب من شاءوا لرئاسة الحكم .

ومهما يكن الأمر فإنّ عمر لازم أبابكر في مرضه خوفاً من التأثير عليه في العدول عن رأيه وكان يعزّز مقالته في انتخابه له قائلاً : أيّها الناس ، اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله(٣).

وطلب أبوبكر من عثمان بن عفّان أن يكتب للناس عهده في تولية عمر من بعده ، وجعل أبوبكر يملي عليه وهو يكتب ، وهذا نصّه : هذا ما عهد أبوبكر بن أبي قحافة ،

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٩.

(٢) الآداب الشرعيّة والمنح المرعيّة : ١ : ٤٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٥٢. تاريخ مدينة دمشق : ٤٤ : ٢٥٧. تاريخ المدينة : ٢ : ٦٦٩.

آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها ، وأوّل عهده بالآخرة داخلاً فيها إنّي استخلفت عليكم عمر بن الخطّاب ، فإن تروه عدل فيكم فذلك ظنّي به ، ورجائي فيه ، وإن بدّل وغيّر فالخير أردت ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[١].

ولم يقل أحد أنّ أبابكر يهجر ، وما حالوا بينه وبين كتابته في النصّ على عمر ، كما حالوا بين النبيّ وبين ما رامه في الكتابة في حقّ الإمام عليه السلام وقالوا إنّه يهجر.

وعلى أيّ حال فقد وقع أبوبكر الكتاب فتناوله عمر ، وانطلق به يهرول إلى الجامع ليقرأه على الناس فاستقبله رجل ، وقد أنكر حالته فقال له : ما في الكتاب يا أبا حفص ؟ فنفى عمر درايته بما فيه إلّا أنّه أذعن لما يحتويه قائلاً : لا أدري ، ولكنّي أوّل من سمع وأطاع.

فرمقه الرجل بطرفه ، وعرف واقع الحال ، فقال له : ولكنّي واللهِ! أدري بما فيه ، أمَّرْتَهُ عام أول ، وأمَّرَكَ العام[٢].

وانطلق عمر وهو يلوّح بالكتاب ويدعو الناس إلى استماع ما فيه ، فقرأه على الناس وبذلك تمّ له الأمر بسهولة من دون أن ينازعه أحد في ذلك.

موقف الإمام عليه السلام

والتاع الإمام عليه السلام أشدّ ما تكون اللوعة وأعرب عن أساه بعد حين من الزمن ، وذلك في خطبته الشقشقية ، قال عليه السلام :

فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ، فَصَبَرتُ وَفي الْعَيْنِ قَذىً. وَفي الْحَلْقِ شَجاً ، أَرىٰ تُرَاثي نَهْباً ، حَتَّىٰ مَضَىٰ الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلانٍ ـ يعني عمر ـ **بَعْدَهُ.**

ثُمّ تمثّل بقول الأعشى :

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٩.

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ٢٠.

شَتَّانَ مَايَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَـوْمَ حَـيَّانَ أَخِـي جَـابِرِ

فَيَا عَجباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها في حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّمَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا![1]

وحكت هذه الكلمات آلامه وأساه على ضياع حقّه وإزالته عن مركزه ومقامه، فقد تناهبته الرجال فوضعوه في تيم مرّة وأُخرى في عدي، وتناسوا مكانته من رسول الله ﷺ وجهاده المشرق في نصرة الإسلام.

وعلى أي حال فلم يلبث أبوبكر إلّا زماناً قصيراً حتى وافاه الأجل المحتوم، وانبرى صاحبه وخليله عمر إلى القيام بشؤون جنازته فغسّله وأدرجه في أكفانه، وصلّى عليه، وواراه في بيت النبيّ ﷺ وألصق لحده بلحده[2].

ويذهب المتكلّمون من الشيعة إلى أنّ البيت الذي دفن فيه إن كان من تركة النبيّ فهو لوارثته سيّدة نساء العالمين، ومن بعده انتقل إلى زوجها وأولادها، ولم يؤثر عن النبيّ ﷺ أنّه وهبه لعائشة، وعلى هذا فلا يحلّ دفنه فيه إلّا بعد الإذن من ورثة النبيّ، أمّا اذن عائشة فلا موضوعية له لأنّها لا ترث من الأرض وإنّما ترث من البناء، حسبما ذكره الفقهاء في ميراث الزوجة.

وإن كان البيت النبوي خاضعاً لعملية التأميم حسبما يرويه أبوبكر عن النبيّ أنّ الأنبياء لا يورثّون شيئاً من متاع الدنيا وإنّما يورثّون الكتاب والحكمة، وما تركوه فهو صدقة لعموم المسلمين، وعلى هذا فلا بدّ من ارضاء الجماعة الإسلامية في دفنه في البيت ولم يتحقّق أي شيء من ذلك.

---

(١) نهج البلاغة: ١: ٣١ و ٣٢. رسائل المرتضى: ٢: ١٠٩. الإرشاد: ١: ٢٨٨. الاحتجاج: ١: ٢٨٤.

(٢) الطبقات الكبرى: ٣: ٣٦٨.

خِلافَةُ عُمَرَ
وَمَبْدَأُ الشُّورَى

١

وتوّلى عمر الخلافة بسهولة وسرور ولم يلق أي جهد أو عناء ، وقد قبض على الحكم بيد من حديد ، وساس الأُمّة بشدّة وعنف حتّى تحامى لقاءه أكابر الصحابة ، فقد كانت درّته ـ كما يقولون ـ أرهب من سيف الحجّاج ، حتى أنّ حبر الأُمّة عبدالله بن عباس لم يستطع أن يجهر برأيه في حلية المتعة إلّا بعد وفاته ، وقد خافه وهابه ووصفه الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام في خطبته الشقشقية بالحوزة الخشناء التي يغلظ كلمها ويخشن مسّها .

وعلى أي حال فإنّا نعرض بصورة موجزة إلى بعض معالم سياسته الداخلية والخارجية حسب ما صرّحت به مصادر التاريخ وغيرها .

سياسته الداخلية

واتّسمت سياسة عمر الداخلية بالعنف والشدّة ، وقد سيطر سيطرة تامّة على البلاد ، وقابل كلّ من كان يعتدّ بنفسه بالصرامة ، كان منهم من يلي :

سعد بن أبي وقّاص

كان سعد بن أبي وقّاص شخصية مرموقة ، وبلاؤه في فتح فارس معروف ، وقد أقبل على عمر وكان يقسّم مالاً بين المسلمين ، فزاحم الناس حتى خلص إلى عمر ، فلمّا رأى اعتداده بنفسه علاه بالدرة ، وقال : لِمَ لم تهب سلطان الله في

الأرض ، فأردت أن أُعلمك أنّ سلطان الله لا يهابك[١] ، وقد كسر شوكته وملأ أنفه ذلاً وخنوعاً .

جَبَلة بن الأيْهم

وجَبَلة من الشخصيات المرموقة في العالم العربي ، وقد أسلم هو وقومه ، وفرح المسلمون بإسلامه ، وحضر جبلة الموسم ، وبينما هو يطوف حول الكعبة إذ وطأ إزاره رجل من فزارة فحلّه ، فغضب جبلة وسارع إلى الفزاري فلطمه ، فبلغ عمر ذلك ، فاستدعى الفزاري ، وأمر جبلة أن يقيده من نفسه أو يرضيه ، وضيّق عليه غاية التضييق ، فارتدّ جبلة ورفض الإسلام ، وولّى إلى هرقل فاحتفى به وأنزله منزلاً كريماً ، إلّا أن جبلة أسف أشدّ الأسف على ما فاته من شرف الإسلام وقد نظم أساه وحزنه بهذه الأبيات :

تَنَصَّرَتِ الأَشرافُ مِنْ أَجْلِ لَطْمَةٍ وَما كَانَ فِيها لَوْ صَبَرْتُ لَها ضَرَرْ
فَيا لَيْتَ أُمِّي لم تَلِدْني وَلَيْتَنِي رَجَعْتُ إِلى القولِ الَّذي قالَهُ عُمَرْ

وقد أراد عمر أن يقوده بأوّل بادرة تبدو منه ببُرَة[٢] محاولاً بذلك إذلاله وإهانته[٣] .

ولم تكن شدّة عمر مقتصرة على رعيّته ، وإنّما كانت شاملة لأهله ، ويقول المؤرّخون إنّه إذا غضب على أحد من أهله لا يسكن غضبه حتى يعضّ على يده عضاً شديداً فيدميها[٤] .

---

(١) شرح نهج البلاغة : ١٢ : ٩٦.

(٢) **البُرَة** : حلقة من صفر توضع في أنف الجمل الشرود ، ويربط بها حبل .

(٣) شرح نهج البلاغة : ٦ : ٣٤٢. معجم البلدان : ٣ : ٣١٤. البداية والنهاية : ٨ : ٧١.

(٤) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ٦ : ٣٤٢.

ووصف عثمان بن عفّان شدّة عمر حينما نقم عليه المسلمون بقوله : لقد وطأكم ابن الخطّاب برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فخفتموه ورضيتم به[١].

ويقول المعنيّون في البحوث الإسلامية : إنّ هذه السياسة تجافي سيرة الرسول ﷺ التي بنيت على الرفق واللين واجتناب جميع مظاهر العنف والشدّة ، وقد روى المؤرّخون صوراً كثيرة من تواضعه كان منها أنّ رجلاً جاءه فأخذته الرهبة منه وبدا عليه الرعب ، فهدّأه الرسول ﷺ وقال له : **«إنّما أنا ابنُ امْرَأةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كانَتْ تأْكُلُ الْقَدِيدَ»**[٢] ، وسار مع أصحابه سيرة الأخ مع أخيه ، وكره أن يتميّز على أحد منهم وقد شاركهم في العمل في بناء مسجده الأعظم ، وقد مدحه الله تعالى على سموّ أخلاقه ، قال تعالى : **﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾**[٣].

وعلى أي حال فإنّ الغلظة لا تتّفق بأي حال من الأحوال مع ما أُثر عن الرسول ﷺ من سموّ الأخلاق ومحاسن الآداب.

فرض الإقامة الجبرية على الصحابة

ومن بنود السياسة العمرية فرض الإقامة الجبرية على الصحابة ، فلم يسمح عمر لهم بمغادرة يثرب إلّا بعد أن يأذن لهم بذلك ، ويرى الباحثون في الشؤون الإسلامية أنّ هذا الإجراء يتنافى مع ما شرّعه الإسلام من منهج الحريات العامّة للناس جميعاً ، فهم أحرار فيما يعملون ويقولون شريطة أن لا تكون مجافية للتعاليم الإسلامية ، وليس للسلطة أن تقف منهم موقفاً سلبياً ، اللّهمّ إلّا إذا أحدثت الحرية أضراراً بالغير أو فساداً في الأرض.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٣ : ٣٧٧. البداية والنهاية : ٧ : ١٨٩. الإمامة والسياسة : ١ : ٤٦.

(٢) المستدرك : ٣ : ٤٨. سنن ابن ماجة : ٢ : ١١٠١ ، الحديث ٣٣١٢.

(٣) القلم ٦٨ : ٤.

رأي طه حسين

وبرّر الدكتور طه حسين ما اتّخذه عمر من فرض الحصار على الصحابة بقوله: «ولكنّه ـ أي عمر ـ خاف عليهم ـ أي على الصحابة ـ الفتنة، فأمسكهم في المدينة لا يخرجون منها إلّا بإذنه، وحبسهم عن الأقطار المفتوحة، لا يذهبون إليها إلّا بأمر منه خاف أن يفتتن الناس بهم، وخاف عليهم أن يغرهم افتتان الناس بهم، وخاف على الدولة عواقب هذا الافتتان»(١).

وفيما أرى أنّ هذا التوجيه لا يحمل أي طابع من التحقيق فإنّ الصحابة الذين راموا السفر من يثرب إلى الأقطار والأقاليم التي فتحها الإسلام إن كانوا من الأخيار والمتحرّجين في دينهم فإنّهم بكلّ تأكيد يكونون مصدر هداية ومصدر خير وتهذيب إلى الشعوب المتطلّعة لهدي الإسلام ومعرفة أحكامه، وهم ـ من دون شكّ ـ يشيعون الفضيلة ويعملون على تهذيب السلوك ونشر محاسن الأخلاق. وإن كانوا من الذين فتنتهم الدنيا، وخدعتهم مظاهر الفتوحات الإسلامية فلعمر الحقّ في منعهم من السفر رسماً لا شرعاً حفظاً لصالح الدولة ووقاية للناس من الفتنة بهم، ولكن لم يؤثر عنه أنّه فرض الحصار على فريق من الصحابة دون فريق وإنّما فرضه على جميع الصحابة، وبذلك فقد حال بينهم وبين حرياتهم.

ولاته وعمّاله

والشيء البارز في سياسة عمر مع الولاة والعمّال أنّه لم يعهد بأي منصب من مناصب الدولة إلى أحد من الأسرة النبوية، وإنّما أقرّ من ولّاهم أبو بكر في مناصبهم، كما لم يعيّن أحداً من الصحابة البارزين أمثال طلحة والزبير، وقيل له: إنّك استعملت يزيد بن أبي سفيان وسعيد بن العاص وفلاناً وفلاناً من المؤلّفة قلوبهم

---

(١) الفتنة الكبرى: ١: ١٧.

من الطلقاء وأبناء الطلقاء وتركت أن تستعمل عليّاً والعبّاس والزبير وطلحة ؟

فقال : أمّا عليّ فأنبه من ذلك ، وأمّا هؤلاء النفر من قريش فإنّي أخاف أن ينتشروا في البلاد فيكثروا فيها بالفساد . . .

وعلّق **ابن أبي الحديد** على هذا الكلام بقوله : « فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك ، ويدّعيه كلّ واحد منهم لنفسه ، كيف لم يخف من جعلهم ستّة متساوين في الشورى مرشّحين للخلافة ، وهل شيء أقرب إلى الفساد من هذا »(١) .

لقد رشّح طلحة والزبير وجعلهما من أعضاء الشورى ، وشهد بأنّ رسول الله ﷺ توفّي وهو راضٍ عنهما ، كيف يكونان ممّن ينشران الفساد في الأرض إذا أسند إليهما بعض مناصب الدولة .

مراقبة الولاة والعمال

وكان عمر شديد المراقبة لعمّاله وولاته ، فلم يولِّ عاملاً إلّا أحصى عليه حاله ، فإذا عزله أحصى عليه ما عنده من أموال ، فإن وجد عنده فرقاً قاسمه ذلك الفرق ، فترك له شطراً وضمّ الشطر الآخر إلى بيت المال(٢) ، واستعمل أبا هريرة الدوسي والياً على البحرين ، وقد وافته الأنباء بأنّه استأثر بأموال المسلمين ، فدعاه ، فلمّا مثل عنده قال له : علمت أنّي استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثمّ بلغني أنّك ابتعت أفراساً بألف وستمائة دينار . . ؟

فاعتذر أبو هريرة وقال له : كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت .

فلم يحفل أبو حفص باعتذاره فزجره وصاح به : قد حسبت لك رزقك ومؤونتك ، وهذا فضلٌ فأدّه .

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٩ : ٢٩ و ٣٠ . بحار الأنوار : ٣١ : ٨٦ .

(٢) الفتنة الكبرى : ١ : ٢٠ .

وراوغ أبو هريرة قائلاً : ليس لك ذلك .

وورم أنف عمر وصاح به : بلى واللهِ ! وأوجع ظهرك .

ثمّ علاه بالدِّرّة فضربه حتى أدماه ، ولم يجد أبو هريرة ملجأً أمام صرامة عمر وشدّته ، فأحضر الأموال التي انتهبها فردّها على عمر وقال له : احتسبتها عند الله .

فردّ عليه عمر قائلاً : ذلك لو أخذتها من حلال ، وأديّتها طائعاً ، أجئت بها من أقصى حجر البحرين يجبى الناس لك ، لا للهِ ولا للمسلمين ما رجعت بك أُميمة[١] إلّا لرعية الحمر[٢] ، ثمّ شاطره جميع أمواله التي اختلسها من بيت المال ، وكان الأجدر به أن يصادرها أجمع ، أمّا العمال الذين شاطرهم فهم :

١ ـ سمرة بن جندب .

٢ ـ عاصم بن قيس .

٣ ـ مجاشع بن مسعود .

٤ ـ جزء بن معاوية .

٥ ـ الحجّاج بن عتيك .

٦ ـ بشير بن المحتفز .

٧ ـ أبو مريم بن محرش .

٨ ـ نافع بن الحرث .

هؤلاء بعض عمّاله وولاته الذين شاطرهم أموالهم ، ويقول المؤرّخون : إنّ السبب في اتّخاذه هذا الإجراء هو يزيد بن قيس ، فقد حفّزه إلى ذلك ودعاه إليه بهذه الأبيات :

---

(١) **أُميمة** : أمّ أبي هريرة .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٣ : ١٦٣ . وسائل الشيعة : ١ : ٤٣ . الغدير : ٦ : ٢٧١ .

أبــلغْ أمــيرَ الــمُؤمِنينَ رِســالَةً — فَــأنتَ أَمــينُ اللهِ فـي النَّـهي وَالأَمـرِ
وَأنتَ أَمــينُ اللهِ فِــينا وَمَــنْ يَكُــنْ — أَميناً لِرَبِّ العَرشِ يُسلِمْ لَـهُ صَـدْري
فَــلا تَـدَعَنْ أَهـلَ الرَّسـاتيقِ وَالقُـرىٰ — يسيغون مـالَ اللهِ فـي الأَدْمِ وَالوَفْـرِ
فَأَرْسِلْ إلى الحَجّاج فَاعْرِفْ حِسـابَهُ — وَأَرْسِـلْ إلىٰ جَـزءٍ وَأَرْسِـلْ إلىٰ بِشْـرِ
وَلَا تَــنْسَيَنَّ النَّــافِعَينِ كِـلَيْهِما — وَلَا ابْنَ غُلابٍ مِنْ سُراةِ بَنِي نَصْرِ
وَمــا عـاصِمٌ مِـنها بِـصِفرٍ عِـيابَهُ — وَذاكَ الَّذي في السُّوق مَولىٰ بَني بَدْرِ
وَأَرْسِلْ إلى النُّعمانِ وَاعْرِفْ حِسـابَهُ — وَصِـهْرِ بَـني غَـزْوانَ إِنّـي لَـذو خُـبْرِ
وَشِـبْلاً فَسَلْهُ المـالَ وَابْـنَ مُـحَرِّشٍ — فَقَدْ كانَ في أَهْـلِ الرَّسـاتيقِ ذا ذِكْـرِ
فَــقاسِمْهُمُ أَهْــلي فِـداؤُكَ إِنَّـهُمْ — سَيَرْضَونَ إِنْ قاسَمْتَهُمْ مِنكَ بـالشَّطْرِ
وَلَا تَــدْعُوَنّي لِــلشَّهادَةِ إِنَّــني — أَغـيبُ وَلكِـنّي أَرىٰ عَـجَبَ الدَّهْـرِ
نَـؤُوبُ إذا آبُـوا وَنَـغْزوا إذا غَـزَوا — فَـأَنّىٰ لَـهُمْ وَفْـرٌ وَلَسْـنا أُولي وَفْـرِ
إِذا التّــاجِرُ الدّارِيُّ جــاءَ بِــفارَةٍ — مِنَ المِسْكِ راحَتْ في مَفارِقِهِمْ تَجْري

وعلى أثر ذلك قام عمر فشاطر عمّاله نعلاً بنعل(١)، ومعنى هذا الشعر أنّ هؤلاء الولاة قد اقترفوا جريمة السرقة وخانوا مال المسلمين، والواجب يقضي بأن تصادر جميع أموالهم وضمّها إلى بيت مال المسلمين، وإذا ثبتت خيانتهم فيقصون عن وظائفهم، ولا تشاطر أموالهم كما فعل عمر.

وعلى أي حال فإنّ شدّة عمر ومراقبته لولاته لم تجدِ، فقد كانت هناك شكاوى متّصلة منهم، فقد أرسل إليه بعض المسلمين يشتكون من القائمين على الخراج، وفيها هذان البيتان:

---

(١) الغدير: ٦: ٢٧٥ و ٢٧٦. كتاب سليم: ٢٢١. بحار الأنوار: ٣٠: ٣٠١. الإصابة: ٦: ٥٥٢. فتوح البلدان: ٢: ٤٧٣.

نَـــؤُوبُ إذا آبُــوا وَنَـــغْزوا إذا غَـزَوا
فَــأنّىٰ لَــهُمْ وَفْــرٌ وَلَسْـنا اُولي وَفْـرِ
إذا التّـــاجِرُ الدّارِيُّ جـــاءَ بِـــفارَةٍ
مِنَ المِسْكِ راحَتْ في مَفارِقِهِمْ تَجْري[١]

بقي هنا شيء يدعو إلى التساؤل، وهو أنّ عمر قد استعمل الشدّة والصرامة مع عمّاله وولاته سوى معاوية بن أبي سفيان فإنّه كان يحدب عليه ويشفق، فلم يفتح معه أي لون من التحقيق ولم يحاسبه على بذخه وإسرافه، وتكدّس الأموال عنده حيث تتواتر إليه الأخبار باختلاسه لبيت المال وإنفاقه الأموال الهائلة على رغباته وتوطيد ملكه فيعتذر عنه ويشيد به قائلاً: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية[٢]، وهذا مجاف لما في الحديث النبوي: **«هَلَكَ كِسْرىٰ ثُمَّ لَا يَكُونُ كِسْرىٰ بَعْدَهُ، وَقَيْصَرُ لَيَهْلِكَنَّ ثُمَّ لَا يَكُونُ قَيْصَرٌ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُما فِي سَبِيلِ اللهِ»**.

لقد بالغ في تسديد معاوية والإشادة به ولم يحفل بجرحه، فقد أخبره جماعة من الصحابة أنّ معاوية قد جافى سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو يلبس الحرير والديباج ويستعمل أواني الذهب والفضة ولا يتحرّج في أعماله وسلوكه عمّا خالف السنّة، فأنكر عليهم عمر وقال لهم: دعونا من ذمّ فتى من قريش من يضحك في الغضب ولا ينال ما عنده من الرضا، ولا يؤخذ من فوق رأسه إلّا من تحت قدمه[٣].

وقد ذهب في تسديده إلى أبعد من ذلك، فقد نفخ فيه روح الطموح وهدّد به أعضاء الشورى الذين انتخبهم من بعده قائلاً: إنّكم إن تحاسدتم وتدابرتم،

---

(١) فتوح البلدان: ٢: ٤٧٣. كنز العمّال: ٥: ٨٥٢.
(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٦: ١١٤.
(٣) الاستيعاب (المطبوع على هامش الاصابة): ٣: ٣٧٧. تاريخ مدينة دمشق: ٥٩: ١١٢.

وتباغضتم غلبكم على هذا معاوية بن أبي سفيان(١). ولمّا أمِن معاوية جانب عمر أخذ يعمل في الشام عمل من يريد الملك والسلطان(٢).

سياسته المالية

أمّا سياسة عمر ومنهجه المالي فقد كان مخالفاً لسياسة أبي‌بكر المالية، فقد كان أبوبكر يساوي في العطاء، وقد أشار عليه عمر بالعدول عن ذلك فأبى قائلاً: إنّ الله لم يفضّل أحداً على أحد، ولكنّه قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾(٣)، ولم يخصّ قوماً دون آخرين..(٤).

ولمّا أفضت إليه الخلافة عدل عن سياسة أبي‌بكر وفضّل بعض المسلمين على بعض في العطاء، وقال: إنّ أبابكر رأى في هذا الحال رأياً، ولي فيه رأي آخر، لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه(٥).

وقد فرض للمهاجرين والأنصار ممّن شهد بدراً خمسة آلاف، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف، وفرض لأزواج النبيّ ﷺ اثني عشر ألفاً إلّا صفية وجويرية ففرض لهما ستّة آلاف فرفضتا ذلك، كما فرض للعبّاس عمّ رسول الله ﷺ اثني عشر ألفاً، وفرض لأُسامة ابن زيد أربعة آلاف، وفرض لابنه عبدالله ثلاثة آلاف فأنكر عليه ذلك، وقال له: يا أبت، لِمَ زدته عليّ ألفاً؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي، وكان له

---

(١) نهج البلاغة: ١: ١٨٧. النصّ والاجتهاد: ٣٩٤.

(٢) صحيح البخاري: ٣: ١٩١.

(٣) التوبة ٩: ٦٠.

(٤) الخصال: ١٧١، بحار الأنوار: ٣: ٥١.

(٥) كنز العمّال: ٥: ٥٩٣. الطبقات الكبرى: ٣: ٢٩٦. فتوح البلدان: ٣: ٥٥٠.

ما لم يكن لي ؟

فقال له عمر : إنّ أبا أُسامة كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك ، وكان أُسامة أحبَّ إلى رسول الله منك(١).

وقد فضّل عمر العرب على العجم ، والصريح على الموالي(٢).

وأدّت هذه السياسة إلى إيجاد الطبقيّة بين المسلمين ، كما أدّت إلى تصنيف الناس بحسب قبائلهم وأُصولهم ، فنشط النسّابون لتدوين الأنساب ، وتصنيف القبائل بحسب أُصولها(٣).

وكان هذا الإجراء قد أوجد تحوّلاً في الجماعة الإسلامية ، فقد أدّى إلى حنق الموالي على العرب ، وظهور النعرات الشعوبية والقومية ، في حين إنّ الإسلام قد ساوى بين جميع المسلمين وجعل رابطة الدين أقوى من رابطة النسب والدم.

ناقدون

وأثارت هذه السياسة المالية التي انتهجها عمر موجة من النقد والسخط من المحقّقين ، وهؤلاء بعضهم :

١ ـ الدكتور محمّد مصطفى

وأنكر الدكتور محمّد مصطفى هذه السياسة ، قال : « وفرض العطاء على هذه الصورة قد أثّر تأثيراً خطيراً في الحياة الاقتصادية للجماعة الإسلامية ؛ إذ خلق شيئاً فشيئاً طبقة ارستقراطية غنيّة يأتيها رزقها رغداً دون أن تنهض بعمل ما مقابل

---

(١) الخراج : ٢٤٤. المصنّف : ٧: ٦١٥. كنز العمّال : ٥: ٥٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٨: ١١١.

(٣) العصبيّة القبليّة : ١٩٠.

ما يدخل إليها من أموال.. ذلك أنّ فرض العطاء كان يرتكز على ناحيتين: القرابة من رسول الله، والسابقة في الإسلام، ولهذه القرابة ولتلك السابقة درجات ودرجات، وبهذا لم يرع عمر فرض العطاء ذلك للمقابل الذي لا بدّ من أن تأخذه الدولة في صورة عمل وجهاد»(١).

٢ - العلّامة العلائلي

قال العلّامة العلائلي: «هذا التنظيم المالي أوجد تمايزاً كبيراً، وأقام المجتمع العربي على قاعدة الطبقات بعد أن كانوا سواء في نظر القانون (الشريعة)، فقد أوجد ارستقراطية وشعباً وعامّة»(٢).

٣ - الدكتور عبدالله سلام

وأنكر الدكتور عبدالله سلام هذه السياسة التي انتهجها عمر في سياسته المالية، قال: «لست أدري كيف اتّخذ عمر هذا الاجراء ولماذا اتّخذه؟ إنّه إجراء أوجد تفاوتاً اجتماعياً واقتصادياً، إجراء أوجد بذور التنافس والتفاضل بين المسلمين»(٣).

إنّ السياسة التي جرى عليها عمر في الميدان الاقتصادي لا تحمل أي طابع من التوازن، فقد خلقت الرأسمالية عند عدد من الصحابة، فقد تكدّست عندهم الأموال، وقد خلّف بعضهم بعد موته من الذهب ما يكسّر بالفؤوس، وبذلك فقد سيطرت الرأسمالية على شؤون الدولة، وقد سخّرت أجهزتها لمصالحها الخاصّة، وقد ازداد نفوذها وثراؤها أيام حكومة عثمان بن عفّان عميد الأسرة الأموية وبعد قتله، ولمّا تسلّم الإمام عليه السلام قيادة الحكم جهدت في معارضته؛ لأنّ سياسته

---

(١) اتّجاهات الشعر العربي: ١٠٨.

(٢) الإمام الحسين عليه السلام: ٢٣٢.

(٣) الغلوّ والفِرق الغالية في الحضارة الإسلامية: ٢٥١.

العادلة كانت تهدف إلى منعهم من الامتيازات الخاصّة ومصادرة أموالهم التي ابتزّوها بغير حقّ ، كما سنوضّح ذلك عند التحدّث عن حكومة الإمام .

ندم عمر

وندم عمر في آخر أيام حكومته لما تفشّى الثراء العريض عند بعض الصحابة وراح يقول : لو استقبلت من أمري ما استدبرته أخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء .

وفيما أحسب أنّ هذا الإجراء الذي أراد عمر أن يتّخذه لا يخلو من تأمّل ؛ فإنّ فضول أموال الأغنياء إن كانت مختلسة من أموال الدولة فيجب مصادرتها وتأميمها ، وإن كانت من أموال التجارة فليس له من سبيل عليها ، والواجب أخذ ما عليها من الضرائب المالية إن كانت خاضعة لها ، ومهما يكن الأمر فإنّ أموال الأغنياء إن كانت من الفيء ومن جباية الجزية والخراج فهي ملك للمسلمين فلا يجوز أن يستأثر بها فريق دون فريق .

اعتزال الإمام عليه السلام

واعتزل الإمام أيام حكومة عمر ، ولم يشترك بأي عمل من أعمال الدولة ، كما اعتزل في أيام حكومة أبي بكر ، يقول محمّد بن سليمان في أجوبته على أسئلة جعفر بن مكّي عمّا دار بين علي وعثمان : إنّ عليّاً دحضه الأوّلان ـ يعني أبابكر وعمر ـ وأسقطاه ، وكسرا ناموسه بين الناس فصار نسياً منسيّاً ..[1] .

ويعزو الإمام عليه السلام جميع ما لاقاه في حياته من النكبات والأزمات إلى عمر ، وذلك في حديث خاصّ له مع عبدالله بن عمر[2] .

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٩ : ٩٨ . مكاتيب الرسول : ١ : ٥٩٢ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٥٤ .

وعلى أي حال فقد اعتزل الإمام عليه السلام الناس اعتزالاً تاماً، وانصرف إلى تفسير القرآن الكريم، ولم يتّصل بأحد سوى الصفوة من أصحابه أمثال الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر، والثائر على الحكم الأموي أبوذرّ، وسلمان الفارسي وغيرهم من خيار أصحاب الرسول.

وكان عمر يرجع إلى الإمام في المسائل الفقهية؛ لأنّ بضاعته كانت قليلة فيها، وقد شاع عنه قوله: لولا علي لهلك عمر[1].

وقد نزلت في عمر نازلة فحار في التخلّص منها، وعرض ذلك على أصحابه فقال لهم: ما تقولون في هذا الأمر؟

فأجابوه: أنت المفزع والمنزع.

فلم يرضه قولهم وتلا قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾[2]، ثمّ قال لهم: أما واللهِ! إنّي وإيّاكم لنعلم ابن بجدتها والخبير بها.

فقالوا: كأنّك أردت ابن أبي طالب؟

وأنّى يعدل بي عنه، وهل طفحت حرّة بمثله.

لو دعوته يا أمير المؤمنين.

فامتنع من إجابتهم وقال: إنّ هناك شمخاً من هاشم، واثرة من علم، ولحمة من رسول الله صلى الله عليه وآله يؤتى ولا يأتي فامضوا بنا إليه.

وخفّوا جميعاً إليه فوجدوه في حائط له يعمل فيه وعليه تبان، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً** ﴾[3] إلى آخر السورة ودموعه تنهمر على

---

(١) الغدير: ٦: ٨٣، وفيه عرض شامل لذلك. ينابيع المودّة: ٣: ١٤٦ و ١٤٧.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٧٠.

(٣) القيامة ٧٥: ٣٦.

خدّيه، فلمّا رآه القوم اجهشوا بالبكاء، ولمّا سكتوا سأله عمر عمّا ألمّ به، فأجابه عنه، والتفت عمر إلى الإمام فقال له: أما والله! لقد أرادك الحقّ، ولكن أبى قومك.

فأجابه الإمام: «**يا أبا حفص، خفّض عليك من هنا وهنا**»، وقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً**﴾[1].

وذهل عمر فوضع إحدى يديه على الأخرى، وخرج كأنّما ينظر في رماد[2].

وعلى أي حال فإنّ الإمام في خلافة عمر قد كان جليساً في بيته يساور الهموم، ويسامر النجوم، ويتوسّد الأرق، ويتجرّع الغصص، قد كظم غيظه، وأوكل أمره إلى الله تعالى.

نصيحته عليه السلام لعمر

ونصح الإمام عليه السلام عمر في موضعين، وأسدل عمّا يكنّه من الموجدة من ضياع حقّه، وذلك حفظاً لكلمة الإسلام وهما:

١ - غزو الروم

ورام عمر أن يمضي لغزو الروم، فنهاه الإمام عن ذلك وقال له: «**إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هٰذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ[3] دُونَ أَقْصَىٰ بِلَادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَاحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللّٰهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ**

---

(١) النبأ ٧٨: ١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٢: ٧٩ و ٨٠. بحار الأنوار: ٣٠: ١١٢ و ١١٣. الغدير: ٦: ١٧٢.

(٣) **الكانفة**: هي العاصمة التي يلجأون إليها.

وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ».

٢ ـ غزو الفرس

واستشار عمر الإمام في الخروج بنفسه لغزو الفرس، فأشار عليه بعدم خروجه قائلاً:

«إِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّىٰ بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْإِجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَا بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ. وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!».

وكان رأي الإمام هو الرأي المشرق، فإنّ خروج عمر مع الجيش تكون له مضاعفاته السيّئة على المسلمين، والتي منها أنّه لو اندحر الجيش الإسلامي وفيهم

عمر لانطوت بذلك راية الإسلام .

٣ ـ حليّ الكعبة

وفي أيام عمر كثرت الحليّ على الكعبة ، فأشار عليه القوم ببيعها وإرصاد ثمنها للجيوش الإسلامية لأنّ الكعبة ما تصنع بالحليّ ، وأراد عمر تنفيذ ذلك ، فاستشار الإمام عليه السلام فقال له الإمام :

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَالْأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ : أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ ؛ وَالْفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهِ ؛ وَالْخُمُسُ فَوَضَعَهُ اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ ؛ وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلَهَا . وَكَانَ حَلْيُ الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ ، فَتَرَكَهُ اللهُ عَلَىٰ حَالِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسْيَاناً ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَكَاناً ، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ .

فاستحسن عمر رأي الإمام ، وأبدى إعجابه قائلاً : لولاك لافتضحنا ، وترك الحليّ بحاله .

اغتيال عمر

وآثرنا الايجاز في خلافة عمر ولم نعرض إلى الأحداث التي رافقت حكومته ، خصوصاً ما صدر منه من الفتاوى التي كانت من الاجتهاد قبال النصّ كتحريم المتعة وغيرها ، فقد عرض لها علماء الشيعة وفقهاؤهم ، وفي طليعتهم الإمام الأعظم شرف الدين في كتابه الذائع الصيت (النصّ والاجتهاد) ، والمحقّق الكبير الإمام الشيخ عبدالحسين الأميني في كتابه الخالد (الغدير) .

وعلى أي حال فإنّ الذي يعنينا اغتيال عمر ، ووضعه لنظام الشورى قبل وفاته ، أمّا اغتيال عمر فيعزوه بعض الكتّاب المحدثين إلى بني اُميّة ، فقد أرادوا التخلّص

من حكمه وفرض سلطانهم على المسلمين[١]، وقد أستدلّوا على ذلك بأنّ أبا لؤلؤة الذي اغتال عمر كان مولى للمغيرة بن شعبة الذي له صلة وثيقة بالأمويّين.. وهذا الرأي لا يحمل أي طابع من التحقيق ؛ لأنّ علاقة عمر بالأمويّين كانت وثيقة للغاية، ولم تقع بينهما أيّة منافسة، وكانوا من أعداء الإمام وهو المنافس الوحيد له.

واستعمل عمر وجوه الأمويّين ولاة على الأقطار الإسلامية أمثال يزيد بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص ومعاوية، ولم يشاطر أي واحد منهم أمواله كما شاطر بقيّة عمّاله، وكان معنيّاً بشؤون نسائهم، فقد أقرض هند بنت عتبة أُمّ معاوية أربعة آلاف من بيت المال تتّجر فيها[٢]، وقد أعدّ في بيته مكاناً خاصّاً فرشه بأحسن الفرش ولم يسمح لأي أحد بالدخول فيه سوى أبي سفيان، وعوتب على ذلك فقال: هذا شيخ قريش[٣]، فكيف يقومون باغتياله.

ومهما يكن الأمر فإنّ من المقطوع به أنّ أبا لؤلؤة إنّما اندفع لاغتيال عمر بوحي من نفسه، لا بدافع أُموي، ويعود السبب في ذلك أنّه كان شاباً متحمّساً لشعبه ووطنه، فقد رأى بلاده فتحت عنوة، وقد انطوى مجد الفرس وذهب عزّهم، ورأى عمر قد بالغ في احتقار الفرس، وتمنّى أن يحول بينهم وبينه جبل من حديد، كما حضر عليهم دخول يثرب إلّا من كان سنّه دون البلوغ[٤].

وأصدر فتواه بعدم إرثهم إلّا من ولد في بلاد العرب[٥].

---

(١) من أنصار هذا الرأي العلّامة المغفور له العلائلي، ذهب إلى ذلك في كتابه: سموّ المعنى في سموّ الذات: ٣١.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣: ٣٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣: ٣٤١.

(٤) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٢: ١٨٥.

(٥) الموطأ: ٢: ١٢. بداية المجتهد ونهاية المقتصد / ابن رشد الحفيد: ٢: ٢٨٨.

كما كان يعبّر عنهم بالعلوج ، وهو بالذات قد خفَّ إلى عمر شاكياً ضيقه وجهده من جراء ما فرض عليه المغيرة من ثقل الخراج فلم يعن به عمر وصاح به .

وما خراجك بكثير من أجل الحرف التي تحسنها .

وأوجد ذلك حنقاً وحقداً عليه ، فأضمر له في نفسه الشرّ ، وقد اجتاز عليه فسخر منه ، وقال له : بلغني أنّك تقول : لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت . .

فلذعته هذه السخرية وقال له : لأصنعنّ لك رحى يتحدّث بها الناس .

وفي اليوم الثاني قام بعملية الاغتيال(١) ، فطعنه ثلاث طعنات إحداهنّ تحت السرّة فخرقت الصفاق(٢) .

ثمّ حمل على أهل المسجد فطعن أحد عشر رجلاً ، وعمد إلى نفسه فانتحر ، وحمل عمر إلى داره وجراحاته تنزف دماً ، فقال لمن حوله : من طعنني ؟

غلام المغيرة .

ألم أقل لكم لا تجلبوا لنا من العلوج أحداً فغلبتموني(٣) .

وأحضر له أهله طبيباً فقال له : أي الشراب أحبُّ إليك ؟

النبيذ .

فسقوه منه ، فخرج من بعض طعناته ، فقال الناس : خرج صديداً ، ثمّ سقوه لبناً فخرج من بعض طعناته ، فيئس منه الطبيب ، وقال له : لا أرى أن تمسي(٤) .

---

(١) مروج الذهب : ٢ : ٢١٢ .

(٢) **الصفاق** : الجلد الأسفل الذي تحت الجلد .

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٢ : ١٨٧ . تاريخ المدينة : ٣ : ٩٠٤ .

(٤) الاستيعاب (المطبوع على هامش الإصابة ٩ : ٢ : ٤٦١ . الإمامة والسياسة : ١ : ٢١ . أسد الغابة : ٤ : ٧٦ و ٧٧ .

وصيّته

ولمّا أيقن عمر بدنو الأجل المحتوم أوصى ولده عبدالله ، وقال له : انظر ما عليّ من الدَّين ، فنظروا فيه فإذا به مدين لبيت المال ستين ألفاً لا نعلم أنّها من الدنانير أو من الدراهم .

وقال لولده بعد أن بيّن مقدار دينه : إنّ وفى به مال آل عمر فأدّه من أموالهم ، وإلّا فسل فيّ بني عدي بن كعب ، فإن لم تفِ به أموالهم ، فسل فيّ قريش ، ولا تعدهم إلى غيرهم(١) .

ويواجه هذه الوصية عدّة من المؤاخذات ذكرناها بالتفصيل في الجزء الأوّل من كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه‌السلام) .

عمر مع ابنه عبدالله

وطلب عبدالله من أبيه عمر أن ينصّ على أحد من المسلمين ويجعله خليفة عليهم من بعده قائلاً له : يا أبتي ، استخلف على اُمّة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فإنّه لو جاء راعي إبلك أو غنمك وترك إبله أو غنمه لا راعي لها ، وقلت له : كيف تركت أمانتك ضائعة فكيف باُمّة محمّد ، فاستخلف عليهم .

ورمقه عمر بطرفه ، وأجابه : إن استخلف عليهم فقد استخلف أبوبكر ، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله(٢) .

ولعلّ « الوجع » قد غلب عمر فنسي قيام النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بنصب عليّ خليفة من بعده في يوم « غدير خم » ، وألزم المسلمين بمبايعته ، وعمر بالذات ممّن بايعه ، وقال له :

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٢ : ١٨٨ . نيل الأوطار : ٦ : ١٥٩ . صحيح البخاري : ٤ : ٢٠٥ . تاريخ مدينة دمشق : ٤٤ : ٤١٦ . أُسد الغابة : ٤ : ٧٥ .

(٢) مروج الذهب : ٢ : ٢١٧ .

بخ بخ لك يا عليّ ، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة .

وهل أبو بكر أشفق على المسلمين من النبيّ فأوصى من بعده بالخلافة إلى عمر وأهمل ذلك النبيّ ولم يوص لأحد من بعده ؟

وعلى أي حال فإنّ عمر قد فتكت به جراحاته ، وأحاطت به الآلام ، فجزع جزعاً شديداً ، وجعل يقول : لو أنّ لي ما في الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه[١] .

والتفت لولده عبدالله وقال له : ضع خدّي على الأرض .

فلم يحفل به ولده ، وظنّ أنّه قد اختلس عقله ، وأمره ثانياً بذلك فلم يجبه ، فصاح به : ضع خدّي على الأرض لا أمّ لك .

وبادر عبدالله فوضع خدّ أبيه على الأرض ، وأخذ يجهش بالبكاء ويقول : يا ويل عمر !! وويل أمّ عمر !! إن لم يتجاوز الله عنه[٢] ، ولعلّه قد لاحت له في تلك اللحظات الأخيرة من حياته ما أنزله بالأسرة النبوية من النكبات والأزمات .

وعلى أي حال فإنّ عمر بعث ولده إلى عائشة يستأذن منها أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر فسمحت بذلك[٣] ، وعلّقت الشيعة على ذلك فقالت : إنّ ما تركه النبيّ صلى الله عليه وآله من متع الحياة إن كان لا يرثه أهله ، وإنّما هي لولي الأمر من بعده حسب ما يرويه أبوبكر ، فلا وجه للاستئذان من عائشة ، وإن كان يرجع إلى ورثة النبيّ صلى الله عليه وآله كما يقول بذلك أهل البيت عليهم السلام فليس لعائشة فيه أي نصيب ؛ لأنّ الزوجة لا ترث من الأرض ، وإنّما ترث من البناء ، حسبما قرّره فقهاء المسلمين ، ولا بدّ حينئذٍ أن يكون الإذن في دفنه من ورثة النبيّ صلى الله عليه وآله ولم يتحقّق ذلك .

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٢ : ١٩٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٢ : ١٩٣ .

(٣) المصدر المتقدّم : ١٩٠ .

نظام الشورى

ونظام الشورى الذي وضعه عمر كنظام السقيفة ، قد أخلد للمسلمين المصاعب وألقاهم في شرّ عظيم ، وهو نظام مفضوح لا غبار عليه في أنّ القصد منه إقصاء الإمام عليه السلام عن قيادة الأُمّة وتسليمها لبني اُميّة إرضاءً لعواطف القرشيّين المترعة بالحقد والكراهية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

ونحن نعرض إلى الشورى العمرية بدراسة وتحليل بعيدة عن العواطف التقليدية ، لم نقصد بذلك إلّا إبراز الواقع التأريخي على ما هو عليه .

وعلى أي حال ، فإنّ عمر لمّا أحسّ بدنو الأجل المحتوم منه أخذ يمعن فيمن يتولّى شؤون الحكم من بعده ، وقد راح يتذكّر أقطاب حزبه الذين استعان بهم على البيعة لأبي بكر ، وصرف الخلافة عن الإمام أمير المؤمنين ، فجعل يصعّد حسراته ويبدي أساه عليهم قائلاً : « لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته ؛ لأنّه أمين هذه الأمّة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفته ؛ لأنّه شديد الحبّ لله تعالى » وليس لأبي عبيدة أي نصيب في خدمة الأُمّة الإسلامية وجهاد يذكر .

كما أنّ سالم مولى أبي حذيفة ليس من الشخصيّات الإسلاميّة المعروفة ، وإنّما كان من سواد المسلمين ، إلّا أنّه ساهم مساهمة إيجابية في مؤتمر السقيفة ، وكان كقوة ضاربة في حماية أعضائها .

وعلى أي حال فقد طلب منه أصحابه أن يرشّح أحداً من بعده ليتولّى شؤون المسلمين ، فأبى وقال : أكره أن أتحمّلها حيّاً وميّتاً .

ولكنّه لم يلبث أن عدل عن رأيه فانتخب أعضاء الشورى الستّة ، وفوّض إليهم انتخاب أحدهم ليكون والياً على المسلمين ، وبذلك فقد تحمّل الخلافة حيّاً وميّتاً ، وعلّق ابن أبي الحديد على كلامه ، قائلاً : « أي شيء يكون من التحمّل أكثر من هذا ؟ وأي فرق بين أن يتحمّلها ، بأن ينصّ على واحد بعينه ، وبين أن يفعل ما فعله

من الحصر والترتيب »[١].

صلاة صهيب

وأوعز عمر إلى صهيب أن يصلّي بالناس حينما اغتاله أبو لؤلؤة، فصلّى بهم، وفي ذلك يقول الفرزدق:

صَلّى صُهَيبٌ ثَلاثاً ثُمَّ أَرْسَلَها ... إلى ابْنِ عَفّانَ مُلْكاً غيرَ مَقْصُورِ[٢]

انتخاب عمر لأعضاء الشورى

وانتخب عمر ستّة أشخاص، وجعلهم أعضاء للشورى وألزمهم بانتخاب واحد منهم ليتولّى قيادة الأمّة، وهم:

١ ـ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٢ ـ سعد بن أبي وقّاص.

٣ ـ الزبير بن العوّام.

٤ ـ طلحة.

٥ ـ عثمان بن عفّان.

٦ ـ عبدالرحمن بن عوف.

والشيء البارز في هذا الانتخاب أنّه لم يجعل أي نصيب فيه للأنصار الذين نصروا النبيّ، واحتضنوا مبادئه، ولعلّ السبب في ذلك هو ميولهم للإمام عليه السلام، وقد اقتصر أعضاء الشورى على الجناح القرشي، وليس لغيرهم فيه أي نصيب.

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٢: ٢٦٠. النصّ والاجتهاد: ٣٨٤.

(٢) نور القبس المختصر من المقتبس / المرزباني: ١. تاريخ الأمم والملوك: ٣: ٢٩٨. التنبيه والاشراف: ٢٥٣.

عمر مع أعضاء الشورى

وطلب عمر حضور أعضاء الشورى الذين انتخبهم ، فلمّا مثلوا أمامه وجّه إليهم أعنف القول وأقساه ورماهم بالصفات الذميمة التي توجب القدح في ترشيحهم لمنصب الإمامة ، وقد روى المؤرّخون صوراً لحديثه معهم ، وهذه بعضها :

الرواية الأُولى :

إنّ أعضاء الشورى لمّا حضروا عنده قال لهم : أكلّكم يطمع بالخلافة بعدي ؟

ووجموا عن الكلام ، فأعاد عليهم القول ثانياً ، فأجابه الزبير : وما الذي يبعدنا منها ، وَلِيْتَها ـ أي الخلافة ـ أنت فقمت بها ، ولسنا دونك في قريش ، ولا في السابقة ، ولا في القرابة . . ، ولم يسعه الردّ عليه لأنّه ليس في كلامه فجوة يسلك فيها لإبطال كلامه ، والتفت عمر إلى الجماعة فقال لهم : أفلا أُخبركم عن أنفسكم ؟

فأجابوا مجمعين : قل ، فإنّا لو استعفيناك لم تعفنا .

وأخذ يحدّثهم عن نفسيّاتهم وميولهم ، فوجّه كلامه لكلّ واحد منهم :

مع الزبير

« أمّا أنت يا زبير ! فَوَعِقٌ لَقِسٌ [١] ، مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، يوماً إنسانٌ ويوماً شيطانٌ ، ولعلّها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مدٍّ من شعير . . أفرأيت إن أفضت إليك ، فليت شعرى مَن يكون للناس يوم تكون شيطاناً ؟

ومن يكون يوم تغضب ! ! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأُمّة وأنت على هذه الصفة » .

إنّ الزبير حسب هذا التحليل النفسي لشخصيّته مبتلى بآفات شريرة وهي :

---

(١) **الوعق** : الضجر والتبرّم . **اللقس** : من لا يستقيم على أمر .

١ ـ الضجر والتبرّم .

٢ ـ الغضب الشديد الذي يفقده الرشد .

٣ ـ عدم الاستقامة في السلوك .

٤ ـ الحرص والبخل .

وهذه النزعات من مساوئ الصفات ، ومن اتّصف ببعضها لا يصلح لأن يكون إماماً للمسلمين .. ومع هذه الصفات الماثلة فيه كيف رشّحه للخلافة ؟

مع طلحة

وأقبل عمر على طلحة ، وأخذ يحدّثه بنزعاته فقال له : أقول أم أسكت ؟

فزجره طلحة وقال له : إنّك لا تقول من الخير شيئاً .

وأخذ عمر يقول : أما إنّي أعرفك منذ أصيبت اصبعك يوم اُحد وائياً بالذي حدث لك ، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب .

وإذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله ساخطاً على طلحة كيف يرشّحه للخلافة ، كما أنّه مناقض لما قاله في أعضاء الشورى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عنهم .

وعلّق الجاحظ على مقاله بقوله : « لو قال لعمر قائل : أنت قلت إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عن الستّة ، فكيف تقول الآن لطلحة : إنّه مات صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها ، لكان قد رماه بمشاقصه[1] ، ولكن من الذي كان يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا فكيف هذا ؟ » .

---

(١) **المشاقص** : جمع مشقص ، وهو نصل السهم .

مع سعد بن أبي وقّاص

واتّجه صوب سعد بن أبي وقّاص، فقال له : إنّما أنت صاحب مقنب[1] من هذه المقانب تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وسهم، وما زهرة والخلافة وأُمور الناس ؟

وحكى كلام عمر اتّجاهات سعد وأنّه رجل عسكري لا يفقه إلّا عمليات الحروب، ولا خبرة له بالشؤون الإدارية والسياسية، وإذا كانت هذه اتّجاهاته كيف جعله من أعضاء الشورى ؟

مع عبدالرحمن بن عوف

وأقبل عمر على عبدالرحمن بن عوف، فقال له : أمّا أنت يا عبدالرحمن فلو وزن نصف ايمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك عليهم، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر ؟

إنّ عبدالرحمن ـ حسب رأي عمر ـ مثال للإيمان والتقوى، وانّ إيمانه يساوي نصف إيمان المسلمين، ومن إيمانه المزعوم أنّه عدل عن انتخابه سيّد العترة الطاهرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسلّم الخلافة إلى بني أُميّة، فاتّخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً .

وإذا لم تكن لعبدالرحمن شخصية صلبة وقوية ـ حسب رأي عمر ـ كيف رشّحه للخلافة ؟

مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

والتفت عمر إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : لله أنت لولا دعابة فيك .. أمّا واللهِ ! لئن وليتهم لتحملنّهم على الحقّ الواضح والمحجّة البيضاء .

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .

ومتى كانت للإمام أمير المؤمنين عليه السلام الدعابة ؟ وهو الذي ما ألِف في حياته غير الجدّ والحزم .

إنّ الدعابة تنمّ عن ضعف الشخصية ، وقد اعترف عمر أنّ الإمام لو ولي أُمور المسلمين لحملهم على الحقّ الواضح والمحجّة البيضاء ، ومن المؤكّد أنّ من يقوم بذلك لا بدّ أن يكون شخصية قوية ذا إرادة صلبة .

وعلى أي حال فإنّ عمر اعترف بأنّ الإمام لو تقلّد الحكم لسار بين المسلمين على الحقّ الواضح ، وحملهم على الصراط المستقيم ، فكيف جعله من أعضاء الشورى ولم يسند إليه الحكم مباشرة ؟

مع عثمان

وأقبل عمر على عثمان عميد الأُسرة الأموية ، وهو الذي كتب العهد بولايته من أبي بكر ، وهو المرشّح الوحيد عنده للخلافة فقال له : هيها إليك ، كأنّي بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك ، فحملت بني أُميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء ، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً .

واللهِ ! لئن فعلوا لتفعلن ، ولئن فعلت ليفعلن ، ثمّ أخذ بناصيته فقال له : فإذا كان ذلك فاذكر قولي (١) .

والشيء المؤكّد أنّ عثمان لم تقلّده قريش منصب الخلافة ، وإنّما عمر هو الذي قلّده بها ، ولم يكن ترشيحه له في أيام مرضه وإنّما كان قبل ذلك بزمان ، فقد روى الحرب بن نصر قال : حججت مع عمر ، وكان الحادي يحدو أنّ الأمير

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١٨٥ و ١٨٦ . الايضاح : ١٦٥ . بحار الأنوار : ٣١ : ٣٨٩ .

بعد عمر عثمان[١].

إنّ نظام الشورى الذي وضعه عمر يؤدّي حتماً إلى فوز عثمان بالخلافة، فقد جعله من أعضاء الشورى، وكان معظمهم ممّن لهم ميول واتّصال وثيق بالأمويّين، وهم لا يعدلون عن انتخابه كما سنعرض لذلك.

الرواية الثانية:

رواها ابن قتيبة أنّ أعضاء الشورى التقوا بعمر فقالوا له: قل فينا يا أمير المؤمنين! مقالة نستدلّ فيها برأيك ونقتدي بها.

فقال مخاطباً لسعد: والله! ما يمنعني أن أستخلفك يا سعد إلّا شدّتك وغلظتك مع أنّك رجل حرب.

وقال لعبد الرحمن: وما يمنعني منك يا عبد الرحمن! إلّا أنّك فرعون هذه الأُمّة.

وقال مخاطباً للزبير: وما يمنعني منك يا زبير! إلّا أنّك مؤمن الرضا، كافر الغضب.

وقال لطلحة: وما يمنعني من طلحة إلّا نخوته وكبره، ولو وليها وضع خاتمه في اصبع امرأته.

وقال لعثمان: وما يمنعني منك يا عثمان! إلّا عصبيّتك وحبّك لقومك وأهلك.

وقال للإمام أمير المؤمنين: وما يمنعني منك يا عليّ! إلّا حرصك عليها، وأنّك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحقّ المبين والصراط المستقيم[٢].

وقد اتّهم عمر أعضاء الشورى بمساوئ الصفات، فوصف عبدالرحمن أنّه

---

(١) جواهر المطالب: ٢٩٠. تاريخ مدينة دمشق: ٣٩: ١٨٧.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ٢٤.

فرعون هذه الأمّة ، وإذا كان ذلك فكيف جعله من أعضاء الشورى ؟ والغريب أنّه في الفصل الأخير من وصاياه أناط برأيه شؤون الخلافة ، وجعل قوله في انتخاب أحد المرشّحين منطق الفصل وفصل الخطاب .

ووصف الإمام بالحرص على الخلافة ، وهو اتّهام مردود ، فإنّ سيرة الإمام مشرقة كالشمس بعيدة عن الحرص كلّ البعد ، فإنّه لم يكن بأيّ حال من عشّاق الملك والسلطان ، وإنّما نازع الخلفاء وأقام عليهم الحجّة بأنّه أولى بالخلافة وأحقّ بها منهم من أجل أن يقيم في هذا الشرق وفي غيره حكم القرآن وعدالة الإسلام ، وقد صرّح عليه السلام بذلك بقوله : **اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ، وَلٰكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ .**

وأدلى عليه السلام في حديثه مع ابن عبّاس عن زهده للسلطة واحتقاره للحكم ، وكان عليه السلام يخصف بيده نعله الذي كان من ليف ، فقال لابن عبّاس : **يابْنَ عَبّاسٍ ، ما قِيمَةُ هٰذَا النَّعْلِ ؟**

يا أمير المؤمنين ، لا قيمة له .

إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ خِلَافَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً وَأَدْفَعَ باطِلاً .

من أجل إقامة الحقّ وتطبيق العدالة الاجتماعية كان الإمام يبغي الحكم وسيلة لتحقيق مثله العليا .

الرواية الثالثة :

رواها ابن أبي الحديد المعتزلي ، قال : « نظر إلى أعضاء الشورى ، فقال لهم : قد جاءني كلّ واحد منكم يهزّ عفريته يرجو أن يكون خليفة .

ثمّ التفت إلى طلحة فقال له : أمّا أنت يا طلحة ! أفلست القائل : إن قبض النبيّ

أنكح أزواجه من بعده ؟ فما جعل الله محمّداً أحقّ ببنات أعمامنا منّا ، فأنزل الله فيك : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً ﴾[(١)].

ثمّ التفت إلى الزبير فقال له : وأمّا أنت يا زبير ! فوالله ! ما لان قلبك يوماً ولا ليلة ، وما زلت جلفاً جافياً .

ووجّه خطابه إلى عثمان فقال له : وأمّا أنت يا عثمان ! لروثة خير منك .

ثمّ التفت إلى عبدالرحمن بن عوف فقال له : وأمّا أنت يا عبدالرحمن ! فإنّك رجل عاجز ، تحبّ قومك .

ثمّ وجه خطابه إلى سعد بن أبي وقّاص فقال له : وأمّا أنت يا سعد ! فصاحب عصبية وفتنة .

ثمّ التفت إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : وأمّا أنت يا عليّ ! لو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لرجحهم .

وانصرف الإمام عنه ، فالتفت عمر إلى حضّار مجلسه فقال لهم : والله ! إنّي لأعلم مكان الرجل لو ولّيتموه أمركم لحملكم على المحجّة البيضاء .

وبادروا قائلين : مَن هو ؟

هذا المولّي بينكم ـ وأشار إلى الإمام .

ما يمنعك من ذلك ؟

ليس إلى ذلك من سبيل »[(٢)].

ولِمَ لا سبيل إلى ترشيح الإمام بعد ما رشّحه النبيّ صلى الله عليه وآله وقلّده منصب الخلافة في يوم غدير خم ، فهل هناك عيب في الإمام وعدم توفّر قابليات القيادة فيه ؟ نعم ،

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٢ : ١٥٩. الإمام عليّ في آراء الخلفاء : ١٠٨.

إنّها الأضغان والأحقاد التي أُترعت بها نفوس القوم ضدّ وصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه ، واللهُ هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون .

الهيئة المشرفة على الانتخاب

وأقام عمر هيئة مشرفة على عملية الانتخاب ، وليس لها رأي سوى الإشراف ، فقد قال لأعضاء الشورى : احضروا معكم من شيوخ الأنصار ، وليس لهم من أمركم شيء ، وأحضروا معكم الحسن بن عليّ وعبدالله بن عبّاس ، فإنّهما لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة في حضورهما ، وليس لهما من أمركم شيء .

والملاحظ في هذه الهيئة التي أقامها عمر هو أنّه أقصى الأنصار عن الانتخاب والاختيار لمن يرغبون فيه للحكم ، وجعل لهم الإشراف المجرّد الذي يعني حرمانهم من الحكم ، وبذلك فقد نقض العهد الذي قطعه أبو بكر على نفسه للأنصار حيث قال لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء .. فلم يجعل لهم عمر أي دور في شؤون الدولة ، وإنّما جعلهم شرطة وجنوداً لحكومته .. ثمّ إنّا لا نعلم ما هي البركة التي ينعم بها أعضاء الشورى في حضور الإمام الحسن وعبدالله بن عبّاس ، وهما لا يملكان من الأمر شيئاً ؟

عمر مع أبي طلحة والمقداد

وأراد عمر أن يحكم الشورى ويتقن بنودها ، ويفرضها على المسلمين فالتفت إلى أبي طلحة الأنصاري ، وهو فيما أظنّ مدير لشرطته ، فقال له : يا أبا طلحة ! إنّ الله أعزّ بكم الإسلام ، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فألزم هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله .

ثمّ التفت إلى المقداد وعهد إليه بما يلي : إذا اتّفق خمسة وأبى واحد منهم فاضربوا عنقه ، وإن اتّفق أربعة وأبى اثنان فاضربوا عنقيهما ، وإن اتّفق ثلاثة منهم

على رجل ورضي ثلاثة منهم برجل آخر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس.

وهذا الكلام حافل بالمؤاخذات، سنعرض له عند البحث عن آفات الشورى.

إنذار عمر للصحابة

وشيء خطير بالغ الأهمّية هو أنّ عمر أنذر أعضاء الشورى وهدّدهم بعمرو بن العاص واليه على مصر وبمعاوية واليه على الشام، فقد قال لهم: يا أصحاب محمّد، تناصحوا، فإن لم تفعلوا غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان.

وعلّق شيخ الإمامية الشيخ المفيد على هذا الكلام بقوله: «وإنّما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة، وإطماعهما فيها لأنّ معاوية كان عامله وأميره على الشام وعمرو بن العاص عامله وأميره على مصر، وخاف أن يضعف عثمان وتصير الخلافة إلى عليّ فألقى هذه الكلمة إلى الناس لتنقل إليهما وهما بمصر والشام، فيتغلّبا على هذين الاقليمين إن أفضت إلى عليّ»[١].

وهو تحليل وثيق للغاية، فقد أراد أن يظهر ابن العاص ومعاوية التمرّد على الإمام إن آلت الخلافة إليه، وتحقّق ذلك، فإنّه بعد أن آلت الخلافة إلى الإمام كان معاوية وابن العاص في طليعة القوى الباغية على الإمام والمناهضة لحكمه.

رأي الإمام عليه السلام

وكان الإمام على يقين لا يخامره شكّ في موقف عمر تجاهه، وأنّه لا يرغب بأي حال من الأحوال أن يتولّى شؤون المسلمين، ولم يضع نظام الشورى إلّا لأجل ذلك، وإنّ ما يبغيه إيصال الحكم إلى عثمان عميد الأسرة الأموية، فقد التقى الإمام

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٣: ٩٩.

بعمّه العبّاس وقال له : **يا عَمِّ ، لَقَدْ عَدَلَتْ** - أي الخلافة - **عَنّا** .

من أعلمك بذلك ؟

لَقَدْ قَرَنَ بِي عُثْمانَ وَقالَ: كُونُوا مَعَ الْأَكْثَرِ ، ثُمَّ قالَ: كُونُوا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمـٰنِ ، وَسَعْدٌ لَا يُخالِفُ ابْنَ عَمِّهِ عَبْدَالرَّحْمنِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمـٰنِ صِهْرٌ لِعُثْمانَ ، وَهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ ، فَإِمّا أَنْ يُوَلِّيها عَبْدُ الرَّحْمـٰنِ لِعُثْمانَ ، أَوْ يُوَلِّيها عُثْمانُ لِعَبْدِ الرَّحْمـٰنِ(١) .

وصدق تفرّس الإمام ، فقد ولّاها عبدالرحمن لعثمان إيثاراً لمصالحه وابتغاءً لرجوعها إليه .

لقد كانت الشورى بأسلوبها مؤامرة مفضوحة لا ستار عليها في إبعاد الإمام عن الخلافة ، يقول الإمام كاشف الغطاء : « الشورى بجوهرها وحقيقتها مؤامرة واقعية وشورى صورية ، وهي مهارة بارعة لفرض عثمان خليفة على المسلمين رغماً عليهم بتدبير بارع عاد على الإسلام والمسلمين بشرّ ما له دافع »(٢) .

وراح الإمام بعد سنين - يتحدّث بأسىً - عن الشورى العمرية التي صمّمت لإقصائه عن مركز الحكم يقول عليه السلام : **حَتّىٰ إذا مَضىٰ لِسَبِيلِهِ** - يعني عمر - **جَعَلَها في جَماعَةٍ زَعَمَ أَنّي أَحَدُهُمْ** .

فَيَاللهِ وَلِلشُّورىٰ ! مَتىٰ اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ - يعني به أبا بكر - **مِنْهُمْ ، حَتّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ إِلىٰ هـٰذِهِ النَّظائِرِ !** - يعني أعضاء الشورى .

أجل والله ! - يا أمير المؤمنين - ! إنّه متى اعترض الريب لأي أحد من المسلمين وغيرهم أنّك أفضل الناس علماً وجهاداً وورعاً ، ولكن الأحقاد القرشية هي التي أخّرتك عن مقامك وحرمت الأُمّة من مواهبك وعبقرياتك .

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٥ : ٣٥ .

(٢) السيف والسياسة / صالح الورداني : ٨٦ .

آفات الشورى

ولم تكن الشورى العمرية سليمة، فقد احتفّت بها المؤاخذات والمناقضات من جميع جهاتها، وخلقت الكثير من المصاعب والفتن كان منها ما يلي :

١ - إنّ هذا النظام الذي صمّمه عمر لا يحمل أي طابع من حقيقة الشورى التي لا بدّ من أن تتوفّر فيها الأمور التالية :

- أن تشترك الأُمّة بجميع شرائحها في الانتخاب.
- أن لاتتدخّل الحكومة بصورة مباشرة أو غير مباشرة في شؤون الانتخاب.
- أن تتوفّر الحريات العامّة لجميع الناخبين.

وفقدت الشورى العمرية هذه العناصر، ولم يعد لها أي وجود فيها، فقد حظر عمر على الأُمّة وعلى الشخصيات البارزة التدخّل في الانتخاب أمثال المجاهد الكبير عمّار بن ياسر والصحابي العظيم أبي ذرّ، ومالك الأشتر الزعيم الكبير، ولم يجعل للأنصار حماة الإسلام أي نصيب في ذلك، وإنّما فوّض عمر الأمر إلى ستّة أشخاص، وجعل آراءهم منطق الفصل، وهذا لون من ألوان التزكية تفرضه بعض الحكومات التي لا تعنى بأي حال بإرادة شعوبها، ومضافاً إلى ذلك فقد أوعز إلى الشرطة بالتدخّل في عمليات الانتخاب، وعهد إليهم بقتل كلّ شخص من أعضاء الشورى لا يتّفق مع البقيّة منهم.

كما أنّ عمر قد حدّد مدّة الانتخاب لأعضاء الشورى بثلاثة أيام، وقد ضيّق بذلك الوقت على الناخبين خوفاً أن تتبلور الأوضاع وتتدخّل القطعات الشعبية لانتخاب من يشاءون فيفوت غرضه.

٢ - إنّ هذه الشورى قد ضمّت بعض العناصر المعادية للإمام عليه السلام والحاقدة عليه، ففيها عثمان بن عفّان عميد الأُسرة الأموية، وموقف الأمويّين من الإمام معروف وعداؤهم له ظاهر، وفيها عبدالرحمن بن عوف وهو صهر لعثمان،

وفيها سعد بن أبي وقّاص ، وهو من الحاقدين على الإمام لأنّ أخواله الأمويّون الذين وترهم الإمام ، فإنّ أُمّه حمنة بنت أبي سفيان ، وسعد حينما بويع الإمام بعد مقتل عثمان تخلّف عن بيعته ، وقد اختار عمر هذه العناصر المنافسة للإمام حتى لا يؤول الأمر إليه .

وقد تحدّث الإمام عن المؤثّرات التي لعبت في ميدان الانتخاب قال عليه السلام : « **لٰكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا ، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا ، فَصَغا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِه ، وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ** »[١] .

إنّ هذه الشورى لم يكن المقصود منها ـ حسب ما يراه المحقّقون ـ إلّا إقصاء الإمام عن الحكم ومنحه للأمويّين .

يقول العلائلي : « إنّ تعيين الترشيح في ستّة ، مهّد السبيل لدى الأمويّين لاستغلال الموقف ، وتشييد صرح مجدهم على أكتاف المسلمين .

وقد وصل إلى هذه النتيجة السيّد مير علي الهندي ، قال : إنّ عدم حرص عمر على مصلحة المسلمين دفعه إلى اختيار هؤلاء الستّة من أهل المدينة من دون أن يتبع سياسة سلفه ، وكان للأمويّين حزب قوي في المدينة ، ومن هنا مهّد اختياره ـ أي عمر ـ السبيل لمكائد الأمويّين ودسائسهم هؤلاء الذين ناصبوا الإسلام العداء ، ثمّ دخلوا فيه وسيلة لسدّ مطامعهم وتشييد صروح مجدهم على أكتاف المسلمين »[٢] .

إنّ أدنى تأمّل في أمر هذه الشورى يوحي بأنّ المقصود منها إبعاد الإمام عن الحكم وتسليمه للأمويّين .

٣ ـ إنّ عمر عمد في هذه الشورى إلى إبعاد الأنصار ، فلم يجعل لأي أحد منهم

---

(١) نهج البلاغة : ١ : ٣٥ . النصّ والاجتهاد : ٣٨٣ . الغدير : ٧ : ٨١ .

(٢) الإمام الحسين عليه السلام : ١ : ٢٦٧ .

نصيباً فيها، وهم آووا النبيّ ونصروا الإسلام في أيام محنته وغربته، وقدّموا أبناءهم قرابين للدعوة الإسلامية، وقد أوصى بهم النبيّ ﷺ خيراً، كما لم يجعل عمر فيها لعمّار وأبي ذرّ ومالك الأشتر وغيرهم من أعلام الإسلام أي نصيب، وأكبر الظنّ إنّه إنّما أبعدهم لأنّ لهم هوىً مع الإمام، ولهذه الجهة أقصاهم وقصر أعضاء الشورى على العناصر الحاقدة على الإمام.

٤ ـ إنّ عمر قد شهد في حقّ أعضاء الشورى أنّ النبيّ ﷺ مات وهو عنهم راضٍ أو أنّه شهد لهم بالجنّة، فكيف عهد إلى الشرطة بضرب أعناقهم إن تخلّفوا عن انتخاب أحدهم، ويقول الناقدون لهذه الشورى إنّه كيف ساغ لعمر الأمر بقتلهم إن تخلّفوا عن الانتخاب مع العلم أنّ الإسلام حرّم بصورة جازمة إراقة الدماء وأوجب التحرّج فيها إلّا في مواضع مخصوصة ذكرها الفقهاء وهذا ليس منها.

٥ ـ إنّ عمر إنّما قصر أعضاء الشورى على ستّة بحجّة أنّ رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راضٍ، وذلك لا يصلح دليلاً على حصر أعضاء الشورى فيهم؛ لأنّ رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عن كثير من صحابته، فتقديم هؤلاء عليهم إنّما هو من باب الترجيح بلا مرجّح وهو ممّا يتّسم بالقبح ـ كما يقول علماء الأُصول.

٦ ـ إنّ عمر جعل الترجيح في الانتخاب إلى الجهة التي تضمّ عبدالرحمن بن عوف، وقدّمها على الجهة التي تضمّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وهو تحيّز ظاهر لا خفاء فيه إلى القوى القرشية الحاقدة على الإمام عليه السلام.

كما أنّا لا نعلم أي ميزة اختصّ بها عبدالرحمن حتّى يستحقّ هذا التكريم والتبجيل، وهو وطلحة والزبير قد استأثروا بأموال المسلمين وفيئهم، وملكوا من الثراء العريض ما لا يحصى، حتى تحيّروا في صرفه وإنفاقه، وقد ترك ابن عوف من الذهب ما يكسّر بالفؤوس لكثرته وضخامته، ومن المعلوم أنّ هذا الثراء العريض قد اختلسه هو وأمثاله من الرأسماليّين من فيء المسلمين.

وعلى أي حال أمِثل عبدالرحمن يقدّم على الإمام أمير المؤمنين، وهو صاحب المواقف المشهودة في نصرة الإسلام، مضافاً إلى مواهبه وعبقرياته وتنكّره للمحسوبيات والمصالح الخاصّة وشدّة تحرّجه في الدين، والله تعالى يقول: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]؟

٧ـ إنّ هذه الشورى أوجدت التنافس بين أعضائها وأشاعت الاختلاف والفرقة بينهم، فعبدالرحمن بن عوف هو الذي قلّد عثمان الخلافة إلّا أنّه لمّا ضاعت آماله ولم يحقّق أي شيء من مصالحه في حكومة عثمان أخذ يؤلّب عليه، ودعا الإمام أمير المؤمنين ليحمل كلّ منهما سيفه ليناجزه، وأوصى أولياءه بعد موته أن لا يصلّي عليه عثمان، وكذلك كان الزبير شيعة للإمام عليه السلام، وهو الذي وقف إلى جانبه يوم السقيفة، وقد قال في أيام عمر: والله! لو مات عمر بايعت عليّاً، ولكن الشورى قد نفخت فيه روح الطموح، فرأى نفسه ندّاً للإمام ففارقه بعد أن صارت الخلافة إليه، وخرج عليه يوم الجمل.

وقد أدّى التنازع والتخاصم بين أعضاء الشورى وغيرهم إلى تصديع كلمة المسلمين وتشتيت شملهم، وقد التفت إلى ذلك معاوية بن أبي سفيان، فقد قال لأبي الحصين الذي أوفده زياد لمقابلته: بلغني أنّ عندك ذهناً وعقلاً، فاخبرني عن شيء أسألك عنه.

سلني عمّا بدا لك.

أخبرني ما الذي شتّت شمل أمر المسلمين وملئهم وخالف بينهم؟

قتل الناس عثمان.

ما صنعت شيئاً.

---

(١) الزمر ٣٩: ٩.

مسير عليّ إليك وقتاله إيّاك .

ما صنعت شيئاً .

مسير طلحة والزبير وعائشة وقتال عليّ إيّاهم .

ما صنعت شيئاً .

ما عندي غير هذا .

أنا أُخبرك ، إنّه لم يشتّت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم إلّا الشورى التي جعلها عمر إلى ستّة نفر ، وذلك أنّ الله بعث محمّداً بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ، فعمل بما أمره الله به ، ثمّ قبضه الله إليه ، وقدّم أبابكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله ﷺ لأمر دينهم ، فعمل بسنّة رسول الله وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر ، فعمل بمثل سيرته ، ثمّ جعلها شورى بين ستّة نفر ، فلم يكن رجل منهم إلّا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه ، وتطلّعت إلى ذلك نفسه ، ولو أنّ عمر استخلف عليهم كما استخلف أبوبكر ما كان في ذلك خلاف[١] .

إنّ عمر مهّد الطريق لعثمان واستخلفه على المسلمين بأُسلوب بارع وسافر ، والشورى إنّما هي طريق لهذه الغاية ، ولكنّها أشاعت الأطماع والأهواء السياسية ، وألقت المسلمين في شرّ عظيم .

هذه بعض آفات الشورى وهي ـ بصورة جازمة غير خاضعة للأهواء والعواطف المذهبية ـ التي مهّدت الطريق للطلقاء وأبنائهم للاستيلاء على السلطة والقبض على زمام الحكم ، وإبعاد القوى الإسلامية عن الحياة السياسية ، الأمر الذي نجم منه نهب ثروات الأمّة وإذلال الأخيار والتنكيل بعترة النبيّ ﷺ .

---

(١) العقد الفريد : ٣ : ٧٣ و ٧٤ . كتاب الأربعين / محمّد طاهر القمّي : ٥٧١ .

عملية الانتخاب

ولمّا مضى عمر لربّه ، وواروه في مقرّه الأخير أحاط الشرطة بأعضاء الشورى ، وألزموهم بالاجتماع واختيار شخص منهم ليتولّى شؤون المسلمين تنفيذاً لوصية عمر .

واجتمع أعضاء الشورى في بيت المال ، وقيل في بيت مسور بن مخرمة ، وأشرف على عملية الانتخاب الإمام الحسن وعبدالله بن عبّاس ، وبادر المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص فجلسا في عتبة الباب فنهرهما سعد بن أبي وقّاص وقال لهما : تريدان أن تقولا حضرنا وكنّا في أهل الشورى .

وتداول الأعضاء فيما بينهم الحديث عمّن هو أحقّ بالخلافة وولاية أمر المسلمين ، وانبرى الإمام أمير المؤمنين فحذّرهم مغبة ما يحدث من الفتن والفساد إن استجابوا لعواطفهم ولم يؤثروا مصلحة الأمّة ، قائلاً : **لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَىٰ دَعْوَةِ حَقٍّ ، وَصِلَةِ رَحِمٍ ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ . فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَعُوا مَنْطِقِي ؛ عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هٰذَا الْأَمْرَ** ـ أي الخلافة ـ **مِنْ بَعْدِ هٰذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ فِيهِ السُّيُوفُ ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ .**

ولم يستجيبوا لدعوة الإمام ولم يعوا منطقه ، وانسابوا وراء رغباتهم تسيّرهم القوى القرشية المحيطة بهم ، والتي تريد انتخاب من يضمن مصالحها ويحقّق نفوذها غير حافلين بمصلحة الأمّة .

وعلى أي حال فقد عمّ الجدل بين أعضاء الشورى ، ولم ينتهوا إلى غاية مريحة ، وجماهير الشعب كانت تنتظر بفارغ الصبر النتيجة الحاسمة . وعقد الاجتماع مرّة أخرى إلّا أنّه باء بالفشل ، وأشرف على أعضاء الشورى أبو طلحة الأنصاري ، فأخذ يتهدّدهم ويتوعّدهم قائلاً : لا والذي نفس عمر بيده لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أُمرتم .

واقترب اليوم الثالث الذي عيّنه عمر، فانعقد الاجتماع، فانبرى طلحة فوهب حقّه لعثمان، وإنّما فعل ذلك لأنّه كان حاقداً على الإمام بسبب منافسته لابن عمّه أبي بكر على الخلافة، واندفع الزبير فوهب صوته للإمام عليه السلام، وانطلق سعد فوهب حقّه لعبد الرحمن بن عوف.

وكان رأي عبد الرحمن هو الفيصل والحاسم لأنّ عمر قد وضع ثقته به وأناط به أمر الشورى، إلّا أنّه كان ضعيف الإرادة لا قدرة له على إرداة شؤون الحكم، فأجمع رأيه على ترشيح غيره للخلافة، وكان له هوى مع عثمان لأنّه صهره، وقد أشار عليه عامّة القرشيّين في انتخابه، وزهّدوه في الإمام عليه السلام لأنّه الوحيد الذي وترهم في سبيل الإسلام.

وحلّت الساعة الرهيبة التي لم يخضع فيها ابن عوف لمصلحة المسلمين، واتّبع هوى القرشيّين الذين ناهضوا الإسلام في جميع مراحله.

والتفت ابن عوف إلى ابن أُخته مسور فقال له: يا مسور، اذهب فادع عليّاً وعثمان.

بأيّهما أبدأ؟

بأيّهما شئت.

ومضى مسور مسرعاً فدعا عليّاً وعثمان، وازدحم المهاجرون من قريش والأنصار وسائر الناس، فعرض عليهم الأمر وقال لهم: أيّها الناس، إنّ الناس قد اجتمعوا على أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم، فأشيروا عليَّ؟

وتقدّم الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر فأشار عليه بما يرضي الله ورسوله، ويضمن للأمّة سلامتها فقال له: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليّاً.

وانبرى المقداد فأيّد مقالة عمّار قائلاً: صدق عمّار، إن بايعت عليّاً سمعنا وأطعنا.

واندفعت القوى القرشية الحاقدة على الإسلام فشجبت مقالة عمّار والمقداد ودعت إلى ترشيح عثمان عميد الأسرة الأموية المعادية للإسلام، وقد رفع عبدالله ابن أبي سرح صوته مخاطباً ابن عوف: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان.

وأيّده عبدالله بن أبي ربيعة قائلاً: إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا.

وردّ عليهم الصحابي العظيم عمّار بن ياسر قائلاً: متى كنت تنصح للمسلمين؟

وصدق عمّار، متى كان ابن أبي سرح ينصح للمسلمين وهو الذي كفر بجميع قيم الإسلام وكان جاهليّاً بجميع مراحل حياته، وهو من أشدّ الأعداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أمر بقتله، ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة(١).

انّه لو كان هناك أي منطق سائداً لأُقصي هذا الدعي وسائر القبائل القرشية من التدخّل في شؤون المسلمين؛ لأنّها هي التي ناجزت النبيّ صلى الله عليه وآله وحرّضت عليه القبائل وصمّمت على قتله، ففر منهم في غلس الليل تاركاً وصيّه وابن عمّه في فراشه، وبعدما هاجر منهم إلى يثرب خفّوا بجيوشهم إلى قتاله، فكيف يسمح لهم بالتدخل في شؤون المسلمين؟ إنّ الحكم والرأي يجب أن يكون بيد أمثال عمّار وأبي ذرّ ومالك الأشتر والأنصار، وغيرهم يكونون في ذيل القافلة.

وعلى أي حال فقد احتدم الجدال بين الهاشميّين وأنصارهم، وبين الأمويّين وأتباعهم، فانبرى عمّار بن ياسر يدعوهم إلى الصالح العامّ قائلاً: أيّها الناس، إنّ الله أكرمنا بنبيّه، وأعزّنا بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم؟

فانبرى رجل من مخزوم فقطع على عمّار كلامه قائلاً: لقد عدوت طورك يابن سميّة، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها؟

إنّ هذا الجاهلي يرى عمّاراً قد تعدّى طوره؛ لأنّه تدخّل في شؤون قريش التي

---

(١) الاستيعاب: ٢: ٣٧٥. تاريخ المدينة: ٣: ٩٢٩ و ٩٣٠. تاريخ الأمم والملوك: ٣: ٢٩٧.

أناطت بهم الشورى العمرية شؤون المسلمين.

إنّ عمّاراً وأباه ياسراً وأمّه سميّة ممّن يعتزّ بهم الإسلام ويفخر بنضالهم وجهادهم، فهم الطليعة الأولى التي ساهمت في بناء الإسلام وأقامت صروحه.. إنّ أمر الخلافة يجب أن يكون بيد عمار وغيره من الضعفاء الذين أعزّهم الله بدينه، وليس للقرشيّين وغيرهم من الطغاة أي حقّ في التدخّل في شؤون المسلمين لو كان هناك منطق أو حساب.

وعلى أيّ حال فقد احتدم النزاع بين المسلمين والقرشيّين، فخاف سعد أن يفوت الأمر وتفوز الجبهة الموالية للإمام، فالتفت إلى ابن عمّه عبدالرحمن فقال له: يا عبدالرحمن، افرغ من أمرك قبل أن يفتتن الناس.

والتفت ابن عوف إلى الإمام قائلاً: هل أنت مبايعي على كتاب الله، وسنّة نبيّه، وفعل أبي بكر وعمر؟

ورمقه الإمام بطرفه فأجابه بمنطق الإسلام ومنطق الأحرار: **بَلْ عَلىٰ كِتابِ اللهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَاجْتِهادِ رَأْيي**.

إنّ مصدر التشريع في الإسلام إنّما هو كتاب الله وسنّة نبيّه، وعليهما يجب أن تسير الدولة، وليس فعل أبي بكر وعمر من مصادر التشريع، بالاضافة إلى أنّ عمر قد خالف أبا بكر في سياسته المالية، وأوجد نظام الطبقية، فقدّم بعض المسلمين على بعض في العطاء، وحرّم المتعتين؛ متعة الحجّ ومتعة النساء، وكانتا مشروعتين في عهد الرسول وفي عهد أبي بكر، فعلى أيّ المنهجين يسير ابن أبي طالب؟

إنّ ابن عوف إنّما شرط عليه ذلك لعلمه أنّ الإمام لا يستجيب له، وأنّه لو تقلّد الخلافة لساس المسلمين سياسة قوامها العدل الخالص والحقّ المحض، ولم يمنح الأسر القرشية أي امتياز، وساوى بينهم وبين المسلمين.

إنّ امتناع الإمام من إجابة عبدالرحمن تدلّ على مدى واقعيّته؛ فإنّه لو كان

من هواة الملك وعشّاق السلطان لأجابه إلى ذلك، ثمّ يسلك في سياسته حسب ما يراه، فإن عارضه ابن عوف بعد ذلك فيلقيه في السجن.

وعلى أيّ حال، فإنّ عبدالرحمن لمّا يئس من الإمام التفت إلى عثمان زعيم الأمويّين فشرط عليه ذلك فأجابه بلا تردّد، وفيما أحسب أنّ هناك اتّفاقاً سرّياً على ذلك لحرمان الأُمّة من حكم الإمام.

ويرى بعض المؤرّخين من الافرنج أنّ عبدالرحمن استعمل طريقة الانتهازية والخداع ولم يترك الانتخاب يجري حرّاً.

وبادر ابن عوف بعد أن استجاب له عثمان فصفق بكفّه على يديه، وقال له: اللّهمّ إنّي قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان.

ووقعت بيعة عثمان كصاعقة على القوى الخيّرة التي جهدت على أن تسود كلمة الله في الأرض، وراح الإمام يندّد بابن عوف قائلاً: **وَاللهِ! ما فَعَلْتَها إلّا لِأَنَّكَ رَجَوْتَ مِنْهُ ما رَجا صاحِبُكُما** - لعلّه يعني أبابكر وعمر - **مِنْ صاحِبِهِ دَقَّ اللهُ بَيْنَكُما عِطْرَ مَنْشِمٍ**(١).

إنّ عبدالرحمن إنّما انتخب عثمان من أجل أطماعه السياسية راجياً أن يكون خليفة من بعده، ووجّه الإمام خطابه للقرشيّين قائلاً: **لَيْسَ هٰذا أَوَّلَ يَوْمٍ تَظاهَرْتُمْ فِيهِ عَلَيْنا، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلىٰ ما تَصِفُونَ**.

ولذع منطق الإمام ابن عوف فراح يهدّده قائلاً: يا عليّ، لا تجعل على نفسك سبيلاً.

---

(١) منشم: اسم امرأة بمكّة كانت عطّارة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طيبها، فإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم فكان يقال: اشأم من عطر منشم، جاء ذلك في صحاح الجوهري ٢: ٢٠٤١. وقد استجاب الله دعاء الإمام فكانت بين عبدالرحمن وعثمان أشدّ المنافرة والخصومة، وقد أوصى أن لا يصلّي عليه عثمان بعد موته.

وغادر الإمام المظلوم قاعة الاجتماع وهو يقول : **سَيَبْلُغُ الْكِتابُ أَجَلَهُ** .

والتاع عمّار فخاطب ابن عوف قائلاً : يا عبدالرحمن ! أما والله ! لقد تركته ، وإنّه من الذين يقضون بالحقّ وبه كانوا يعدلون .

وذابت نفس المقداد أسى وحزناً وراح يقول : تالله ! ما رأيت مثل ما أُتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم ، واعجباً لقريش ، لقد تركت رجلاً ما أقول ولا أعلم أنّ أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ، أما لو أجد أعواناً .

وقطع عليه عبدالرحمن كلامه ، وراح يحذّره من الفتنة قائلاً : اتّق الله يا مقداد ! فإنّي أخاف عليك الفتنة[١] .

وهكذا تغلّبت قريش على سائر القوى الخيّرة التي أرادت إرجاع الحقّ إلى أهله ومعدنه ، وهم أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة ، الذين ساهموا في بناء الإسلام ، وقام على أكتافهم ، واستشهد أعلامهم أمثال الشهيد الخالد جعفر الطيّار وحمزة وعبيدة وغيرهم ، كما قام بجهود الإمام أمير المؤمنين وجهاده .

وعلى أيّ حال فقد انتهت مأساة الشورى التي صمّمت لإقصاء الإمام عن الحكم ، وقد أخلدت للمسلمين الفتن وألقتهم في شرّ عظيم .

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ١٩٤ . بحار الأنوار : ٣١ : ٤٠٢ و ٤٠٣ .

حُكُومَةُ عُثمَان

واستقبلت القوى الخيّرة خلافة عثمان بكثير من القلق والوجوم والاضطراب ، فقد اعتبرت فوزه في الحكم فوزاً لأُسرة الأمويّين الذين لم يألوا جهداً في محاربة الإسلام والكيد للمسلمين ، ويرى (دوزي) أنّ انتصار الأمويّين إنّما هو انتصار للجماعة التي كانت تضمر العداء للإسلام[١] .

لقد خاف المسلمون على دينهم ، وخافوا على دولتهم من الأمويّين ، وتحقّق ما خافوا منه ، فإنّه لم يمض قليل من الوقت حتى استولى الأمويّون على جميع أجهزة الدولة ، وسخّروا الاقتصاد العامّ لمصالحهم حتى عمّ الفقر وسادت الفوضى في جميع أنحاء البلاد .

إنّ عثمان حينما فرضه ابن عوف خليفة على المسلمين احتفّ به الأمويّون واخوانهم القرشيّون ، وجاءوا به يزفّونه إلى مسجد النبيّ ﷺ ، وقد علت أصواتهم بالدعم الكامل لحكومته ، والهتاف بحياته ، واعتلى عثمان المنبر فجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه رسول الله ﷺ ، ولم يجلس في المكان الذي كان يجلس فيه أبو بكر وعمر ، وارتاب بعض الحاضرين ، فقالوا : اليوم وُلد الشرّ[٢] .

---

(١) تاريخ الشعر العربي : ٢٦ .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٤٠ . البداية والنهاية : ٧ : ١٤٨ . بحار الأنوار : ٣١ : ٢٤٥ . الغدير : ٨ : ١٦٤ و : ٩ : ٢٦٠ .

واتّجه المجتمع ليسمع ما يدلي به عثمان ، وما يفتح به مناهجه السياسية ، فارتج عليه ولم يدرِ ما يقول ، وجهد نفسه فألقى هذه الكلمات المتقطّعة المضطربة .

« أمّا بعد ، إنّ أوّل مركب صعب ، وما كنّا خطباء ، وسيعلم الله ، وأنّ امرءاً ليس بينه وبين آدم إلّا أب ميّت ، لموعوظ » ، ثمّ نزل عن المنبر وهو وجل[١] ، وأنت ترى أنّه ليس بين هذه الكلمات أي ربط أو اتّصال ، وإنّما كانت متنافرة في أُسلوبها الأمر الذي دعا الحاضرين ليهزأوا به ويسخروا منه ، وكان ذلك من آفات الشورى التي امتحن بها المسلمون ، فقد أقصت أمير البيان ورائد الحكمة والعدالة في دنيا الإسلام وفرضت عثمان حاكماً على المسلمين .

مظاهر شخصيّته

ولا بدّ لنا من التحدّث عن مظاهر شخصيّة عثمان التي هي المقياس في نجاح أي حاكم أو فشله في الميادين السياسية والاجتماعية وهذه بعضها :

١ ـ ضعف الإرادة

كان عثمان ـ فيما أجمع عليه المؤرّخون ـ ضعيف الإرادة ، خائر العزيمة ، ولم تكن له أيّة قدرة على مواجهة الأحداث والتغلّب عليها ، فقد استولى عليه الأمويّون وسيطروا على جميع شؤونه ، ولم يستطع أن يقف موقفاً إيجابياً ضدّ رغباتهم وأهوائهم ، ووصفه بعض الكتّاب المحدثين بأنّه كالميّت في يد الغاسل لا حول له ولا قوّة .

وكان الذي يدير شؤون دولته مروان بن الحكم ، فهو الذي يعطي ويمنع ويتصرّف حسب ما يشاء ، ولا رأي لعثمان ولا اختيار له ، وقد قبض على الدولة بيد من

---

(١) أخبار الموفّقيات : ٢٠٢ . الطبقات الكبرى : ٣ : ٦٢ .

حديد ، يقول ابن أبي الحديد : إنّ الخليفة في الحقيقة والواقع إنّما كان مروان ، وعثمان له اسم الخلافة .

وأراد بعض المؤرّخين أن يدافع عن عثمان فقال : إنّه كان شديد الرأفة والرقّة واللين والتسامح .

نعم ، إنّه كذلك ، ولكن مع أرحامه وأُسرته ، أمّا مع الجبهة المعارضة لسياسته فقد اتّسم بالشدّة والغلظة معهم ، فقد نفى المصلح العظيم أباذرّ إلى الشام ، ثمّ إلى الربذة ، وفرض عليه الإقامة الجبرية فيها ، وقد انعدمت في هذه البقعة جميع وسائل الحياة حتى مات جائعاً غريباً وفي يد عثمان ذهب الأرض ينفقه بسخاء على بني أُميّة وآل أبي معيط .

كما نكل بالطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ فأمر بضربه حتى أصابه فتق ، وألقته شرطته في الطريق مغمى عليه .

كما نكّل بعبدالله بن مسعود القارئ الكبير فقد ألهبت جسمه سياط شرطته وهشّموا أضلاعه وحرّم عليه العطاء ، وهكذا كانت معاملته مع الناقمين لسياسته ، أمّا المؤيّدون له فقد وهبهم الثراء العريض وأسند لهم المناصب الحسّاسة في الدولة وحملهم على رقاب الناس .

٢ ـ حبّه العارم للأمويّين

من النزعات التي اشتهر بها عثمان هو أنّه كان عظيم الحبّ والولاء لأُسرته ، حتى تمنّى أن تكون مفاتيح الجنّة بيده ليهبها لبني أُميّة ، ولمّا تقلّد زمام الدولة آثرهم بالفيء ، ووهبهم الملايين ، وجعلهم ولاة على الأقطار والأمصار الإسلامية ، وكانت تتواتر إليه الأخبار أنّهم جانبوا الحقّ وأشاعوا الفساد في الأرض فلم يحفل بذلك ، ولم يجر معهم أي لون من التحقيق الأمر الذي أدّى إلى النقمة عليه ، وسنتعرّف على ذلك في البحوث الآتية .

٣ ـ ميله إلى الترف

وكان عثمان شديد الميل إلى الترف والبذخ ، فاتّخذ القصور ، واصطفى لنفسه ما شاء من بيت المال ، وأحاط نفسه بالثراء العريض ، ووصفه الإمام عليه السلام بقوله : **نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ** ، وكان ذلك من موجبات النقمة عليه .

٤ ـ مصانعة الوجوه

ومن نزعاته مصانعة الوجوه والأشراف ، وإن أدّى ذلك إلى إهمال الأحكام الشرعية ، وكان من ذلك ما ذكره المؤرّخون أنّ أبا لؤلؤة لمّا اغتال عمر قام ولده عبيدالله فقتل الهرمزان صديق أبي لؤلؤة ، وقتل جفينة وابنة أبي لؤلؤة ، وهو قتل متعمّد بغير حقّ ، فأقفل عثمان سير التحقيق مع عبيدالله وأصدر عفواً عنه ممالأة لأسرة عمر ، وقد قوبل هذا الإجراء بمزيد من الانكار ، فقد أنكر عليه الإمام وطالبه بالقود من ابن عمر ، وكذلك طالبه المقداد فلم يعن عثمان بذلك ، وكان زياد بن لبيد إذا لقي عبيدالله بن عمر خاطبه بهذه الأبيات :

أَلا يا عُبَيْدَاللهِ! مالَكَ مَهرَبٌ ... وَلَا مَلْجَأٌ مِنْ ابْنِ أَرْوَى ولا خَفَرْ
أَصَبْتَ دَماً وَاللهِ! في غَيرِ حِلِّهِ ... حَراماً وَقَتلُ الهُرْمُزانِ لَهُ خَطَرْ
عَلىٰ غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرَ أَنْ قالَ قائِلٌ ... أَتَتَّهِمُونَ الهُرمُزانَ عَلىٰ عُمَرْ؟
فَقالَ سَفيهٌ وَالحَوادِثُ جَمَّةٌ ... نَعَمْ اتَّهِمْهُ قَدْ أَشارَ وَقَدْ أَمَرْ!
وَكانَ سِلاحُ العَبدِ في جَوفِ بَيْتِهِ ... يُقَلِّبُها وَالأَمرُ بِالأَمرِ يُعتَبَرْ

وشكا عبيدالله إلى عثمان ما قاله زياد فيه ، فدعاه عثمان ونهاه عن ذلك إلّا أنّه لم ينته ، وتناول عثمان بالنقد فقال فيه :

أَبا عَمرٍو عُبيدُاللهِ رَهنٌ ... ـفَلَا تَشْكُكْ ـ بِقَتْلِ الهُرْمزانِ
فَإِنَّك إِنْ غَفَرْتَ الجُرْمَ عَنهُ ... وَأَسبابُ الخَطا فَرَسا رِهانِ

أَتَـعْفُو إذْ عَـفَوتَ بِـغَيرِ حَـقّ فَـما لَكَ بِـالَّذي تَـحْكي يَـدانِ

وغضب عثمان من زياد وحذّره العقوبة حتى انتهى[١].

وأمر عثمان بإخراج عبيدالله إلى الكوفة، وأقطعه بها أرضاً واسعة، فنسبت إليه، وقيل (كويفة ابن عمر)، وكانت هذه الحادثة من الأسباب التي أدّت إلى نقمة المسلمين عليه.

ولاته وعمّاله

وفرض عثمان أُسرته وذوي قرباه من بني أُميّة وآل أبي معيط ولاةً وحكّاماً على المسلمين، يقول المقريزي: «وجعل عثمان بني أُميّة أوتاد خلافته»، مع العلم أنّه لم تتوفّر في أي واحد منهم القابلية لتحمّل المسؤولية وإدارة دفّة الحكم، مع أنّ الكثيرين منهم ليس لهم معرفة بأحكام الإسلام، كما لم تكن لهم حريجة في الدين، فكيف يجعلون ولاةً وحكّاماً على المسلمين؟»[٢].

ويرى السيّد مير علي أنّ المسلمين تذمّروا من استبداد الحكّام واغتصابهم الأموال[٣]، وكان من ولاته أبو موسى الأشعري، فسمح لأحد عمّاله بالتجارة في أقوات أهل العراق[٤].

وعلى أي حال فإنّا نعرض إلى بعض عمّاله الذين عانى منهم المسلمون الجهد والبلاء، وفيما يلي ذلك:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ٣: ٣٠٣.

(٢) معجم البلدان: ٤: ٤٩٦.

(٣) مختصر تاريخ العرب: ٤٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٢٦٢.

١ ـ عبدالله بن عامر

عبدالله بن عامر بن كريز هو ابن خال عثمان، وقد ولّاه إمارة البصرة بعد أن عزل منها أبا موسى الأشعري، وكان ولاجاً خرّاجاً [١]، وهو أوّل من لبس الخزّ في البصرة، وقد لبس جبّة دكناء، فقال الناس: لبس الأمير جلد دبّ، فغيّر لباسه ولبس جبّة حمراء [٢].

وقد نقم الناس من سياسته وسوء تصرّفاته، وعابوا على عثمان ولايته له، وخفّ إلى يثرب عامر بن عبدالله موفداً من قِبل أهل البصرة يطالب عثمان بالاستقامة في سلوكه فقال له: إنّ أُناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أُموراً عظاماً، فاتّق الله عزّ وجلّ وتب إليه وانزع عنها.

فاحتقره عثمان وأعرض عنه، وقال لمن حوله: انظروا إلى هذا، فإنّ الناس يزعمون أنّه قارئ، ثمّ هو يجيء فيكلّمني في المحقّرات، فوالله! ما يدري أين الله؟

ولم يكلّمه عامر إلّا بتقوى الله وطاعته، وإيثار مصلحة المسلمين، فهل هذه الأُمور من المحقّرات؟

والتفت إليه عامر فقال له: أنا لا أدري أين الله.

نعم.

إنّي لأدري إنّ الله بالمرصاد.

وغضب عثمان، فعقد مؤتمراً مع مستشاريه، وعرض عليهم انتقاد المعارضين

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٣٨. تاريخ الأمم والملوك: ٣: ٣١٩.

(٢) أُسد الغابة: ٣: ١٩٢. الطبقات الكبرى: ٥: ٤٧. معجم البلدان: ١: ٤٣٣. فتوح البلدان: ٢: ٤٢٦.

لسياسته ، فأشار عليه ابن خاله عبدالله بن عامر أن يتّخذ معهم الاجراءات الصارمة قائلاً : رأي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمّرهم في المغازي حتى يذلّوا لك ، فلا يكون همّة أحدهم إلّا نفسه ، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته .

وأشار عليه آخرون بخلاف ذلك ، إلّا أنّه استجاب لرأي ابن خاله ، وأوعز إلى عمّاله بالتضييق على الجبهة المعارضة ، ومقابلتهم بالشدّة والعنف ، فاستجاب له ، وطبّق ما أشار عليه ، فقد أمر عمّاله بتجمير الناس في البعوث ، وعزم على حرمانهم من العطاء حتى يشيع الفقر فيهم والبؤس ، فيضطروا إلى طاعته[١] .

ولمّا قفل عبدالله بن عامر إلى البصرة عمد إلى التنكيل بعامر بن عبدالله ، وأوعز إلى عملائه أن يشهدوا عليه شهادة زور بأنّه خالف المسلمين في أُمور قد أحلّها الله كان منها :

١ ـ أنّه لا يأكل اللحم .

٢ ـ لا يشهد الجمعة .

٣ ـ لا يرى مشروعية الزواج[٢] .

ودوّنت شهادتهم ، ورفعها إلى عثمان ، فأمره بنفيه إلى الشام ، وحمله على قتب حتى يشق عليه السفر ، ولمّا انتهى إلى الشام أنزله معاوية (الخضراء) ، وبعث إليه بجارية تكون عيناً عليه ، وأشرفت عليه الجارية فرأته يقوم في الليل متعبّداً ، ويخرج من السحر فلا يعود إلّا بعد العتمة ، ولا يتناول من طعام معاوية شيئاً ، وكان يتناول كسراً من الخبز ويجعلها في الماء تحرّجاً من أن يدخل جوفه شيء من الحرام ،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٥ : ٩٤ . تاريخ ابن خلدون : ٢ : ٣٩ . الغدير : ٩ : ٥٣ .

(٢) الفتنة الكبرى : ١ : ١١٦ .

وانبرت الجارية فأخبرت معاوية بشأنه ، فكتب إلى عثمان بأمره[١] ، وقد نقم الأخيار والمتحرّجون في دينهم على عثمان لما اقترفه في شأن هذا العبد الصالح .

وعلى أي حال فقد ظلّ عبدالله بن عامر والياً على البصرة لم يتحرّج من إثم وبغي ، ولمّا قتل عثمان نهب ما في بيت المال وسار إلى مكّة ، فوافى بها طلحة والزبير وعائشة فانضمّ إليهم ، وأمدّهم بالأموال التي نهبها ليستعينوا بها على حرب الإمام أمير المؤمنين ، وهو الذي أشار عليهم بالنزوح إلى البصرة[٢] .

إنّ هذا الذئب الجاهلي من ولاة عثمان ومن المقرّبين إليه ، وقد أسند إليه ولاية هذا الإقليم المهمّ .

٢ ـ الوليد بن عقبة

وكان سعد بن أبي وقّاص الزهري والياً على الكوفة ، فعزله عثمان وولّى عليها الوليد بن عقبة ، وهو ـ فيما أجمع عليه المؤرّخون ـ من فسّاق بني أُميّة ، ومن أكثرهم مجوناً ، وقد أخبر النبيّ ﷺ أنّه من أهل النار[٣] ، وكان أبوه عقبة من ألدّ أعداء النبيّ ﷺ ، فكان يأتي بالروث ويطرحه على بابه[٤] ، وهو الذي بصق بوجه النبيّ ، فهدّده بأنّه إن وجده خارجاً من جبال مكّة يأمر بضرب عنقه ، ولمّا كانت واقعة بدر امتنع من الخروج ، فأصرّ عليه أصحابه فأخبرهم بخوفه من النبيّ ، فأغروه وخدعوه وقالوا له : لك جمل أحمر لا يُدرك ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه ، فاستجاب لهم ، وخرج لحرب النبيّ ، فلمّا هزم الله المشركين حمل به جمله في جدود من الأرض ،

---

(١) الإصابة : ٣ : ٨٥. الطبقات الكبرى : ٧ : ١٠٨. تاريخ مدينة دمشق : ٢٦ : ١٠ و ١١.

(٢) أُسد الغابة : ٣ : ١٩٢. الطبقات الكبرى : ٥ : ٤٨. تاريخ مدينة دمشق : ٢٩ : ٢٦٢.

(٣) مروج الذهب : ٢ : ٢٢٣.

(٤) الطبقات الكبرى : ١ : ١٨٦.

فأخذه المسلمون وجاءوا به أسيراً ، فأمر النبيّ ﷺ علياً عليه السلام بضرب عنقه ، فقام إليه وقتله[١] ، وقد أترعت نفس الوليد بالحقد والعداء للنبيّ وللإمام لأنّهما قد وتراه بأبيه ، وقد أسلم الوليد مع من أسلم من كفّار قريش خوفاً من حدّ السيف .

وقد أُنزلت آيتان في فسقه وذمّه وهما :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾[٢] ، وكان سبب نزول هذه الآية أنّ النبيّ ﷺ أرسله إلى بني المصطلق لأخذ الصدقة منهم ، فعاد إليه وأخبره بأنّهم منعوه منها ، فخرج إليهم النبيّ ﷺ فتبيّن له كذبه ، ونزلت الآية في فسقه .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ** ﴾[٣] ، وكان السبب في نزولها أنّه جرت بين الوليد وبين الإمام مشادّة ، فقال الوليد للإمام : اسكت فإنّك صبي وأنا شيخ ، والله ! إنّي أبسط منك لساناً ، وأحدّ منك سناناً ، وأشجع منك جناناً ، وأملأ منك حشواً في الكتيبة .

فردّ عليه الإمام قائلاً : **اسْكُتْ فَإِنَّك فاسِقٌ** .

فأنزل الله تعالى فيهما هذه الآية ، ونظم هذه الحادثة **حسّان بن ثابت** بقوله :

أَنــزَلَ اللهُ وَالكِــتابُ عـزيزٌ ... فـي عَـلِيٍّ وَفـي الوَليدِ قُـرانـا
فَـتَبَوّا الوَليـدُ مِنْ ذاكَ فِسقاً ... وَعَــلِيٌّ مُــبَوَّأٌ إيــمانا
لَيسَ مَنْ كانَ مُؤْمِناً عَرَفَ اللهَ ... كَـمَنْ كـانَ فـاسِقاً خَـوّانـا
فَـعَلِيٌّ يَـلقىٰ لَـدى اللهِ عِـزّاً ... وَوَليـدٌ يَـلقىٰ هُـناكَ هَـوانـا

---

(١) الغدير : ٨ : ٢٧٣ . فتح القدير : ٤ : ٧٤ .

(٢) الحجرات ٤٩ : ٦ .

(٣) السجدة ٣٢ : ١٨ .

سَوفَ يُجْزى الوَليدُ خِزْياً وَناراً وَعَلِيٌّ لَا شَكَّ يُجْزىٰ جِنانا [١]

ولمّا ولّاه عثمان ولاية الكوفة كان يشرب الخمر جهاراً، وقد دخل القصر وهو ثمل يتمثّل بأبيات تأبط شرّاً:

وَلَستُ بَعيداً عَنْ مُدامٍ وَقَينَةٍ وَلَا بِصَفا صَلدٍ عَنِ الخَيرِ مَعزَل
وَلكِن أَروى مِنَ الخَمرِ هامَتي وَأَمْشي المَلا بالسّاحِبِ المُتَسَلسلِ [٢]

ومن مجونه أنّه كان يقضي لياليه سكراناً مع المغنّين حتى الصباح، وكان نديمه أبو زيد الطائي من نصارى تغلب، وقد أنزله داراً له على باب المسجد، ثمّ وهبها له، وكان الطائي يشقّ صفوف المصلّين في الجامع حتى ينتهي إليه وهو سكران[٣].

وكان من إدمانه على الخمر أنّه شربها فصلّى بالناس صلاة الصبح وهو ثمل أربع ركعات، وصار يقول في ركوعه وسجوده: اشرب واسقني، ثمّ قاء الخمر في المحراب وسلّم، والتفت إلى المصلّين خلفه وقال: هل أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: لا زادك الله خيراً ولا من بعثك إلينا، وأخذ فروة نعله وضرب بها وجهه، وحصبه الناس، فدخل القصر والحصباء تأخذه وهو ثمل[٤] مترنّح، وفي فضائحه ومخازيه يقول الحطيئة جرول بن أوس العبسي:

شَهِدَ الحُطَيئَةُ يَومَ يَلقىٰ رَبَّهُ أَنَّ الوَليدَ أَحَقُّ بِالْغَدْرِ
نادىٰ وَقَدْ تَمَّتْ صَلاتُهُمُ أَأَزيدُكُمْ ثَمِلاً وَلَا يَدْري
لِيَزيدَهُمْ خَيْراً وَلَوْ قَبِلوا مِنْهُ لَزادَهُمُ عَلىٰ عَشْرِ

---

(١) تذكرة الخواص: ١١٥. كشف الغمّة: ١: ١١٨ و ١١٩. شرح نهج البلاغة: ٦: ٢٩٢ و ٢٩٣.
(٢) النصائح الكافية: ١٧٢.
(٣) الأغاني: ٥: ١٢٢. العقد الفريد: ٦: ٣٤٨.
(٤) السيرة الحلبيّة: ٢: ٣١٤. أنساب الأشراف: ٥: ٣٢. وضوء النبيّ صلى الله عليه وآله: ١: ٧٧.

فَـأَبوا أَبـا وَهْبٍ وَلَـوْ فَـعَلوا ... لَـقَرَنْتَ بَـينَ الشَّـفْعِ وَالوَتْـرِ
حَبَسوا عِنانَكَ إِذْ جَرَيتَ وَلَـوْ ... خَلّوا عِنانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْري(١)

أرأيتم هذه السخرية اللاذعة والاستهزاء السافر بأحد ولاة عثمان ؟

وقال الحطيئة في ذمّه وهجائه مرّة أُخرى :

تَكَـلَّمَ فـي الصَّـلاةِ وَزادَ فِـيها ... عَـلانِيَةً وَجـاهَرَ بِـالنِّفاقِ
وَمَجَّ الخَمرَ عَنْ سَنَنِ المُصَلّي ... وَنـادىٰ وَالجَـميعُ إِلى افْـتِراقِ
أَزِيـدُكُـمْ عَـلىٰ أَنْ تَـحمَدوني ... فَما لَكُمْ وَمالي مِـنْ خَـلاقِ(٢)

وأسرع جماعة من خيار الكوفة إلى يثرب يشكون الوليد إلى عثمان ، وقد صحبوا معهم خاتمه الذي انتزعوه منه في حال سكره ، وقابلوا عثمان ، وعرضوا عليه أنّ الوليد شرب الخمر فزجرهم عثمان وقال لهم بعنف : ما يدريكم انّه شرب الخمر ؟

هي الخمر التي كنّا نشربها في الجاهلية .

وأعطوه خاتمه الذي انتزعوه منه في حال سكره لتأييد شهادتهم ، فغضب عثمان ، ودفع في صدورهم وقابلهم بأخبث القول وأفحشه ، وخرجوا منه وهم يتميّزون من الغيظ ، واتّجهوا صوب الإمام وأخبروه بما جرى لهم مع عثمان ، فانبرى إلى عثمان وقال له : **دَفَعْتَ الشُّهُودَ وَأَبْطَلْتَ الْحُدُودَ** .

وخاف عثمان من عواقب الأُمور ، فقال للإمام : ما ترى ؟

أرىٰ أَنْ تَبْعَثَ إِلىٰ صاحِبِكَ ، فَإِنْ أَقاما الشَّهادَةَ فِي وَجْهِهِ وَلَمْ يُدْلِ بِحُجَّةٍ أَقَمْتَ عَلَيْهِ الْحَدَّ .

---

(١) الأغاني : ٤ : ١٧٨ . شرح نهج البلاغة : ٣ : ١٨ .

(٢) الأغاني : ٤ : ١٧٨ . شرح نهج البلاغة : ١٧ : ٢٣ . تهذيب الكمال : ٣ : ٥٨ . تاريخ المدينة : ٣ : ٩٧٦ .

ولم يجد عثمان بُدّاً من امتثال أمر الإمام ، فكتب إلى الوليد يأمره بالحضور إلى يثرب ، ولمّا انتهت إليه رسالة عثمان نزح من الكوفة إلى يثرب .. ولمّا مثل أمام عثمان دعا بالشهود ، فأقاموا عليه الشهادة ، ولم يدل الوليد بأيّة حجّة ، وقد خضع بذلك لإقامة الحدّ ، ولم ينبرِ أحد لإقامة الحدّ عليه خوفاً من عثمان ، فقام الإمام عليه السلام ودنا منه فسبّه الوليد وقال له : يا صاحب مكس[1] ، وقام إليه عقيل فردّ عليه سبّه ، وضرب الإمام به الأرض وعلاه بالسوط ، وعثمان يتميّز غيظاً ، فصاح بالإمام : ليس لك أن تفعل به هذا .

فأجابه الإمام بمنطق الشرع : **بَلىٰ ، وَشَرٌّ مِنْ هٰذا إذا فَسَقَ ، وَمَنَعَ حَقَّ اللهِ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ**[2] .

وعلّق العلّامة العلايلي على هذه البادرة بقوله : « هذه القصة تضع بين أيدينا شيئاً جديراً غير العطاء الذي يرجع إلى مكان العاطفة ، تضع بين أيدينا صورة عن الاغضاء عن مجاوزة السلطة للقانون ، والاغضاء في واقعة دينية ، بحيث يجب على الخليفة أن يكون أوّل من يغار عليها ، وإلّا هدّد مكانه وافسح المجال للناس للنقد والتجريح ، وبالأخصّ حين جاءت حكومته عقيب حكومة عمر التي عرفت بالشدّة فيما يتعلّق بالحدود الدينية حتى لو كان من أقرب ذوي القربى .

إذن ، فهذه المبالغة في الاغضاء والصفح والمجاوزة لا ترجع إلى مكان العاطفة وحدها ـ إن كانت ـ بل إلى الحزبية حتى تتناحر مجتمعة »[3] .

إنّ الوليد بفسقه وفجوره ترك الدعارة واللهو والمجون في الكوفة ، وقد أسّست فيها دور للغناء والطرب ، وانتشر فيها المغنّون ، فكان فيها عبد الله بن هلال الذي لقّب

---

(١) **المكس** : النقص والظلم .

(٢) مروج الذهب : ٢ : ٢٢٥ . بحار الأنوار : ٣١ : ١٥٦ و ١٥٧ .

(٣) الإمام الحسين عليه السلام : ٣٣ .

بصاحب إبليس(١)، وحنين الشاعر النصراني(٢) وغيرهما من أعلام الغناء.

٣ ـ عبدالله بن سعد

ومن ولاة عثمان أخوه من الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبي سرح فجعله والياً على مصر، وأسند إليه إقامة الصلاة والولاية على الخراج، وهو فيما أجمع عليه المؤرّخون من أكثر زنادقة قريش عداءً للنبيّ ﷺ، وكان يقول مستهزئاً به: إنّي أصرفه حيث أُريد، وأحلّ النبيّ ﷺ دمه وإن كان متعلّقاً بأستار الكعبة، وقد هرب بعد فتح مكّة فاستجار بعثمان فغيّبه، وبعد ما اطمأن أهل مكّة أتى به عثمان إلى النبيّ، فلمّا رآه صمت طويلاً، ثمّ آمنه وعفا عنه، فلمّا انصرف عثمان التفت النبيّ إلى أصحابه وقال لهم: **ما صَمَتُّ إلَّا لِيَقُومَ إِلَيْهِ بَعْضُكُمْ لِيَضْرِبَ عُنُقَهُ.**

فقال له رجل من الأنصار: هلا أومأت إليَّ يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «إنّ النبيّ لا ينبغي له خائنة الأعين»(٣).

ولمّا ولي عبدالله مصر ساس المصريّين سياسة عنف وكلّفهم فوق ما يطيقون، وأظهر الكبرياء والجبروت، فضجروا منه، فذهب خيارهم إلى عثمان يشكون إليه، فاستجاب لهم عثمان وأرسل إليه رسالة يستنكر فيها سياسته في القطر، فلم يستجب لعثمان، وراح مصرّاً على غيّه، وعمد إلى من شكاه لعثمان فقتله، وشاع التذمّر وعمّ السخط في جميع الأوساط في مصر، فتشكّل منهم وفد كبير بلغ عدد أعضائه سبعمائة شخص فخفّوا إلى عثمان، ولمّا انتهوا إلى يثرب نزلوا في الجامع وشكوا

---

(١) الأغاني: ٢: ٣٥١.

(٢) المصدر المتقدّم: ٣٤٩.

(٣) تفسير القرطبي: ٧: ٤٠. سنن أبي داود: ٢: ٢٢٠. المستدرك: ٣: ٤٥. السنن الكبرى: ٨: ٢٠٥. الدرّ المنثور: ٥: ٣٤٩.

أميرهم إلى الصحابة ، فانبرى طلحة إلى عثمان فكلّمه بكلام قاسي ، وأرسلت إليه عائشة تطالبه بإنصاف القوم ، وكلّمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في شأنه قائلاً : **إنّما يَسْأَلُكَ الْقَوْمُ رَجُلاً مَكانَ رَجُلٍ ، وَقَدْ ادَّعَوا قِبَلَهُ دَماً ، فَاعْزِلْهُ وَاقْضِ بَيْنَهُم ، فَإنْ وَجَبَ عَلَيْهِ حَقٌّ فَأَنْصِفْهُمْ مِنْهُ** .

واستجاب عثمان ـ على كره ـ لنصيحة الإمام ، وقال للقوم : اختاروا رجلاً أُولّيه عليكم مكانه ، فأشاروا عليه بمحمّد بن أبي بكر ، فكتب إليه عهده ، وبعث معه عدّة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بينهم وبين ابن أبي سرح[١] ، ونزح القوم من المدينة ، فلمّا انتهوا إلى الموضع المعروف بـ(حمس) وإذا بقادم من المدينة ، تأمّلوه وإذا هو ورش غلام عثمان ، ففتّشوه وإذا به يحمل رسالة من عثمان إلى ابن أبي سرح يأمره فيها بالتنكيل بالمصريّين ، وتأمّلوا الكتاب وإذا به بخطّ مروان ، فقفلوا راجعين إلى المدينة وقد صمّموا على قتل عثمان أو خلعه[٢] .

٤ ـ معاوية بن أبي سفيان

وأقرّ عثمان معاوية على الشام ، فقد ولّاه عمر عليها ، وزاد عثمان في رقعة سلطانه ، وزاد في نفوذه ، وقد مهّد له الطريق لنقل الخلافة إليه .

يقول الدكتور طه حسين : « وليس من شكّ في أنّ عثمان هو الذي مهّد لمعاوية ما أُتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان ، وتثبيتها في بني أُميّة ، فعثمان هو الذي وسّع على معاوية في الولاية فضمّ إليه فلسطين وحمص ، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء ، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة ، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين ، ثمّ مدّ له في الولاية أثناء خلافته كلّها كما فعل عمر ، وأطلق يده في أُمور الشام أكثر ممّا أطلقها عمر ، فلمّا كانت الفتنة فإذا هو أبعد الأُمراء بالولاية عهداً

---

(١) و (٢) تاريخ دمشق : ٣٩ : ٤١٦ . الثقات : ٢ : ٢٥٩ . تاريخ المدينة : ٤ : ١٥٨ و ١٥٩ .

وأقواهم جنداً وأملكهم لقلب رعيّته »[١].

وحكى حديث الدكتور الواقع ، فإنّ عثمان هو الذي أمدّ في سلطان معاوية ، وبسط له النفوذ والسعة حتى صار من أقوى الولاة ، وأصبح قطره من أهمّ الأقطار الإسلامية ومن أكثرها ولاء له .

٥ ـ سعيد بن العاص

وأسند عثمان ولاية الكوفة إلى سعيد بن العاص ، فولّاه هذا القطر العظيم الذي كان حامية للجيوش الإسلامية بعد أن عزل عنه الوليد الذي شرب الخمر وأقام الإمام عليه السلام عليه الحدّ .

وقد استقبل الكوفيّون ولاية سعيد بكثير من الكراهية ؛ لأنّه كان شاباً مترفاً متهوّراً لا يتحرّج من اقتراف الإثم والمنكر ، وقد روى المؤرّخون صوراً من استهتاره بالقيم الإسلامية والاجتماعية كان منها ما يلي :

١ ـ إنّه طلب من الحاضرين رؤية هلال شهر رمضان المبارك ، فقام إليه الصحابي الجليل هاشم بن عتبة المرقال فقال له : أنا رأيته .

فوجّه إليه كلاماً جافياً لا يصدر من إنسان شريف قائلاً له : بعينك هذه العوراء رأيته ؟

فالتاع هاشم وانبرى يقول : تعيّرني بعيني ، وإنّما فقئت في سبيل الله ، وكانت عينه قد أُصيبت يوم اليرموك .

لقد فقئت عين هذا المجاهد الكبير في واقعة اليرموك ، وقد عيّره بها هذا الجاهلي الذي لم يتربّ إلّا على الرذائل والموبقات .

وعلى أي حال فقد أصبح هاشم مفطراً ؛ لأنّه قد رأى الهلال ، وقد جاء عن

---

(١) الفتنة الكبرى : ١ : ١٢٠.

النبيّ صلى الله عليه وآله: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ»، وقد فطر الناس لإفطاره، فانتهى الخبر إلى سعيد فأرسل خلفه وضربه ضرباً موجعاً وأمر بإحراق داره، وقد أثار ذلك حفائظ النفوس ونقم عليه الأخيار والمتحرّجون في دينهم، فقد كان اعتداؤه على علم من أعلام الإسلام بغير حقّ ووجه مشروع إلّا إرضاء لعواطفه المترعة بالجهل والحقد على رجال الإسلام[١].

٢ـ أعلن سعيد أمام الجماهير القول: إنّما السواد ـ يعني سواد الكوفة ـ بستان لقريش وأثار ذلك حفائظ النفوس، فالسواد ملك للمسلمين وليس للقرشيّين الذين هم خصوم الإسلام وأعداء الرسول أي حقّ فيه.. وقد اندفع الزعيم الكبير مالك الأشتر إلى الانكار عليه قائلاً:

أتجعل مراكز رماحنا، وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟ والله! لو رامه أحد لقرع قرعاً يتصأصأ منه..

لقد اتّخذ الحكم الأموي الذي فرض على الأمّة بقوّة السيف خيرات الأمّة بستاناً لقريش التي ناجزت الإسلام وكفرت بجميع قيمه.

وانضمّ قرّاء المصر وفقهاؤهم إلى الزعيم مالك الأشتر فردّوا على الوالي طيشه وغروره، وجابهوه بالنقد لمقالته، وغضب مدير شرطته فردّ عليهم ردّاً غليظاً، فبادروا إليه وضربوه ضرباً عنيفاً حتى أُغمي عليه، وأخذوا يذيعون مساوئ قريش وجرائم بني أُميّة وذكر مثالب عثمان، ورفع سعيد من فوره رسالة إلى عثمان أخبره فيها بما جرى عليه، فأمره بنفيهم إلى الشام، وكتب رسالة إلى معاوية يأمره فيها باستصلاحهم. ولم يرتكب هؤلاء الأخيار إثماً أو يحدثوا فساداً في الأرض حتى يستحقّوا النفي من وطنهم، وإنّما نقدوا أميرهم لأنّه قال غير الحقّ، وشذّ عن الطريق القويم.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥: ٣٢. تاريخ دمشق: ٢: ١١٥.

ومن المؤكّد أنّ الإسلام قد منح الحرية التامّة للمواطنين ، فلهم أن ينقدوا الحكّام والمسؤولين إذا شذّوا في سلوكهم وابتعدوا عن الحقّ .

وعلى أي حال فقد قامت السلطة بإخراج القوم بالعنف عن أوطانهم ، وأرسلتهم مخفورين إلى الشام ، فتلقّاهم معاوية وأنزلهم في كنيسة ، وأجرى عليهم بعض الرزق ، وجعل يناظرهم ، ويحبّذ لهم الغضّ عمّا تقترفه السلطة من أعمال إلّا أنّهم لم يستجيبوا له وأنكروا عليه وعلى سعيد الذي قال : إنّما السواد بستان قريش .

ولمّا يئس معاوية منهم كتب إلى عثمان يستعفيه من بقائهم في الشام خوفاً من أن يفسدوا أهلها عليه ، فأعفاه عثمان وأمره بردّهم إلى الكوفة ، فلمّا عادوا إليها انطلقت ألسنتهم بنقد أمير الكوفة وذكر مثالب الأمويّين ، ورفع سعيد ثانياً أمرهم إلى عثمان ، فأمره بنفيهم إلى حمص والجزيرة ، فأخرجهم سعيد بعنف ، فلمّا انتهوا إلى حمص قابلهم واليها بشدّة وعنف ، وسامهم سوء العذاب ، ويقول الرواة : إنّه إذا ركب أمر بهم بالسير حول ركابه مبالغة في إذلالهم والاستهانة بهم ، ولمّا رأوا ذلك أظهروا له الطاعة والاذعان لسلطانه ، وكتب لعثمان بذلك ، فأمره بردّهم إلى الكوفة ، وأخرجهم من حمص ، ومضوا يجدّون في سيرهم ، وجعلوا طريقهم إلى يثرب لمقابلة عثمان ، وعرض ما عانوه من عمّاله من صنوف التعذيب والارهاق ، وتوجّهوا صوب المدينة ، فلمّا انتهوا إليها رأوا سعيداً قد أقبل من الكوفة في مهمّة رسمية ، وقابلوا عثمان ، وعرضوا عليه ما لاقوه من سعيد ، وسألوه عزله ، وفاجأهم سعيد فرآهم عند عثمان وهم يشكونه ، فأعرض عنهم عثمان وألزمهم بطاعته والانصياع لأوامره .

وقفل القوم راجعين إلى الكوفة ، وأقسموا أن لا يدخلها سعيد ، وقاموا باحتلال مركزه ، وخرجوا في جماعة مسلّحين بقيادة الزعيم مالك الأشتر حتى انتهوا إلى (الجرعة) ، فرابطوا فيها ليحولوا بين سعيد وبين دخوله إلى الكوفة ، وأقبل سعيد فقاموا بوجهه وعنّفوه أشدّ العنف ومنعوه من الدخول إلى مصرهم ، فولّى منهزماً إلى

عثمان يشكوهم إليه ، ولم يجد عثمان بدّاً في عزله وتولية غيره مكانه ..[١].

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض ولاة عثمان من الأمويّين ، وقد منحهم هذه المناصب العليا تقوية لنفوذهم ، وبسطاً لسلطانهم ، وحملهم على رقاب المسلمين.

يقول السيّد مير علي الهندي : « وكان هؤلاء هم رجال الخليفة المفضّلين ، وقد تعلّقوا بالولايات كالثعابين الجائعة ، فجعلوا ينهشونها ويكدّسون الثروات منها بوسائل الإرهاق التي لا ترحم »[٢].

وعلى أي حال فإنّ من الأسباب المهمّة التي أدّت إلى قتل عثمان سيرة ولاته وعمّاله الأمويّين الذين لم يألوا جهداً في ظلم الناس وإرغامهم على ما يكرهون.

سياسته الاقتصادية

ولم تكن لعثمان سياسة اقتصادية واضحة المعالم ، وإنّما انتهج سياسة عمر وسار عليها[٣] ، وهي ممالأة الأشراف والوجوه ، وتقديمهم في العطاء على غيرهم ، وقد شذّت هذه السياسة عمّا قنّنه الإسلام من لزوم المساواة بين المسلمين في العطاء ، وإيجاد التوازن الاقتصادي في الحياة العامّة ، وليس لولاة الأمور أن يصطفوا من أموال الدولة أي شيء لنفوسهم ولغيرهم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « **إنَّ رِجالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيامَةِ** »[٤].

وأوضح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام النهج الكامل للسياسة الاقتصادية في الإسلام

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٥ : ٨٥. تاريخ أبي الفداء : ١ : ٦٨. الطبقات الكبرى : ٥ : ٣٣. تاريخ مدينة دمشق : ٢١ : ١١٥ و ١١٦.

(٢) روح الإسلام : ٩٠.

(٣) تاريخ العراق في ظلّ الحكم الأموي : ٩٠.

(٤) صحيح البخاري : ٥ : ١٧. كنز العمّال : ٦ : ٥٠٨.

وذلك فيما كتبه إلى قثم بن العبّاس قال عليه السلام :

وَانْظُرْ إِلىٰ مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ فَاصْرِفْهُ إِلَىٰ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْفَاقَةِ وَالْخَلَّاتِ وَمَا فَضَلَ عَنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا [١].

هذا هو نظر الإسلام في أموال الدولة ، إنفاق على الفقراء ، ورفع لغائلة الجوع ، وبسط للرخاء العامّ بين المسلمين . . . أمّا عثمان فلم يعن بذلك ، وإنّما أنفق الأموال بسخاء على بني أُميّة وآل أبي معيط وسائر الوجوه والأشراف المؤيّدين لسياسته .

لقد أصبحت الأموال الهائلة التي تتدفّق على الخزينة المركزية تمنح للأمويّين ، وادّعوا أنّ المال إنّما هو ملكهم لا مال الدولة ، وأنّها ملك لبني أُميّة ، فقد منحوا نفوسهم جميع الامتيازات [٢] ، ونعرض فيما يلي لذلك :

هباته للأمويّين

ومنح عثمان بني أُميّة الأموال الهائلة ووهبهم الثراء العريض ، وهذه قائمة ببعض أسماء الذين أغدق عليهم الأموال وهم :

١ ـ الحارث بن الحكم : وهب عثمان الحارث بن الحكم صهره من عائشة ما يلي :

- ثلاثمائة ألف درهم [٣] .
- وهبه إبل الصدقة التي وردت إلى المدينة [٤] .

---

(١) نهج البلاغة / محمّد عبده ٢ : ١٢٨ . الغدير : ٨ : ٢٣٩ .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام : ٢٣ .

(٣) أنساب الأشراف : ٥ : ٥٢ .

(٤) بحار الأنوار : ٣١ : ٢١٨ .

- أقطعه سوقاً في المدينة يعرف بتهروز بعد أن تصدّق به النبيّ على جميع المسلمين[١].

٢ - أبو سفيان: وهب عثمان عميد أُسرته أبا سفيان مائتي ألف درهم من بيت المال[٢].

٣ - سعيد بن العاص: منحه مائة ألف درهم من بيت المال[٣].

٤ - عبدالله بن خالد: تزوّج عبدالله بن خالد بنت عثمان، فأمر له بستمائة ألف درهم، وكتب إلى عبدالله بن عامر واليه على البصرة أن يدفعها إليه من بيت المال[٤].

٥ - الوليد بن عقبة: أمّا الوليد بن عقبة فهو أخو عثمان من أُمّه، استقرض من عبدالله بن مسعود أموالاً طائلة من بيت المال، فطالبه بها، فأبى أن يدفعها، ورفع الوليد رسالة إلى عثمان يشكو فيها ابن مسعود لمطالبته بالمال، فكتب إليه عثمان: إنّما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال، وغضب ابن مسعود، وطرح مفاتيح بيت المال، وقال: كنت أظنّ أنّي خازن للمسلمين، فأمّا إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك، وأقام في الكوفة بعد أن استقال من منصبه[٥].

إنّ بيت المال في عرف عثمان ملك لبني أُميّة الذين ناهضوا الإسلام، وليس ملكاً للمسلمين، ونترك الحكم في ذلك إلى القرّاء.

٦ - الحكم بن أبي العاص: أمّا الحكم فهو رجس من أرجاس الجاهلية، ومن ألدّ أعداء الرسول صلى الله عليه وآله، ونفاه إلى الطائف بعد فتح مكّة، وقال: لا يساكنني،

---

(١) و (٥) أنساب الأشراف: ٥: ٢٨. العقد الفريد: ٢: ٢٦١. المعارف / ابن قتيبة: ٤٨.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٦٧.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٤٥.

(٥) أنساب الأشراف: ٥: ٣٠. بحار الأنوار: ٣١: ٢٢٠، الهامش.

ولم يزل منفياً هو وأولاده ، وبعد وفاة النبيّ ﷺ أقرّ الشيخان نفيه ، ولمّا انتهى الحكم إلى عثمان أصدر عنه العفو ، فقدم إلى يثرب وهو بأقصى مكان من الذلّ والبؤس ، وكان يسوق تيساً وعليه ثياب رثة ، فلمّا رآه عثمان تألّم وكساه جبة خز وطيلسان[١] ، ووهبه من الأموال ما يلي :

- وصله بمائة ألف درهم .
- ولّاه على صدقات قضاعة ، فبلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها له[٢] .

وأدّت هباته للحكم التذمّر والنقمة عليه من جميع الأوساط الإسلامية .

٧ـ مروان بن الحكم : أمّا مروان بن الحكم فهو خيط باطل ـكما اشتهر بذلك ـ وكان وغداً خبيثاً ، وكانت شؤون الدولة العثمانية بيده ولا شأن لعثمان بها ، وقد وهبه من الأموال ما يلي :

- أعطاه خمس أفريقية ، وقد بلغت خمسمائة ألف دينار ، وقد عِيب على عثمان في ذلك وانتقصه المسلمون ، وهجاه الشاعر عبدالرحمن بن حنبل بهذه الأبيات :

سَأَحلِفُ بِاللهِ جَهدَ اليَمِيـ ... ـنِ ما تَرَكَ اللهُ أَمْراً سُدىٰ
وَلكِنْ خَلَقتَ لَنا فِتنَةً ... لِكَي نُبتَلىٰ بِكَ أَوْ تُبْتَلىٰ
فَإِنَّ الأَمِينَينِ قَدْ بَيَّنا ... مَنارَ الطَّرِيقِ عَلَيهِ الهُدىٰ
فَما أَخَذا دِرْهَماً غِيلَةً ... وَما جَعَلا دِرْهَماً فِي الهَوىٰ
دَعَوتَ اللَّعِينَ فَأَدنَيتَهُ ... خِلافاً لِسُنَّةِ مَنْ قَدْ مَضىٰ

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ٤١. الغدير : ٨ : ٢٤١.

(٢) أنساب الأشراف : ٥ : ٢٨. تاريخ مدينة دمشق : ٢ : ١٠٤ ، تاريخ الأمم والملوك : ٢ : ٥٨٨. الغدير : ٨ : ٢٤٢.

وَأعطَيتَ مَروانَ خُمْسَ العِبا　　دِ ظُلْماً لَهُمْ وَحَمَيْتَ الحِمىٰ(١)

ـ أعطاه ألف وخمسين أُوقية ، لا نعلم أنّها من الذهب أو الفضة .. وهذا ممّا سبّب عليه النقمة العامّة في البلاد(٢) .

ـ أعطاه مائة ألف من بيت المال ، فسارع زيد بن أرقم خازن بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يديه ، وجعل يبكي فنهره عثمان وقال له : أتبكي أن وَصَلْتُ رحمي ؟

ولكن أبكي لأنّي أظنّك أنّك أخذت المال عوضاً عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً .

وزجره عثمان وصاح به : أَلْقِ المفاتيح يابن أرقم ! فإنّا سنجد غيرك(٣) .

ـ أقطعه فدكاً(٤) ، وهي التي صادرها أبوبكر من سيّدة نساء العالمين زهراء الرسول بحجّة أنّها لجميع المسلمين ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

ـ كتب له بخمس مصر(٥) .

هذه بعض ممالأة عثمان لأسرته التي حاربت الله ورسوله وليس من العدل ولا من الإنصاف أن تمنح هذه الأموال إلى هؤلاء الأوغاد الذين لم يألوا جهداً في محاربة الإسلام والكيد للمسلمين .

---

(١) تاريخ أبي الفداء : ١ : ١٦٨ . الغدير : ٨ : ٢٦٠ .

وفي العقد المفصّل : ٩ : ٨٩١ : « إنّ اسم الشاعر عبدالرحمن بن حسل » .

(٢) السيرة الحلبيّة : ٢ : ٨٧ . بحار الأنوار : ٣١ : ٢٢٢ ، الغدير : ٨ : ٢٦٠ .

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٦٧ . الغدير : ٨ : ٢٦٠ .

(٤) لطائف المعارف : ٨٤ . تاريخ أبي الفداء : ١ : ١٦٨ . أنساب الأشراف : ٦ : ١٣٧ . شرح نهج البلاغة : ٣ : ٣٥ .

(٥) الطبقات الكبرى : ٣ : ٢٤ . أنساب الأشراف : ٥ : ٢٥ .

هباته للأعيان

ووهب عثمان الثراء العريض والأموال الهائلة إلى بعض الوجوه والأشراف من ذوي النفوذ ، وهم :

١ ـ طلحة : وأعطى عثمان طلحة مائتي ألف دينار[١] ، وكانت عليه خمسون ألفاً فأحضرها طلحة فوهبها له وقال : هي لك على مروءتك[٢] ، أليس هذا هو التلاعب في بيت مال المسلمين ؟

٢ ـ الزبير : منح الزبير بن العوّام ستمائة ألف ، ولمّا قبضها حار في صرفها ، فجعل يسأل عن خير مال يستغلّ صلته وينمّي ثراءه ، فأرشد إلى اتّخاذ الدور في الأقاليم والأمصار[٣] ، فبنى إحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة ، وداراً بمصر[٤] .

٣ ـ زيد بن ثابت : ووهب عثمان أموالاً هائلة لزيد بن ثابت حتى بلغ به الثراء العريض أنّه لمّا توفّي خلّف من الذهب والفضّة ما يكسّر بالفؤوس عدا ما ترك من الأموال والضياع ما قيمته مائة ألف[٥] ، ومنح أموالاً طائلة للمؤيّدين لسياسته أمثال حسّان بن ثابت ، وقد تكدّست ثروة البلاد في طائفة من الرأسماليّين الذين جهدوا على حصر الثروة عندهم وحرمان المجتمع الإسلامي منها ، وقد أدّت هذه السياسة الملتوية إلى إشاعة الفساد ، وانتشار الترف والبذخ عند طائفة من الناس .

وقد خاف بعض المتحرّجين في دينهم من هذا الثراء الذي ظفر به من هبات عثمان ، يقول خباب بن الارت : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ ما أملك ديناراً

---

(١) و (٣) تاريخ الأمم والملوك : ٥ : ١٣٩ . أنساب الأشراف : ٦ : ١٠٨ . الغدير : ٨ : ٢٨٣ .

(٣) الطبقات الكبرى : ٣ : ٧٩ .

(٤) صحيح البخاري : ٥ : ٢١ . فتح الباري : ٦ : ١٦٣ .

(٥) مروج الذهب : ١ : ٣٣٤ . شرح نهج البلاغة : ٨١٣ .

ولا درهماً ، وإنّ في ناحية بيتي في تابوتي لأربعين ألف واف[1] ، ولقد خشيت أن تكون عجلت طيّباتنا في حياتنا الدنيا[2] .

وهكذا تمثّلت الحيرة والذهول عند الصحابة المتحرّجين في دينهم من هذا الثراء الذي اختصّ بقوم وحرمت الأكثرية الساحقة في البلاد الإسلامية من التمتّع بالعيش الرغيد .

إقطاعه للأراضي

ومن مناهج السياسة المالية عند عثمان أنّه أقطع بعض الأراضي الواسعة لجمهرة من المؤيّدين لسياسته ، فقد أقطع أراضي في داخل الكوفة وخارجها .. وهذه الأراضي من المفتوحة عنوة ، وهي ملك للمسلمين ، فمن أحيى أرضاً فهي له ، وعليه الخراج يؤدّيه للدولة .

وعلى أي حال فقد أقطع عثمان أراضي في الكوفة لجماعة ، وهي :

١ ـ طلحة : أقطعه أرضاً سمّيت دار الطلحيّين ، وكانت في الكناسة .

٢ ـ عبيدالله بن عمر : أقطعه أرضاً سمّيت (كويفة ابن عمر) .

٣ ـ أُسامة بن زيد .

٤ ـ سعد وابن أخيه هاشم بن عتبة .

٥ ـ أبو موسى الأشعري .

٦ ـ حذيفة العبسي .

٧ ـ عبدالله بن مسعود .

٨ ـ سلمان الباهلي .

---

(١) **الوافي** : درهم وأربعة دوانق .

(٢) الطبقات الكبرى : ٦ : ٨ . أعيان الشيعة : ٦ : ٣٠٥ .

٩ ـ المسيّب الفزاري .

١٠ ـ عمرو بن حريث المخزومي .

١١ ـ جبير بن مطعم الثقفي .

١٢ ـ عقبة بن عمرو الخزرجي .

١٣ ـ أبو جبير الأنصاري .

١٤ ـ عدي بن حاتم الطائي .

١٥ ـ جرير البجلي .

١٦ ـ الأشعث الكندي .

١٧ ـ الفرات بن حيّان العجلي .

١٨ ـ الوليد بن عقبة .

١٩ ـ جابر بن عبدالله الأنصاري .

٢٠ ـ أمّ هاني بنت أبي طالب .

هؤلاء بعض من منحهم الأراضي ، ولا نعلم مقدار مساحتها .

قائمة بأسماء الممنوحين أراضي واسعة:

وأقطع عثمان أراضي واسعة تدرّ بالربح الكثير لجماعة وهم :

١ ـ طلحة بن عبيدالله : أقطعه (النشاستج) .

٢ ـ عدي بن حاتم : منحه (البردجاء) .

٣ ـ وائل بن حجر الحضرمي : منحه ضيعة (زادر) .

٤ ـ خباب بن الارت : منحه (مسعبنا) .

٥ ـ خالد بن عرفطة : أقطعه أرضاً عند (حمام أعين) .

٦ ـ الأشعث الكندي : أعطاه (ظيزناباذ) .

٧ ـ جرير بن عبدالله البجلي : أعطاه أرضاً على شاطئ الفرات (الجرفين) .

٨ ـ عبدالله بن مسعود : أقطعه أرضاً بالنهرين .

٩ ـ الزبير بن العوّام : أقطعه أرضاً .

١٠ ـ أُسامة بن زيد : أقطعه أرضاً ثمّ باعها [١] .

هذه بعض الأراضي الزراعية التي منحها عثمان لبعض الشخصيات .

ومن الجدير بالذكر أنّه اندفع جماعة من الطبقة الارستقراطية إلى شراء أراض خصبة في العراق ، فقد اشترى طلحة ومروان بن الحكم والأشعث بن قيس[٢] ورجال من قبائل العراق أراضي واسعة حتى انتشر الاقطاع ، وعمّ البؤس والحرمان في أوساط الفلاحين ، وبذلك فقد وجد النظام الطبقي الذي يخلق الصراع بين أبناء الأُمّة .

استقطاع عثمان للأموال

واصطفى عثمان من بيت المال ما شاء لنفسه وعياله ، فقد روى المؤرّخون أنّه كانت في بيوت الأموال جواهر ثمينة لا تقدّر قيمتها بثمن ، فأخذها وحلّى بها بناته ونساءه[٣] .

كما بالغ في الترف والسرف إلى حدّ لم يألفه المسلمون ، فقد شيّد له داراً في المدينة بناها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة[٤] ، وكان ينضّد أسنانه بالذهب ، ويتلبّس بأثواب الملوك ،

---

(١) الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الكوفة : ١٤٦ و ١٤٧ .

(٢) خطط الكوفة : ٢١ . الحضارة الإسلاميّة : ١ : ١٢٣ .

(٣) أنساب الأشراف : ٥ : ٣٦ . شرح نهج البلاغة : ٣ : ٤٩ .

(٤) مروج الذهب : ١ : ٣٣٤ . الغدير : ٨ : ٢٨٥ .

وأنفق الكثير من بيت المال في عمارة ضياعه ودوره[١]، ولمّا قتل وجد عند خازنه ثلاثون ألف ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير وصدقات ببراديس وخيبر ووادي القرى ما قيمتها مائتا ألف دينار[٢].

وعلّق محمّد كرد علي على هذه السياسة التي انتهجها عثمان بقوله: «لقد أوجدت هذه السياسة المالية طبقتين من الناس:

الأولى: الطبقة الفاحشة في الثراء التي لا عمل لها إلّا اللهو والتبطّل.

والأُخرى: الطبقة الكادحة التي تزرع الأرض، وتعمل في الصناعة، وتشقى في سبيل أُولئك السادة من أجل الحصول على فتات موائدهم، وترتّب على فقدان التوازن في الحياة الاقتصادية، انعدام الاستقرار في الحياة السياسية والاجتماعية على السواء، وقد سارت الدولة الأموية في أيام حكمها على هذه السياسة فأخضعت المال للتيارات السياسية وجعلوه سلاحاً ضدّ أعدائهم ونعيماً مباحاً لأنصارهم»[٣].

هذه بعض المؤاخذات على السياسة المالية التي انتهجها عثمان، وقد ابتعدت كلّ البعد عمّا قنّنه الإسلام من وجوب إنفاق أموال الدولة على ما يسعد به المجتمع من مكافحة الفقر، وتطوير الحياة الاقتصادية بشكل عامّ.

مع الجبهة المعارضة

وكان من الطبيعي أن ينقم خيار المسلمين وصلحاؤهم على عثمان وولاته بما اقترفوه من مساوئ الأعمال التي لا تتّفق بصلة مع الواقع الديني، وقد شنّوا عليه

---

(١) السيرة الحلبيّة: ٢: ٨٧. أنساب الأشراف: ٣: ٤. الغدير: ٨: ٢٨٤ و ٢٨٥.

(٢) الطبقات الكبرى: ٣: ٥٣. الغدير: ٨: ٢٨٥.

(٣) الإدارة الإسلامية: ٨٢.

حملة شعواء ونقدوه بلاذع النقد.. ومن الجدير بالذكر أنّ المعارضة كانت مختلفة الاتّجاه بين اليمين واليسار، فطلحة والزبير وعائشة ومن انضمّ إليهم كانوا مدفوعين لرغباتهم الخاصّة ومصالحهم الضيّقة، أمّا الطائفة الثانية فكانت تضمّ أعلام الإسلام وحماته أمثال عمّار بن ياسر الطيّب ابن الطيّب وأمثال المجاهد الكبير أبي ذرّ، والصحابي القارئ عبدالله بن مسعود ونظراءهم من الذين أبلوا في الله بلاءً حسناً، فرأوا أنّ السنّة قد أُميتت، والبدعة أُحييت، ورأوا صادقاً يكذّب، وأثرة بغير حقّ، فهبّوا في وجه عثمان مطالبين بتغيير سلوكه واتّباع الهدى، ولم تكن لهم أيّة مصلحة ينشدونها سوى خدمة الإسلام، ولو أنّه استجاب لهم لجنّب الأمّة الكثير من المشاكل.

التنكيل بالمعارضين

وأمعن عثمان بالتنكيل بالمعارضين لسياسته، فصبّ عليهم جام غضبه وقابلهم بمزيد من القسوة والبطش والتنكيل، وهذه قائمة بأسماء بعضهم وما عانوه منه:

١ ـ عمّار بن ياسر

أمّا عمّار بن ياسر فهو أجلّ صحابي، ومكانته في الإسلام معلومة، فهو وأبواه قد عانوا في سبيل الإسلام أعنف المصاعب وأقسى ألوان التعذيب، وقد استشهد أبواه في سبيل الإسلام على يد القساة الطغاة من قريش.

وقد أشاد القرآن الكريم بفضل عمّار، فمن الآيات النازلة في حقّه قوله تعالى: **﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾**[1].

---

(١) الزمر ٣٩: ٩.

نصّ على ذلك ابن سعد في طبقاته: ٣: ١٧٨. القرطبي في تفسيره: ٥: ٢٣٩. الكشّاف: ٣: ٣٩٠.

وقال تعالى في حقّه أيضاً: ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾[١].

وكانت له المنزلة الكريمة عند النبيّ ﷺ، فقد سمع شخصاً ينال من عمّار، فتأثّر، وقال: «**ما لَهُمْ وَلِعَمّارٍ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النّارِ، إِنَّ عَمّاراً جِلْدَةُ ما بَيْنَ عَيْنَي وَأَنْفِي، فَإِذا بَلَغَ ذلِكَ مِنَ الرَّجُلِ فَاجْتَنِبُوه**»[٢]، وكان عمّار من ألمع أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد آمن بحقّه، وأنّه أوْلى بمقام النبيّ من غيره، وقد وقف إلى جانبه أيام الفتنة الكبرى، وأعلن تأييده للإمام عليه السلام، وبعد ما فرض عمر عثمان خليفة على المسلمين في وضعه للشورى التي أدّت إلى فوزه في الحكم.. كان عمّار من أشدّ الناقمين على عثمان، وقد أظهر نقمته عليه في المواضع التالية:

١ - إنّ عثمان لمّا استأثر بالسفط الذي يضمّ جواهر ثمينة لا تقدّر قيمتها بثمن، فأخذها ليحلّي بها نساءه وبناته، فأنكر عليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأيّده عمّار، فقال له عثمان: يابن المتكاء[٣]، أعليَّ تجترئ؟ ثمّ أوعز إلى شرطته بأخذه، فقبضوا عليه وأدخلوه عليه، فضربه ضرباً مبرحاً حتى غشي عليه، وحملوه إلى منزل أمّ المؤمنين السيّدة أمّ سلمة ولم يفق من شدّة الضرب حتى فاتته صلاة الظهرين والمغرب، فلمّا أفاق قام وتوضّأ وصلّى صلاة العشاء وقال: الحمد لله ليس هذا أوّل يوم أوذينا فيه في الله.

يالله! يا للمسلمين! أمثل عمّار الذي هو في طليعة المؤسّسين في بناء الإسلام

---

(١) الأنعام ٦: ١٢٢.

نصّ على ذلك السيوطي في تفسيره: ١: ٢٣٩، وغيره.

(٢) السيرة النبويّة / ابن هشام: ٢: ١١٤. شرح نهج البلاغة: ٨: ١٠.

(٣) **المتكاء**: العظيمة البطن التي لا تمسك بولها.

يضرب ويهان لأنّه رأى أثرة بغير تقىً ونهباً لأموال المسلمين بغير وجه مشروع .

وكان من الطبيعي أن يثير ذلك غضب المسلمين ونقمتهم على عثمان عميد الأمويّين ، فقد غضبت عائشة ، وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وثوباً من ثيابه ، ونعلاً من نعاله ، وقالت : ما أسرع ما تركتم سنّة نبيّكم ! وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد .

وغضب عثمان من عائشة ، ولم يدر كيف يعتذر ممّا اقترفه تجاه عمّار[١] .

٢ ـ إنّ أعلام الصحابة رفعوا مذكّرة لعثمان ذكروا فيها أحداثه ومخالفاته للسنّة ، وطالبوه بالكفّ عنها ، فأخذها عمّار ودفعها إليه ، فقال له عثمان بعنف : أعليَّ تقدم من بينهم ؟

إنّي أنصحهم لك .

كذبت يابن سميّة .

أنا واللهِ ! ابن سميّة ، وابن ياسر .

وأوعز عثمان إلى جلاوزته لمدّ يديه ورجليه وضربه عثمان بنفسه برجليه على مذاكيره فأصابه فتق ، وكان ضعيفاً فأُغمي عليه ..

لقد لاقى هذا الصحابي من صنوف العذاب والتنكيل في عهد عثمان ما لا يوصف لمرارته ، والحاكم هو الله الذي يقضي بين عباده .

٣ ـ لمّا نكّل عثمان بالصحابي الثائر على السياسة الأموية أبي ذرّ فنفاه إلى الربذة ، ومات فيها جائعاً غريباً مظلوماً مضطهداً ، فحزن عليه المسلمون فقال عثمان أمام جماعة من الصحابة : رحمه الله .

فاندفع عمّار والأسى بادٍ عليه فقال : رحمه الله من كلّ أنفسنا .

---

(١) أنساب الأشراف : ٥ : ٤٨ . شرح نهج البلاغة : ٣ : ٤٩ . الشافي في الإمامة : ٤ : ٢٩٠ .

فغضب عثمان وقال لعمّار بأفحش القول وأقذعه قائلاً: يا عاضّ أيْر أبيه! أتراني ندمت على تسييره؟

أيليق هذا الفحش بالرجل العادي فضلاً عمّن يدّعي أنّه خليفة المسلمين وأنّ الملائكة تستحي منه.

ثمّ أمر عثمان غلمانه فدفعوا عمّاراً وأرهقوه، وأمر بنفيه إلى الربذة، فلمّا تهيّأ للخروج أقبلت بنو مخزوم إلى الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام فسألوه أن يكلّم عثمان في شأن عمّار وأن يلغي قراره في اعتقاله في الربذة، وكلّم الإمام عثمان بذلك قائلاً: **اتَّقِ اللهَ، فَإِنَّكَ سَيَّرْتَ رَجُلاً صالِحاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهَلَكَ فِي تَسْيِيرِكَ، ثُمَّ أَنْتَ الْآنَ تُرِيدُ أَنْ تَنْفِيَ نَظِيرَهُ؟**

فثار عثمان وصاح بالإمام: أَنْتَ أَحَقُّ بِالنَّفْيِ مِنْهُ.

رُمْ إِنْ شِئْتَ ذٰلِكَ.

واجتمع المهاجرون فعذلوه عن ذلك، فاستجاب لهم وعفا عن عمّار(١).

وهكذا لقي هذا الصحابي العظيم صنوف الاضطهاد والارهاق من عثمان، ولم يلحظ مكانته في الإسلام وعظيم جهاده في إقامة صروح الدين، فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

٢ ـ مع أبي ذرّ

أمّا أبو ذرّ فهو صاحب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وخليله، وهو من الأسبقين للإسلام، وكان من أزهد الناس في الدنيا، ومن أقلّهم احتفالاً بمنافعها، وكان من ألصق الناس برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، فكان يأتمنه حين لا يأتمن أحداً من الصحابة، ويسرّ إليه حين

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٥٠. أنساب الأشراف: ٥: ٥٤. الغدير: ٨: ٢٩٤.

لا يسرّ أحداً من أصحابه[١] ، وهو أحد الثلاثة الذين أحبّهم الله ، وأمر نبيّه بحبّهم ، كما أنّه أحد الثلاثة[٢] الذين تشتاق إليهم الجنّة[٣] .

ولمّا آل الحكم إلى عثمان واستأثرت بنو أُميّة بمنافع الدولة وخيرات المسلمين ، هبّ أبوذرّ إلى الانكار عليه ، وقد نهاه عثمان من نقده والانكار عليه ، فلم يمتنع ورأى أنّ ذلك ضرورة إسلامية وواجب عليه ، وكان أبو ذرّ يقف أمام الذين وهبهم عثمان الثراء العريض ويتلو عليهم قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[٤] ، وغاظ ذلك مروان بن الحكم المنتفع الأوّل من حكومة عثمان ، فشكاه إليه ، فأرسل خلفه ، فنهاه فقال أبو ذرّ :

أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله ؟ فوالله ! لأن أُرضي الله بسخط عثمان أحبُّ إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضاه .

لقد أبى أبوذرّ الذي تربّى بتعاليم الإسلام وأحكام القرآن أن يصانع عثمان ، ويقرّه على سياسته الملتوية التي اتّخذت مال الله دولاً .

وضاق عثمان ذرعاً من أبي ذرّ الثائر العظيم الذي وعى الإسلام وآمن بقيمه وتعاليمه ، وراح عثمان يفتّش عن الوسائل التي يتخلّص بها من خصمه العنيد ، فاتّخذ القرار التالي :

اعتقال أبي ذرّ في الشام

أبى أبو ذرّ أن يصانع عثمان ويساير خطواته ومخطّطاته ويجاريه بأي عمل

---

(١) كنز العمّال : ٨ : ١٥.

(٢) الثلاثة الذين تشتاق لهم الجنّة : الإمام عليّ ، أبو ذرّ ، وعمّار بن ياسر.

(٣) مجمع الزوائد : ٩ : ٣٣٠. تاريخ مدينة دمشق : ٢١ : ٤١١. تهذيب الكمال : ٢١ : ٢٢٢.

(٤) التوبة ٩ : ٣٤.

من أعماله التي لا يقرّها الإسلام ، وكان من ذلك أنّ عثمان سأل حضّار مجلسه فقال لهم : أيجوز لأحد أن يأخذ من بيت المال فإذا أيسر قضاه ؟

فانبرى كعب الأحبار فأفتاه بالجواز ، وصعب على أبي ذرّ أن يتدخّل كعب في شؤون الإسلام وهو يهودي النزعة ، وقد شكّ في إسلامه ، فصاح به : يابن اليهوديّين ، أتعلّمنا ديننا ؟

فثار عثمان وصاح بأبي ذرّ : ما أكثر أذاك لي ! وولعك بأصحابي ! الحَقْ بمكتبك في الشام .

وسيّره إلى الشام ، فلمّا انتهى إليها أفزعه ما رأى من منكرات معاوية وبدعه ، فقد رآه قد أطلق يديه في بيت المال يهبه لعملائه وينفقه على شهواته وملاذّه فأخذ ينكر عليه ذلك ، ويذيع مساوئ عثمان وبدعه ، وقد قال لمعاوية حينما قال : المال مال الله .

فردّ عليه أبوذرّ : المال مال المسلمين .

إنّ أموال الخزينة العامّة للمسلمين وليست لمعاوية حتى ينفقها على ملاذه وتدعيم سلطانه ، ولمّا بنى معاوية داره الخضراء أنكر عليه أبو ذرّ وقال له : يا معاوية ، إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة ، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف .

وأخذ الثائر العظيم يدعو المسلمين إلى الحذر واليقظة من السياسة الأموية التي أمعنت في اقتراف المنكر ، فكان يقول لأهل الشام : والله ! لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ! ما هي في كتاب الله ولا في سنّة نبيّه ، والله ! لأرى حقّاً يطفأ ، وباطلاً يحيى ، وصادقاً يكذّب ، وأثرة بغير تقىً ، وصالحاً مستأثراً عليه [١] .

---

(١) أنساب الأشراف : ٥ : ٥٢ . الغدير : ٨ : ٢٩٣ .

وأخذ الوعي ينتشر بين أهل الشام ، فقد أوجدت دعوته هدى في النفوس ، واستطابتها العامّة . . لقد كانت دعوته إلى إنصاف المحرومين ، وتحريض الفقراء على استرجاع حقوقهم من الطغمة الحاكمة . . و خاف الطاغية معاوية أن تندلع عليه نار الثورة فنهى الناس عن مخالطته والاجتماع به ، وقال بعنف لأبي ذرّ : يا عدوّ الله ! تؤلّب الناس علينا ، وتصنع ما تصنع !! فلو كنت قاتلاً رجلاً من أصحاب محمّد من غير إذن أمير المؤمنين ـ يعني عثمان ـ لقتلتك .

فردّ عليه البطل العظيم غير حافل بسلطانه قائلاً : ما أنا بعدوّ الله ولا رسوله ، بل أنت وأبوك عدوّان لله ورسوله أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر .

لقد صدق أبو ذرّ بمقالته ، فإنّ معاوية وأباه أبو سفيان لم يؤمنا بالله طرفة عين ، أظهرا الإسلام خوفاً من السيف وأبطنا الكفر والكيد للإسلام .

وعلى أي حال ، فقد ظلّ أبو ذرّ يواصل نشاطه الديني والسياسي للتشهير بالحكم الأموي حتى فزع منه معاوية وخاف على سلطانه .

إخراج أبي ذرّ من الشام

وكتب معاوية إلى عثمان يخبره بخطر أبي ذرّ على الشام ويطلب منه إخراجه إلى بلد آخر ، فأجابه عثمان ، وأمره بحمله على أغلظ مركب وأوعره حتى يلقى الجهد والعناء ، فأرسله معاوية مع جلاوزة نزعت من نفوسهم الرأفة والرحمة والشرف والكرامة ، فساروا به سيراً مزعجاً ولم يسمحوا له أن يستريح من الجهد والعناء ، ومضوا في سيرهم لا يلوون على شيء حتى تسلّخت بواطن فخذه وكاد أن يموت .

ولمّا انتهى إلى يثرب دخل على عثمان وهو منهوك القوى ، فاستقبله عثمان بالجفوة ومرارة القول قائلاً : أنت الذي فعلت . . وفعلت ؟

فأجابه أبو ذرّ بمنطق الحقّ قائلاً : نصحتك فاستغششتني ، ونصحت صاحبك

ـ يعني معاوية ـ فاستغشني .

فصاح عثمان به : كذبت ، ولكنّك تريد الفتنة وتحبّها ، وقد أنغلت الشام علينا .

فوجّه إليه أبو ذر نصيحته قائلاً : اتّبع سنّة صاحبيك ـ يعني أبابكر وعمر ـ لم يكن لأحد كلام .

فصاح به عثمان : ما لك لا أمّ لك .

فقال له أبو ذرّ بهدوء : والله ! ما وجدت لي عذراً إلّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وثار عثمان فقال لمن حوله : أشيروا عليّ في هذا الشيخ الكذّاب ، إمّا أن أضربه أو أحبسه أو أقتله ، فإنّه فرّق جماعة المسلمين ، أو أنفيه من أرض الإسلام .

فثار الإمام عليه السلام من هذه الاستهانة التي قابل بها عثمان أباذرّ .

فقال له : **يا عُثْمانُ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ما أَظَلَّتِ الْخَضْراءُ ، وَلا أَقَلَّتِ الْغَبْراءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ** .

ولم يحفل هذا الثائر العظيم بعثمان ، وإنّما راح ينكر عليه بوحي من دينه ، ويندّد بسياسته الملتوية قائلاً له : تستعمل الصبيان ، وتحمي الحمى ، وتقرّب أولاد الطلقاء ؟

وأخذ يذيع بين المسلمين ما سمعه من النبيّ ﷺ في ذمّ الأمويّين ، ومدى خطرهم على الإسلام قائلاً : قال رسول الله : « **إنَّ بَني الْعاصِ إذا بَلَغُوا ثَلاثِينَ رَجُلاً جَعَلُوا كِتابَ اللهِ دَخَلاً ، وَعِبادَ اللهِ خَوَلاً ، وَمالَ اللهِ دُوَلاً** »[١] .

وأصدر عثمان أمراً بمنع مجالسة أبي ذرّ وحرّم مخالطته والكلام معه ، لأنّه يقول الحقّ ويأمر بالعدل وينهى عن المنكر .

---

(١) بحار الأنوار : ٣٣ : ١٥٢ . شرح نهج البلاغة : ٣ : ٥٦ و ٥٧ .

اعتقاله في الربذة

واستمرّ أبوذرّ في جهاده ينشر مساوئ الأمويّين ويذيع منكراتهم ويوقظ الجماهير، فضاق عثمان به ذرعاً فصمّم على أن ينفيه عن الأمصار الإسلامية ويعتقله في أرض جرداء لا سكن فيها، فأرسل شرطته خلفه، فلمّا حضر عنده بادره أبو ذرّ منكراً وناقماً على سياسته قائلاً: ويحك يا عثمان، أما رأيت رسول الله ورأيت أبا بكر وعمر، هل رأيت هذا هديهم، إنّك لتبطش بي بطش الجبّارين.

فقطع عليه عثمان كلامه وصاح به: اخرج عنّا من بلادنا.

أتخرجني من حرم رسول الله صلى الله عليه وآله؟

نعم، وأنفك راغم.

اخرج إلى مكّة.

لا.

الكوفة؟

لا.

إلى الربذة حتى تموت فيها.

وأوعز شيخ الأمويّين عثمان إلى وزيره ومستشاره مروان بن الحكم بإخراج هذا الصحابي العظيم من مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ليقيم في أرض جرداء قد انعدمت فيها جميع وسائل الحياة، فأخرجه الوزغ ابن الوزغ مهان الجانب، محطّم الكيان، وحرّم على المسلمين مشايعته وتوديعه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

توديع الأُسرة النبوية لأبي ذرّ

ولم تذعن الأُسرة النبوية لأوامر عثمان بتحريم توديع أبي ذرّ، فقد خرجت ومعها الصحابي الجليل عمّار بن ياسر لتوديع هذا الصحابي المضطهد، وتلقي عليه

نظرة الوداع .

ولمّا رآهم مروان وجّه خطابه وإنذاره إلى الإمام الحسن عليه السلام فقال له : ايه يا حسن ! ألا تعلم أنّ عثمان قد نهى عن كلام هذا الرجل ؟ فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك .

ولم يجبه الإمام بكلمة احتقاراً له ، وثار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحمل على مروان وضرب أُذني دابته ، وصاح به : « **تَنَحَّ نَحّاكَ اللهُ إِلَى النّارِ** » ، وولّى مروان منهزماً فزعاً إلى سيّده وابن عمّه عثمان يخبره بعصيان أهل البيت عليهم السلام أمره ، فاستشاط عثمان غيظاً وورم أنفه .

كلمة الإمام عليه السلام

وألقى الإمام عليه السلام على أبي ذرّ نظرة مشفوعة بالأسى والحزن ، وخاطبه بهذه الكلمات التي حدّدت أبعاد شخصيّة أبي ذرّ ، وألقت الأضواء على ثورته ضدّ الحكم الأموي قائلاً :

يَا أَبَا ذَرٍّ ، إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ . إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَىٰ دُنْيَاهُمْ ، وَخِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينِكَ ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ ؛ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ ، ومَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً ، وَالْأَكْثَرُ حُسَّداً . وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً ، ثُمَّ اتَّقَىٰ اللهَ لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً ! لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ .

يا لها من كلمات ذهبية ألمّت بواقع أبي ذرّ الذي ثار في وجه الطغيان والاستبداد ! فقد كانت ثورته إصلاحية استهدفت القضاء على الاستغلال ونهب ثروات الأُمّة .

وقد مجّد الإمام ثورة أبي ذرّ التي خشيها الأمويّون وطلب منه أن يهرب بدينه ليكون بمنجاة من شرور الأمويّين .

كلمة الإمام الحسن عليه السلام

وبادر ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام الحسن عليه السلام فصافح عمّه أبا ذرّ وألقى عليه هذه الكلمات :

« يا عَمّاهُ ، لَوْلَا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُوَدِّعِ أَنْ يَسْكُتَ ، وَلِلْمُشَيِّعِ أَنْ يَنْصَرِفَ لَقَصُرَ الْكَلَامُ وَإِنْ طالَ الْأَسَفُ ، وَقَدْ أَتَى الْقَوْمُ إِلَيْكَ ما تَرىٰ ، فَضَعْ عَنْكَ الدُّنْيا بِتَذَكُّرِ فَراغِها ، وَشِدَّةِ ما اشْتَدَّ مِنْها بِرَجاءِ ما بَعْدَها ، وَاصْبِرْ حَتّىٰ تَلْقىٰ نَبِيَّكَ وَهُوَ عَنْكَ راضٍ » .

وألمّت هذه الكلمات بما يحمل الإمام الحسن من أسى بالغ على ما حلّ بعمّه أبي ذرّ من الخطوب التي كانت من أجل إحقاق الحقّ ورفع كلمة الإسلام .

كلمة الإمام الحسين عليه السلام

وألقى الإمام الحسين عليه السلام نظرة الوداع على أبي ذرّ وخاطبه بهذه الكلمات :

« يا عَمّاهُ ، إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالىٰ قادِرٌ أَنْ يُغَيِّرَ ما قَدْ تَرىٰ ، إِنَّ اللهَ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، وَقَدْ مَنَعَكَ الْقَوْمُ دُنْياهُمْ ، وَمَنَعْتَهُمْ دِينَكَ ، فَما أَغْناكَ عَمّا مَنَعُوكَ ، وَأَحْوَجَهُمْ إِلىٰ ما مَنَعْتَهُمْ ، فَاسْأَلِ اللهَ الصَّبْرَ ، وَاسْتَعِذْ بِهِ مِنَ الْجَشَعِ وَالْجَزَعِ ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الدِّينِ وَالْكَرَمِ ، وَإِنَّ الْجَشَعَ لَا يُقَدِّمُ رِزْقاً ، وَالْجَزَعَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَلاً » .

وألقت هذه الكلمات الأضواء على ثورة أبي ذرّ التي كانت من أجل الصالح العامّ ، وحكت خوف الأمويّين منه ، فقد خافوه على مناصبهم ، وخافوه على الأموال التي اختلسوها من المسلمين .

كلمة عمّار رضي الله عنه

وتقدّم الصحابي العظيم الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر وعيناه تفيض من الدموع ، فخاطب صاحبه وخليله أبا ذرّ بهذه الكلمات : « لا آنس الله من أوحشك ،

ولا آمن من أخافك ، أما والله ! لو أردت دنياهم لآمنوك ، ولو رضيت أعمالهم لأحبّوك .. وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلّا الرضا بالدنيا والجزع من الموت ، ومالوا إلى سلطان جماعتهم عليه ، والملك لمن غلب فوهبوا لهم دينهم ، ومنحهم القوم دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة ألا ذلك هو الخسران المبين » .

كلمة أبي ذرّ رضي الله عنه

وقابل أبو ذرّ الأُسرة النبوية وعيناه تفيضان دموعاً ، وخاطبهم بهذه الكلمات قائلاً : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة ! إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم ، إنّي ثقلت على عثمان بالحجاز ، كما ثقلت على معاوية بالشام ، وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين ـ الكوفة والبصرة ـ فأفسد الناس عليهما ، فسيّرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلّا الله ، والله ! ما أُريد إلّا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة » .

وتحرّكت راحلة أبي ذرّ تطوي البيداء حتى انتهت إلى الربذة ليموت فيها جوعاً وفي يد عثمان ذهب المسلمين يصرفه على بني أُميّة وآل أبي معيط ، ويحرّمه على أبي ذرّ المصلح العظيم ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

غضب عثمان على الإمام عليه السلام

ولمّا قفل الإمام عليه السلام راجعاً من توديع أبي ذرّ استقبلته جماعة من الناس فأخبروه بغضب عثمان لأنّه خالف أوامره التي حرّم فيها توديع أبي ذرّ ، فأجابهم الإمام : **غَضَبُ الْخَيْلِ عَلَى اللُّجُمِ**(١) .

وبادر عثمان فصاح بالإمام : ما حملك على ردّ رسولي ؟

---

(١) يضرب مثلاً لمن يغضب غضباً لا ينتفع به .

أَمّا مَرْوانُ فَإِنَّهُ اسْتَقْبَلَنِي يَرُدُّنِي فَرَدَدْتُهُ عَنْ رَدِّي ، وَأَمّا أَمْرُكَ فَلَمْ أَرُدَّهُ .

أوَلم يبلغك أنّي قد نهيت الناس عن تشييع أبي ذرّ ؟

أَوَ كُلُّ ما أَمَرْتَنا بِهِ مِنْ شَيْءٍ يُرى طاعَةَ اللهِ وَالْحَقَّ فِي خِلافِهِ اتَّبَعْنا فِيهِ أَمْرَكَ ؟!!

أقد مروان .

وَما أَقِيدُهُ ؟

ضربت بين أذني راحلته .

أَمّا راحِلَتي فَهِي تِلْكَ ، فَإِنْ أَرادَ أَنْ يَضْرِبَها كَما ضَرَبْتُ راحِلَتَهُ فَلْيَفْعَلْ ، وَأَمّا أَنا فَوَاللهِ ! لَئِنْ شَتَمَنِي لَأَشْتُمَنَّكَ أَنْتَ بِمِثْلِها ، لا أَكْذِبُ فِيهِ وَلا أَقُولُ إِلَّا حَقّاً .

ولِمَ لا يشتمنّك إذ شتمته ، فوالله ! ما أنت عندي بأفضل منه .

وتألّم الإمام من عثمان الذي ساوى بينه وبين الوزغ ابن الوزغ مروان بن الحكم ، ونسي جهاد الإمام ومنزلته من النبيّ وأنّه منه بمنزلة هارون من موسى .

وردّ الإمام على عثمان بأعنف القول قائلاً له : **إِلَيَّ تَقُولُ هٰذا الْقَوْلَ ، وَبِمَرْوانَ تَعْدِلُنِي ؟ فَأَنا وَاللهِ ! أَفْضَلُ مِنْكَ ، وَأَبِي أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكَ ، وَأُمِّي أَفْضَلُ مِنْ أُمِّكَ ، وَهٰذِهِ نَبْلِي قَدْ نَثَلْتُها** (١) .

وسكت عثمان ولم يطق جواباً ، وتركه الإمام يموج في تيارات من الغضب ، قد ورم أنفه وانتفخت أوداجه .

٣ ـ عبدالله بن مسعود

وعبدالله بن مسعود القارئ من ألمع الصحابة ومن خيارهم ، وهو من الناقمين

---

(١) الغدير : ٨ : ٢٩٧ . بحار الأنوار : ٣١ : ١٨٢ و ١٨٣ . اختيار معرفة الرجال : ١ : ١٠٢ و ١٠٣ .

على عثمان لمّا استقرض الوليد من بيت المال فطالبه ابن مسعود بردّ ما استقرضه ، فأبى الوليد وكتب إلى عثمان يخبره بذلك ، فغضب عثمان وكتب إلى ابن مسعود إنّما أنت خازن لنا ، وغاظ ذلك ابن مسعود وألقى المفاتيح وقفل راجعاً إلى يثرب ، فلمّا انتهى إليها وجد عثمان على المنبر يخطب ، فلمّا رأى ابن مسعود قال يخاطب الحاضرين : قدمت عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلح .

وردّ عليه ابن مسعود قائلاً : لست كذلك ، ولكنّي صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان .

واندفعت عائشة منكرة على عثمان قائلة له : أي عثمان ، أتقول هذا لصاحب رسول الله ؟

وأمر عثمان جلاوزته بإخراج ابن مسعود من الجامع إخراجاً عنيفاً ، وانبرى إليه عبدالله بن زمعة فضرب به الأرض ، وقيل بل احتمله (يحموم) غلام عثمان فاحتمله ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فانكسر ضلعه ، وثار الإمام عليه السلام فخاطب عثمان بعنف قائلاً : **يا عُثْمانُ ، أَتَفْعَلُ هٰذا بِصاحِبِ رَسُولِ اللهِ بِقَوْلِ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ ؟**

فقال عثمان : ما بقول الوليد فعلت هذا ، ولكنّي وجّهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة ، فقال له ابن مسعود : إن دمّ عثمان حلال .

وأنكر عليه الإمام أن يأخذ بقول زبيد قائلاً : **أَحَلْتَ عَنْ زَبِيدٍ عَلىٰ غَيْرِ ثِقَةٍ**(١) .

وحمل الإمام ابن مسعود إلى منزله ، وقام برعايته حتى أبل من مرضه ، وقاطعه عثمان وهجره ، وفرض عليه الاقامة الجبرية في يثرب ، وقطع عنه عطاءه . . ومرض ابن مسعود مرضه الذي توفّي فيه فدخل عليه عثمان عائداً فقال له : ما تشتكي ؟

---

(١) أنساب الأشراف : ٥ : ٣٦ . الغدير : ٩ : ٤ و ٥ .

ذنوبي ؟

ما تشتهي ؟

رحمة ربّي .

أدعو لك طبيباً ؟

الطبيب أمرضني .

آمر لك بعطائك ؟

منعتني عنه وأنا محتاج إليه ، وتعطينيه وأنا مستغني عنه !

يكون لولدك .

رزقهم على الله !

استغفر لي يا أبا عبدالرحمن .

اسأل الله أن يأخذ لي منك بحقّي[١] .

وانصرف عثمان ولم يفز برضا ابن مسعود ، ولمّا ثقل حاله أوصى أن لا يصلّي عليه عثمان ، وأن يصلّي عليه صاحبه وخليله عمّار بن ياسر ، ولمّا توفّي قامت الصفوة من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله بتجهيزه ودفنه ، ولم يعلموا عثمان بذلك ، فلمّا علم غضب ، وقال : سبقتموني ؟

فردّ عليه عمّار : إنّه أوصى أن لا تصلّي عليه .

وقال ابن الزبير :

لأعْـرِفَنَّكَ بَـعدَ المَـوتِ تَـنْدُبُني ... وَفي حَياتِيَ ما زَوَّدْتَـني زادِي[٢]

(١) الطبقات الكبرى : ٣: ١٦٠ . شرح نهج البلاغة : ٣: ٤٢ و ٤٣. أسد الغابة : ٣: ٣٨٤. تاريخ مدينة دمشق : ٣٣: ١٨٦.

(٢) مستدرك الحاكم : ٧: ١٦٣. البداية والنهاية : ٣: ١٣. الطبقات الكبرى : ٣: ١٦٣. ⇦

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض المعارضين لعثمان والناقمين عليه.. وكان من أهمّ ما نقموا عليه من أعماله ما يلي:

١ ـ استبداده بأموال الدولة وإنفاقها على أُسرته وذويه في حين أنّ المجاعة والحرمان قد عمّتا البلاد.

٢ ـ منحه المناصب العالية في الدولة لبني أُميّة وآل أبي معيط.

٣ ـ تنكيله بخيار الصحابة الذين طالبوه بالعدل والكفّ عن سياسته الملتوية، ولم يستجب لهم وإنّما نكّل بهم أفظع التنكيل وأقساه، كما ذكرنا ذلك.

الثورة على عثمان

وكان من الطبيعي أن تندلع الثورة على عثمان بعد ما اقترفه من الأحداث الجسام، ولم تكن عفوية، وإنّما كانت نتيجة للنضج الاجتماعي وكانت إصلاحية إلى حدّ كبير ـ كما يقول العلّامة العلائلي ـ: «لقد شاع التنافر في جميع الأوساط وأخذت الأندية والمجالس تتحدّث عن مظالم عثمان، وسوء سياسته»(١).

مذكّرة المهاجرين لأهل مصر

ورفع المهاجرون وخيار الصحابة مذكّرة لأهل مصر يستنجدون بهم للقيام بتغيير نظام الحكم القائم، وهذا نصّ مذكّرتهم:

من المهاجرين الأوّلين وبقيّة الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين.

أمّا بعد، أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله ﷺ قبل أن يسلبها أهلها، فإنّ كتاب الله قد بدّل، وسنّة رسوله قد غيّرت، وأحكام الخليفتين قد بدّلت، فننشد

⇐ تاريخ مدينة دمشق: ٦٠: ١٨١.

(١) الإمام الحسين عليه السلام: ٦٦.

الله من قرأ كتابنا من بقيّة أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بإحسان إلّا أقبل إلينا، وأخذ الحقّ لنا وأعطاناه، فاقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحقّ على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيّكم، وفارقكم عليه الخلفاء، غلبنا على حقّنا، واستولي على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبيّنا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملك عضوض، من غلب على شيء أكله(١).

وحفلت هذه المذكرة بالأخطاء التي ارتكبها عثمان وهي:

١ - تبديل كتاب الله وإلغاء أحكامه ونبذ نصوصه.

٢ - تغيير سنّة الرسول.

٣ - تبديل أحكام الخليفتين.

٤ - استئثار السلطة بالفيء.

٥ - صرف الخلافة الإسلامية عن مفاهيمها الخيرة إلى ملك عضوض(٢).

وتحفّز المصلحون حينما انتهت إليهم هذه المذكّرة إلى إرسال وفد للاطّلاع على أوضاع الخليفة والتعرف عليها.

مذكرة أُخرى لأهل الثغور

وأرسل صحابة الرسول ﷺ مذكّرة أُخرى لأهل الثغور جاء فيها: إنّكم إنّما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عزّ وجلّ تطلبون دين محمّد ﷺ، فإنّ دين محمّد قد أفسده خليفتكم فأقيموه(٣).

كما أوفدت الجبهة المعارضة مذكّرة أُخرى لأهل الأمصار، وقد أشاعت النقمة

---

(١) الإمامة والسياسة: ١: ٣٥. تاريخ المدينة: ٤: ١٢٠٥، الهامش. الغدير: ٩: ١٦٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ٥٤.

(٣) تاريخ الأمم والملوك: ٥: ١١٥. الكامل في التاريخ: ٥: ٧٠. شرح نهج البلاغة: ٢: ١٤٩.

والسخط على حكومة عثمان.

وفود الأمصار

واستجابت الأمصار الإسلامية لنداء الصحابة، فأرسلت وفودها إلى المدينة للاطّلاع على حال عثمان، أمّا الوفود فهي:

١ ـ الوفد المصري

وأرسلت مصر وفداً كبيراً قدّر بأربعمائة شخص، وقيل بأكثر، بقيادة المؤمن محمّد بن أبي بكر وعبد الرحمن بن عديس البلوي.

٢ ـ الوفد الكوفي

وأرسلت الكوفة وفداً بقيادة الزعيم الكبير مالك الأشتر، وزيد بن صوحان العبدي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبدالله بن الأصمّ العامري، وعمرو بن الأهتم.

٣ ـ الوفد البصري

وأوفدت البصرة مائة رجل بقيادة حكيم بن جبلة، ثمّ أوفدت خمسين رجلاً وفيهم ذريح بن عباد العبدي وبشر بن شريح القيسي وغيرهم من الوجوه والأعيان[1].

واستقبلت الصحابة الوفود بمزيد من الحفاوة والتكريم وحرّضتها على استقالة عثمان والاطاحة بحكومته.

مذكّرة المصريّين لعثمان

ورفع الوفد المصري مذكّرة لعثمان يدعوه فيها إلى الاستقامة في سلوكه والتوازن

---

(١) الثقات: ٢: ٢٦٠. الغدير: ٩: ١٦٨.

في سياسته ، وهذا نصّها :

أمّا بعد ، فاعلم أنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ، فالله الله ، ثمّ الله الله ، فإنّك على دنيا زائلة فاستقم معها ، ولا تنسَ نصيبك من الآخرة ، فلا تسوّغ لك الدنيا ، وأعلم أنّا لله ، ولله نغضب ، وفي الله نرضى ، وأنّا لا نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة أو ضلالة مجلحة مبلجة[١] ، فهذه مقالتنا لك ، وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك والسلام »[٢] .

وحوت هذه المذكّرة الدعوة إلى الاصلاح والاستقامة ، وقد قرأها عثمان بإمعان ، وحوله المصريّون قد أحاطوا به ، فبادر المغيرة بن شعبة فطلب منه أن يتكلّم مع المصريّين ، فأذِن له ، ولمّا أراد أن يفتح معهم صاحوا جميعاً :

يا أعور وراءك .. يا فاجر وراءك .. يا فاسق وراءك .

ورجع المغيرة خائباً لم تفلح وساطته ، ودعا عثمان عمرو بن العاص وطلب منه أن يكلّم القوم ، فبادر تجاههم وسلّم عليهم ، فلم يردّ أحد منهم عليه السلام لعلمهم بفسقه وصاحوا به : ارجع يا عدوّ الله .

ارجع يابن النابغة ، لست عندنا بأمين ولا مأمون .

ورجع ابن العاص خائباً في وفادته ، فقد قوبل بمزيد من الاستهانة .

استجارته بالإمام عليه السلام

وسدّت على عثمان جميع الوسائل ، فلم ير هناك طريقاً مفتوحاً ليتخلّص به ممّا هو فيه من المحنة ، ورأى أنّه لا ملجأ له إلّا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فاستغاث به ، فأجابه الإمام بعد أن شرط عليه أن يدعو القوم ويلتزم لهم بالسير على كتاب الله وسنّة

---

(١) **مبلجة** : واضحة بيّنة.

(٢) تاريخ الأمم والملوك : ٥ : ١١١. أنساب الأشراف : ٥ : ٦٤ و ٦٥. الغدير : ٩ : ١٧٠.

نبيّه ، فأجابه إلى ذلك ، وانطلق الإمام صوب الثوّار وهو يحمل لهم الضمان والالتزام بجميع ما طلبوه ، فلمّا رأوا الإمام قالوا له : وراءك ؟

فأجابهم الإمام بالالتزام الكامل بجميع مطالبهم قائلاً : **تُعْطَوْنَ كِتابَ اللهِ ، وَتُعْتَبُونَ مِنْ كُلِّ ما سَخِطْتُم عَلَيْهِ** .

أتضمن ذلك ؟

نَعَمْ .

رضينا .

وأقبل وجوه الوفد وأشرافهم مع الإمام فدخلوا على عثمان وعاتبوه على سياسته ، وطلبوا منه أن يغيّر سلوكه ويسير بين المسلمين بسياسة قوامها العدل الخالص والحقّ المحض ، فأجابهم إلى ذلك .

كتاب عثمان

وكتب عثمان إلى الوفود التي أحاطت به هذا الكتاب والتزم بتنفيذ ما فيه ، وهذا نصّه :

هذا كتاب من عبدالله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين ، إنّ لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيّه ، يعطى المحروم ، ويؤمن الخائف ، ويردّ المنفي ، ولا يجمّر في البعوث ، ويوفّر الفيء ، وعليّ بن أبي طالب ضمين للمؤمنين ، وعلى عثمان الوفاء بما في هذا الكتاب .

وشهد فيه كلّ من الزبير بن العوّام ، وطلحة بن عبيدالله ، وعبدالله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وسهل بن حنيف ، وأبو أيّوب خالد بن زيد ، وكان توقيعه والشهادة عليه سنة (٣٥هـ)[١] .

---

(١) الغدير : ٩ : ١٧١ .

واستلم الثوّار الكتاب ، وانصرفوا إلى جماعتهم ، وطلب الإمام من عثمان أن يخرج إلى الناس ويعلن لهم تنفيذ ما أرادوا ، ففعل عثمان ذلك ، وقد أعطاهم عهد الله وميثاقه أن يسير فيهم بكتاب الله وسنّة نبيّه ، ويوفّر لهم الفيء ولا يؤثر به أحداً من بني أُميّة ، وقفل المصريون راجعين إلى بلادهم .

نقضه للعهد

ومن المؤسف أنّ عثمان نقض ما قطعه على نفسه ولم يف للمسلمين بما عاهدهم عليه ، أمّا سبب ذلك فتعزوه مصادر التاريخ إلى مروان الذي كان وزيراً ومستشاراً له ، فقد لامه على ما أعطاه للمصريّين من العهد وطلب منه نقض ذلك ، فامتنع من إجابته إلّا أنّه أصر عليه ، فاستجاب له ، فخرج إلى الناس واعتلى المنبر وقال : أمّا بعد ، إنّ هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر ، فلمّا تيقّنوا أنّه باطل ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم .

وقطع عليه ابن العاص كلامه وقال له : اتّق الله يا عثمان ! فإنّك قد ركبت نهابير[1] وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب معك .

فصاح به عثمان : وإنّك هناك يابن النابغة ! قملت والله! جبّتك منذ تركتك من العمل .

وارتفعت أصوات الانكار من جميع جنبات المسجد وهي ذات لهجة واحدة : اتّق الله يا عثمان !.. اتّق الله يا عثمان ![2] .

وانهار أمام هذا الحشد الهائل من الانكار ولم يدرِ ما يقول ، ولم يجد بدّاً من إعلان التوبة مرّة ثانية ، فتاب وندم على ما فرّط في أمر نفسه .

---

(١) **النهابير** : المهالك .

(٢) تاريخ الأمم والملوك : ٥ : ١١٠ . أنساب الأشراف : ٥ : ٧٤ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٦٣ .

استنجاده بمعاوية

وأحاط الثوّار بعثمان لأنّه لم يقلع عن سياسته ، ولا يغيّر ولا يبدّل أي شيء منها ، وطالبوه بالاستقالة من منصبه فأبى ، ورأى أنّ خير وسيلة له أن يستنجد بابن عمّه معاوية ليبعث له قوّة عسكرية من أهل الشام تحميه من الثوّار ، فكتب إليه : أمّا بعد ، فإنّ أهل المدينة قد كفروا ، وخلعوا الطاعة ونكثوا البيعة ، فابعث إليَّ من قِبلك مقاتلة أهل الشام على صعب وذلول[1] .

وحمل الكتاب مسور بن مخرمة ، وأخذ يجدّ في السير حتى انتهى إلى معاوية ، فناوله الكتاب وقال له : يا معاوية ، انّ عثمان مقتول ، فانظر فيما كتب به إليك .

وسخر منه معاوية وأجابه : يا مسور ، إنّي مصرّح أنّ عثمان بدأ فعمل بما يحب الله ورسوله ويرضاه ، ثمّ غيّر فغيّر الله عليه ، أفيتهيّأ لي أن أردّ ما غيّر الله عزّ وجلّ[2] ؟

ولم يبد معاوية أي اهتمام بشأن عثمان ، وكان يترقّب قتله ليتّخذ من دمه ورقة رابحة يطلب بها المطالبة بدمه .

وقد تنكّر معاوية لعثمان ، ولم يستجب له في وقت محنته .

يقول الدكتور محمّد طاهر دروش : « وإذا كان هناك وزر في قتل عثمان فوزره على معاوية ودمه في عنقه ، ومسؤوليّته عن ذلك لا تدفع ، فهو أوْلى الناس به ، وأعظم الرجال شأناً في دولته ، وقد دعاه فيمن دعا ، يستشيره في هذا الأمر ، وهو داهية الدهاة ، فما نهض إليه برأيه ، ولا دافع عنه بجنده ، وكأنّه قد استطال ـ كما استطال غيره ـ حياته ، فترك الأيام ترسم بيدها مصيره ، وتحدّد نهايته ، فإذا جاز لأحد أن يظنّ بعلي أو بطلحة والزبير تقصيراً في حقّ عثمان فمعاوية هو المقصّر ، وإذا جاز

---

(١) الكامل في التاريخ : ٥ : ٦٧ . تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٥٠ . تاريخ الأُمم والملوك : ٣ : ٤٠٢ .

(٢) فتوح البلدان : ٢ : ٢١٨ . تاريخ مدينة دمشق : ٣٩ : ٣٧٨ . الإمامة والسياسة : ١ : ٥٥ ، الهامش .

أن يلام أحد غير عثمان فيما جرى فمعاوية هو الملوم »[١].

وكتب عثمان رسائل أُخرى إلى أهل الأمصار يستنجد بهم ويطلب منهم المعونة لرفع الحصار عنه ، إلّا أنّه لم يستجب أي أحد منهم لعلمهم بالأحداث الجسام التي اقترفها .

الحصار على عثمان

وفرض الثوّار الحصار على عثمان ، وأحاطوا بداره وهم يهتفون بسقوطه ، ويطالبونه بالاستقالة من منصبه ، وفي أثناء تلك المحنة الحازبة التي أحاطت بعثمان انبرى مروان إلى الثوّار فأشعل نار الثورة في نفوسهم ودفعهم إلى الاطاحة بحكم عثمان قائلاً لهم : ما شأنكم ؟ كأنّكم قد جئتم لنهب ، شاهت الوجوه تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا أخرجوا عنّا .

وكانت هذه الكلمات الطائشة قد أشعلت فتيل الحرب على عثمان ، ونقلت إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فخفّ مسرعاً إلى عثمان وقال له :

« أَما رَضِيتَ مِنْ مَرْوانَ ، وَلَا رَضِيَ مِنْكَ إِلَّا بِتَحَرُّفِكَ عَنْ دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ ، مِثْلَ جَمَلِ الظَّعِينَةِ يُقادُ حَيْثُ يَشاءُ رَبُّهُ ، وَاللهِ ما مَرْوانُ بِذِي رأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ ، وَأَيْمُ اللهِ لَأَراهُ يُورِدُكَ وَلَا يُصْدِرُكَ ، وَما أَنا عائِدٌ بَعْدَ مَقامِي هٰذا لِمُعاتَبَتِكَ ، أَذْهَبْتَ شَرَفَكَ ، وَغُلِبْتَ عَلىٰ أَمْرِكَ .. » .

وتركه الإمام وانصرف عنه ، والثوّار قد أحاطوا به ، والتفتت نائلة زوج عثمان إلى مروان وبني أُميّة فقالت لهم : أنتم واللهِ ! قاتلوه وميتّموا أطفاله .

والتفتت إلى زوجها تحذّره من مروان قائلة له : إنّك متى أطعت مروان قتلك .

---

(١) الخطابة في صدر الإسلام : ٢ : ٢٣ .

لقد كان مروان من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى قتل عثمان ، فقد أطاعه عثمان إطاعة عمياء ، وهو يدفع به إلى المهالك من دون أن يحسّ عثمان بذلك .

يوم الدار

واندلعت نيران الثورة فقد نفد صبر الثوّار ، فلم يستقل عثمان من منصبه ، وقد أحاطوا بداره ، وقد شهروا سيوفهم ، فخرج إليهم مروان مدافعاً عنه ، فبرز إليه عروة بن شييم الليثي فضربه على قفاه بالسيف فخر لوجهه صريعاً ، وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقي ، فأراد أن يقطع رأسه فعذلته فاطمة الثقفية وقالت له : إن كنت تريد قتله ، فقد قتلته ، فما تصنع بلحمه أن تبضعه ، فاستحى منها وتركه .

وتسلّق الثوّار عليه الدار ، ولم يكن عنده أحد يدافع عنه ، فقد ورمت منه القلوب ، ومجّته النفوس ، ورماه الناس بالحجارة ونادوه : لسنا نرميك ، بل الله يرميك .

واحتفّ به بعض الأمويّين يدافعون عنه .. وقد نشب بينهم وبين الثوّار قتال عنيف ، وقد فرّ وانهزم خالد بن عقبة بن أبي معيط من ساحة القتال ، وإليه يشير عبدالرحمن بن سيحان بقوله :

يَلومُونَني في الدّارِ إنْ غِبْتُ عَنْهُمُ ... وَقَدْ فَرَّ عَنْهُمْ خالِدٌ وَهوَ دارعُ

وقتل من أصحاب عثمان زياد بن نعيم الفهري ، والمغيرة بن الأخنس ، ونيار بن عبدالله الأسلمي وجماعة .

مصرع عثمان

وانهزم بنو أُميّة وآل أبي معيط وتركوا عثمان وحده ، فأجهز عليه جماعة من المسلمين في مقدّمتهم محمّد بن أبي بكر ، فقد قبض على لحيته وقال له :

أخزاك الله يا نعثل (١).

فردّ عليه عثمان : لست بنعثل ، ولكنّي عبدالله وأمير المؤمنين.

فقال له محمّد بعنف : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ، وأخذ يعدّد بني اُميّة.

وتضرّع عثمان إلى محمّد قائلاً له : يابن أخي ، دع عنك لحيتي ، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه.

فأجابه محمّد بعنف : ما اُريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك.

وطعن محمّد جبينه بمشقص كان في يده ، ورفع كنانة بن بشر مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل اُذنه حتى دخلت في حلقه ، ثمّ علاه بالسيف ، ووثب عليه عمرو بن الحمق الخزاعي ، فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات ، وكسر عمير بن ضابئ ضلعين من أضلاعه ، وحاولوا حزّ رأسه ، فألقت زوجتاه نائلة وابنة شيبة بن ربيعة بنفسهما عليه ، فأمر ابن عديس بتركه لهما (٢).

واُلقيت جثّة عثمان ملطّخة بدمه على الأرض لم يفزع إليه أحد من الأمويّين وآل أبي معيط لمواراته في مقرّه الأخير ، وقد بالغ الثوّار في إهانته ، فقد ألقوا جثمانه على المزبلة ثلاثة أيام(٣) مبالغة في توهينه وتحقيره ، وكلّم بعض خواصه الإمام عليه السلام أن يتوسّط إلى الثوّار فيواروه ، فكلّمهم الإمام فأذنوا له في دفنه ، ووصف جولد تسيهر كيفيّة دفنه بقوله :

ويسط جثمانه دون أن يغسّل على باب ، فكان رأسه يقرع قرعاً ، يقابل بخطوات

---

(١) نعثل : هو طويل اللحية ، وقيل : هو رجل من أهل الكتاب كان طويل اللحية ، وكان يشبه عثمان ، ولذلك سمّي به ، جاء ذلك في حاشية لطائف المعارف : ٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ١٥٨. الطبقات الكبرى : ٣ : ٧٣. تاريخ مدينة دمشق : ٣٩ : ٤٠٩. تاريخ الأمم والملوك : ٣ : ٤٢٣.

(٣) تمام المتون / الصفدي : ٧٩.

سريعة من حامليه ، وهم يسرعون في ظلام الليل ، والأحجار ترشقه ، واللعنات تتبعه ، ودفنوه في حش كوكب[١] ، ولم يسمح الأنصار بمواراته في مقابر المسلمين[٢] ، وأمّا غلاماه اللذان قتلا معه فقد سحبوهما وألقوهما على التلّة فأكلتهما الكلاب[٣] .

وبذلك فقد انتهت حياة عثمان بهذه الصورة المروّعة ، وقد امتحن بها المسلمون كأشدّ وأقسى ما يكون الامتحان ، وأخلدت لهم الفتن والمصاعب ، وألقتهم في شرّ عظيم ، فقد ربح الأمويّون بقتله ، فقد طالبوا بدمه ، كما تذرّعت بالمطالبة بدمه القوى النفعية أمثال : طلحة والزبير وعائشة ، فقد رفعوه شعاراً لهم ، وهم الذين أجهزوا عليه .

وعلى أي حال ، فقد مني العالم الإسلامي بحكومة عثمان وبمصرعه بمصاعب وفتن ، وقد تحدّثنا عنها في كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه السلام) فلا نرى حاجة لإعادتها ، وقد اقتبسنا معظم هذه الفصول منه ، وذلك لأنّها ترتبط ببحثنا ارتباطاً موضوعياً لا غنى عنها ، فإنّها وإن ذكرت في كتاب (حياة الإمام الحسن عليه السلام) وكتاب (الإمام الحسين عليه السلام) فهي على سبيل الاستطراد لأنّها تمثّل الحياة الاجتماعية والسياسية في عصر الإمامين عليهما السلام ، أمّا ذكرها هنا فإنّها من صميم الموضوع .

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين

---

(١) **حش كوكب** : اسم بستان لليهود كانوا يدفنون موتاهم فيه .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام : ٤٥ . تاريخ مدينة دمشق : ٣٩ : ٥٣٢ . تاريخ المدينة : ٤ : ١٢٤١ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك : ٣ : ٢٤١ . البداية والنهاية : ٧ : ٢١٤ . تاريخ مدينة دمشق : ٣٩ : ٥٢٦ .

المحتويات

الإهداء ٧
تقديم ٩

النسب الوضّاح

١٧ ـ ٣٨

المآثر الكريمة ١٩
١ ـ عبادة الله تعالى ٢٠
٢ ـ حلف الفضول ٢٠
٣ ـ إخراج ماء زمزم ٢١
٤ ـ سقاية الحاج ٢٢
٥ ـ إطعام الطعام ٢٣
أعمدة الشرف من الهاشميّين ٢٣
١ ـ هاشم ٢٣
٢ ـ عبدالمطّلب ٢٤
٣ ـ أبوطالب ٢٥
رعايته للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ٢٦
حمايته للإسلام ٢٦

مع النبيّ صلى الله عليه وآله في الشِعب ٢٩
تبنّي أبي طالب الدعوة الإسلامية ٣١
وصيّته الخالدة ٣٢
في ذمّة الخلود ٣٤
تأبين النبيّ صلى الله عليه وآله له ٣٥
٤ ـ فاطمة بنت أسد ٣٦
سبقها إلى الإسلام ٣٦
مبايعتها للنبيّ صلى الله عليه وآله ٣٦
رعايتها للنبيّ صلى الله عليه وآله ٣٧
روايتها للحديث ٣٧
إقامتها في بيت الإمام عليّ عليه السلام ٣٧
وفاتها ٣٧

وليد الكعبة

٣٩ ـ ٧١

كيفيّة ولادته عليه السلام ٤٢
مشرق النور ٤٣
مع الشعراء ٤٣
١ ـ السيّد الحميري ٤٣
٢ ـ بولس سلامة ٤٤
٣ ـ عبدالمنعم الفرطوسي ٤٤
تسمية اُمّه له عليه السلام ٤٥
تسمية أبي طالب له ٤٦

سنة ولادته عليه السلام ٤٧
ألقابه عليه السلام ٤٧
١ـ الصدِّيق ٤٧
٢ـ الوصيّ ٤٨
مع الشعراء ٤٩
١ـ خزيمة بن ثابت ٤٩
٢ـ عبدالرحمن بن جعيل ٤٩
٣ـ جرير بن عبدالله البجليّ ٥٠
٤ـ سعيد بن قيس ٥٠
٥ـ حجر بن عدي ٥١
٦ـ النعمان بن عجلان ٥١
٧ـ أبوالأسود الدؤلي ٥١
٨ـ الفضل بن العباس ٥٢
٩ـ حسّان بن ثابت ٥٢
١٠ـ الكميت ٥٢
١١ـ المتنبّي ٥٢
١٢ـ أبو تمام الطائي ٥٣
١٣ـ دعبل الخزاعي ٥٣
٣ـ الفاروق ٥٤
٤ـ يعسوب الدين ٥٥
٥ـ الوليّ ٥٥
٦ـ أمير المؤمنين ٥٦
٧ـ الأمين ٥٧

٨ـ الهادي ٥٨
٩ـ الأُذن الواعية ٥٨
١٠ـ المرتضى ٥٨
١١ـ الأنزع البطين ٥٩
١٢ـ الشريف ٥٩
١٣ـ بيضة البلد ٦٠
١٤ـ خير البشر ٦٠
١٥ـ سيّد العرب ٦١
١٦ـ حجّة الله ٦٢
كناه عليه السلام ٦٢
١ـ أبوالريحانتين ٦٢
٢ـ أبو السبطين ٦٣
٣ـ أبو الحسن ٦٣
٤ـ أبو الحسين ٦٣
٥ـ أبو تراب ٦٣
مع الأمويّين ٦٧
ملامحه وصفاته عليه السلام ٦٨
١ـ وصف النبيّ صلى الله عليه وآله له عليه السلام ٦٨
٢ـ وصف ضرار للإمام عليه السلام ٦٨
٣ـ وصف ابنه محمّد له عليه السلام ٦٩
٤ـ وصف المغيرة له ٧٠
٥ـ وصف بعض المعاصرين له عليه السلام ٧٠

نشأته عليه السلام

٧٣ ـ ٩٥

احتضان النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام ٧٥

التربية النبويّة للإمام عليه السلام ٧٦

١ ـ نكران الذات ٧٧

٢ ـ التحلّي بالصفات الكريمة ٧٨

٣ ـ الاجتناب عن الصفات المذمومة ٨٠

سبقه عليه السلام للإسلام ٨٣

حبّه عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله ٨٦

قيامه عليه السلام بخدمة النبيّ صلى الله عليه وآله ٨٦

نماذج من أدعيته عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله ٨٧

تمجيده عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله ٩٠

كتابته عليه السلام للوحي ٩١

كتابته عليه السلام لعهود الرسول صلى الله عليه وآله ٩٢

تحطيمه عليه السلام للأصنام ٩٢

نقش خاتم الإمام عليه السلام ٩٤

اجتنابه عليه السلام للخضاب ٩٤

دار سكناه عليه السلام ٩٥

عناصره النفسيّة

٩٧ ـ ١٣٥

إيمانه عليه السلام الوثيق بالله تعالى ٩٩

إنابته عليه السلام لله تعالى ١٠٠

العصمة من الذنوب ١٠٤
زهده عليه السلام ١٠٧
صور مذهلة من زهده عليه السلام ١٠٧
١ ـ لباسه عليه السلام ١٠٧
٢ ـ طعامه عليه السلام ١١٠
بطولته عليه السلام النادرة ١١٤
قوّته عليه السلام الهائلة ١١٦
حلمه عليه السلام ١١٧
بوادر من حلمه عليه السلام ١١٧
صبره عليه السلام ١١٩
تواضعه عليه السلام ١٢١
شذرات من تواضعه عليه السلام ١٢١
عيادته عليه السلام المرضى ١٢٢
كراهته عليه السلام للمدح ١٢٣
إجابته عليه السلام لدعوة من دعاه ١٢٤
سخاؤه عليه السلام ١٢٤
شذرات من جوده عليه السلام ١٢٤
الرأفة بالفقراء ١٢٧
عدله عليه السلام ١٢٩
بوادر من عدله عليه السلام ١٣٠
سعة علومه عليه السلام ١٣٣
سرعة الجواب ١٣٤

مع الثورة الإسلامية

١٣٧ ـ ١٦٤

١ ـ تحطيم الأصنام ١٣٩

٢ ـ تحرير العبيد والمستضعفين ١٤١

٣ ـ تحرير المرأة ١٤١

١ ـ وأد البنات ١٤١

٢ ـ حرمانها من الميراث ١٤٢

٣ ـ الزواج بأرملة الأب ١٤٣

٤ ـ المساواة بين الناس ١٤٣

٥ ـ حماية الحقوق ١٤٤

٦ ـ تحريم الربا ١٤٤

٧ ـ تحريم الخمر ١٤٤

٨ ـ تحريم الاستغلال ١٤٤

٩ ـ إقصاء الفقر ١٤٥

١٠ ـ إشاعة العلم ١٤٥

الإمام عليه السلام يصف الإسلام ١٤٥

الإمام عليه السلام أوّل مَن صلّى مع النبيّ صلى الله عليه وآله ١٤٧

١ ـ عفيف الكندي ١٤٧

٢ ـ عبدالله بن مسعود ١٤٨

الإمام عليه السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله في بداية دعوته ١٤٩

فزع القرشيّين ١٥١

إجراءات قاسية ١٥٢

١ ـ إغراء صبيانهم بمحاربة النبيّ صلى الله عليه وآله ١٥٢

٢ ـ اتّهام النبيّ صلى الله عليه وآله بالجنون ١٥٣
٣ ـ اتّهامه صلى الله عليه وآله بالسحر ١٥٣
٤ ـ تعذيب المؤمنين ١٥٣
٥ ـ في شِعب أبي طالب ١٥٤
الافراج عن النبيّ وآله: ١٥٥
وفاة أبي طالب وخديجة ١٥٦
إجماع القرشيّين على قتل النبيّ صلى الله عليه وآله ١٥٦
هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى يثرب ١٥٧
مبيت الإمام عليه السلام على فراش النبيّ صلى الله عليه وآله ١٥٧
دعاء الإمام عليه السلام ١٥٩
مرافقة أبي بكر للرسول صلى الله عليه وآله ١٦١
استقبال المدينة للرسول ١٦٢
هجرة الإمام عليه السلام إلى يثرب ١٦٢
الاخوّة بين المسلمين ١٦٣
تأسيس الجامع النبويّ ١٦٣

الإمام عليه السلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله وفترة الخلافة

١٦٥ ـ ٤٢٧

مع النبي في جهاده وغزواته

١٦٧ ـ ٢٢٢

واقعة بدر ١٧٠

استنجاد أبي سفيان بقريش ١٧٠

رؤيا عاتكة ١٧١

نصيحة عتبة بن ربيعة ١٧٢

سقاية الإمام عليه السلام للجيش ١٧٣

دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله للأنصار ١٧٣

دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله على قريش ١٧٣

النبيّ صلى الله عليه وآله مع أصحابه ١٧٤

المعركة ١٧٤

شجاعة الإمام عليه السلام ١٧٥

أسماء من قتلهم الإمام عليه السلام ١٧٥

وقوف النبيّ صلى الله عليه وآله على القتلى ١٧٧

الأسرى من قريش ١٧٨

حزن القرشيّين على قتلاهم ١٧٨

انتصار الإسلام ١٨٠

واقعة أُحُد ١٨٠

الحرب ١٨١
هزيمة المسلمين ١٨٣
مصرع الشهيد حمزة ١٨٤
مصرع الشهيد مصعب ١٨٤
حماية الإمام للنبيّ صلى الله عليه وآله ١٨٥
تشفّي هند ١٨٦
تشفّي أبي سفيان ١٨٧
حزن النبيّ صلى الله عليه وآله ١٨٧
ملاحقة النبيّ صلى الله عليه وآله للقرشيّين ١٨٨
سرور القرشيّين ١٨٩
واقعة الخندق ١٨٩
دور اليهود في المعركة ١٩٠
النبيّ صلى الله عليه وآله مع نعيم ١٩٠
حفر الخندق ١٩٢
مبارزة الإمام عليه السلام لعمرو ١٩٣
فتح خيبر ١٩٦
مبارزة الإمام عليه السلام لمرحب ١٩٩
غزوة بني قريظة ٢٠٠
نصيحة كعب لبني قريظة ٢٠٠
نزولهم على حكم الرسول صلى الله عليه وآله ٢٠١
تحكيم سعد ٢٠٢
غزوة بني النضير ٢٠٢
غزوة وادي القرى ٢٠٣

فتح اليمن ٢٠٤
دعاء الإمام ٢٠٤
إسلام همدان ٢٠٥
فتح مكّة ٢٠٥
رسالة حاطب لقريش ٢٠٦
في رحاب مكّة ٢٠٧
العبّاس وأبو سفيان ٢٠٧
أبو سفيان بين يدي النبيّ ﷺ ٢٠٩
ألطاف النبيّ ﷺ على أبي سفيان ٢٠٩
أبو سفيان في مضيق الوادي ٢١٠
نداء أبي سفيان ٢١١
معارضة هند ٢١١
دخول النبيّ ﷺ مكّة ٢١٢
النبيّ ﷺ في الكعبة ٢١٢
تطهير البيت من الأصنام ٢١٣
خطاب النبيّ ﷺ ٢١٤
غزوة حنين ٢١٥
فرار المسلمين ٢١٦
شجاعة الإمام عليه السلام ٢١٧
شماتة أبي سفيان وصفوان ٢١٧
هزيمة المشركين ٢١٨
الغنائم ٢١٨
الإمام عليه السلام وسورة البراءة ٢٢٠

غزوة تبوك ٢٢١
الإمام عليه السلام يصف جهاده ٢٢٢

طلائع الرحيل

٢٢٣ ـ ٢٣٤

حجّة الوداع ٢٢٧
مؤتمر غدير خم ٢٣٠
البيعة العامّة للإمام عليه السلام ٢٣٢
نزول آية إكمال الدين ٢٣٢

المأساة الخالدة

٢٣٥ ـ ٢٥٤

إعطاء القصاص من نفسه صلى الله عليه وآله ٢٣٨
سرية أُسامة ٢٤١
رزية يوم الخميس ٢٤٣
فجيعة الزهراء عليها السلام ٢٤٥
النبيّ صلى الله عليه وآله يوصي بأهل بيته عليهم السلام ٢٤٧
وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله بسبطيه عليهما السلام ٢٤٧
إلى الفردوس الأعلى ٢٤٨
تجهيز الجثمان العظيم ٢٥٠
الصلاة على الجثمان العظيم ٢٥١
مواراة الجثمان المقدّس ٢٥٢
فزع أهل البيت عليهم السلام ٢٥٢

تأبين الإمام عليه السلام للرسول صلى الله عليه وآله ٢٥٣

مؤتمر السقيفة وحكومة أبي بكر

٢٥٥ ـ ٣٢٥

البواعث لمؤتمر السقيفة ٢٥٨

خطاب سعد ٢٦١

المؤاخذة على سعد ٢٦٢

ضعف نفسية الأنصار ٢٦٣

اختلاف الأنصار ٢٦٤

فذلكة عمر ٢٦٥

نظرة وتأمّل ٢٦٦

مداهمة الأنصار ٢٦٧

خطاب أبي بكر ٢٦٨

دراسة وتحليل ٢٦٨

فوز أبي بكر بالحكم ٢٧١

هزيمة الأنصار ٢٧٣

ابتهاج القرشيّين ٢٧٤

موقف أبي سفيان ٢٧٥

موقف الإمام من بيعة أبي بكر ٢٧٧

امتناع الإمام عليه السلام من البيعة ٢٧٨

احتجاجات صارمة ٢٨٠

١ ـ احتجاج الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢٨١

٢ ـ الزهراء عليها السلام ٢٨١

محتويات الاحتجاج ٢٨٢
استنجاد الزهراء عليها السلام ببني قيلة ٢٨٤
٣ - الإمام الحسن عليه السلام ٢٨٥
٤ - سلمان الفارسي ٢٨٦
٥ - عمّار بن ياسر ٢٨٧
٦ - أبو ذرّ ٢٨٨
٧ - المقداد ٢٨٨
٨ - عتبة بن أبي لهب ٢٨٩
٩ - أبو أيوب الأنصاري ٢٩٠
١٠ - أُبيّ بن كعب ٢٩١
١١ - النعمان بن عجلان ٢٩١
١٢ - عثمان بن حنيف ٢٩٢
١٣ - سهل بن حنيف ٢٩٢
١٤ - خزيمة بن ثابت ٢٩٣
١٥ - أبوالهيثم بن التيهان ٢٩٣
إجراءات مؤسفة ٢٩٤
١ - كبس دار الإمام عليه السلام ٢٩٥
٢ - تأميم فدك ٢٩٧
مطالبة الزهراء٧ بفدك ٢٩٧
٣ - إلغاء الخمس ٣٠٠
٤ - مصادرة تركة النبيّ صلى الله عليه وآله ٣٠١
الخطاب الخالد للزهراء عليها السلام ٣٠٢
ندم أبي بكر ٣٠٨

محاولة فاشلة لإرضاء الزهراء عليها السلام ٣٠٩
أضواء على موقف الإمام عليه السلام ٣١٠
١ ـ فقده للقوّة العسكرية ٣١٢
٢ ـ المحافظة على وحدة المسلمين ٣١٢
لوعة الزهراء عليها السلام وشجونها ٣١٣
الزهراء عليها السلام في ذمّة الخلود ٣١٦
وصيّتها عليها السلام ٣١٦
وفاة أبي بكر وعهده لعمر ٣٢٢
موقف الإمام ٣٢٤

خلافة عمر ومبدأ الشورى

٣٢٧ ـ ٣٧١

سياسته الداخلية ٣٢٩
سعد بن أبي وقّاص ٣٢٩
جَبَلة بن الأيهم ٣٣٠
فرض الإقامة الجبرية على الصحابة ٣٣١
رأي طه حسين ٣٣٢
ولاته وعمّاله ٣٣٢
مراقبة الولاة والعمال ٣٣٣
سياسته المالية ٣٣٧
ناقدون ٣٣٨
١ ـ الدكتور محمّد مصطفى ٣٣٨
٢ ـ العلّامة العلائلي ٣٣٩

٣ـ الدكتور عبدالله سلام ٣٣٩
ندم عمر ٣٤٠
اعتزال الإمام ٣٤٠
نصيحته عليه السلام لعمر ٣٤٢
١ ـ غزو الروم ٣٤٢
٢ ـ غزو الفرس ٣٤٣
٣ ـ حليّ الكعبة ٣٤٤
اغتيال عمر ٣٤٤
وصيّته ٣٤٧
عمر مع ابنه عبدالله ٣٤٧
نظام الشورى ٣٤٩
صلاة صهيب ٣٥٠
انتخاب عمر لأعضاء الشورى ٣٥٠
عمر مع أعضاء الشورى ٣٥٠
الرواية الأولى: ٣٥١
مع الزبير ٣٥١
مع طلحة ٣٥٢
مع سعد بن أبي وقّاص ٣٥٣
مع عبدالرحمن بن عوف ٣٥٣
مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٣٥٣
مع عثمان ٣٥٤
الرواية الثانية ٣٥٥
الرواية الثالثة ٣٥٦

الهيئة المشرفة على الانتخاب ٣٥٨
عمر مع أبي طلحة والمقداد ٣٥٨
إنذار عمر للصحابة ٣٥٩
رأي الإمام عليه السلام ٣٥٩
آفات الشورى ٣٦١
عملية الانتخاب ٣٦٦

حكومة عثمان

٣١٧ ـ ٤٢٧

مظاهر شخصيّته ٣٧٦
١ ـ ضعف الإرادة ٣٧٦
٢ ـ حبّه العارم للأمويّين ٣٧٧
٣ ـ ميله إلى الترف ٣٧٨
٤ ـ مصانعة الوجوه ٣٧٨
ولاته وعمّاله ٣٧٩
١ ـ عبدالله بن عامر ٣٨٠
٢ ـ الوليد بن عقبة ٣٨٢
٣ ـ عبدالله بن سعد ٣٨٧
٤ ـ معاوية بن أبي سفيان ٣٨٨
٥ ـ سعيد بن العاص ٣٨٩
سياسته الاقتصادية ٣٩٢
هباته للأمويّين ٣٩٣
هباته للأعيان ٣٩٧

إقطاعه للأراضي ٣٩٨
قائمة بأسماء الممنوحين أراضي واسعة: ٣٩٩
استقطاع عثمان للأموال ٤٠٠
مع الجبهة المعارضة ٤٠١
التنكيل بالمعارضين ٤٠٢
١ ـ عمّار بن ياسر ٤٠٢
٢ ـ مع أبي ذرّ ٤٠٥
اعتقال أبي ذرّ في الشام ٤٠٦
إخراج أبي ذرّ من الشام ٤٠٨
اعتقاله في الربذة ٤١٠
توديع الأُسرة النبوية لأبي ذرّ ٤١٠
كلمة الإمام عليه السلام ٤١١
كلمة الإمام الحسن عليه السلام ٤١٢
كلمة الإمام الحسين عليه السلام ٤١٢
كلمة عمّار عليه السلام ٤١٢
كلمة أبي ذرّ عليه السلام ٤١٣
غضب عثمان على الإمام عليه السلام ٤١٣
٣ ـ عبدالله بن مسعود ٤١٤
الثورة على عثمان ٤١٧
مذكّرة المهاجرين لأهل مصر ٤١٧
مذكرة أُخرى لأهل الثغور ٤١٨
وفود الأمصار ٤١٩
١ ـ الوفد المصري ٤١٩

٢ ـ الوفد الكوفي ٤١٩
٣ ـ الوفد البصري ٤١٩
مذكّرة المصريّين لعثمان ٤١٩
استجارته بالإمام عليه السلام ٤٢٠
كتاب عثمان ٤٢١
نقضه للعهد ٤٢٢
استنجاده بمعاوية ٤٢٣
الحصار على عثمان ٤٢٥
يوم الدار ٤٢٥
مصرع عثمان ٤٢٧

المحتويات ٤٢٩